وقفات تربوية

في ضوء القرآن الكريم

الجزء الأول

بقلم
عبد العزيز بن ناصر الجليل



دار طيبة للنشر والتوزيع



الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

الطبعة الثانية
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م



المملكة العربية السعودية - الرياض - السويدي - ش. السويدي العام - غرب النفق
ص.ب: ٧٦١٢ - رمز بريدي: ١١٤٧٢ - ت: ٤٢٥٣٧٣٧ - فاكس: ٤٢٥٨٢٧٧



مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً . ما ترك خيراً إلا دل أمته عليه ولا شراً إلا حذرها منه .

وإن من أعظم ما دلهم عليه وحثهم عليه الاجتماع والاعتصام بحبل الله عز وجل ؛ قال تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران : ١٠٣]، وقال عز من قائل : ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران : ١٠٥] .

وقال الرسول ﷺ لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه وهو يسأله عن الفتن وسبيل النجاة منها : « ... **الزم جماعة المسلمين وإمامهم** »(١) . وقال عليه الصلاة والسلام : « **عليكم بالجماعة** »(٢) ، وقال : « **إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية** »(٣) .

---

(١) رواه البخاري في الفتن (٧٠٨٤) ، ومسلم في الإمارة (١٨٤٧) .

(٢) رواه أحمد (٥/ ١٤٥) ، والنسائي في الإمامة (٢/ ١٠٧) ، والترمذي في الفتن(٢١٦٥) والحديث في صحيح سنن النسائي (٨١٧) .

(٣) رواه أحمد (٥/ ١٩١) ، وأبو داود في الصلاة (٥٤٧) ، والنسائي في الإمامة (٢/ ١٠٧) . والحديث في صحيح سنن أبي داود (٥١١) .

والآيات والأحاديث في هذا الأمر كثيرة .

وإن اجتماع كلمة المسلمين اليوم - وبخاصة دعاة الحق من علماء الأمة ورجال الدعوة المخلصين - أصبح أمراً لا بديل عنه ، وضرورة ينبغي أن تسبق كل ضرورة ؛ فنصرة الله تعالى لعباده المؤمنين مشروطة بشروط تمر عبر الاجتماع ووحدة كلمة أهل الحق .

وإن هذه الوحدة ينبغي أن تتجه القلوب لتحقيقها ، وترتفع الأكف في طلبها ، ويتحرك المخلصون في تحصيلها ، فإلى متى يدور المسلمون في حلقة مفرغة ؟! ، وإلى متى هذا التحزب والانشطار والتساقط المتتابع للجماعات والدعاة تحت قوة الدافع ومرارة الانقسام والاختلاف ؟!

إن الكثيرين من الدعاة قد أعياهم هذا المرض العضال ، وذلك الداء الفتاك الذي استشرى في أوساط الدعاة ؛ فلزموا بيوتهم ، وألقوا بأيديهم حرصاً على سلامة قلوبهم - كما زين لهم الشيطان الرجيم الذي لا يألو جهداً في بث الفرقة والاختلاف ، ثم هو في نفس الوقت يبث اليأس في القلوب الضعيفة التي أعياها السير وكثرة الاختلاف ، فيزين لهم اعتزال أي عمل إسلامي يوجد في هذه الأزمنة ، حتى يأتي الله بفتح من عنده. كل هذا بسبب الفرقة والاختلاف . وبدلاً من العمل والسعي لتغيير هذا الواقع الأليم والتحرك لجمع الكلمة ووحدة الصف ، آثروا السلامة والنجاة بنفوسهم ، وربما كانت النجاة في غير ما اختاروا .

فيا طلاب العلم المخلصين! ويا دعاة الحق المبين! ألا من رجعة صادقة إلى الله عز وجل نرتفع بها على ذواتنا وأشخاصنا وأغراضنا الدنيوية ! ألا من

رجل رشيد يفكر بعمق في هذه المأساة وخطرها على الأمة الإسلامية بأسرها! وإنه إن لم نسع لرأب الصدع ، وبذل الولاء والمحبة لكل مؤمن ، فإن هناك فتنة وفساداً كبيراً سيحلان بنا ؛ إن لم يتداركنا الله برحمة من عنده ؛ يجمع بها شتات القلوب ، وتتوحد بها كلمة دعاته الصادقين ؛ يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

ومما يزيد الأمر حسرة وألماً، أن هذه الفرقة تحصل بين من ينتسبون إلى عقيدة واحدة ومنهج واحد هو عقيدة أهل السنة والجماعة ومنهجهم ، فإذا كان الجميع بهذه الصورة، وهم يواجهون عدواً واحداً يحارب الإسلام وأهله أيّاً كان ثوبه أو اسمه ، وإذا كان الجميع يهدفون إلى غاية واحدة ؛ وهي استئناف الحياة الإسلامية ، وإقامة دين الله عز وجل وشريعته ، ومحاربة الباطل وأهله ، إذا كان الجميع متفقين على ذلك كله ، فلماذا هذه الفرقة ؟

لا شك أن للشيطان وحظوظ أنفسنا سبباً كبيراً في وجود هذه الفرقة ، وهناك سبب آخر لا يقل عن سابقيه في كونه سبباً من أسباب الفرقة والاختلاف ، ألا وهو الجهل بدين الله عز وجل وأحكام شريعته ـ كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله .

وإن ما سبق ذكره لا يعني ألا يوجد خلاف أبداً بين الأفراد أو الجماعات ، كلا . . . فالخلاف ـ والله أعلم ـ أمر حتمي بحكم اختلاف الطبائع والمقومات الشخصية والفكرية والميول النفسية . . . إلخ ، ولكن ليس كل اختلاف

يوجب الفرقة والتنازع والتباغض ، وأوضح مثال لذلك أن السلف رحمهم الله قد اختلفوا في كثير من المسائل ، ومع ذلك كانت كلمتهم مجتمعة ولم يتفرقوا ، والكلام هنا منصب على من هم في دائرة أهل السنة والجماعة ولم يختلفوا في أصولها ؛ أما المخالفون لأهل السنة من أهل الأهواء والبدع، فإن خلافنا معهم أصيل ومتعين ، ومثل هؤلاء ينبغي أن نفارقهم ونتبرأ من بدعهم وضلالاتهم .

وإن الأمة ـ منذ عهد أصحاب النبي ﷺ ـ قد وقع بينهم اختلاف في بعض المسائل ، ولم يكن هذا الاختلاف يوجب الفرقة ، إلا عندما يدخل الشيطان أو أولياؤه من الجن والإنس ، أو يكون المفارق لا علم عنده بالأدلة ومسائل الخلاف، وما يجوز الخلاف فيه وما لا يجوز ، وهذا أدى إلى تحول الخلاف ـ الذي تحتمله الشريعة، وتسعه أقوال الصحابة رضي الله عنهم، ومن بعدهم من سلف هذه الأمة وأئمتهم ـ إلى عداوة وفرقة .

وإن أهل السنة يمكن أن يقع بينهم اختلاف حول بعض المسائل التي يجوز الاختلاف فيها ، ولكن هذا لا يؤدي إلى اختلاف القلوب ، لعلمهم بأن هناك أسباباً كثيرة ترفع اللوم عن الأئمة الأعلام لعدم وصول الدليل إليهم، أو أن الدليل وصل إليهم ولكن اختلفت الأذهان في فهم دلالته ، أو غير ذلك من أسباب الخلاف المحتمل في الشريعة (ارجع إلى كتاب : رفع الملام لشيخ الإسلام ابن تيمية لتفصيل هذه الأسباب) .

من أجل ذلك ، ومن أجل جوانب تربوية أخرى، تأتي هذه الوقفات القرآنية لتلمس هذه الحقائق، ولتكون خطوة على طريق إزالة هذه الخلافات

الحادة ، لعلنا نهتدي إلى أول الطريق ، فنبصر آخره ؛ لأن من ضل أول الطريق فقد صعب عليه أن يمسك بنهايته .

أسأل الله عز وجل أن ينفع بها ، وأن تكون مثار اهتمام بهذا لمن يهمهم هذا الأمر ، وإلى أن تكون مجالاً للكتابة والبحث والحوار والعمل ، والله من وراء القصد ، والحمد لله رب العالمين .

* * *







[الأنعام : ١٥٢]



أهمية الموضوع

إن أهمية الموضوع تأتي من أنه مفتاح الحق ، وجامع الكلمة ، والمؤلف بين القلوب ؛ لأن من أقوى أسباب الاختلاف بين العباد : الظلم والاعتداء، وفقدان العدل والإنصاف . ولو جاهد المسلم نفسه لتحقيق صفة العدل على نفسه ومع الناس ؛ فإن كثيراً من المشاكل التي تحصل بين المسلمين ـ سواء منها الفردية أو الجماعية ـ ستزول وتحل بإذن الله ؛ وذلك لأن سبب الانحراف عن الحق والإصرار على الأخطاء : إما الجهل وإما الظلم ؛ فالجهل علاجه العلم، والظلم علاجه العدل والإنصاف والقسط .

ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كثيراً ما يرجع أسباب الفرقة والتعدي والتعصب إلى الأمرين المذكورين سابقاً ؛ فتراه يقول : « الإنسان خُلق ظلوماً جهولاً ؛ فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر ، فيحتاج دائماً إلى علم مفصل يزول به جهله ، وعدل في محبته وبغضه ، ورضاه وغضبه، وفعله وتركه، وإعطائه ومنعه، وأكله وشربه، ونومه ويقظته .

وكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافي جهله ، وعدل ينافي ظلمه ؛ فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل ، وإلا كان منه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم ، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** . . . ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا** ﴾ [الفتح : ١ ، ٢] ، فإذا كان هذه حاله

في آخر حياته أو قريباً منها، فكيف حال غيره؟! »[1] اهـ.

وقال رحمه الله : « والعدل هو الاعتدال ، والاعتدال هو صلاح القلب، كما أن الظلم فساده ، ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالماً لنفسه ، والظلم خلاف العدل ، فلم يعدل على نفسه بل ظلمها ، فصلاح القلب في العدل ، وفساده في الظلم ، وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم، كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه ، فمنه العمل ، وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر ، قال تعالى : ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾ [البقرة: ٢٨٦]. . . »[2] ، إلى أن قال في الجزء نفسه ص ٩٩ :

« مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه ، لكن الأمثل فالأمثل ، فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل ، ومرضه من الزيغ والظلم والإعراض ، والعدل المحض في كل شيء متعذر علماً وعملاً، ولكن الأمثل فالأمثل ؛ ولهذا يقال : هذا أمثل ، ويقال للطريقة السلفية : الطريقة المثلى .

وقال تعالى : ﴿**وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾ [النساء: ١٢٩] ، وقال تعالى : ﴿**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ [الأنعام: ١٥٢] ، والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط . وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ، ثم العدل على الناس في حقوقهم ، ثم العدل على النفس » اهـ.

وهنا نرى أن شيخ الإسلام قد بيَّن أهمية العدل ، وأنه أساس النجاة في

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٤/ ٣٨).

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ٩٨).

الدنيا والآخرة ، وقد قسَّمه حسب الأهمية إلى : أعظم العدل ؛ وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ثم العدل على الناس ، ثم العدل على النفس ، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله في ثنايا هذا البحث .

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أيضاً أهمية العدل مع الخصوم والمفارقين لأهل السنة ؛ حيث قال :

« وأهل السنة والعلم والإيمان يعلمون الحق ، ويرحمون الخلق ، ويتبعون الرسول ﷺ ولا يبتدعون ، ومن اجتهد فأخطأ خطأً يعذره فيه الرسول ﷺ عذروه . . . إلى أن قال : «والله يحب الكلام بعلم وعدل ، ويكره الكلام بجهل وظلم ، كما قال النبي ﷺ : « **القضاة ثلاثة : قاضيان في النار وقاض في الجنة : رجل قضى للناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى خلافه فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة**»[1] .

وقد حرم سبحانه وتعالى الكلام بلا علم مطلقاً ، وخص القول عليه بلا علم بالنهي ؛ فقال تعالى : ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء : ٣٦]، وقال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف : ٣٣] وأمر بالعدل على أعداء المسلمين ؛ فقال تعالى : ﴿ **كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ**

---

(١) رواه أبو داود في الأقضية (٣٥٧٣) ، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٥) .
والحديث في صحيح سنن أبي داود (٣٠٥١) .

لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] »[1].

إذن مما سبق ذكره من كلام شيخ الإسلام يتبين لنا أهمية العدل في القول والعمل ، وأن الأمانة التي أبت حملها السموات والأرض والجبال وأشفقن منها ، لا يستطيع أن يحملها الإنسان إلا بأن يتغلب على صفة الجهل ، بالعلم والتفقه في دين الله عز وجل ، وبأن يتغلب على صفة الظلم ، بالعدل والإنصاف .

ومع ذلك ـ وكما أشار شيخ الإسلام ـ فلن يستطيع أن يكمل العدل كله ، ولا أن ينفك عن الجهل كله ؛ ولذلك فهو في حاجة لأن يتوب الله عليه ويغفر له تقصيره وضعفه ، وهذا هو ما يفهم من آية الأمانة في سورة الأحزاب ؛ حيث ذكر الله عز وجل لنا صنفين من الناس :

الصنف الأول : المؤمنون الذين بذلوا جهدهم في طلب العلم المنافي للجهل ، والعدل المنافي للظلم ، فاستحقوا من الله عز وجل ألا يؤاخذهم بما لم يستطيعوا تحقيقه من العلم والعدل .

الصنف الثاني : أولئك المشركون والمنافقون الذين أعرضوا عن دين الله عز وجل فلم يتعلموه ، وأعرضوا عن العدل والقسط ، فسقطوا في ظلمات الجهل والظلم ، ووقعوا في الشرك والنفاق ، فاستحقوا العذاب الأليم ، يقول الله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٩٦).

وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣].

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من الذين أعانهم على حمل الأمانة وغفر لهم تقصيرهم .

* * *

تعريف العدل
ومنزلته في الكتاب والسنة

قال في لسان العرب : العدل : ما قام في النفوس أنه مستقيم ، وهو ضد الجور . عدل الحاكم في الحكم يعدل عدلاً ، وهو عادل من قوم عدول . . وفي أسماء الله الحسنى (**العدل**) وهو الذي لا يميل فيجور في الحكم. والعدل : الحكم بالحق .

وكتب عبد الملك إلى سعيد بن جبير يسأله عن العدل فأجابه : إن العدل على أربعة أنحاء : العدل في الحكم ، قال الله تعالى : ﴿ **وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ** ﴾ [المائدة: ٤٢] ، والعدل في القول ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا** ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، والعدل : الفدية ، قال تعالى: ﴿ **وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ** ﴾ [البقرة: ١٢٣]، والعدل في الإشراك ، قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ [الأنعام: ١] أي يشركون .

وفلان يعدل فلاناً : أي يساويه ، وعدّل الموازين والمكاييل : سوّاها، وتعديل الشيء : تقويمه ، والاعتدال : توسط حال بين حالين في كم وكيف، كقولهم : جسم معتدل بين الطول والقصر ، ماء معتدل بين الحار والبارد . . . إلخ ، والمعادلة : الشك في أمرين ، يقال : أنا في عدال في هذا الأمر ؛أي : في شك منه أأمضي عليه أم أتركه؟ . اهـ . (باختصار) .

والآيات والأحاديث الواردة في ذكر العدل، والحث عليه، والتحذير

من ضده كثيرة جداً ، لكننا نقتصر على بعضها مع نقل بعض أقوال علماء التفسير حولها .

الآيات الواردة في ذلك :

الآية الأولى :

يقول الله عز وجل في سورة آل عمران : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ .

[آل عمران : ١٨]

يعلق شيخ الإسلام على قوله تعالى : ﴿ **قَائِمًا بِالْقِسْطِ** ﴾ فيقول :

« فإن الاستقامة والاعتدال متلازمان ، فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيماً ، ومن كان قوله وعمله مستقيماً كان قائماً بالقسط ، ولهذا أمرنا الله عز وجل أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم ؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وصراطهم هو العدل والميزان ليقوم الناس بالقسط ، والصراط المستقيم هو العمل بطاعته وترك معاصيه ، فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل »[1] .

ويعلق سيد قطب رحمه الله على هذه الآية في ظلال القرآن ؛ فيقول :

« وتدبير الله عز وجل لهذا الكون والحياة متلبس دائماً بالقسط وهو العدل ، فلا يتحقق العدل المطلق في حياة الناس ، ولا تستقيم أمورهم استقامة أمور الكون ، التي يؤدي كل كائن معها دوره في تناسق مطلق مع دور كل كائن آخر . . لا يتحقق هذا إلا بتحكيم منهج الله الذي اختاره لحياة

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٧٩) .

الناس ، وبيَّنه في كتابه ، وإلا فلا عدل ،ولا قسط ، ولا استقامة ، ولا تناسق، ولا تلاؤم بين دورة الكون ودورة الإنســــان ، وهو الظلم إذن والتصادم والتشتت والصراع . . . » .

إلى أن قال رحمه الله تعالى : في الصفحة نفسها :

« وأنه حيث حكم في حياة الناس منهج آخر من وضع البشر لازمه جهل البشر وقصور البشر ، كما لازمه الظلم والتناقض في صورة من الصور : ظلم الفرد للجماعة ، أو ظلم الجماعة للفرد ، أو ظلم طبقة لطبقة ، أو ظلم أمة لأمة أو ظلم جيل لجيل .

وعدل الله عز وجل وحده هو المبرأ من الميل لأي من هؤلاء ، وهو إله جميع العباد، وهو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ »[1] اهـ .

الآية الثانية :

قوله عز وجل : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيــــرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾** .

[النساء : ١٣٥]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية :

« يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط ، أي العدل ، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنه صارف ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين ،

(١) في ظلال القرآن (١/ ٥٥) ط . دار المعرفة اللبنانية .

يقول: ﴿ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ أي أدوها ابتغاء وجه الله ، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً ، خالية من التحريف والتبديل والكتمان ، ولهذا قال : ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي : اشهد بالحق ولو عاد ضرره عليك ، وإذا سئلت عن الأمر ، فقل الحق فيه ولو عاد ضرره عليك ؛ فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه .

وقوله : ﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ أي : وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها ، بل اشهد بالحق وإن عاد الضرر عليهم ؛ فإن الحق حاكم على كل أحد .

وقوله : ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي : لا ترعاه لغناه ، ولا تشفق عليه لفقره ، فالله يتولاهما ، بل هو أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما .

وقوله : ﴿ فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾ أي : لا يحملنكم الهوى والمعصية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم ، بل الزموا العدل على أي حال كان ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨] .

ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه الرسول ﷺ على أهل خيبر يخرص عليهم ثمارهم وزروعهم ، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم ، فقال : والله لقد جئتكم من أحب الخلق إلي ، ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير ، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على ألا أعدل فيكم ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض »[1] اهـ .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٢) ط . دار الفكر . وحادثة ابن رواحة رواها بنحوها أحمد (٣/ ٣٦٧) من حديث جابر ، وأبو داود في البيوع (٣٤١٠) من حديث ابن عباس .

ويعلق سيد قطب على هذه الآية نفسها بقوله :

« إنها أمانة القيام بالقسط على إطلاقه في كل حال ، وفي كل مجال ؛ القسط الذي يمنع البغي والظلم في الأرض ، والذي يكفل العدل بين الناس ، والذي يعطي كل ذي حق حقه ، من المسلمين وغير المسلمين ، وفي هذا الحق يتساوى عند الله عز وجل المؤمنون وغير المؤمنين ، ويتساوى الأقارب والأباعد ويتساوى الأعداء والأصدقاء ، والأغنياء والفقراء . .

والمنهج الرباني يجنِّد النفس في وجه ذاتها ، وفي وجه عواطفها تجاه ذاتها أولاً ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ ، وتجاه الوالدين والأقربين ثانياً ، وهي محاولة شاقة أشق بكثير من نطقها باللسان . . . » إلى أن قال : «ثم هو يجنِّد النفس كذلك في وجه مشاعرها الفطرية ، أو الاجتماعية حين يكون المشهود له أو عليه فقيراً ؛ تشفق النفس من شهادة الحق ضده ، وتود أن تشهد له معاونة لضعفه ، أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده ، بحكم الرواسب الاجتماعية ، كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية وحين يكون المشهود له أو عليه غنياً تقتضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته ، أو قد يثير غناه وتبطره النفس ضده فتحاول أن تشهد ضده . . . »[1] .

الآية الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨].

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٥٤٩) ط . دار المعرفة .

يعلق سيد قطب رحمه الله على هذه الآية بقوله :

« لقد نهى الله عز وجل الذين آمنوا من قبل، أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام على الاعتداء ، وكانت هذه قمة في ضبط النفس والسماحة ، يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوي الرباني القويم ، فها هم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل ،وهي قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق ، فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده، تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض . . » إلى أن قال رحمه الله تعالى :

« إن النفس البشرية لا ترتقي هذا المرتقى قط إلا حين تتعامل في هذا الأمر مباشرة مع الله عز وجل؛ حين تقوم لله متجردة عن كل ما عداه، وحين تستشعر تقواه وتحس أن عينه على خفايا الضمير وذات الصدور»[1] اهـ (باختصار).

الآية الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

يعلق سيد قطب رحمه الله على هذه الآية ، فيقول :

« وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشري ـ وقد ربطه بالله ابتداءً ـ إلى مستوى سامق رفيع على هدى من العقيدة في الله ومراقبته . فهنا مزلة من مزلات الضعف البشري ؛ الضعف الذي يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكافل والامتداد ، بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل ،

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٦٦٧) ط. دار المعرفة .

وفي قوة القرابة سند لضعفه، وفي سعة رقعتها كمال لوجوده ، وإن امتدادها جيلاً بعد جيل حماية لامتداده ، ومن ثم يجعله ضعيفاً تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم أو القضاء بينهم وبين الناس.

وهنا في هذه المزلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشري ليقول كلمة الحق والعدل، على هدى من الاعتصام بالله وحده، ومراقبة الله وحده، اكتفاء به من مناصرة ذوي القربى ، وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه؛ وهو سبحانه أقرب إلى المرء من حبل الوريد»[1] اهـ .

أما الأحاديث الواردة في الحث على العدل ، وتجنب الظلم والبغي فكثيرة جداً نقتصر على بعضها :

الحديث الأول :

ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أنه قال : «نحلني أبي نحلاً ، فقالت أمي عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ ، فجاءه ليشهده على صدقتي ، فقال : « **أكل ولدك نحلت مثله ؟** » فقال : لا ، فقال : « **اتقوا الله واعدلوا في أولادكم** » ، وقال : « **إني لا أشهد على جور** » . قال : فرجع أبي فرد تلك الصدقة »[2] .

الحديث الثاني :

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس ؛ يعدل بين اثنين صدقة** »[3] .

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٤٢٦) ط. دار المعرفة .

(٢) رواه البخاري في الهبة (٢٥٨٧)، ومسلم في الهبات (١٦٢٣).

(٣) رواه البخاري في الصلح (٢٧٠٧)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٩).

الحديث الثالث :

ثبت في الصحيحين عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول الحق أينما كنا؛ لا نخاف في الله لومة لائم »، وزاد النسائي : «وعلى أن نقول بالعدل أين كنا»[1] .

الحديث الرابع :

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن ـ وكلتا يديه يمين ـ الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولوا** »[2] .

الحديث الخامس :

روى النسائي والحاكم في مستدركه عن عمار بن ياسر رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يدعو بهذا الدعاء : « **اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق والعدل في الغضب والرضى ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ،**

---

(١) رواه البخاري في الأحكام (٧١٩٩)، (٧٢٠٠)، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩) واللفظ له ، والنسائي في البيعة على السمع والطاعة (٧/ ١٣٧) .

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٧) باب : فضيلة الإمام العادل .

وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين »[١] .

* * *

(١) رواه النسائي في كتاب السهو (٣/ ٥٥). وهو في صحيح سنن النسائي (١٢٣٧)، (١٢٣٨).

أقسام العدل

ينقسم العدل حسب متعلقاته إلى الأقسام التالية :

١ ـ أعظم العدل :

وهو توحيد الله عز وجل لا شريك له ؛ وهو الحق الذي قامت به السموات والأرض ، ومن أجله خلق الله الخلق ، قال الله عز وجل : ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الدخان : ٣٨، ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ **مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ** ﴾ [الأحقاف : ٣].

ويقابل هذا القسم من العدل أعظم الظلم ؛ وهو الإشراك بالله عز وجل ، والكفر به ، حيث قال عز وجل : ﴿ **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [لقمان : ١٣] ، ومثله قول الله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ . [الأنعام : ٨٢] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [البقرة : ٢٥٤].

٢ ـ العدل مع النفس :

ويدخل في هذا العدل قيام العبد بالأمانة التي كلفه الله عز وجل بها ، وذلك فيما بين العبد وربه ، من الالتزام بأوامره واجتناب نواهيه ، من غير إفراط ولا تفريط ، ويقابل هذا القسم من العدل ظلم العبد لنفسه بارتكابه ما

حرم الله عز وجل مما هو دون الشرك ، أو تركه ما أمر الله عز وجل مما يتعلق به نفسه ، ولا يتعدى إلى غيره .

وهذا النوع من الظلم من أخف أنواع الظلم ؛ حيث إن صاحبه قد يتوب فيتوب الله عليه ، ولو مات عنه بدون توبة فإنه تحت المشيئة ، بينما الظلم العظيم وهو الشرك بالله لو مات عليه فلن يغفر الله له ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨] .

وهو أخف من ظلم العباد ؛ لأنه يشترط في التوبة من ظلم العباد رد الحقوق إلى أهلها واستباحتهم منها .

٣ ـ العدل مع العباد :

وهذا النوع من العدل هو الذي يهمنا في هذا الحديث ، والقسمان السابقان ليس هنا موضع تفصيلهما ، ويقابل هذا القسم من العدل ظلم العباد واعتداء بعضهم على بعض ، سواء في القول أو الفعل .

وسنذكر في هذا القسم ـ إن شاء الله ـ بعض مقتضيات ولوازم هذا العدل ، مع الإشارة في أثناء ذلك إلى بعض المواقف المؤسفة ، التي تنافي العدل والإنصاف ، مع ذكر المنهج الشرعي الذي ينبغي سلوكه حيال هذه المواقف .

ويحسن بنا قبل ذكر هذه اللوازم أن نقدم لها بكلام نفيس للإمام ابن القيم رحمه الله ـ في مدارج السالكين ـ حول (منزلة الخُلق) . قال رحمه الله تعالى :

« وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان ، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها : الصبر ، العفة ، الشجاعة ، العدل .

فالصبر : يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ ، وكف الأذى ، والحلم والأناة ، والرفق ، وعدم الطيش والعجلة .

والعفة : تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل ، وتحمله على الحياء ، وهو رأس كل خير ، وتمنعه من الفحشاء ، والبخل والكذب والغيبة والنميمة .

والشجاعة : تحمله على عزة النفس ، وإيثار معالي الأخلاق والشيم ، وعلى البذل والندى ، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته ، وتَحْمله على كظم الغيظ والحلم ؛ فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها ، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش ، كما قال ﷺ : « **ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب** »[1] ، وهو حقيقة الشجاعة ؛ وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه .

والعدل : يحمله على اعتدال أخلاقه ، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط ؛ فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة ، وعلى خلق الشجاعة الذي هو التوسط بين الجبن والتهور ، وعلى خلقِ الحلم الذي هو التوسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس . ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة .

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة ، وبناؤها على أربعة أركان : الجهل ، والظلم ، والشهوة ، والغضب .

فالجهل : يريه الحسن في صورة القبيح ، والقبيح في صورة الحسن ،

---

(١) رواه البخاري في الأدب (٦١١٤) ، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٩) .

والكمال نقصاً ، والنقص كمالاً .

والظلم : يحمله على وضع الشيء في غير موضعه ، فيغضب في موضع الرضى ، ويرضى في موضع الغضب ، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام ، ويلين في موضع الشدة ، ويشتد في موضع اللين ، ويتواضع في موضع العزة ، ويتكبر في موضع التواضع .

والشهوة : تحمله على الحرص والشح والبخل ، وعدم العفة والنهمة والجشع ، والذل والدناءات كلها .

والغضب : يحمله على الكبر والحقد والحسد ، والعدوان والسفه .

ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق : أخلاق مذمومة .

وملاك هذه الأربعة أصلان : إفراط النفس في الضعف ، وإفراطها في القوة.

فيتولد من إفراطها في الضعف : المهانة والبخل ، والخسة واللؤم ، والذل والحرص، والشح وسفاسف الأمور والأخلاق .

ويتولد من إفراطها في القوة : الظلم والغضب والحدة ، والفحش والطيش .

ويتولد من تزوج أحد الخلقين بالآخر أولاد غية كثيرون ، فإن النفس قد تجمع قوة وضعفاً ؛ فيكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر ، وأذلهم إذا قُهِر ، ظالم عنوف جبار ، فإذا قُهِر صار أذل من امرأة ؛ جبان عن القوي ، جريء على الضعيف ؛ فالأخلاقَ الذميمة يولد بعضها بعضاً ، كما أن الأخلاق الحميدة يولد بعضها بعضاً .

وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين وهو وسط بينهما ، وطرفاه خلقان ذميمان ، كالجود : الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير ، والتواضع : الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة والكبر والعلو»[1] اهـ.

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٠٨) ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، ط. دار الكتاب العربي.

من لوازم العدل ومقتضياته

هذا الباب هو بيت القصيد من هذا البحث ؛ لأن المقصود من إثارة هذا الموضوع ، هو التعرض للجوانب العملية التي يفرضها العدل على المسلم ، وخاصة في واقعنا المعاصر ، ومانشأ فيه من تفريط في هذه الجوانب ، ونقتصر فيها على ما يلي :

١ـ التثبت من الأمر قبل الحكم عليه :

إن من العدل والإنصاف أن يتثبت المسلم من كل خبر أو ظاهرة ، قبل الحكم عليها ، وإن من الظلم والاعتداء الحكم على أمر بمجرد الظنون والأوهام ، وقبل التثبت التام منه ، ولقد بين الله سبحانه وتعالى لنا في سورة الإسراء وفي آية واحدة المنهج الصحيح، الذي ينبغي سلوكه في مثل هذه الأمور ، يقول الله عز وجل : ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وحول تفسير هذه الآية قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى :

« قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يقول : لا تقل . وقال العوفي عنه: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم . وقال محمد بن الحنفية : يعني : شهادة الزور. وقال قتادة : لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم؛ فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكروه: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم ، بل بالظن الذي هو التوهم

والخـيال، كما قال تعالى : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيـراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢] »[1] اهـ.

وحول ظلال هذه الآية ، قال سيد قطب رحمه الله تعالى :

« والعقيدة الإسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة ، فلا يقوم شيء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ ، وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجاً كاملاً للقلب والعقل ، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثاً جداً ، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله ، ميزة الإسلام عن المناهج العقلية الجافة .

فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها ؛ هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق ، ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل ،ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم .

والأمانة العلمية التي يشيد بها الناس في العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعتها الكبرى ، ويجعل الإنسان مسؤولاً عن سمعه وبصره وفؤاده، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد .

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب ، أمانة يسأل عنها صاحبها وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعاً ، أمانة يرتعش

---

(١) تفسير ابن كثير ، جـ ٤ ص٣٠٧ ، ط . دار الفكر .

الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الإنسان رواية ، وكلما أصدر حكماً على شخص أو أمر أوحادثة .

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين ، ومالم تتثبت من صحته : من قول يقال ورواية تروى . ومن ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل . ومن حكم شرعي ، أو قضية اعتقادية .

وفي الحديث : « **إياكم والظن فإنه أكذب الحديث** »[١] ، وفي سنن أبي داود : « **بئس مطية الرجل : زعموا** »[٢] ، وفي الحديث الآخر : « **إن أفرى الفرى أي يُري الرجل عينيه ما لم تريا** »[٣] .

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث على تقرير ذلك المنهج الكامل المتكامل الذي لا يأخذ العقل وحده بالتحرج في أحكامه والتثبت في استقرائه؛ إنما يصل ذلك التحرج بالقلب في خواطره وتصوراته ، وفي مشاعره وأحكامه، فلا يقول اللسان كلمة ، ولا يروي حادثة ، ولاينقل رواية، ولا يحكم العقل حكماً ، ولا يبرم الإنسان أمراً إلا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة ، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في صحتها : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾حقاً وصدقاً . . »[٤] اهـ.

٢- العدل في النقد ومعالجة الخطأ :

هذا الجانب من جوانب العدل نحتاج إليه في كل حال من أحوالنا

(١) رواه البخاري في النكاح (٥١٤٣)، ومسلم في البر (٢٥٦٣).
(٢) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٧٢)، وهو في صحيح سنن أبي داود (٤١٥٨).
(٣) مسند أحمد (٢/ ٩٢) من حديث ابن عمر . وله شاهد عند البخاري في المناقب (٣٥٠٩) من حديث واثلة بن الأسقع.
(٤) في ظلال القرآن ، (٥/ ٣٢٦) ط . دار المعرفة اللبنانية .

الفردية والجماعية ، وذلك في حل مشاكلنا ومعالجة أخطائنا معالجة شرعية تسيطر عليها روح المحبة والإخلاص .

ويجدر بنا أن نذكر هنا المنهج العادل والطريقة المثالية لمعالجة الخطأ ، وذلك حسبما رسمه لنا من أمرنا الله عز وجل بأن تكون لنا أسوة حسنة فيه ﷺ ، وما أكثر المواقف العادلة في سيرته ﷺ ، بل إن سيرته ﷺ كلها عدل ، ونكتفي هنا بمثال واحد ألا وهو موقفه ﷺ من صنيع حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه في فتح مكة ، ويحسن أن نذكر القصة بتمامها ؛ ليتضح لنا ذلك القسطاس المستقيم الذي انتهجه الرسول ﷺ في معالجة هذا الخطأ ، رغم شناعته وخطورته :

روى الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه ، عن علي رضي الله عنه ، قال : « بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد والزبير ـ وكلنا فارس ـ قال : «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب ابن أبي بلتعة إلى المشركين** » ، فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ ، فقلنا : الكتاب ، فقالت : ما معي من كتاب ، فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتاباً ، فقلنا : ما كذب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنجردنك ، فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها ـ وهي محتجزة بكساء ـ فأخرجته ، فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ ، فقال عمر : يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعني فلأضرب عنقه .

فقال النبي ﷺ : « **ما حملك على ما صنعت ؟** » . قال حاطب : والله ما بي ألا أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ ، أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي ، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله ، فقال ﷺ : « **صدق ، ولا تقولوا إلا**

خيراً » . فقال عمر : إنه قد خان الله والمؤمنين ، فدعني فلأضرب عنقه ، فقال : « **أليس من أهل بدر ؟ لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو فقد غفرت لكم -** » ، فدمعت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم »[1] اهـ .

من هذه الحادثة نستطيع أن نحدد ثلاث مراحل للمعالجة العادلة للخطأ، مهما كانت ضخامته :

المرحلة الأولى : مرحلة التثبت من وقوع الخطأ :

وفي هذه الحادثة قد تم التثبت عن طريق أوثق المصادر ألا وهو الوحي ، حيث أوحى الله عز وجل إلى الرسول ﷺ بخبر الكتاب الذي أرسله حاطب مع المرأة، وأين هي المرأة.

المرحلة الثانية: مرحلة التثبت من الأسباب التي دفعت إلى ارتكاب الخطأ:

وهذا الأمر متمثل في قوله ﷺ لحاطب : « **ما حملك على ما صنعت ؟** » ، وهذه المرحلة مهمة ؛ لأنه قد يتبين بعد طرح هذا السؤال أن هناك عذراً شرعياً في ارتكاب الخطأ ، وتنتهي القضية عند هذا الحد ، فإذا لم تنته عند هذا الحد مثل ما ظهر في قضية حاطب ، وأن العذر الذي أبداه لرسول الله ﷺ لم يكن مقنعاً لكنه طمأن رسول الله ﷺ على صدق حاطب ، وأنه لا زال مسلماً، نقول : إذا لم يكن العذر مقنعاً من الناحية الشرعية ، فإنه يصار إلى :

المرحلة الثالثة : وفيها يتم جمع الحسنات والأعمال الخيرة لمرتكب الخطأ وحشدها إلى جانب خطئه ، فقد ينغمر هذا الخطأ أو هذه السيئة في

---

(١) رواه البخاري في المغازي (٣٩٨٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤).

بحر حسناته : وهذا هو الذي سلكه الرسول ﷺ مع حاطب رضي الله عنه ؛ حيث قال ﷺ لعمر عندما استأذن في قتل حاطب : « **أليس من أهل بدر ؟** » فقال : « **لعل الله اطلع على أهل بدر ،فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ـ أو فقد غفرت لكم** » .

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله كلاماً جيداً حول هذا الموضوع ؛ حيث قال في رده على من قال : إن الله يعافي الجهال ما لا يعافي العلماء :

« فالجواب : أن هذا الذي ذكرتموه حق لا ريبة فيه ، ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر ، فإنه يحتمل له مالا يحتمل من غيره ، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره ؛ فإن المعصية خبث ، والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث ؛ بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى الخبث .

ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر : « **وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم** » وقد ارتكب مثل ذلك الذنب العظيم ، فأخبر النبي ﷺ أنه شهد بدراً ، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم لكن منع من ترتيب أثره عليه ما له من المشهد العظيم ؛ فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات .

ولما حض النبي ﷺ على الصدقة فأخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة، قال: « **ما ضر عثمان ما عمل بعدها** »[1] ، وقال لطلحة لما تطأطأ للنبي ﷺ حتى صعد على ظهره إلى الصخرة : « **أوجب طلحة** »[2] .

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ١٠٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وله شواهد أشار إليها الألباني في تخريج فقه السيرة ص ٤٠٥ .

(٢) رواه أحمد (١/ ١٦٥). وهو في السلسلة الصحيحة (٩٤٥).

وهذا موسى كليم الرحمن عز وجل ألقى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه له ، ألقاها على الأرض حتى تكسرت ، ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسـراء في النبي ﷺ ، وقال : شاب بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي ، وأخذ بلحية هـارون وجـره إليه وهو نبي الله ، وكل هذا لم ينقص من قدره شيئاً عند ربه ، وربه تعالى يكرمه ويحبه، فإن الأمر الذي قام به موسى ، والعدو الذي برز له ، والصبر الذي صبره، والأذى الذي أوذي به في الله أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور ، ولا تغير في وجهه ولا تخفى منزلته .

وهذا أمـر معلوم عند الناس مـسـتـقـر في فطرهم أنه من لـه ألوف من الحسنات ؛ فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوهما ، حتى إنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته وداعي شكره على إحسانه ؛ فيغلب داعي الشكر داعي العقوبة ، كما قيل :

وإذا الحبـيـب أتى بـذنـب واحد جاءت محـاسنه بألـف شفيـع

وقال آخر :

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفـعـاله اللائي سـررن كثـيـر

والله سبحانه يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته ، فأيهما غلب كان التأثير له ، فيفعل بأهل الحسنات ـ الذين آثروا محابه ومراضيه، وغلبتهم دواعي طبعهم أحياناً ـ من العفو والمسامحة ما لا يفعله مع غيرهم »[1] اهـ .

خلاصة ما سبق حول هذا اللازم :

أن العدل في القول والفعل ، ومعالجة الأخطاء لو سلكنا فيها ذلك

(١) مفتاح دار السعادة ، ص ١٩٢ ، ط٢ المصرية .

المسلك النبوي السابق تفصيله لما وقع كثير من المسلمين فيما وقعوا فيه اليوم من كيل التهم ، والتشهير ، وتتبع العثرات ، والذي لا يستفيد منه إلا الشيطان وأولياؤه ، ولا يفرح الشيطان بشيء كفرحه بالفرقة والاختلاف بين المسلمين ، فقد روى الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن جابر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن إبليس يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ؛ فيجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا ، فيقول : ما صنعت شيئاً ، قال : ثم يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته ، قال : فيدنيه منه ويقول : نعم أنت** » قال الأعمش : أراه قال : « **يلتزمه** »[1] .

فإذا كان فرح الشيطان بالفرقة بين الزوجين بهذه الدرجة ؛ فكيف يكون فرحه بالفرقة بين دعاة المسلمين ؟

ولو أن أحدنا إذا سمع شائعة عن مسلم أو طائفة ما فقام بالتثبت منها ، فإنه يصبح أمام أحد أمرين :

إما أن تكون الشائعة لا أصل لها ، وأنها مجرد ظنون وأوهام كاذبة ، فيقضي عليها في مهدها .

وإما أن يكون الأمر صحيحاً بعد التثبت فيصار إلى المرحلة الأخرى ، ألا وهي البحث عن الأسباب والدوافع التي أدت إلى وجود هذا الخطأ ؛ إما من صاحب الشأن ، إن كان ذلك ممكناً ، أو سؤال من يعرفه ، أو من التمعن فيما كتبه إن كان ذلك مكتوباً . . . إلخ .

وهذا هو مراد الرسول ﷺ عندما قال لحاطب : « **ما حملك على ما**

---

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٨١٣)، وهو في شرح مسلم للنووي (١٥٧/١٧) ، ط. المطبعة المصرية ومكتبتها .

صنعت؟» وإذا اتضح الدافع المؤدي إلى وجود هذا الخطأ وكان مقنعاً من الناحية الشرعية فإن الأمر ينتهي عند ذلك ، وإن لم يكن مقنعاً ؛ فإنه يصار إلى المرحلة الثالثة، ألا وهي النظر إلى حسنات هذا الشخص وبلائه وجهاده، لعل له حسنات عظيمة ينغمر فيها هذا الخطأ ويصبح ضئيلاً ، في الوقت الذي يسعى لتعديل الخطأ والمناصحة فيه بمحبة وإخلاص وحكمة .

ولعله قد تبين لنا الآن من الحديث حول هذا اللازم المهم - من لوازم العدل - الفرق بين العدل في القول والعمل ، وأثر ذلك في النصيحة والإصلاح والائتلاف ، وبين الاعتداء في القول والعمل ، وما ينتج عنه من تشهير وفرقة واختلاف ، وذلك في وقت نحن معاشر أهل السنة والجماعة بحاجة شديدة إلى الوحدة والائتلاف، لا إلى الفرقة والاختلاف .

٣- الفرح بإصابة الغير للحق والحزن على مجانبتهم له :

ولعل هذا اللازم من أصعب لوازم العدل تحقيقاً ؛ لأنه يمثل - في نظري - قمة العدل والتقوى والورع ، حيث نرى الكثير من دعاة المسلمين اليوم - فضلاً عن عامتهم - إذا رأوا غيرهم قد أخطأوا فإنهم يفرحون بذلك ، حتى يحسبونه عليهم ، بل إنك ترى البعض منهم يتتبع الكتابات والمقالات التي قالها غيرهم ، وهمهم الوحيد هو تتبع العثرات ، والفرح باصطيادها ، في الوقت الذي لو وجدوا خلاف ذلك (من إصابة غيرهم للحق) فإنهم يحزنون لهذه الإصابة ، وهذا - والعياذ بالله - هو الظلم والحقد والحسد ، والذي لا يلتقي مع العدل وحب الخير للناس .

وما أحسن الحكاية التي ذكرها ابن رجب رحمه الله حول هذا الأمر ؛ حيث قال :

« وقد استحسن الإمام أحمد ما حكي عن حاتم الأصم أنه قيل له : أنت رجل أعجمي لا تفصح ، وما ناظرك أحد إلا قطعته ؛ فبأي شيء تغلب خصمك ؟ فقال : بثلاث : أفرح إذا أصاب خصمي ، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ لساني عنه أن أقول له ما يسوءه ؛أو معنى هذا ، فقال أحمد : ما أعقله من رجل »[١] .

٤ـ الشهادة للمحسن بإحسانه وللمسيء بإساءته :

ومن المواقف المؤسفة التي تنافي هذا اللازم أننا نرى اليوم كثيراً من الناس يفرطون في محبتهم أو كرههم ، فإذا أحبوا شخصاً أو طائفة ما فإنهم يفرطون في هذا الحب ، ولا يعدلون فيه ؛ حيث إنهم لا يرون إلا الحسنات ويغمضون أعينهم عن الأخطاء والسيئات ويبررونها ويؤولونها ، وكأن من أحبوه لا يجوز عليه الخطأ ، وهذا غلو واعتداء في الحب ، قد يؤدي إلى الغلو في الرجال وتقديسهم ، وفرق بين التقدير والتقديس .

وفي مقابل ذلك إذا أبغضوا شخصاً أو هيئة ما فإن هذا الكره ينسيهم كل الحسنات والإيجابيات ، أو أنهم يشككون في نوايا فاعليها، في الوقت الذي لا يذكرون إلا الأخطاء مع التضخيم والتهويل لها ، ومعلوم ما في ذلك من ظلم واعتداء ومجانبة للعدل والإنصاف ،وما أظن أحداً من المسلمين يوافق على هذا المنهج الجائر ، لكن القناعات النظرية شيء والتزامها في الواقع شيء آخر !! .

بقي أن نعرف أن المنهج الشرعي في مثل هذه المواقف ،هو الشهادة

(١) الفرق بين النصيحة والتعيير لابن رجب ، تحقيق نجم خلف ، ص ٣٢ ، دار ابن القيم .

للمحسن أنه محسن ، ويذكر له ذلك بتجرد وإنصاف ، والشهادة للمسيء بأنه مسيء ، والنصح له في ذلك وتلمس العذر - إن كان ثمة عذر شرعي - لإساءته (كما سبق في المنهج الشرعي لمعالجة الأخطاء) ، والانتباه إلى أن كل بني آدم خطاء ، وكلٌّ يؤخذ من قوله ويرد ؛ إلا المعصوم ﷺ ، وأن الاعتدال في الحب والكره من لوازم قول الله تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ...﴾** .

[النساء: ١٣٥]

ويا ليتنا نرجع إلى سيرة سلفنا الصالح - رضي الله عنهم - ، وكيف كانوا في مواقفهم مع المخالفين ! ، وكيف كانوا يقومون الرجال ! ، فلقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الرحمن بن شماسة ، قال : أتيت عائشة أسألها عن شيء ، فقالت: ممن أنت ؟ فقلت : رجل من أهل مصر ، فقالت: كيف صاحبكم لكم في غزاتكم هذه ؟ فقال : ما نقمنا منه شيئاً ؛ إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير ، والعبد فيعطيه العبد، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة ، فقالت : أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا : « **اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فَرَفَق بهم فارفق به** »(١) .

ويعلق الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث بقوله : « **وفيه أنه ينبغي أن يذكر فضل أهل العلم ، ولا يمنع منه سبب عداوة ونحوها** »(٢) .

وهذا الإمام ابن كثير رحمه الله ، يقول في ترجمته لشيخ الإسلام ابن

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٨).

(٢) شرح مسلم للنووي (١٢/٢١٢) ط. دار الكتب العلمية .

تيمية بعد كلام طويل :

« وبالجملة كان رحمه الله من كبار العلماء ، وممن يخطئ ويصيب ، ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي ، وخطؤه مغفور له ، كما في صحيح البخاري : « **إذا اجتهد العالم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر** »[١] فهو مأجور ، وقال الإمام مالك بن أنس : « كل واحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر ﷺ » »[٢] اهـ.

ويقول الإمام ابن رجب رحمه الله في كتابه : (الفرق بين النصيحة والتعيير) :

« ولهذا كان الإمام أحمد رحمه الله يذكر إسحاق بن راهويه ويمدحه ويثني عليه ، ويقول : وإن كان يخالف في أشياء ؛ فإن الناس لم يزل بعضهم يخالف بعضاً ؛ أو كما قال . وكان كثيراً ما يعرض عليه كلام إسحاق وغيره من الأئمة ومأخذهم من أقوالهم ؛ فلا يوافقهم في قولهم ، ولا ينكر عليهم أقوالهم واستدلالهم ، وإن لم يكن هو موافقاً على ذلك كله»[٣] اهـ.

ويذكر ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في كتابه (سيرة عمر) قول عمر رضي الله عنه : « ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك ، ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً ، وما كافأت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه »[٤] اهـ.

---

(١) رواه البخاري بنحوه في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٥٢)، ومسلم في الأقضية (١٧١٦).

(٢) البداية والنهاية (١٤ / ١٣٩) دار المعارف .

(٣) الفرق بين النصيحة والتعيير ص ٣١ ، ٣٢ . دار ابن القيم .

(٤) خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه ، جمع محمد أحمد عاشور ص ١٢٣ ، دار الاعتصام .

ونختم هذا اللازم من لوازم العدل ببعض آراء ومواقف شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - من مخالفيه ؛ سواء في الفروع أو الأصول .

يقول رحمه الله في جوابه عن سؤال عن قوله ﷺ : « **تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة** »[1] ما الفرق؟ ، وما تعتقده كل فرقة من هذه الصنوف؟ ؛ فقال في معرض جوابه :

« . . . ومما ينبغي أيضاً أن يعرف أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات : منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة ، ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة ، ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن السنة منه ؛ فيكون محموداً فيما رده من الباطل وقال من الحق ، لكن يكون قد جاوز العدل في رده بحيث جحد بعض الحق ، وقال بعض الباطل ، فيكون قد رد بدعة كبيرة ببدعة أخف منها ، ورد باطلاً بباطل أخف منه .

وهذا حال أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنة والجماعة ، ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولاً يفارقون به جماعة المسلمين ، يوالون عليه ويعادون ، كان من نوع الخطأ ، والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك ؛ ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها ؛ بخلاف من والى موافقه وعادى مخالفه وفرق بين جماعة المسلمين ، وكفر وفسق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات ، واستحل قتال مخالفه دون موافقه ؛ فهؤلاء من أهل التفرق والاختلافات »[2] اهـ .

---

(١) رواه أبو داود في السنة (٤٥٩٦)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩١) وله طرق أخرى وشواهد. انظر الصحيحة (٢٠٣)، (١٤٩٢).

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٣٤٨) .

٥ـ الابتعاد عن النجوى :

إن مما يفرضه العدل على المسلم أن يبتعد عن النجوى التي من شأنها إحزان المسلمين وإثارة العداوة والبغضاء بينهم ، وهي عامل مهم في ترويج الشائعات . يقول الله عز وجل : ﴿**لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [النساء: ١١٤] ، وما سوى ذلك فهو شر وتفريق بين المؤمنين .

والناس إزاء الشائعات التي تثار حول شخص أو هيئة ما، ينقسمون حسب تعاملهم مع هذه الشائعات إلى ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : من يقبل هذه الشائعات على علاّتها ، ويكتمها في نفسه ، ويرتب عليها أموراً ومواقف من غير تثبت ولا تبين .

الصنف الثاني : من يقوم بالتناجي بها بعيداً عن صاحب الشأن فيها ، ومعلوم ما في ذلك من الوقوع في الغيبة ، وإذكاء الشائعات وانتشارها .

الصنف الثالث: من يسارع إلى التثبت من الشائعة ممن أثيرت حوله مباشرة ، ولا يذهب مع الظنون والوساوس النفسية أو المناجاة التي تحزن المسلم.

ولو حاكمنا معاملة هذه الأصناف الثلاثة إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ لاتضح لنا أن الصنف الأول والثاني مخالفان للشرع ، وأن طريقة الصنف الثالث هي الطريقة الشرعية، التي تقوم على التثبت وحب الخير للمسلمين ورعاية حقوقهم وأعراضهم والتماس الأعذار لهم .

وهذه الطريقة هي الطريقة الشرعية في عتاب المسلم لأخيه المسلم ، إذا

وصله من أخيه ما يسوءه .

٦ـ سلامة القلب :

يقول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء : ٨٨، ٨٩] ، وقد ورد في تفسير ابن كثير حول هذه الآية : « أن القلب السليم هو السالم من الشرك ، وهو قول مجاهد والحسن وغيرهما ، وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن »(١) اهـ .

وعلق القرطبي في تفسيره : « عن عوف الأعرابي قال : سألت محمد ابن سيرين ما القلب السليم ؟ قال : الناصح لله عز وجل في خلقه »(٢) اهـ.

وروى البخاري في صحيحه عن جرير بن عبد الله قال : « بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم »(٣) .

وعلق ابن حجر رحمه الله بقوله : ورواه ابن حبان . . . ، وزاد فيه : «فكان جرير إذا اشترى أو باع يقول لصاحبه : اعلم أن ما أخذنا منك أحب إلينا مما أعطيناكه ، فاختر »(٤) .

من ذلك يتبين أثر سلامة القلب في العدل مع الناس ، حيث إن صاحب هذا القلب مطمئن البال هادئ النفس يحب الخير للناس ، ويبذل النصح لهم ، وهذه صفات أصحاب رسول الله ﷺ الذين مدحهم الله عز وجل بقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح : ٢٩].

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ١٩١) ط. دار الفكر .

(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٩١).

(٣) رواه البخاري في الإيمان (٥٧).

(٣) فتح الباري (١/ ١٦٨) السلفية .

ومثل هذا يُلقى له القبول بين الناس ،حتى وهو يرد على الأخطاء والانحرافات ؛ فإنه يصاحبه في ذلك شعور بالشفقة وحب الهداية للغير ، لا مجرد الرد والخصومة والجدال ، كما هو الحال في كثير ممن يتصدى اليوم للمخالفين له أو لشيخه ؛ حيث إن الأمر يصل به إلى الاعتداء في كلامه لمن يخالفه في الفروع التي يسعها الخلاف، لا لشيء إلا لأنه خالفه أو خالف شيخه وكفى .

وخلاصة القول في (سلامة القلب) أنه أصل للّوازم السابقة كلها ، فبسلامة القلب ، والنصح لله عز وجل في الخلق يتم العدل في جميع الأمور السابقة ، وصاحب القلب السليم لا يؤذي المسلمين ولو آذوه ، ولا ينتقم لنفسه .

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله ـ في مدارج السالكين ـ أحد عشر مشهداً فيما يصيب المسلم من أذى الخلق وجنايتهم عليه ، نكتفي بمشهد واحد ؛ حيث قال رحمه الله :

« المشهد السادس : مشهد (السلامة وبرد القلب)، وهذا مشهد شريف جداً لمن عرفه وذاق حلاوته ؛ وهو ألا يشغل قلبه وسره بما ناله من الأذى وطلب الوصول إلى درك ثأره ، وشفاء نفسه ، بل يفرغ قلبه من ذلك ، ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له، وألذ وأطيب، وأعون على مصالحه.

فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده وخير له منه ؛ فيكون بذلك مغبوناً ، والرشيد لا يرضى بذلك ، ويرى أنه من تصرفات السفيه، فأين سلامة القلب من امتلائه بالغل والوساوس ، وإعمال الفكر في إدراك

الانتقام؟ »[١] اهـ.

ولقد اطلعت على رسالة كتبها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إلى تلامذته بدمشق ، وفيها تبرز هذه الصفة بجلاء ، ولولا خشية الإطالة لنقلتها بتمامها ، ولكن نكتفي بمقاطع منها ، قال رحمه الله بعد السلام والأشواق إلى تلامذته :

« وتعلمون من القواعد العظيمة ـ التي هي من جماع الدين ـ تأليف القلوب ، واجتماع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ، ويقول : ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ١٠٥] ، وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف . وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة ، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة . . . » إلى أن قال في الرسالة نفسها :

« وأول ما أبدأ به من هذا الأصل : ما يتعلق بي ، فتعلمون رضي الله عنكم جميعاً أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين ـ فضلاً عن أصحابنا ـ بشيء أصلاً ، لا باطنا ، ولا ظاهراً ، ولا عندي عتب على أحد منهم ، ولا لوم أصلاً ، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان ، كل بحسبه .

ولايخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً ، أو مخطئاً ، أو مذنباً ، فالأول : مشكور ، والثاني : أجره على الاجتهاد ؛ فمعفو عنه مغفور له ،

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٢٠) ، تحقيق : محمد حامد الفقي ـ دار الكتاب العربي .

والثالث : يغفر الله لنا وله ولسائر المؤمنين ، فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل كقول القائل : فلان كان سبب هذه القضية ، فإني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب ولا حول ولا قوة إلا بالله ، بل مثل هذا يعود على قائله بالملام ، إلا أن يكون له من حسنة ، وممن يغفر الله له إن شاء، وقد عفا الله عما سلف. . . » إلى أن قال رحمه الله في الرسالة نفسها :

« فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه علي ، أو ظلمه وعدوانه ، فإني قد أحللت كل مسلم ، وأنا أحب الخير لكل المسلمين ، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي ، والذين كذبوا وظلموا منهم في حل من جهتي »[1] اهـ.

٧ـ الصدق والوضوح :

إن هذا اللازم يعتبر أيضاً سبباً من أسباب حصول العدل ؛ فهو نتيجة وسبب في نفس الوقت ؛ لأن الصدق يؤدي إلى العدل ، والعدل يستلزم الصدق والوضوح في الأقوال والأفعال ، وأردت من إيراد هذا اللازم الإشارة إلى ما يقع في زماننا هذا من الأساليب الغامضة في تعامل المسلمين بعضهم مع بعض ، وعدم الوضوح في المقاصد والوسائل ، وهذا كله يؤدي ـ شئْنا أم أبينا ـ إلى مجانبة الصدق والوقوع في الكذب الصريح .

وهذا الغموض وعدم الوضوح وسوء الظن بالمسلمين، من الأمراض الخطيرة التي تؤدي إلى إذكاء العداوة والفرقة بين المسلمين ، وعدم اطمئنان بعضهم إلى بعض ، في الوقت الذي يفترض الصدق في المسلم، وألا يساء الظن به ، أو أن مراده من كلامه كذا وكذا . . . إلخ .

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/ ٥١ ـ ٥٧).

ولقد مرت بنا الطريقة التي عالج بها الرسول ﷺ خطأ حاطب رضي الله عنه ، وكيف أنه ﷺ عندما سمع من حاطب عذره ، قال : «**صدق ، لا تقولوا إلا خيراً** »، ولم يذهب إلى سوء الظن به ، واتهامه بالكذب ، أو اللف والدوران كما يقولون .

إن الصدق منجاة وخير كله في الدنيا والآخرة ، والصدق في الحديث أمر لازم لاطمئنان القلوب بعضها إلى بعض ، وطريق إلى التآلف وحصول البركة ؛ فلقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن حكيم بن حزام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **البيعان بالخيار ما لم يتفرقا** ، أو قال : **حتى يتفرقا ؛ فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما** »[1] .

فإن كان الصدق سبباً لحصول البركة للمتبايعين على سلعة ، والكذب والكتمان يمحق بركة بيعهما ، أقول : إذا كان الأمر كذلك في أمر من أمور الدنيا ؛ فكيف يكون الحال إذا كان الصدق أو الكذب على أمر من أمور الآخرة ؟ ، لأن الدعوة عبادة يراد بها الدار الآخرة ؛ فلأن يصدق هذا الحديث على ذلك من باب أولى ، والتجربة أكبر شاهد ؛ حيث إن الصدق والوضوح بين أصحاب الدعوة وحسن الظن فيما بينهم ينتج عنه نتائج طيبة ، ويبارك الله عز وجل في جهودهم وتعاونهم ، والعكس بالعكس ؛ فإن الكذب والأساليب الملتوية لم ينتج عنهما إلا الفرقة وسوء الظن وتشتيت الشمل .

وهنا يجب إيضاح أن لا تعارض بين وجود الصدق والوضوح وبين

---

(١) رواه البخاري في البيوع (٢١١٠) ، ومسلم في المساقاة رقم (١٦٠٧) .

الكتمان؛ فإن كان المرء ولابد متحدثاً فليكن صادقاً وواضحاً وإلا فليصمت.

ثم إننا نقصد بكل ما سبق أهمية هذا اللازم بين المسلمين بعضهم مع بعض ، أما الكافرون والمنافقون ؛ فإن التعامل معهم يجب أن يكون بحذر ، وتقدير ما ينبغي أن يقال ، وألا يطلعوا على أسرار المسلمين بحجة الصدق.

❋ ❋ ❋

الخاتمة

ولعلنا في هذه الخاتمة نجمل ما تم تفصيله في ثنايا هذا البحث ؛ حيث طرحت فيه النقاط التالية :

١ ـ إن الإنسان في طبيعته كان ظلوماً جهولاً .

٢ ـ إن الأمانة العظيمة التي أشفقت من حملها السموات والأرض لن يستطيع أن يحلمها الإنسان إلا بالعلم والعدل .

٣ ـ إن العدل كلمة يراد بها التوسط في الأمور ،وذلك بين الإفراط والتفريط ، فالجافي والغالي كلاهما قد جانب العدل .

٤ ـ للعدل صور كثيرة مردها إلى ثلاثة أقسام : العدل الأعظم وهو توحيد الله عز وجل ، والعدل مع النفس ، والعدل مع العباد .

٥ ـ كان التركيز في هذا البحث على العدل مع العباد ؛ وذلك للحاجة الماسة إليه ، وخاصة في هذا العصر الذي بغى بعض الناس فيه على بعض .

٦ ـ للعدل مقتضيات ولوازم كثيرة لا يمكن استيعابها في مثل هذا البحث ، وقد ركزت على أهمها ، وخاصة فيما يتعلق بالتعامل مع الناس من إقالة العثرات ، وإحسان الظن ، وقطع الطريق على الشيطان الذي يسعى إلى إيجاد الإحن والأحقاد والظلم بين المسلمين .

٧ ـ إن سبب الاختلاف والتفرق بين المسلمين يرجع إلى أمرين مهمين :

أ - الجهل الناشئ من فقدان أو قلة العلم بدين الله ، والذي يؤدي بدوره إلى الأخذ بالباطل محسوباً أنه هو الحق .

ب - الظلم الناشئ من الهوى وعدم العدل والإنصاف ، ومثل هذا قد يعلم صاحبه أن الحق مع مخالفه ، ولكن التعصب والهوى ومجانبة العدل يجعله يصر على الباطل ، ولو علم أنه باطل .

٨ - إن رفع الجهل عن النفس يتم بتعلم دين الله عز وجل وحدوده ، كما بلغها الرسول ﷺ لأصحابه وسار عليها سلف الأمة من التابعين وتابعيهم من أئمة هذا الدين وأعلامه .

أما رفع الظلم والتحلي بالعدل والإنصاف؛ فإنه لا يتم بالتعلم فقط ، فقد يعلم الإنسان الوسائل ولا يعمل بها .

وللعدل مفاتيح وعلامات وتباشير أجملها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله :

« وإن للعدل أمارات وتباشير ؛ فأما الأمارات : فالحياء ، والسخاء ، والهين ، واللين . وأما التباشير : فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر باباً ، ويسر لكل باب مفتاحاً ؛ فباب العدل الاعتبار ، ومفتاحه الزهد ، والاعتبار : ذكر الموت بتذكر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد : أخذ الحق من كل أحد قبله حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تصانع في ذلك أحداً »[1] اهـ .

---

(١) خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه ، جمع : د. محمد أحمد عاشور ، ص٦٢ ، دار الاعتصام .

وخلاصة القول في مفتاح العدل أنه تقوى الله عز وجل ، والتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ؛ حيث يقول الله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة: ٨] ، حيث إنه لا مفتاح للعدل إلا بالتقوى ، والتقوى فقط .

وتبقى كلمة أخيرة في هذه الخاتمة أنصح بها نفسي وإخواني الدعاة من أهل السنة ، بأن نتقي الله عز وجل ، ونصلح ذات بيننا ، وأن نلزم أنفسنا بالعدل في أقوالنا وأعمالنا ، وأن نحذر من نزغات الشيطان ، فكما أسلفت في ثنايا البحث إن أعظم فرحة للشيطان يوم أن يفرق بين المسلمين ، ويخالف بين كلمتهم ، فهو ما يفتأ يسعى للتحريش بالمسلمين ، كما جاء في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم** »[١] .

وإن الواجبات الملقاة على أهل السنة اليوم أكبر وأضخم مما تستطيعه طائفة واحدة من طوائف أهل السنة ، فإن لم يَسْعَ المصلحون والمتقون من أهل السنة لجمع الكلمة وتأليف القلوب ؛ فإن فساداً كبيراً لا شك نازل ؛ كما قال عز وجل : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴾ [الأنفال: ٧٣] ؛ أي إلا يوالى المسلمون ويعادى الكافرون تكن فتنة للناس[٢] .

---

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٨١٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٤) ، ط. دار الفكر .

أسأل الله عز وجل أن يجمع دعاة الإسلام على الحق ، وأن يؤلف بين قلوبهم ويسدد آراءهم ، وأن ينصرهم على أعدائهم ، إنه سميع مجيب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *



الرسالة الثانية

﴿ قل إنما أعظكم بواحدة ﴾

[سبأ : ٤٦]



مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فقد أنزل الله تبارك وتعالى القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، وقد ضمن في هذا الكتاب الهدى والشفاء ، لأوليائه المؤمنين خاصة وللناس عامة ، موعظة وإنذاراً ، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس: ٥٧ ، ٥٨].

ففي هذه الآية يبين الله عز وجل أن هذا القرآن العظيم ؛ جاء موعظة للناس كافة ، وشفاء لصدور المؤمنين ، ورحمة لهم بصفة خاصة .

فالمؤمنون وحدهم هم الذين ينتفعون بمواعظ القرآن ، ومن سواهم فهو عليهم عمىً ؛ كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى** ﴾ [فصلت: ٤٤].

ومن بين مواعظ القرآن العظيمة ما ذكره سبحانه وتعالى في سورة سبأ ، عن محاجة المشركين الذي كذبوا رسول الله ﷺ ، ورموه بالسحر تارة وبالجنون

تارة أخرى : قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وهذه الآية وإن كانت موجهة إلى المشركين الذين رموا الرسول ﷺ بما هو منه براء إما لجهل أو لهوى، فإنها تخاطب جميع المشركين في كل زمان ومكان ، بل جميع المختلفين في قضايا هذا الدين: أصوله وفروعه، وترسم منهجاً لحل خلافاتهم ، وتضع أصولاً لحواراتهم ، وتخط لهم صراطاً مستقيماً من وحي كتاب الله العظيم ، والذي من سار عليه واتبعه وصل إلى الحق والهدى ، ومن تنكبه واتبع هواه ضل طريقه ، وإن واصل السعي بالليل والنهار .

* * *

تفسير الآية

قبل ذكر أقوال بعض المفسرين حول هذه الآية نذكر ما قبلها من الآيات حتى يتضح المقصود . يقول الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٣ - ٤٦].

من هذه الآيات البيّنات يتضح لنا أن هذه الموعظة الموجهة إلى مشركي قريش كانت بسبب اتهامهم لرسول الله ﷺ بالكذب تارة ، وبالسحرة تارة أخرى ، دون تفكير أو تدبر ، شأنهم في ذلك شأن الذين يتبعون أهواءهم ، ويقتفون آثار آبائهم ومتبوعيهم دون دليل .

وقد أقام الله عز وجل هذه الموعظة العظيمة التي مَنْ أخذها بجميع مقوماتها فلابد أن يصل إلى الحق ؛ وهي في الآية : كون النبي ﷺ رسولاً من عند الله عز وجل ، ونذيراً لهم بين يدي عذاب شديد ، وليس كما يزعمون ويرددون دون وعي أو نظر بأنه ساحر أو كاذب أو مجنون ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦] .

ولكي يحصل الانتفاع بهذه الموعظة العظيمة فلابد من الأخذ بجميع المقومات التي قامت عليها هذه الموعظة ، وهي :

* القيام لله تعالى : ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ ، والتجرد في طلب الحق.

* مراجعة النفس والخلوة بها أو مع شخص ثان : ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ .

* التفكر فيما يقوله المخالف : ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ .

وتظهر أهمية هذه المقومات في كلام علماء التفسير رحمهم الله تعالى .

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في (فتح القدير) حول قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ :

« أي أحذركم بواحدة، وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه، وأوصيكم بخصلة واحدة؛ وهي : ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ . وهذا تفسير للخصلة الواحدة أو بدل منها ، أي هي : قيامكم وتشميركم في طلب الحق بالفكرة الصادقة متفرقين ؛ اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ؛ لأن الاجتماع يشوش الفكر .

وليس المراد القيام على الرجْلين بل المراد القيام لطلب الحق وإصداق الفكر فيه؛ ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في أَمر النبي ﷺ ، وما جاء به من الكتاب ، فإنكم عند ذلك تعلمون أن ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ ؛ وذلك لأنهم كانوا يقولون : إن محمداً مجنون .

فقال لهم : اعتبروا أمري بواحدة ؛ وهي أن تقوموا لله وفي ذاته مجتمعين ومتفرقين ، فيقول الرجل لصاحبه : هلم فلنصدُق ، هل رأينا بهذا الرجل من جنة ـ أي جنون ـ أو جربنا عليه كذباً ؟ .

ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه ، وليتفكر ولينظر ؛ فإن في ذلك ما يدل على أن محمداً ﷺ صادق ، وأنه رسول من عند الله عز وجل ، وأنه ليس بكاذب ولا ساحر ولا مجنون»[(١)] اهـ .

وقال النسفي رحمه الله في تفسيره : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ أي بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله : ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ...﴾ الآية، على أنه عطف بيان لها . وقيل : في محل الرفع، والمعنى : إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ؛ وهي أن ﴿تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ أي لوجه الله خالصة ، لا لحمية ، ولا لعصبية ، بل لطلب الحق ﴿مَثْنَىٰ﴾ اثنين اثنين ، ﴿وَفُرَادَىٰ﴾ فرداً فرداً ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في أمر محمد ، وما جاء به .

أما الاثنان فيتفكران؛ يعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران نظرة الصدق والإنصاف حتى يؤدي النظر الصحيح إلى الحق ،وكذلك الفرد يتفكر مع نفسه بعدل وإنصاف ويعرض فكره على عقله .

ومعنى تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويعمي البصائر ، ويمنع الروية ، ويقل الإنصاف فيه ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب ، ولا يسمع إلا نصرة المذهب »[(٢)] اهـ .

وقال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في (تفسير الكريم المنان) في تفسيره لهذه الآية :

« أي أعظكم بخصلة واحدة أشير عليكم بها وأنصح لكم في سلوكها ، وهي طريق نصف، لست أدعوكم إلى اتباع قولي ولا إلى ترك قولكم من

---

(١) فتح القدير ، عند الآية ٤٦ من سورة سبأ .

(٢) تفسير النسفي ، عند الآية ٤٦ من سورة سبأ .

دون موجب لذلك؛ وهي ﴿ تَقُومُوا لِلَّه مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ﴾ أي تنهضوا بهمة ونشاط وقصد لاتباع الصواب وإخلاص لله عز وجل، مجتمعين ومتباحثين في ذلك ومتناظرين ، وفرادى كل واحد يخاطب نفسه بذلك ، فإذا قمتم لله مثنى وفرادى واستعملتم فكركم ، وأجَلْتموه ، وتدبرتم أحوال رسولكم ، هل هو مجنون فيه صفات المجانين؛ من كلامه ، وهيئته ووصفه ، أم هو نبي صادق منذر لكم ؟

فلو قبلوا هذه الموعظة واستعملوها لتبين لهم أكثر من غيرهم أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون ؛ لأن هيئته ليست كهيئة المجانين وخنقهم واختلاجهم . . فكل من رأى أحواله وقصده استعلام هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده أو مع غيره ؛ جزم بأنه رسول الله حقاً وتبين صدقه »[1] اهـ.

وقال سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ حول ظلال هذه الآية :

« وهنا يدعوهم دعوة خالصة إلى منهج البحث عن الحق ، ومعرفة الافتراء من الصدق، وتقدير الواقع الذي يواجهونه من غير زيف ولا دَخَل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّه مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ ، إنها دعوة إلى القيام لله عز وجل بعيداً عن الهوى ، بعيداً عن المصلحة ، بعيداً عن ملابسات الأرض ، بعيداً عن الهواتف والدوافع التي تشتجر في القلب ، فتبعد به عن الله ، بعيداً عن التأثر بالتيارات السائدة في البيئة والمؤثرات الشائعة في الجماعة.

دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط لا مع القضايا والدعاوي الرائجة ولا مع العبارات المطاطة التي تبعد القلب والعقل عن مواجهة الحقيقة في

---

(١) تفسير الكريم المنان ، عند الآية ٤٦ من سورة سبأ.

بساطتها ، دعوة إلى منطق الفطرة الهادئ الصافي بعيداً عن الضجيج ، والخلط ، واللبس ، والرؤية المضطربة ، والغبش الذي يحجب صفاء الحقيقة ، وهي في الوقت ذاته منهج في البحث عن الحقيقة ، منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والغواشي والمؤثرات ، وعلى مراقبة الله عز وجل وتقواه .

وهي ﴿وَاحِدَةٍ﴾ إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق : القيام لله ، لا لغرض ، ولا لهوى ، ولا لمصلحة ، ولا لنتيجة ، التجرد ، الخلوص ، ثم التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون .

﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ مثنى ليراجع أحدهما الآخر ، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ ، ولا تتلبث لتتبع الحجة في هدوء ، وفرادى مع النفس وجهاً لوجه في تمحيص هادئ عميق .

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ فما عرفتم عنه إلا العقل والتدبر والرزانة ، وما يقول شيئاً يدعو إلى التظنن بعقله ورشده ، إن هو إلا القول المحكم القوي المبين»[1] اهـ.

وبعد هذه النقولات من بعض كتب التفسير حول هذه الآية نستطيع الآن توضيح مقومات هذه الموعظة العظيمة وشروط الانتفاع بها بما يلي :

الشرط الأول : ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ :

إن هذا الشرط هو الأساس لكل عمل ، وبدونه يفسد العمل ، ولا يوفق فيه صاحبه ، ولا يبارك له فيه ، فالقيام لله عز وجل هو المنطلق لصحة العمل إذا اقترن ذلك بالمتابعة فيه للرسول ﷺ .

(١) في ظلال القرآن ، عند الآية ٤٦ من سورة سبأ .

فالإخلاص في البحث عن الحق ، والصدق في طلبه، شرط أساسي للوصول إلى ذلك الحق ، وعندما يغيب الإخلاص ينعدم الانقياد إلى الحق، حتى ولو كان مثل فلق الصبح ؛ لأن من تعلق قصده بغير وجه ربه عز وجل ثقل عليه الانقياد للحق ، وقصرت همته عن بلوغه والعمل به .

فوجب على من أراد معرفة وجه الحق في أي أمر أن يخلص قصده ونيته لله عز وجل ، وأن يتجرد لاتباع الحق عند ظهوره ،ولو على لسان مخالفه ، وأن يعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل .

ولكن قد يكتنف القائم لله عز وجل بعض الملابسات والظروف التي قد تغطي الحق أو تلبسه بالباطل ، فيقبل به ظاناً أنه الحق،وذلك بسبب بعض الظروف المحيطة به،لذلك فإنه لا مناص من توفر باقي الشروط للانتفاع بموعظة الله عز وجل ومنهجه السوي في الوصول إلى الحق المنشود، وذلك من :

الشرط الثاني : ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ :

والالتزام بهذا الشرط يقضي على عامل مهم من العوامل التي تغطي الحق أو تشوه وجهه ، وذلك في مثل الأجواء الجماعية والجماهير الجاهلة ، والتي غالباً ما تتصف بالغوغائية والتقليد الأعمى ، واتباع كل ناعق من رؤوس الضلال ، مما قد يؤدي بطالب الحق المخلص إلى اتباع الأكثرية من الناس متهماً نفسه ، ظاناً أن الحق مع الأكثرية ، دون أن يدري أن هذه الحركة الغوغائية قد غطت الحق ،وضيعت معالمه ، فاشتبه مع غيره ، خاصة عند من قلّت بصيرته ، وقلّ نصيبه من هدى الله عز وجل ، وهدي رسوله ﷺ وهذا ما حدث من اتهام قريش للرسول ﷺ بشكل جماهيري غوغائي ،

---

(١) في ظلال القرآن ، عند الآية ٤٦ من سورة سبأ .

وقولهم ساحر وكاهن ومجنون . . . إلخ .

فوعظهم الله عز وجل أن يقوموا لله ويخلصوا وجوههم له ، ويبتعدوا عن هذه الأجواء ، ويرجعوا إلى أنفسهم ، حيث يقف الإنسان مع نفسه أو مع صاحبه ، ويصحب ذلك التفكير العميق والتدبر لحال الرسول ﷺ ، فلابد أن يصلوا إلى الحق والهدى ، وهو ما جاء في ختام الآية ﴿ **مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** ﴾ [سبأ : ٤٦] .

ونخرج من هذه الآية بفائدة سيأتي تفصيلها في ثنايا البحث إن شاء الله ، وهي أن القاصد للحق أو الباحث في مسألة خلافية ـ كبيرة أو صغيرة ـ عليه أن يتجنب المناظرة في جو جماعي ، لأن المُناظر يكون أقرب إلى ترك رأيه إذا تبين أن الحق في خلافه إذا كان التفكير مع شخص واحد ، بخلاف حال الجماعة ، فقد يعز عليه الاعتراف بالخطأ أمام مؤيديه أو مخالفيه المجتمعين حوله ، والله تعالى عليم بمسارب نفوس خلقه ، خبير بطبائعهم ، فلذلك وعظهم موعظة من يعلم حالهم ، ويعلم ما يصلحهم ويهديهم إلى صراطه المستقيم ، ومنهجه القويم ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك : ١٤] .

الشرط الثالث : ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ :

وهذا الشرط هو الوسيلة الأساسية للوصول إلى الحق بعد الالتزام بالشرطين السابقين ؛ فالتفكير ، والعلم ، وإعمال الرأي هو المتمم لهذا المنهج الإلهي للوصول إلى الحق وتَبَيُّن الهدى من الضلال .

وهذا الشرط يقودنا إلى قضية هامة ؛ ألا وهي قضية العلم الشرعي ، ومعرفة دين الله عز وجل ، وإقامة الدليل والبرهان على ما يعتقد أنه الحق ،

وإذا كان الكفار الذين خوطبوا مباشرة بهذه الآية ، ووجهت إليهم هذه الموعظة العظيمة ما كان عندهم علم شرعي ، وليس عندهم الدليل فيما يعتقدونه ، فلذلك كان المطلوب منهم التفكير بحال الرسول ﷺ ، وإقامة الدليل على ما يتهمونه به .

فإذا كان الأمر بالتفكير مع الكفار بهذه الصورة ؛ فإن الأمر بالنسبة لطالب الحق في المسائل الشرعية والعقائدية والفكرية آكد ؛ حيث لابد أن يكون مؤهلاً من الناحية العلمية لبحث هذه المسألة ، ودراسة أوجه الخلاف حولها ، وإلا لم يكن للتفكير فائدة ، كمن يحارب بغير سلاح ولا عدة ، وقد كان عند كفار مكة من العلم بأحوال الرسول ﷺ وصفاته ، وصدقه ، وأمانته ما يكفي ، ولو أنهم فكروا في ذلك لقادهم ذلك إلى الإذعان والانقياد للحق الذي جاءهم به الرسول ﷺ .

وكذلك الحال لكل المختلفين أو المتناظرين إذا لم يكن لديهم علم بما يختلفون فيه ؛ فإنه لا فائدة من التفكير ؛ لأن أداة التفكير الأساسية هي العلم بحال القضية المختلف فيها .

فالمقصود إذن بالتفكير هنا هو البحث عن الأدلة الشرعية والتحقق من ثبوتها ودلالتها على المراد ، كما يدخل في العلم أيضاً العلم بحال القضية المختلف حولها وملابساتها . . . إلخ .

فالجاهل بذلك كله لا يستطيع الوصول إلى الحق لفقده الأدوات الموصلة إليه ، فلذلك نجد أمثال هؤلاء يوجههم التقليد الأعمى دون فكر أو نظر .

وإذا كان الله عز وجل قد بين لنا في كتابه الكريم منهج الوصول إلى الحق

فيما اختُلف فيه ، فإن هذا المنهج وذلك الطريق السوي يمر أحياناً عبر أنواع من الحوار والمناظرة لابد منها .

فالمتتبع لمنهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلى الله وحده، يجد أن أكثرهم قد وقف مع قومه موقف المناظرة وإقامة الحجة والنصح ، وتبيين الحق من الباطل ، والصبر على ذلك ، مع شدة رفضهم للحق وعنادهم وتعنتهم ، ولكن مهمة البلاغ والدعوة إلى الله عز وجل تستلزم شيئاً من ضبط النفس والتحمل حتى يتم البلاغ على أكمل وجه .

ولكثرة الخلاف الواقع بين طوائف المسلمين اليوم ، وخاصة بين الطوائف من أهل السنة ؛ فإنا نقدم هذه الكلمات التي نحسب أن فيها إشارة إلى الطريقة المثلى في الحوار والمناظرة المؤدية بإذن الله عز وجل إلى الاجتماع والائتلاف في حدود منهج السلف وأصول الشريعة .

وقد اتضح من الآية السابقة التي هي موضع البحث أصول للحوار نطرحها بهذه المناسبة ،ونضيف عليها ما وقع عليه الفكر والنظر من آداب الخلاف . وقبل ذكر هذه الأصول يحسن التقدمة لها بأهمية هذا الموضوع ، وبعض التعريفات والوقفات السريعة .

❋ ❋ ❋

أهمية هذا الموضوع

إن الإلمام بآداب الحوار والاختلاف أمر مهم ينفع صاحبه في حياته كلها، وبخاصة الداعية إلى الله عز وجل، وهذه الجوانب المفيدة كثيرة نقتصر منها على ما يلي :

١ - من المعلوم أن مهمة الداعية إلى الله عز وجل هي بذل الأسباب في هداية الناس ودلالتهم إلى الخير، ولابد أن يواجهه في ذلك التواءات النفوس وخلافهم معه في الرأي، فإذا لم يكن لديه من الإلمام بآداب الحوار والاختلاف الشيء الكافي، لكي يصبر ويستمر في دعوته، فقد ينفر الناس منه، وهو يسعى لجمعهم وهدايتهم إلى الصراط المستقيم .

٢ - إن أهمية الإلمام بآداب الحوار والاختلاف، ترجع للظروف الملحة في هذا العصر الذي يعد عصر تعدد الجماعات الإسلامية والفُرقة الموجودة بينهم ؛ وذلك لأن الإلمام بذلك يساعد في تقارب القلوب وتفهم الأفكار ؛ مما يكون له الأثر في تضييق هوة الخلاف والتماس العذر للعاملين في الدعوة الإسلامية، وهذا يؤدي إلى الوحدة المنشودة .

٣ - كما يفيد تفهم هذه الآداب أيضاً في معالجة وجهات النظر المختلفة التي تكون بين أفراد المجموعة الواحدة، بل أفراد العائلة الواحدة ؛ لأن فقد هذه الآداب يضخم المشاكل، ويجعل من الحبة قبة كما يقولون .

* * *

الفرق بين الجدال والحوار

الجدال : مصدر جادل وهو المناقشة على سبيل المخاصمة ، ومقابلة الحجة بالحجة .

والحوار : الجواب . حاوره محاورة وحواراً: جاوبه وراجعه ، فهو مراجعة في الكلام بين طرفين أو أكثر دون ما يدل بالضرورة على وجود خصومة بينهما .

وقد يكون الجدل والحوار بمعنى واحد إذا خلا الجدل من العناد والتعنت للرأي ، كما ذكر تعالى في سورة المجادلة : ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾.

[المجادلة : ١]

فسمى الله سبحانه وتعالى مجادلة المرأة للرسول ﷺ ومجاوبته لها محاورة ، والله أعلم .

وعلى أية حال ؛ فالحوار كلمة غالباً ما تستعمل في المناظرة الهادئة التي يسود عليها الألفة والبحث عن الحق ، والجدال غالباً ما يكون جَوّه صاخباً، وقد ينشأ عنه خصومة وعناد .

ما هي نتيجة الحوار :

ليس شرطاً للحوار الناجح أن ينتهي أحد الطرفين إلى قول الطرف الآخر، ويتفقان على موقف واحد ، فهذا نجاح لا شك فيه ، وإنما يعتبر

الحوار ناجحاً أيضاً إذا توصل الطرفان إلى أن كل قول يقوله أحدهما هو صحيح ، أو في الإطار الذي يسعه الخلاف ، أما فشل الحوار فيكون عندما يتشبث كل طرف برأيه ويضلل الآخر ويفارقه .

❁ ❁ ❁

بعض الآيات والأحاديث الواردة في آداب الحوار وحسن المناظرة

قال تعالى :

- ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣].
- ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

[الإسراء: ٥٣]

- ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣].
- ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القصص: ٥٥].
- ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٦].
- ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].
- ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء: ١١٤].
- ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤].

والآيات في ذلك كثيرة .

أما الأحاديث النبوية ، فمنها :

- « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »[١] .

---

(١) متفق عليه.

- « الكلمة الطيبة صدقة »[١]
- « تبسمك في وجه أخيك صدقة »[٢]
- « وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم »[٣] .
- « الكبر بطر الحق وغمط الناس »[٤] .
- «يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا »[٥] .
- « ليس الشديد بالصرعة ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[٦] .
- « إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على ما سواه »[٧] .

والأحاديث في ذلك كثيرة .

والآن وبعد هذه التعريفات والآيات والأحاديث التي تشير إلى الآداب الإسلامية في المعاملة مع الناس ومحاورتهم ، نأتي لتفصيل أصول الحوار في ضوء الآية الكريمة التي كانت منطلق هذا البحث ، وهي قوله تعالى :

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٥٦) ، والحديث في صحيح سنن الترمذي (١٦٠٢) .

(٣) رواه الترمذي في الإيمان (٢٦١٦) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)، والحديث في صحيح سنن الترمذي (٢١١٠) ، وفي صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٠٩) .

(٤) رواه مسلم في الإيمان (٩١) .

(٥) متفق عليه .

(٦) متفق عليه .

(٧) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٣) .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦].

وكما تمت الإشارة في تفسير هذه الآية وما يتعلق بها أنها تعتبر منهجاً قوياً لمن أراد الوصول إلى الحق ، ولأن المقصود من الحوار الوصول إلى الحق ؛ فإن هذه الآية الكريمة ترسم لنا بمقوماتها الثلاثة أصول الحوار الصادق، وذلك فيما يلي :

الأصل الأول : الإخلاص لله عز وجل ، والتجرد الكامل قبل الحوار وأثناءه وبعده : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ .

الأصل الثاني : العلم بحقيقة واقع القضية المطروحة من الناحية الشرعية والواقعية: ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ .

الأصل الثالث : اعتبار ومراعاة ظروف الحوار والمحاورة: ﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ﴾ .

❋ ❋ ❋

الأصل الأول
الإخلاص لله عز وجل ـ والقيام له وحده
﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾

ويدخل تحت هذا الأصل عدة متعلقات ، نذكر منها ما يلي :

١ـ تصحيح النية قبل الدخول في الحوار :

وذلك بمساءلة النفس عن الغرض من الحوار ؛ أهو إرادة الحق فحسب ، أو أن هناك أغراضاً أخرى : كحب الظهور ، وإفحام الخصم ، و أن يرى الناس مكانه؟ ، فإذا كانت هذه الأغراض موجودة فليحجم المحاور عن الحوار حتى تتجرد نيته تماماً لله عز وجل ، وأنه يريد الحق ، ولو ظهر على لسان الطرف الآخر .

٢ـ حسن الاستماع والاهتمام بكلام الطرف الآخر :

فالمتحدث البارع مستمع بارع ، فلابد من حسن الاستماع ، والانتباه لما يقوله الطرف المقابل ، وعدم مقاطعته ، وتركه حتى ينتهي ، وتدوين أي فكرة تطرأ أثناء كلامه حتى يفرغ تماماً ، وهذا من التواضع ، وإعطاء الأهمية لكلام الآخرين ؛ حتى لايحصل العجب بالنفس ، وأنه الذي ينبغي أن يستمع له وأن غيره ليس عنده ما يستحق ذلك .

كذلك على المحاور المخلص أن يراعي الوقت أثناء حديثه فلا يستأثر بالكلام كله ، بل يعطي الفرصة المكافئة للطرف الآخر ؛ حتى لا يحصل العجب بالنفس المنافي للإخلاص ، أو الاحتقار للطرف الآخر . وكذلك لأن

المستمع لا يستطيع أن يركز في سماع من يحاوره دون مقاطعة له أو انشغال عنه أكثر من ربع ساعة ، وبعد ذلك يكل الذهن ويقل التركيز ، وكما يقال : « إذا أردت أن ينفضّ الناس من حولك ويسخرون منك فتكلم بغير انقطاع ، ولا تعطي لأحد الفرصة في الحديث » .

٣ـ مراقبة النفس أثناء الحوار :

جرت العادة عند أكثر المتحاورين أن يركزوا انتباههم على الطرف الآخر؛ يحصون الملاحظات على فكرته وطريقته في الحوار ، دون أن يراقبوا أنفسهم بنفس المقياس ، فينسى الإنسان نفسه ونوازعها ، ونبرات صوته وطريقته في الرد مما يكون له أثر سيئ على الحوار ، ولا شك أن الإخلاص في الحوار يجعل الإنسان ينتبه لنفسه وعيوبه أكثر من غيره . وضعف الإخلاص يحدث في النفس عجباً وشعوراً بأنها فوق الملاحظات .

٤ـ التسليم بالخطأ:

الإنسان بشر يخطئ ويصيب ، فمن الطبيعي أن يخطئ المحاور في مناقشاته وحواره مع غيره ، والإخلاص لله عز وجل ، يفرض عليه التسليم بالخطأ عندما يتبين له وجه الصواب ، بل يشكر لصاحبه فضله في تبصيره له بالخطأ .

٥ـ الحذر من الكذب والغموض والمراوغة :

قد يلجأ المحاور إلى الأساليب الغامضة ـ بل الكذب أحياناً ـ إذا أحس بضعف حَجته ، أو أنه يريد أن يلبس على الطرف الآخر ويوهمه بما ليس له حقيقة ، وهذه صفة ذميمة يرفضها الإخلاص لله تعالى ، والخلق الكريم ، بل

إن الحوار المبارك هو الحوار الصادق الذي يطمئن كل طرف فيه إلى الآخر ، وإذا طُرِحَ سؤال لا يريد أحد الطرفين الإجابة عليه فليعتذر عن الإجابة ، ولا يلجأ إلى الغموض والمراوغة ؛ لأنه إذا فقدت الثقة بين الطرفين فقد فشل الحوار .

٦ـ الأمانة :

لابد من الأمانة في العرض والنقل واحترام الحقيقة ، وألاّ تقطع عبارة عن سابقتها أو لاحقتها عند الاقتباس لتخضعها لخدمة فكرتك ، فهذا نقص في الدين والإخلاص ؛ لأنه تدليس ، والتدليس أخو الكذب ، فضلاً عن أنه يعرض من هذه صفته للسخرية وعدم الثقة به لتلاعبه بالنصوص .

٧ـ الإنصاف :

من الإنصاف أن يبدي المحاور إعجابه وثناءه على الأفكار الصحيحة ، والأدلة الجيدة ، وحسن الاستدلال ، والمعلومات الجديدة التي يوردها الطرف الآخر ، والإيجابيات والحسنات التي تتمثل فيه أو في فكرته وإن ظهر معها جوانب سلبية ، كما أن من الإنصاف وضع النفس موضع الطرف الآخر ، والظروف المحيطة به ، والتي أدت به إلى الرأي المخالف .

٨ـ وضع الخطأ في حجمه الطبيعي ، وتجنب الشماتة :

عند وضوح خطأ الطرف الآخر يجب أن يشعر بأن الخطأ ميسور التصحيح حتى لا يداخله الشيطان ، وتفقده مسيرة الدعوة إلى الله من جراء خطئه ، كما أن تواضع الطرف المصيب أمر مهم حتى لا يداخله الشيطان ؛ فيشعر بالتعالي على الطرف الآخر ، أو يشمت به وبفكرته الخاطئة ؛ فالمسلم

المخلص يقصد من الحوار إظهار الحق ولو على لسان مخالفه .

٩- على كل طرف في الحوار تجنب الهزء والسخرية :

ويدخل في ذلك كل ما يُشعر باحتقار أحدهما للآخر ، أو ازدرائه لفكرته ، أو وسمه بالجهل ، أو قلة الفهم ، أو التبسمات والضحكات التي تدل على السخرية .

١٠- تجنب ضمائر المتكلم أثناء الحديث :

حتى لا يدخل الشيطان إلى النفس ؛ فيقع فيها العجب والغرور ، ينبغي تجنب إدخال ضمائر المتكلم أو ضمير الجماعة في الحديث كتكرار « نحن ، أنا ، عندنا . . . إلخ » مع ما فيها من المضايقة للطرف الآخر .



الأصل الثاني
العلم
﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾

ويدخل تحته التفصيلات التالية :

١ ـ الاتفاق على منهج الاستدلال والتلقي قبل البدء في نقاش أي مسألة علمية :

لأن النقاش والمنهج مختلف عن الآخر سيؤدي إلى الدوران في حلقة مفرغة ، وسوف لا يسلم أي طرف لما عند الطرف الآخر من دليل أو استنباط ، وحتى تتضح هذه المسألة أكثر ، نضرب لذلك بعض الصور كما ذكرها الشاطبي في (الاعتصام ـ الباب الرابع) تحت عنوان : مآخذ أهل البدع في الاستدلال ، فنذكر منها (باختصار وتصرف) ما يلي :

أ ـ إن من أهل البدع من منهجه الاستدلال بالأحاديث الضعيفة ـ أو الموضوعة أحياناً ـ في العقائد والأحكام ، وهذا المأخذ مرفوض عند أهل السنة ؛ لأنهم لا يرضون الاستدلال بالضعيف ـ فضلاً عن الموضوع ـ في باب العقائد والأحكام ، فإذا لم يتفق مع الطرف المحاور على خطأ هذا المنهج ، فلن يفلح الحوار في الوصول إلى أي نتيجة ؛ لأن الأدلة التي سيستدل بها الطرف الآخر مرفوضة ابتداء من الطرف الثاني لعدم ثبوتها عنده .

ب ـ ومن أهل البدع من هو عكس الصورة السابقة ؛ حيث يرفض الاستدلال بالأحاديث الصحيحة بحجة أنها آحاد ، ولا يقبل من ذلك إلا المتواتر ،

وهذا المنهج مرفوض أيضاً عند أهل السنة ؛ حيث إن الدليل إذا ثبتت صحته أصبح صالحاً للاستدلال ولو كان آحاداً ، وبدون الاتفاق على هذا المنهج ابتداء فلن يفلح الحوار في الوصول إلى أي نتيجة . إذن فمن الأولى في مثل هذه الحالات ، وقبل طرح الأدلة ودلالتها على المقصود، لابد من الاتفاق على قبول الاستدلال بأحاديث الآحاد الصحيحة .

جـ- كما أن هناك من أهل البدع من منهجه الاحتجاج بأقوال شيخه أو إمامه والتعصب لها ، ونبذ أي دليل يخالف ذلك ، بل إن أهل بعض الملل المبتدعة يرون أن أقوال أئمتهم ومشايخهم هي التشريع بذاته ، وممكن أن يأخذ الحلال والحرام من أقوالهم ، بل إن لهم نسخ الشريعة وتحليل الحرام أو تحريم الحلال . فإذا لم يتفق على ضلال هذا المنهج وأن ما جاء في الكتاب والسنة والإجماع هو الأصل ، وأن كل ما خالف ذلك فهو مرفوض مهما كان قائله ، فإنه لا فائدة من النقاش .

د - ومن أهل البدع من يعتمد في استدلاله على الرؤى والمكاشفات ، فيصحح بهما الضعيف ، ويضعف الصحيح ،ويحلل ، ويحرم ، ويشرع بهما ما لم يأذن به الله ، فإذا لم يتفق ابتداء على ضلال وخطأ هذا الاستدلال ، فلن يفلح الحوار ، ولن تتحقق أهدافه أبداً .

وصور مآخذ أهل البدع في الاستدلال كثيرة من أراد التوسع فيها فليرجع إلى الباب المذكور في الاعتصام فإنه مفيد جداً .

٢- مراعاة تفاوت الناس في عقولهم وثقافتهم :

فالعلم بما عند الطرف الآخر من علم وثقافة يعين على اختيار الأسلوب ، والمعلومات التي تناسب عقله وحصيلته العلمية ، فتحديث الناس بما يعقلون

أمر مهم في الحوار ؛ لأن عدم مراعاة ذلك يحصل بسببه فتنة وتشويش للطرف الآخر ، ينعكس أثره على إيجابية الحوار .

٣ـ البيان وحسن العرض :

إن قوة التعبير وفصاحة اللسان وحسن البيان والعرض من العوامل المهمة في إيضاح الفكرة وأدلتها ؛ مما يكون له أكبر الأثر في قبول الطرف الآخر للفكرة ، وسهولة إقناعه بحسن الاستدلال عليها ، وهنا يجب تجنب الألفاظ الغريبة صعبة الفهم ، أو الألفاظ المجملة التي تحتمل عدة معانٍ من غير توضيح للمعنى المراد منها .

٤ـ البدء بمواطن الاتفاق والنقاط المشتركة :

إن البدء بنقاط الاتفاق لدى الطرفين ، كالمسلَّمات والبديهيات وغيرها من الأمور المتفق عليها كل ذلك يقلل الفجوة ويوثق الصلة بين الطرفين ، ويحس كل منهما أن هوة الخلاف قليلة ، وهذا له مردوده النفسي في الحوار . وبالعكس ؛ فإن البدء بنقاط الخلاف يوسع فجوة الخلاف ، ولو من الناحية النفسية ، ولذلك يحرص المحاور الناجح أن يلقي على الطرف الآخر الأسئلة التي سيكون جوابها « بنعم » ، ويتجنب ما يكون جوابه النفي ؛ لأن كلمة « لا » عقبة كؤود يصعب التراجع عنها .

والأمثلة في القرآن الكريم كثيرة ؛ فمثلاً في سورة المؤمنون ، يقول تعالى : ﴿ **قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٨٤ - ٨٩] .

فهنا نجد أن الله سبحانه وتعالى ألقى عليهم الأسئلة التي يعلم أن جوابهم عليها بالموافقة ، وذلك لإقامة الحجة عليهم في تقرير توحيد الألوهية؛ لأن ما وافقوا عليه مستلزم لما أنكروه .

٥- التوثيق :

ينبغي أن تكون مسائل الحوار موثقة من الناحية العلمية والإسنادية ، فلا يستدل بشيء إلا مسنداً لقائله ، ومصدره الذي أخذه منه ، وأن يستعان بذكر الإحصاءات التي تخدم الفكرة ، والمراجع التي رجع إليها ؛ لأن ذكر الحقائق مدعمة بذكر المصادر والإحصائيات الموثقة ،أعمق أثراً في النفوس من ذكرها مجردة ، كما ينبغي في مثل هذه الحالات الإعراض عن النقول الضعيفة ، والحجج الواهية .

٦- عدم تعرض أحد الطرفين لكلام الآخر ومناقشته قبل فهم مراده تماماً : والتفكير العميق في أدلته ثبوتاً ودلالة ، وألا يقدم على تصحيح فكرة ما أو تخطئتها قبل التأكد من ذلك تماماً .

٧- الإحاطة بمواطن الخلاف في القضية المطروحة للحوار:

ويضاف إلى ذلك : الإلمام بأنواع الاختلاف ما يجوز فيه ومالا يجوز ؛ لأن جهل هذا الأمر يوسع دائرة الاختلاف ، فيحصل الاختلاف والفرقة حول مسألة قد يسع الخلاف فيها والاجتهاد ، كما ينبغي الإلمام بأسباب الاختلاف بين علماء الأمة والتي ذكرها شيخ الإسلام في رسالته القيمة (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) .

وبهذه المناسبة ينبغي الإشارة إلى مسائل الخلاف ،وأنواعها ، ومن هو

المحمود فيها ، ومن هو المذموم؟ ، وما هي المسائل التي يسعها الخلاف ، والمسائل التي لا يسعها؟ إلى آخر ذلك مما يتعلق بموضوع الاختلاف ، فنقول وبالله التوفيق :

إن الاختلاف ينقسم إلى قسمين :

١ ـ قسم يحمد فيه أحد الطرفين، ويذم الطرف الآخر ؛ مثل الاختلاف الواقع بين المؤمنين والكافرين ، أو بين أهل السنة وأرباب البدع .

وهذا القسم من الاختلاف هو المذكور في قوله تعالى : ﴿ **وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ** ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وكقوله تعالى : ﴿ **هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ** ﴾ [الحج: ١٩]، فكل ما يتصل بقضايا العقيدة وأصولها والتي لم يختلف عليها سلف الأمة ،وإنما ظهر الاختلاف واستشرى بعدهم ، فهو داخل تحت هذا القسم .

٢ ـ قسم يذم فيه الطرفان المختلفان، إذا سبَّب هذا الاختلاف الفرقة والعداوة ، ويحمد فيه الطرف الذي لم يجعل هذا الاختلاف سبباً في الفرقة والمفاصلة .

وهذا النوع من الاختلاف هو الذي وَسِع السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ ولم يحصل بينهم بسببه افتراق ولا بغضاء؛ فكل ما وسع السلف الصالح رحمهم الله تعالى فيما اختلفوا فيه ، فيجب أن يسعنا ، ويندرج تحت هذا القسم عدة صور نجملها ، فيما يلي :

أ ـ اختلاف في تحديد موضوع الخلاف : وذلك بأن نجد أحد المختلفين قد ذهب إلى موضع من النزاع غير ما ذهب إليه الآخر ، أو أن أحدهما سماه

باصطلاح معين، والآخر سماه باسم آخر ، فظهر أن هناك اختلافاً ، والحقيقة أنهما اسمان مشتركان لمسمى واحد ، فلو حددت المصطلحات ، ودقق في المعاني والألفاظ لظهر أن هناك اتفاقاً وليس اختلافاً ؛ كالاختلاف الحاصل في تفسير الصراط المستقيم في قوله تعالى : ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ [الفاتحة: ٦] ؛ حيث فسر بالإسلام والقرآن وسنة الرسول ﷺ ، وكلها أسماء مشتركة لمعنى واحد هو الدين الإسلامي ؛ حيث إن كل قول داخل في معنى القول الآخر ، وهذا الأمر لا يأتي إلا بالتفكير الهادئ مع الإخلاص لله عز وجل .

ب ـ قد يتضح بعد التفكير وتحديد موضع النزاع أن هناك اختلافاً لكن هذا الاختلاف ليس اختلاف تضاد ؛ بمعنى أن المعنى الكلي ليس فيه خلاف ، إنما الخلاف في تنوع آحاد هذا الكلي ، وتعدد الأمثلة التي تحته ؛ كمن يذهب إلى معنى جزئي ، وآخر يذهب إلى معنى جزئي آخر يندرج كلاهما تحت المعنى العام الكلي .

مثال ذلك : تفسير قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ .

[فاطر: ٣٢]

حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن الظالم لنفسه المفرط في الصلوات المكتوبة ، والذي يؤخرها عن وقتها ، والمقتصد المؤدي للصلاة أثناء وقتها ، والسابق بالخيرات المؤدي للصلاة في أول وقتها .

وذهب بعضهم إلى أن السابق هو المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والظالم آكل الربا ومانع الزكاة، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المطلوبة ، ولا يأتي

الربا.

وكل قول، فيه ذكر نوع داخل في الآية، إنما ذُكر لتعريف المستمع بتناول الآية له ، وتنبيهه على نظيره. وكل هذه الأقوال ليس بينها خلاف تضاد ؛ لأنها ترجع إلى معنى واحد ، وهو أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للمحرمات ، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات ، والسابق بالخيرات يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات . (انظر : مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية).

جـ- وهذه الصورة من الاختلاف الذي وسع السلف - رحمهم الله تعالى - بأن يكون المعنيان متغايرين لكن ليس بينهما منافاة ؛ لأن هذا قول صحيح ورد فيه دليل ، وذلك قول صحيح ورد فيه دليل أيضاً ، ولا يجوز أن يكون هذا سبباً في الاختلاف. وهذا كثير في المنازعات لعدم معرفة أحد الطرفين بما عند الآخر من دليل.

ومثال ذلك : الاختلاف في صفة الإقامة للصلاة ، فمن قائل بشفعها ، وقائل بإفرادها ، والاختلاف في القراءات . . . إلخ .

وكل ما ورد في الشريعة، عليه دليل صحيح ، ووسع السلف الصالح، فإنه لا يجوز أن يكون سبباً في الاختلاف المؤدي إلى الفرقة والتباغض، وهذا بالطبع لا يأتي إلا نتيجة التفكير والبحث وعدم التعجل في رد قول المخالف إلا بعد الاطلاع على كل ما يتعلق بالموضوع من أدلة واستنباطات ، فقد يتضح بعد البحث أن كلا القولين ثابت وصحيح عن الرسول ﷺ ، وبذلك ينتهي الخلاف.

د - الخلاف حول قضية معينة ورد الدليل عليها ، وأورد المخالف دليلاً آخر مخالفاً لها ، لكن أحد الدليلين أقوى من الآخر وأرجح ، فهذا أيضاً لا

ينبغي أن يكون سبباً في الفرقة ؛ لأن ما وسع أصحاب رسول الله ﷺ وأئمة السلف ينبغي أن يسعنا .

وهذا يقع في كثير من الأحكام التي اختلف فيها العلماء ، وعندما يعلم أن هؤلاء الأئمة ما اختلفوا لهوىً في نفوسهم ، بل وقف كل منهم مع ما عنده من الدليل ، فربما وصل إلى أحدهم ما لم يصل الآخر ، أو صح عنده ما لم يصح عند غيره ، كما بيَّن ذلك شيخ الإسلام في رسالته : (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) ، ولكن مع ذلك فالواجب في هذه الحالة العمل بالدليل الراجح وترك المرجوح ،عند من تبين له ذلك بوجه شرعي .

ولكن هذا لا يعني موافقة من يأخذ بالأقوال الشاذة أو بعض سقطات العلماء ، والتي يكون الدليل على خلافها ؛ بل الواجب تصحيح المخالف وإرجاعه إلى الدليل ، وتوضيح وجه الشذوذ فيما أخذ به ؛ لأن هناك من يقول : (أي قضية لم يجمع عليها الصحابة فالأمر فيها واسع) وهذا القول ليس صحيحاً على إطلاقه ، فقد ذكر الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله في رسالته : (إتمام المنة والنعمة في ذم اختلاف الأمة) بعد كلامٍ جيدٍ حول هذا الأمر ننقل منه المناسب لموضوعنا . قال رحمه الله تعالى :

« وأما احتجاجه بقول النووي : « إن العلماء إنما ينكرون على من خالف ما أجمع عليه ، وأما المختلف فيه فلا إنكار فيه لأنه على أحد المذهبين : كل مجتهد مصيب . قال : وهذا هو المختار عند كثير من المحققين أو أكثرهم» . انتهى ما حكاه . فيقال في جوابه : أنت لم تستكمل عبارة النووي، بل تصرفت فيها ، وأخذت ما تهوى وتركت بقية العبارة؛ لأنه

عليك مع اتصالها وتقييد بعضها ببعض .

قال النووي بعد ما تقدم : لكن إن أريد به على جهة النصيحة - أي الخروج من الخلاف - فهذا حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق ، فإن العلماء متفقون على الحث إلى الخروج من الخلاف إذا لم يلزم منه إخلال بالسنة أو وقوع في خلاف آخر .

هذا كلام النووي قد استبان لك أن مراده إذا لم يظهر دليل ، ولم يترجح جانب الإنكار بكتاب أو سنة أو إجماع أو قياس جلي . . وأما أقوال الآحاد من العلماء فليست بحجة إذا لم يقترن بها دليل شرعي ، وما زال العلماء يردون على من هو أجل منه » اهـ[1] .

وبعد هذا التفصيل فيما يجوز الاختلاف فيه وما لا يجوز ، نتوجه إلى جميع المختلفين أن يقفوا وقفة مع نفوسهم ، ويسأل كل واحد منهم نفسه أو صاحبه ، ومن يخلص له النصح والتذكرة : أين نحن من أنواع الاختلاف ؟ وأين نحن من البغي والاعتداء في الخلاف؟ ، وأين نحن من أدب الخلاف وأخلاقه ؟ ، وما كانت الأمة لتفترق إلا بسبب البغي والحسد والجهل ؛ وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : «ولكن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي لا لمجرد الاجتهاد»[2] .

٨ - أن يعطى كل طرف في الحوار فرصته في التعبير عن فكرته والإحاطة بها من جميع الوجوه ؛ لأن قطع الفكرة أو التشويش عليها يؤثر على تسلسل الأفكار وترابطها .

(١) إتمام المنة والنعمة : ص٤٧ ، ص٤٨ .
(٢) الاستقامة (١/ ٣١).

٩ـ لا أعلم :

يجب أن يكون عند أصحاب الحوار من الإخلاص والخوف من الله عز وجل بأن يقول أحدهم : لا أعلم ، عند السؤال عن مسألة لا يعلمها ، أو لم يبحثها بحثاً كافياً ، وألا يستحي من ذلك ، وأن يطلب الإمهال حتى لقاء آخر ليأتي بالجواب عنها إن وجد جواباً .

١٠ـ التفريق بين الفكرة وصاحبها :

وذلك بأن يتم تناول الفكرة المطروحة بالبحث والتحليل والنقد أو التزكية ، بعيداً عن صاحبها حتى لا يتحول الحوار إلى مبارزة كلامية تناقش فيها تصرفات الأشخاص ونواياهم ، ولكن في بعض الأحوال ينبغي تناول أصحاب الأفكار أنفسهم بالجرح والتعديل حسب مقاييس أهل السنة ، وذلك عندما نخشى ضلالاتهم أو تأثر الناس بأفكارهم ، ولكن كل ذلك يتم بإخلاص وإنصاف .

١١ـ إقفال المناقشة :

عندما تتسع شقة الحوار ، أو يتضح أثناء النقاش أن هناك أموراً أساسية برزت لم يتم التحضير لها ، أو لا يكفي الوقت لمناقشتها ، فيحسن في مثل هذه الأحوال إقفال النقاش وتأجيله إلى وقت آخر يتم التحضير والاستعداد الجيد له ، كما ينبغي قفل النقاش عندما يتبين أن الطرف الآخر في الحوار غير جاد ، أو مستهتر ، أو كان دون المستوى المطلوب للخوض في القضايا المعدة للحوار .

❋ ❋ ❋

الأصل الثالث
ظروف الحوار والمتحاورين
﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾

وهذا هو الأصل الثالث الذي يراعى عند الحوار والمناظرة ، وقد أشارت الآية الكريمة إلى جانب من ذلك عند قوله تعالى : ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ ، وسنشير هنا ـ إن شاء الله تعالى ـ إلى بعض الجوانب التي تتعلق بظروف الحوار؛ لأن إلغاءها يؤثر كثيراً على طبيعة الحوار ونتيجته ، ومن هذه الجوانب ما يلي :

١ـ مراعاة الجو المحيط بالحوار :

ويقصد بالجو هنا الجو النفسي ، والمؤثرات المحيطة بالحوار ، وذلك كما في الآية الكريمة ؛ حيث يوجه الله عز وجل طلاب الحق أن يبتعدوا عن الأجواء الجماعية والغوغائية ؛ لأن الحق قد يضيع في مثل هذه الأجواء ؛ حيث التقليد الأعمى ، والتبعية للأكثرية ، بينما لو قام الإنسان مع نفسه أو مع شخص آخر للتفكير حول قضية ما ، فإنه يكون أقرب إلى إصابة الحق منه في الاجتماعات الكبيرة ، وبقدر ما يقل المتحاورون أو السامعون في الحوار بقدر ما ينقاد إلى الحق عند ظهوره .

٢ـ مراعاة الجو الحسي للحوار :

وذلك من حيث البرودة والحرارة والاتساع والضيق . . إلخ ؛ لأن وجود ما يؤذي في جو الحوار يؤثر على طبيعة النقاش ونتيجته ، وقد يبتر

النقاش ، أو يختصر دون وصول إلى نتيجة ، وكذلك ـ مما يتعلق بهذا الجانب ـ اختيار المكان الهادئ ، وإتاحة الزمن الكافي للحوار ، فلا تصلح أماكن الدراسة ، والعمل ، والأسواق للحوار ، وذلك لضيق الوقت ، ولوجود ما يشغل .

٣ـ مراعاة الظرف النفسي والاجتماعي للطرف المحاوَر أو المحاوِر :

فلا يصلح أبداً أن يتم الحوار مع شخص يعاني من الإرهاق الجسدي لتعب ، أو حاجة لنوم ، أو بسبب جوع ، أو يعاني من إرهاق نفسي : كهمٍ ، أو غمٍ ، أو حزن ؛ لأن هذه الظروف لابد أن تؤثر حتماً على الحوار؛ إما ببتره قبل تمامه ، أو حدوث انفعالات ، وغضب ، وتوتر ، يؤدي بالحوار إلى الفشل الذريع .

٤ـ أهمية المحادثة الأولى والتعارف الذي يسبق الحوار:

إن المحادثات الأولى والتعارف الأول على الطرف المحاور يساعد على سهولة البدء في المناظرة وسيرها فيما بعد بالشكل المناسب؛ إذ من الصعب أن يبتدأ مباشرة بالحوار مع أشخاص لم يتم أي تعارف معهم ولو كان يسيراً؛ لأن في جلسة التعارف هذه فائدة في التعرف على طبيعة الطرف الآخر، ولو بشكل مبدئي من خلال مظهره ، وحديثه ، ونبرات صوته ، وحصيلته العلمية ؛ مما يكون له الأثر في معرفة الظروف النفسية ، والميول الذهنية للشخص المحاور، وهذا بدوره يساعد في طريقة وأسلوب الحوار مع الناس، كلٌ حسب ظروفه .

ويمكن أن تتم جلسة التعارف هذه على شكل دعوة غداء أو عشاء تتم فيها أحاديث غير رسمية عن : الصحة ، والعمل ، والأولاد ، وعن رأيه في

الكتاب الفلاني ، وفي الفكرة الفلانية ، وعن أي أمر عام ليس له علاقة بموضوع الحوار .

فهذه الطريقة على أي حال أفضل بكثير من أن يفاجأ المرء بأشخاص لم يضع في ذهنه أي تقدير لهم ، ولظروفهم ، فيؤدي ذلك إلى فشل الحوار ، وكذلك الاكتفاء بالتعريفات العابرة من الآخرين؛ كأن يخبر بأن الشخص لطيف ، وسهل التعامل ، وحليم ، ويفاجأ بالعكس تماماً .

٥- أن يكون المتحاوران متقاربين ما أمكن في العلم والجاه : وأن يتجنب مناظرة ذي هيبة يخشى أو يستحي من مناظرته ؛ لأن ذلك يؤثر على قوة الحجة والجرأة على الإدلاء بها .

٦- ينبغي اجتماع أصحاب الحوار في مكان واحد ، وتقابلهما فيه : وأن ينظر بعضهم للآخر ؛ لأن رؤية الوجوه والملامح له أثر في قوة الحجة أو ضعفها ، وفي هذه الحالة لا تصلح المراسلات للحوار ، ولا يصلح كذلك الحوار بواسطة الهاتف إلا في أضيق الظروف .

٧- مراعاة الآداب الإسلامية (القولي منها والعملي) :

والذي يكون له مردوده النفسي على أطراف الحوار ، وسلامة قلوبهم وصفائها ، والانقياد للحق عند ظهوره ، ومن هذه الآداب :

أ - احترام الطرف الآخر ، والتأدب معه ، وحفظ اللسان عما يسوءه من الألفاظ ، وعدم السخرية برأيه ، وأن يثني عليه بما فيه وما في فكرته، من الإيجابيات والخير الكثير .

ب - التلطف في العبارات أثناء الحوار ، فبعض العبارات قد تفتح

مغاليق النفوس ، وهي يسيرة على من يسرها الله عليه ؛ من الكلمة الطيبة التي تقرب النفوس، وتزيل الجفوة ، وتهيئ النفوس لاستقبال الحق ، والأمثلة في ذلك كثيرة ؛ كمناداة الطرف الآخر بكنيته ، وإذا كان أكبر سناً أو علماً ، يا أستاذي ويا شيخي . . . اسمح لي . . . عفواً .

جـ ـ ابتسم في وجه محدثك وأطلق أسارير الوجه أثناء الحوار ؛ فهذا يضفي على الحوار جو الألفة والأنس .

د ـ اجتنب الغضب ما أمكن ، ولو عارضك الطرف الآخر ، أو أغلظ القول لك ، واستخدم الرفق واللين .

هـ ـ تجنب اللوم المباشر عند وضوح خطأ الطرف الآخر ؛ فالنفس غالباً لا تتحمل قول : (أخطأت) أو (سأثبت لك أنك مخطئ) أو (أنا أخالفك في الرأي) ؛ فهذه الألفاظ قد تجرح عند بعض الناس كبرياءه وشخصيته .

لكن عندما يبدو الخطأ فيمكن معالجته بمثل قولك : لكن أرى رأياً آخر قد أكون مخطئاً فيه ، أو لعلك تصلح لي خطئي . وإذا كان الخطأ يمكن إصلاحه ببعض الإضافات ، فتقول : هل لك أن تفعل هذا؟ أو : ما رأيك في إضافة هذه العبارة . . ؟ ، أو : ما المانع لو اتفقنا على هذا التعديل ؟ . . . إلخ .

٨ـ التحدي والإفحام :

وهذا الأسلوب يلجأ إليه مع المماحكين الذين همهم الجدال والاستهزاء وإثارة الشبه وتضليل الناس ؛ فمثل هؤلاء لا ينفع معهم اللين والرفق ، وإنما

الذي ينبغي في حقهم إفحامهم ومناظرتهم على الملأ الذين قد ضللوا بسببهم؛ وذلك حتى تدحض حجتهم وتسقط هيبتهم من النفوس وتبين وهن فكرتهم واضطرابها . لكن ينبغي لمن أراد مناظرتهم أن يكون على مستوى من العلم، والذكاء ، والشجاعة ؛ بحيث لا يؤتى من قبل قلة علمه، أو سطحيته ، أو نحو ذلك .

٩ـ المحافظة على هدف الحوار والوصول إلى نتيجة :

تحديد هدف الحوار ـ قبل الدخول فيه ـ أمر مهم ، والمحافظة على الهدف أثناء الحوار أيضاً أمر مهم ؛ لأن ذلك يحافظ على التركيز ، وعدم الخروج عن موضوع الحوار بمناقشة جزئيات أو أمور جانبية بعيدة عن موضوع الحوار؛ مما يكون له الأثر في ضياع الوقت ، وعدم الوصول إلى نتيجة في آخر الأمر.

*** وبعد :**

فهذه جملة من أصول الحوار وآدابه ،أعرضها على عِلاتها ونقصها ، لعلها تفتح المجال لعلماء الأمة ودعاتها أن يفصلوا الأمر حَول هذا الموضوع ويكملوا ما نقص منه ، فالمسلمون في حاجة ماسة إلى استقصائه وإتمامه .

أسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا الحديث القلوب المخلصة التي أدمتها الخلافات وخيم اليأس على بعضها ، ولعل الأخوة الذين صاروا أعداء وهم أقرب الناس بعضهم إلى بعض، أن يقوموا لله عز وجل ويتفكروا مع أنفسهم أو مع بعضهم البعض ، وأن يحفظ كل واحد منهم حق أخيه ، ويعلم أن أخاه وإن كان مخطئاً في شيء فقد أصاب في أشياء أخرى ؛ ما دام أنه من أهل السنة وأتباع السلف .

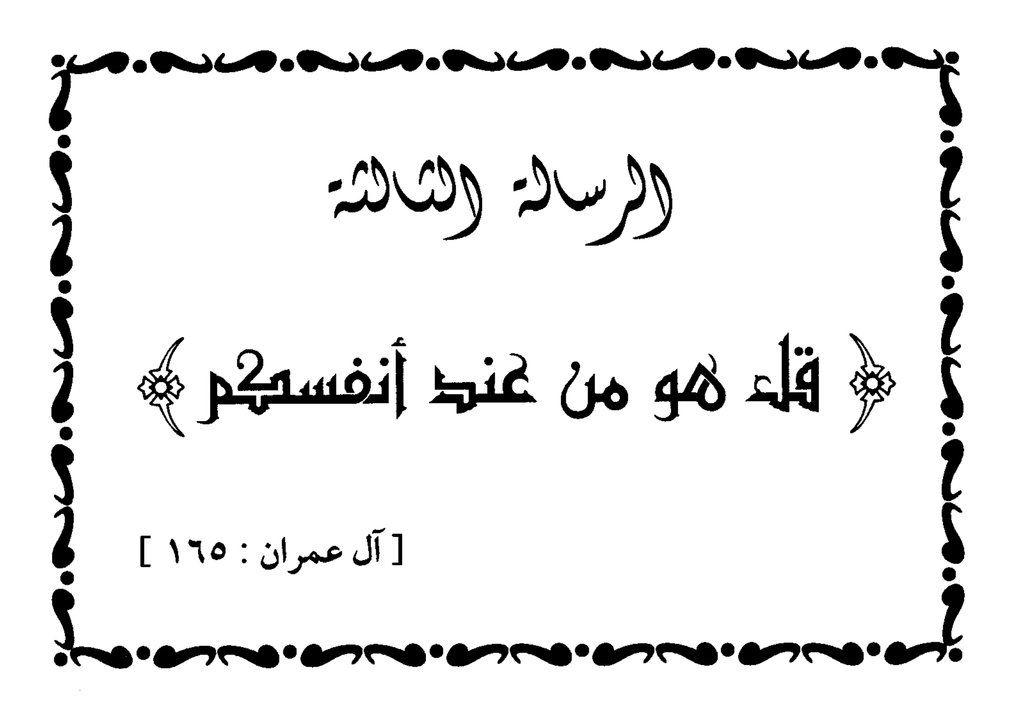
فيا أتباع محمد ﷺ ، ويا محبي أصحاب محمد ﷺ جردوا أنفسكم لله تعالى ، واقتدوا بسلف الأمة ، الذين كانوا حريصين على جمع الكلمة وسلامة القلوب ، وكان أبغض شيء لديهم الفرقة والاختلاف ، فهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عندما قيل له : إن عثمان بن عفان أتم بالمسلمين في منى وكانت السنة القصر ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم لم يمنعه ذلك من أن يأتم بعثمان ويتم الصلاة معه أربعاً ، فلما قيل له في ذلك ، قال : إن الخلاف شر . فحري بمن أحب السلف والتزم بمنهجهم أن يلتزم بمنهجهم الشامل في الاعتقاد والسلوك .

وما تم عرضه في هذا البحث يمثل إن شاء الله تعالى بعض آداب السلف الصالح في حوارهم واختلافهم ، وهي بدورها الآداب التي هدانا الشرع إليها لنخرج من الاختلاف ؛ بل ننازعه بقدر الله عز وجل ، وأسبابه الشرعية التي شرعها الله لنا والتي لا سبيل للنجاة والخلوص من الشرور إلا بالرجوع إليها .

ومن سلك سبيل الهدي وصدق مع الله عز وجل ، في طلبه للجماعة والائتلاف ، يسر الله له سبيله ، وألَّف بينه وبين إخوانه من الدعاة الصادقين ، ومن سلك سبيل الضلال من أهل الزيغ والفرقة والاختلاف ، أضله الله سبيله وأزاغه عن الهدى : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت : ٦٩] . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *





الرسالة الثالثة

﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾

[آل عمران : ١٦٥]

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن عنوان هذا الموضوع جزء من آية كريمة نزلت مع ما قبلها وما بعدها في غزوة أحد الشهيرة ، والتي أصاب المسلمين فيها ما أصابهم من القرح الشديد ؛ حيث قُتل فيها سبعون من الصحابة ، وجُرِح الرسول الكريم ﷺ ، وشُجَّ وجهه الشريف ، وانكسرت رباعيته ﷺ ، وهذه الآية واحدة من ثمانين آية نزلت في سياق الغزوة في سورة آل عمران ، وفي هذه الآيات من العبر والدروس الشيء العظيم ، ونكتفي في موضوعنا هذا بالآية المذكور جزء منها في عنواننا هذا ؛ حيث يقول الله تعالى : ﴿ **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [آل عمران: ١٦٥] .

وقد جاءت هذه الآية تعقيباً على سؤال سأله أصحاب محمد ﷺ عن سبب الهزيمة التي حلت بهم، وجواباً لاستغرابهم القرح الشديد الذي أصابهم وهم المسلمون وقائدهم سيد البشر ، وحبيب الرحمن محمد ﷺ، وعدوهم

المشركون المشاقون لله وللرسول ، فجاءهم الجواب من العليم الخبير العزيز الحكيم أنهم أُتوا من عند أنفسهم ، وبسبب ذنوبهم وقد قدر الله عز وجل هذه المصيبة ، لحكم أخرى ذكرتها الآية التالية لهذه الآية ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٦ ، ١٦٧] .

قال الإمام الشوكاني رحمه الله حول قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ ... ﴾ الآية :

«الألف للاستفهام بقصد التقريع ، والواو للعطف . والمصيبة : للغلبة والقتل الذي أصيبوا به يوم أحد . ﴿ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا ﴾ يوم بدر ؛ وذلك أن الذين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعون ، وقد كانوا قتلوا يوم بدر من المشركين سبعين وأسروا سبعين ، فكان مجموع القتلى والأسرى يوم بدر مثلي القتلى من المسلمين يوم أحد .

والمعنى : أحين أصابكم من المشركين نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم وقلتم : من أين أصابنا هذا ؟ ، ونحن نقاتل في سبيل الله ، ومعنا رسول الله ﷺ ، وقد وعدنا الله بالنصر عليهم .

وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ أمر لرسول الله ﷺ بأن يجيب عن سؤالهم بهذا الجواب ؛ أي هذا الذي سألتم عنه هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم به الرسول ﷺ من لزوم المكان الذي عيّنه لهم ، وعدم مفارقتهم له على كل حال .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُم ﴾ خروجهم من المدينة ، وقيل : هو اختيارهم الفداء يوم بدر على القتل» . اهـ .

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه الآية بقوله :

« لقد كتب الله عز وجل على نفسه النصر لأوليائه حملة رايته ، وأصحاب عقيدته ، ولكن علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم ، وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيمهم ، وسلوكهم ، وباستكمال العدة التي في طاقتهم ، وبذل الجهد الذي في وسعهم ، فهذه سنة الله ، وسنة الله لا تحابي أحداً .

فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور ، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير ؛ فإن كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السنن ، وإبطال النواميس ؛ فإنما هم مسلمون ؛ لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس .

ولكن كونهم مسلمين لا يذهب هدراً ، كذلك ، ولا يضيع هباءً ؛ فإن استسلامهم لله وحملهم الراية وعزمهم على طاعته ، والتزام منهجه - من شأنه أن يرد أخطاءهم وتقصيرهم خيراً وبركة في النهاية ، بعد استيفاء ما يترتب عليها من التضحية والألم والقرح ، وأن يجعل من الأخطاء ونتائجها دروساً وتجارب تزيد من نقاء العقيدة ، وتمحيص القلوب ، وتطهير الصفوف ، وتؤهل للنصر الموعود ، تنتهي بالخير والبركة ، ولا تطرد المسلمين من كنف الله ورعايته ، بل تمدهم بزاد الطريق ، مهما يمسهم من القرح والألم والضيق أثناء الطريق .

وبهذا الوضوح والصراحة معاً يأخذ الله الجماعة المسلمة ، وهو يرد على تساؤلها ودهشتها مما وقع ، ويكشف عن السبب القريب من أفعالها : ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ ، أنفسكم هي التي تخلخلت وفشلت وتنازعت في الأمر ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فأنفسكم هي التي أخلت بشرط الله وشرط رسوله ﷺ ، وأنفسكم هي التي خالجها الهواجس والأطماع ، وأنفسكم هي التي عصت أمر رسول الله ﷺ ﴿وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ ؛ فهذا الذي تستنكرون أن يقع لكم وتقولون : كيف هذا ؟ ، هو من عند أنفسكم بانطباق سنن الله عز وجل عليكم حين عرضتم أنفسكم لها » اهـ

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى : ٣٠] ، ومعنى هذه الآية من الوضوح بحيث لا يحتاج معه إلى توضيح وتفسير .

ويقول الله عز وجل : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية :

« يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه كما قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ » [الرعد : ١١] اهـ .

وقال صاحب الظلال رحمه الله حول نفس هذه الآية :

« إنه من جانب يقرر عدل الله عز وجل في معاملة العباد ، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ، ويبدلوا سلوكهم ، ويقلبوا أوضاعهم ، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختيار ، من النعمة التي لم يقدروها ويشكروها .

ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري ، عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله ، ويحصل التغيير القدري في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم ، وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم ، ومن جانب ثالث يلقي تبعة عظيمة ـ تقابل التكريم العظيم ـ على هذا الكائن ، فهو يملك أن يستبقي نعمة الله عليه ، ويملك أن يزاد عليها إذا هو عرف فشكر ، كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر وانحرفت نواياه ، فانحرفت خطاه » اهـ.

❋ ❋ ❋

أهمية الموضوع

ومن هذا الاستعراض العام لمفهوم هذه الآيات يتبين لنا خطورة العوائق الداخلية في أنفسنا ، والتي لها دور كبير في حصول المصائب الفردية والجماعية ، فنحن المسلمين اليوم كثيراً ما نلقي أسباب هزائمنا وتأخرنا عن غيرنا على العوائق الخارجية كالغزو الفكري ، وكيد الكفار والمفسدين .

ولا شك أن للعوائق الخارجية دوراً في مصائبنا ، لكنها لم تكن لتؤدي دورها لو أصلحنا ما بأنفسنا ، كما قال تعالى : ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾ [آل عمران : ١٢٠] ، فما كان لكيد الأعداء الخارجيين أثر لو صبرنا واتقينا الله عز وجل وحاربنا عدونا الداخلي الذي بين جوارحنا ، كما قال أحد الدعاة ـ رحمه الله تعالى ـ تلك المقولة الحكيمة : « أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم في أرضكم » .

إن الاهتمام بإزالة العوائق الداخلية، جزء أساسي من اهتمامنا بتوفير شروط الانتصار على العوائق الخارجية، التي تحاول منع تحركنا نحو أهدافنا .

إننا معشر الدعاة كثيراً ما ننسى أنفسنا ، ونحن ندعو الناس ؛ حيث نجعل أكثر همنا في الآخرين ، والتفتيش عن عيوبهم ونقدهم، وفي هذه الزحمة ينسى أو يتناسى الإنسان نفسه ، وما فيها من الأمراض والمخالفات التي قد تفتك به في يوم من الأيام ، وإن نسيان النفس والحرص على إصلاحها والوقوف على سيئاتها، علامة خطيرة يخشى على صاحبها أن يقع

تحت قوله تعالى : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر : ١٩].

وعندما نطرح مثل هذا الموضوع ؛ فإننا نحتاج في ذلك إلى قومة لله عزوجل صادقة ، ووقفة شجاعة مع أنفسنا ، لنفتش وننقب في أعمالنا الظاهرة والباطنة ، وسنجد وللأسف ـ كما سيتبين ـ أشياء وأشياء ، لولا ستر الله عز وجل ورحمته لما قبل الناس منا كلمة واحدة .

وقبل أن نستعرض هذه الأمراض والمثالب الموجودة في حياة بعضنا ، أنبه إلى ملاحظة مهمة : وهي أن ننتبه لخطر الشيطان ومداخله ونحن نطرح مثل هذه المواضيع ؛ لئلا يدخل علينا مدخلاً آخر فيزيد الطين بلة كما يقال .

وذلك لأنه قد نجد بعد طرح هذه المخاطر أننا أو بعضنا واقعون في بعضها أو أكثرها ، وهنا ينبغي ألا ندع للشيطان فرصة ولا مدخلاً علينا ليحطم نفوسنا ، ويبث اليأس فيها محاولاً القضاء على ما فيها من خير بقوله لمن هذه حاله : أنت لست على مستوى الدعوة ، ولا على مستوى من يدعو إلى الله ، ويمثل الإسلام ، وأنت منافق ، وأنت وأنت . . . فيزداد بذلك انحرافاً ، وبعداً عن الخير ، وأهله . فالحذر الحذر من هذا المزلق والمدخل الخطير .

والمقصود من طرح هذا الموضوع هو تنبيه الغافل ، وتذكير الناسي إلى ضرورة الرجوع إلى النفس ، ومحاسبتها وتفقدها ، وأن نتذكر أثر الخلل الداخلي في مصائبنا أفراداً وجماعات ، لعلنا نقوم من عثرتنا ، ونصلح فساد قلوبنا وأخلاقنا .

وبداية العلاج اكتشاف المرض والشعور بوجوده . والشعور بالمرض

مصيبة ، ولكن أعظم من ذلك أن يكون موجوداً ولا يشعر بوجوده ، أو يشعر به لكنه يسلك بها سبيلاً ، يوحي إلى نفسه ومن حوله أن ما هو عليه كياسة وفطنة ، وقد يتعسف ببعض الأدلة لتبرير حاله المتردية .

إذن يصبح الخطب غير خطير إذا اكتشف الإنسان هذه الأمراض من نفسه في وقت مبكر ، واعترف بها ، ولم يحاول تسويغها ؛ لأن العلاج يبدأ من معرفة الداء ، والله المستعان .

وما سنتعرض له في هذه الدراسة هو بعض ما توصل له الذهن من العوائق الداخلية ، رآها الكاتب واستقرأها من نفسه أو ممن حوله من دعاة المسلمين ، ويمكن تلخيص هذه الأمراض والعوائق فيما يلي :

١ـ مساوئ القلوب وأمراضها :

إن أمراض القلوب لتعتبر أخطر الأمراض ، وأشنعها على الإطلاق ، وما ذاك إلا لأن القلب هو سيد الأعضاء ؛ فبصلاحه تصلح سائر الأعضاء ، وبفساده يحصل الفساد للجميع ، وهذا معنى قوله ﷺ : « **ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله** ، **وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب** »[1] .

فبصلاح القلب تصلح النيات والمقاصد ، وتصلح العين فلا تنظر إلا في مرضات الله عز وجل ، وتصلح الأذن فلا تسمع إلا ما يرضي الله عز وجل ، ويصلح اللسان فلا ينطق ولا ينفلت إلا بما فيه مرضات الله عز وجل ، وتصلح اليد فلا تبطش إلا فيما يحبه الله عز وجل ، وتصلح الرجل فلا

---

(١) متفق عليه .

تخطو إلا إلى ما يرضي الله عز وجل ، وبالجملة يصلح كل كيان الإنسان ؛ ظاهره وباطنه ، فلا يتحرك إلا في نور الله عز وجل ، وبنور الله عز وجل .

وإن هذا القلب ـ على عظم شأنه ـ كثيراً ما ننساه ، ونتشاغل بغيره من الأعمال الظاهرة ، ومع أن هذا مطلوب إلا أنه لابد أن يكون لأعمال الجوارح أصل ومنطلق إيماني قلبي ، وهذا واضح من تعريف الإيمان عند أهل السنة ؛ فهو قول وعمل ؛ قول القلب وعمله ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح ، ومع أنه لا ينبغي أن يطغى اهتمام شيء على شيء ، إلا أنه ينبغي أن نعطي لأعمال القلوب اهتماماً خاصاً باعتبارها الأصل الأصيل في كل الأعمال .

والمقصود أن هناك تفريطاً في التفتيش عن القلوب وأمراضها ودسائسها ، في الوقت الذي نجد من أصيب ببعض هذه الأمراض قد حافظ على الأعمال الظاهرة ، وتورع عن بعض الصغائر والمشتبهات ، ويحسب أن الذي ينقصه هو هذه فقط ، وما درى المسكين أن لديه في قلبه من الأمراض ما يوجب عليه التورع منها ، وتقديم معالجتها على غيرها .

ولا يعني هذا أن يترك المسلم الورع في الصغائر والمشتبهات ؛ كلا ، فهذا شيء طيب ، ولكن الذي أردنا التنبيه إليه هو أن هذا الذي يتورع عن شيء صغير ـ قد يكون من الأمور المباحة ، ويتصور أن هذا ما ينقصه فحسب ـ قد فرط في واجب صريح ، أو ارتكب عملاً محرماً صريحاً .

ونظراً لأهمية هذه المسألة أنقل كلاماً نفيساً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يتعلق بهذا الموضوع ، أو قريباً منه ؛ حيث يتحدث عن غلط بعض الناس في فهم الورع ، فقال :

« . . . لكن يقع الغلط في الورع على ثلاث جهات :

أحدها : اعتقاد كثير من الناس أنه من باب الترك ، فلا يرون الورع إلا في ترك الحرام ، لا في أداء الواجب ، وهذا ما ابتلي به كثير من المتدينة المتورعة ، ترى أحدهم يتورع عن الكلمة الكاذبة ، وعن الدرهم فيه شبهة لكونه من مال ظالم ، أو معاملة فاسدة ، ويتورع عن الركون إلى الظلمة من أجل البدع في الدين ، وذوي الفجور في الدنيا ، ومع هذا يترك أموراً واجبة عليه ؛ إما عيناً أو كفاية وقد تعينت عليه، من : صلة رحم ، وحق جار، ومسكين ، وصاحب ، ويتيم ، وابن سبيل ، وحق مسلم ، وذي سلطان ، وذي علم ،وعن أمر بمعروف ،ونهي عن منكر ، وعن الجهاد في سبيل الله . . . إلى غير ذلك مما فيه نفع للخلق في دينهم ودنياهم مما وجب عليه . أو يفعل ذلك لا على وجه العبادة لله تعالى ؛ بل من جهة التكليف ونحو ذلك »[١] اهـ .

وقال رحمه الله تعالى حول المسألة أيضاً :

« وتمام الورع أن يتعلم الإنسان خير الخيرين ، وشر الشرين ، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد ، وتقليلها، وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية ، والمفسدة الشرعية ؛ فقد يدع واجبات ، ويفعل محرمات ، ويرى ذلك من الورع ، كمن يدع الجمعة والجماعات خلف الأئمة الذين فيهم بدعة ، أو فجور، ويرى ذلك من الورع ، ويمتنع من قبول شهادة الصادق ، وأخذ علم العالم لما في صاحبه من بدعة خفيفة ، ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذي يجب سماعه من الورع »[٢] اهـ .

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٠/ ١٣٩).

(٢) المصدر السابق (١٠/ ٥١٢).

إذن فالاهتمام بتقوى الله عز وجل وابتغاء مرضاته في العمل هو الذي ينبغي أن يُحرص عليه أشد من حرصنا على العمل نفسه ؛ لقوله تعالى : ﴿ **لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ** ﴾ [الحج : ٣٧] .

وعلى هذا ؛ فأعمالنا القلبية من أهم الأمور التي يجب أن نعتني بها ونلتفت إليها ولا ننساها ؛ لأن نسيان هذا الأمر يفرز رجالاً يحسنون الحديث عن الإسلام ، ويجيدون الوعظ والتدريس والخطابة ، ويظهرون الحرقة على هذا الدين حتى يخيل للسامع أنهم عمالقة مجاهدون صادقون ، وهم ليسوا كذلك ، وقد يوجد هذا الصنف من الناس في طبقات المؤلفين الكتاب ، فكم رأينا رجالاً ظننا أنهم أصحاب تضحيات وهمم عالية ، وذلك من خلال ما يقرأ لهم من مؤلفات ، لكن ما أن يقع البصر عليهم ، ويحصل الاحتكاك والمصاحبة لهم حتى يتبين شيء آخر يناقض ما تخيله المتخيل عنهم قبل رؤيتهم . وهنا مكمن الخطر ؛ أن يوجد داعية ما ، يعجب الناس بدعوته ، ويكبر في أعينهم مع أن في قلبه من الأمراض ما لا يعلمه الناس ، والله به عليم . نسأل الله عز وجل أن يصلح فساد قلوبنا .

وتزداد خطورة هذا الأمر عندما نتذكر قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه نذكر منه الشاهد هنا وهو قول الرسول ﷺ : « **إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ، فيما يبدو للناس ، وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار ، فيما يبدو للناس ، وهو من أهل الجنة** »[١] .

ومناسبة هذا الحديث لموضوعنا قوله ﷺ : « **فيما يبدو للناس** » ؛ فقد يبدو للناس عن شخص ما أنه من أهل الجنة ، فيما يظهر لهم من أعماله الصالحة ، ودعوته ، ووعظه ، فيغبطه الناس على ذلك ، ولكن قد يكون

(١) رواه البخاري في الجهاد (٢٨٩٨)، ومسلم في الإيمان (١١٢).

في قلب هذا الرجل دسيسة من شبهة أوشهوة لا يعلمها الناس ، ولكن يعلمها علام الغيوب، وقد يعلم بها صاحبها لكنه يتغافل عنها ، أو يبررها ، وقد لا يحس بها أصلاً إلا إذا فتش ونقب ، ومن هنا تتبين خطورة هذه الدسائس القلبية الخفية ، وما قد تؤدي إليه من خاتمة مأساوية ، وكل مأساة تهون عند مأساة النار والعياذ بالله .

فيا أخوة الإيمان ؛ لنفتش في قلوبنا عن هذه الأمراض قبل فوات الأوان، ولا نتصور أننا بريئون منها ، أو أن غيرنا هم الواقعون فيها ، ولكي يتضح هذا الأمر بصورة جلية نذكر بعض الأمراض القلبية والتي لا يسلم منها إلا من رحم الله :

أ ـ مرض الحسد :

هذا المرض العضال الذي قل من يسلم منه ، لكن بين مقل منه ومكثر . هذا المرض الذي يتصور أحدنا أنه مُعافى منه، لكن ما أن يمر به موقف يتطلب منه سلامة القلب، وحب الخير للغير حتى يكتشف هذا المرض من نفسه .

والحسد : هو تمني زوال النعمة عن صاحبها ، أو هو كراهية نعمة الله على الغير ، ولو لم يتمن زوالها .

فإذا أنعم الله عز وجل على أحد المسلمين بنعمة من مال، أو منصب، أو زوجة، أو أولاد، أو غير ذلك من متاع الدنيا ، أو كانت النعمة دينية ؛ كطلب علم ، وعبادة ، ودعوة . . . إلخ . فليتفقد أحدنا قلبه تجاه من أنعم الله عز وجل عليه بإحدى هذه النعم ؛ أيجد في قلبه شعور الارتياح والفرح، أم إنه يجد عكس ذلك من الشعور بالغم، والانقباض ، والضيق لذلك ، ويتمنى أن لو لم تأته هذه النعم ؟ .

وقبل ذلك: ما هو الشعور لو زالت عنه هذه النعم؟ ؛أهو شعور الفرح، والغبطة ، والسرور ، والشماتة ، أو هو شعور المتألم لألمه ؟، فإن كان الأول فهو الحسد بعينه ، نعوذ بالله من ذلك .

إن هذا الموقف من المساءلة والمحاسبة للنفس لابد منه إذا أردنا معالجة أمراضها ، وعلينا أن نتحمل مسؤولية هذه المحاسبة ، ولو كان جوابها بالاعتراف بوجود هذه الأمراض ؛ لأن بداية العلاج كما سبق أن ذكرنا هي اكتشاف الداء . وأخطر من المرض نفسه أن يكون موجوداً ولا نحس بوجوده .

ومعلوم أن الغل ، والحقد ، والشحناء ، والبغضاء كل أولئك ثمرة من ثمار الحسد ، ومعارضة لعلم الله عز وجل وحكمته وقدرته .

وليس أروح وأسعد للمسلم ،ولا أطرد لهمومه من أن يعيش سليم القلب مبرأ من وساوس الضغينة والأحقاد ؛ لا تراه إلا ويحب الخير للمسلمين . وما أسرع ما يتسرب الإيمان من القلب الغشوش ، وعند ذلك لا يكون في أداء العبادة لذة ، ولا خير، ولا تستفيد منها النفس تقوى ولا عصمة .

وأتوجه بهذه المناسبة بنصيحتي إلى نفسي وإخواني الدعاة أن يصلحوا ذات بينهم ، ويزيلوا الشحناء من نفوسهم ، وأن يتعلموا أن نعم الله عز وجل ورحمته لا ينزلان على قلوب متنافرة ومتباغضة، قال رسول الله ﷺ : « **ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟**» قالوا: بلى ، قال : « **إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هو الحالقة ؛ لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين** »[1] .

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١١). والحديث في صحيح سنن أبي داود (٤١١١).

وقال ﷺ : « **لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخواناً** »(١) .

وقال ﷺ : « **تعرض الأعمال كل اثنين وخميس ؛ فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً إلا امرؤ كانت بينه وبين أخيه شحناء ؛ فيقول اتركوا هذين حتى يصطلحا** »(٢) .

وهناك رذائل كثيرة حذر منها الإسلام ، تختلف في مظاهرها ، لكنها تعود إلى علة الحسد والحقد ؛ فالكذب والافتراء على الأبرياء ، وقول الزور ، والغيبة والنميمة . . . إلخ كلها رذائل ذات مصدر واحد، لذلك إذا أردنا التخلص من هذه الرذائل وغيرها فعلينا إصلاح قلوبنا ، فبذلك تصلح شؤوننا كلها ، ويكون لدعوتنا حينئذ دور وأثر في حياة الناس ، وإلا فما قيمة أن ندعو الناس لترك الحسد والغش والشحناء ونحن بدورنا لم نعالج نفوسنا منه ؟ ! ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** ﴾ [هود : ٨٨].

ب ـ أمراض الشرك الخفي :

كالنفاق ، والرياء ، والعجب ، والكبر ، والغرور ، وحب الشهرة والظهور ، كل هذه الأمراض الفتاكة يكفي أن نفتش عنها وعن أشكالها الكثيرة في حياتنا ؛ لنتعرف على مدى كثرة أو قلة هذه الأمراض في قلوبنا ، وهي من الوضوح في حرمتها وخستها ، وشدة فتكها ؛ بحيث لا نطيل ونفصل فيها ، ولأن المقام مقام إشارة ، والحر تكفيه الإشارة ، ويكفي في هذا المقام أن نتعرف على معنى قوله : ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ [يوسف : ١٠٦].

قال صاحب الظلال رحمه الله تعالى :

---

(١) رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٤)، ومسلم في البر (٢٥٦٣).

(٢) رواه مسلم في البر (٢٥٦٥).

« وحتى الذين يؤمنون، كثير منهم يتدسس الشرك - في صورة من صوره - إلى قلوبهم ؛ فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمة تنفي عن القلب أولاً بأول كل خالجة شيطانية ،وكل اعتبار من اعتبارات هذه الأرض في كل حركة وكل تصرف ، لتكون كلها لله ، خالصة له دون سواه ، والإيمان الخالص يحتاج إلى حسم كامل في قضية السلطان على القلب، وعلى التصرف والسلوك ، فلا تبقى في القلب دينونة إلا لله سبحانه ، ولا تبقى في الحياة عبودية إلا للمولى الواحد الذي لا راد لما يريد.

﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ . . . مشركون قيمة من قيم هذه الأرض في تقريرهم للأحداث ، والأشياء ، والأشخاص . مشركون سبباً من الأسباب مع قدرة الله ، في النفع ، أو الضر سواء . مشركون في الدينونة لقوة غير قوة الله من حاكم أو موجه لا يستمد من شرع الله دون سواه . مشركون في رجاء يتعلق بغير الله من عباده على الإطلاق . مشركون في تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس . مشركون في جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضر ، ولكن لغير الله. مشركون في عبادة يلحظ فيها وجه مع وجه الله.

لذلك يقول رسول الله ﷺ : « **الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل** »[1] ، وفي الأحاديث نماذج من هذا الشرك الخفي :

روى الترمذي - وحسنه - من رواية ابن عمر : « **من حلف بغير الله فقد أشرك** »[2] وروى الإمام أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الرقى والتمائم والتولة شرك** »[3] .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر ، قال : قال

---

(١) رواه أبو يعلى (٥٨)، (٥٩)، (٦٠)، (٦١) . والحديث في صحيح الجامع (٣٧٣١).

(٢) رواه الترمذي الأيمان والنذور (١٥٣٥)، والحاكم (١/ ١٨) وصححه.

(٣) رواه أبو داود في الطب (٣٨٨٣)، وابن ماجه في الطب (٣٥٣٠)، وأحمد (١/ ٣٨١).

رسول الله ﷺ : « **من علّق تميمة فقد أشرك** »[١] .

وعن أبي هريرة ـ بإسناده ـ قال: قال رسول الله ﷺ : « **يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه** »[٢] .

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد بن أبي فضالة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله ، فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك** »[٣] .

وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: « **إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر** » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ، قال : « **الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا ؛ هل تجدون عندهم من جزاء ؟** »[٤] .

فهذا هو الشرك الخفي الذي يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان .

وهناك الشرك الواضح الظاهر ، وهو الدينونة لغير الله في شأن من شؤون الحياة ، الدينونة في شرع يتحاكم إليه ـ وهو نص في الشرك لا يجادَل عليه ـ والدينونة في تقليد من التقاليد ؛ كاتخاذ أعياد ومواسم يشرعها الناس ولم يشرعها الله ، والدينونة في زيّ من الأزياء يخالف ما أمر الله به من

(١) رواه أحمد (٤/ ١٥٦)، وهو في السلسلة الصحيحة (٤٩٢).

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٨٩٥).

(٣) رواه الترمذي في التفسير (٣١٥٢)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٣)، وأحمد (٣/ ٤٦٦) (٤/ ٢١٥). وفي صحيح ابن ماجه: حسن (٣٣٨٨).

(٤) رواه أحمد (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩)، وهو في السلسلة الصحيحة (٩٥١).

الستر، ويكشف أو يحدد العورات التي نصت شريعة الله أن تستر.

والأمر في مثل هذه الشؤون يتجاوز منطقة الإثم والذنب بالمخالفة، حين يكون طاعة وخضوعاً ودينونة لعرف اجتماعي سائد من صنع العبيد، وتركاً للأمر الواضح الصادر من رب العبيد.. إنه عندئذ لا يكون ذنباً، ولكنه يكون شركاً؛ لأنه يدل على الدينونة لغير الله فيما يخالف أمر الله.. وهو من هذه الناحية أمر خطير...، ومن ثم يقول الله: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾»[1] اهـ.

جـ- شهوة الدنيا والركون إليها:

إن هذا المرض يعتبر من أخطر الأمراض التي بدأت تسري في حياتنا، وحياة كثير من الدعاة إلى الله عز وجل وبأشكال كثيرة وأودية متشعبة قد لا يشعر بها، أو يشعر بها، ولكنها من الثقل بحيث يصعب التغلب عليها.

وعلى أية حال؛ فحب الدنيا، والسعي وراءها، وامتلاء القلب بها، واستحواذها على همنا وتفكيرنا، هو الواقع المر الذي يجب أن نعترف به إلا من رحم الله.

ولو وازن أحدنا بين هم الدنيا والحيز الذي تشغله من قلبه وتفكيره، وبين هم الآخرة، وهم هذا الدين لوجد أن البون شاسع والفرق كبير، ولوجد أن الدعوة وأمر هذا الدين يظهر على اللسان والأعمال الظاهرة، أما القلوب؛ فلم يشغل منها إلا القليل، وإنما الهم الأكبر فهو لهذه الدنيا ومتاعها الزائل؛ كل حسب اهتمامه وواديه الذي ذهب فيه من وديانها وشعابها التي ذكر الله عز وجل أهمها في سورة آل عمران بقوله: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ**

(١) في ظلال القرآن عند الآية ١٠٦ من سورة يوسف (باختصار).

الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال تعالى في سورة التوبة: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [التوبة: ٢٤].

وإن هذا المرض تشتد بشاعته عند أولئك الذين تصدروا للدعوة وقيادة المسلمين، وتوجيههم، فبالله العظيم كيف يمكن لمن ملأت الدنيا قلبه أن يدعو الناس إلى الآخرة ؟! أو يتصدر الدعاة إلى الله عز وجل وقيادتهم، وإن وجود هذه الشهوة في قلوب الدعاة إلى الله عز وجل من أكبر العوائق التي تعوق الدعوة عن تحقيق أهدافها؛ بل تؤخرها إلى الوراء إن لم تقض عليها.

إن مرض إيثار العاجلة على الآخرة يكاد أن يطم على حياة كثير من الدعاة؛ حيث نجد أن الكثرة الكاثرة في حقل الدعوة إلى الله عز وجل تحصر انتماءها إلى الدعوة في إلقاء خطبة، أو موعظة، أو حضور جلسة، أو درس أسبوعي أو شهري ثم ينصرف من ذلك بقلبه وقالبه إلى أعمال الدنيا، والتمتع بملذاتها، ومساكنها، ومراكبها، ويتوسع في ذلك بشكل يوحي إلى المتأمل فيمن هذه حاله أنه سيخلد في هذه الدنيا، وأن ليس له ما يشغل ذهنه إلا متاعها الزائل.

أما أن يسهم في دفع الغالي والنفيس في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل ومرضاته، والجهاد في سبيله، فأحسب أن هذا الصنف من الدعاة قليل في هذا العصر، وصدق الرسول ﷺ: « **إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة** »[1].

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٧).

ولا يفهم من هذا الكلام الامتناع عما أحل الله من الطيبات أو الامتناع عن التجارة ،والوظيفة ، بل كل ذلك محمود ما دامت التجارة أو الوظيفة لا تطغى على الدعوة ، وما دام الداعية يستفيد من ذلك كله في دعوته ، والتقديم لآخرته. أما أن تطغى الوظيفة والتجارة ، والدنيا بشكل عام ، على الدعوة ، والاهتمامات العالية، ويبدأ الداعية يعيش حياة التجار في ترف ، وتنعم ورفاه ، فهذا هو المذموم، وهذا هو الذي بدأ ينتشر في حياة الدعاة اليوم ، وهنا بداية الانزلاق ، وبالذات إذا كان الداعية رأساً وموجهاً في حقل الدعوة إلى الله عز وجل .

فلنتصور داعية وموجهاً يقود دعوة ، ويعتبر موجهاً لها ، ثم هو في نفس الوقت نراه من تجار الدنيا ، يبيع ويشتري ، ويشغل جسمه في النهار ، وفكره في الليل بهذه الدنيا ومتاعها ؛ إنه لا يمكن تصور ذلك أبداً ؛ فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

ومثل ذلك ، هذا الداعية الموظف الذي أخذت عليه وظيفته كل وقته ؛ عملاً رسمياً في نصف النهار الأول ، ثم إضافياً في آخره ، فأين ومتى وقت الدعوة والعمل في سبيل الله عز وجل؟ ، اللهم إلا ما تبقى من الوقت في الليل ، فيأتيه وهو كال الذهن ، متعب الجسد ، ويعزي نفسه بذلك ، ثم يدور الوقت هكذا ، وينصرم العمر القصير ، والهم الأكبر هو متاع الدنيا وزخرفها الفاني . والله المستعان .

أيها الإخوة في الله:

يجب أن نلتفت إلى قلوبنا ، وأن نتحسس هذه الأمراض فيها ، وكيف نعالجها. يجب أن يسأل كل منا نفسه : كم من الأقوال والأعمال التي كان يدعو الناس إليها وهي تخالف ما في قلبه ؟، يجب أن نحذر من قوله

تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٧] ، في الوقت الذي يتصور الناس عن هذا الداعية أنه من أحسن الدعاة خلقاً وعبادة، والحالة ليست كذلك ؛ فالقلوب القلوب! ؛ عناية وإصلاحاً ومعالجة أمراضها التي تعد أخطر الأمراض وأشدها فتكًا .

والآن وبعد الحديث عن أصل المثالب والمساوئ وهي القلوب، نستعرض بعض المثالب السلوكية، التي يكثر انتشارها في أوساط الطيبين من الدعاة، فضلاً عن عامة الناس ودهمائهم .

٢ـ المخالفات في الهدي الظاهر :

يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

والتأسي بالرسول ﷺ يشمل شئون حياته كلها وأحواله كلها الظاهرة والباطنة ، وأول من يخاطب بهذا التوجيه الدعاة إلى الله عز وجل ، والذين هم بدورهم يوجهون الناس إلى العمل بمقتضى هذه الآية .

ولكن مع ذلك في حياتنا كثير من التساهل في التأسي به ﷺ ، فمن هذه المخالفات في الهدي الظاهر : التساهل في إعفاء اللحية وإكرامها ، أو قص الشارب أو حفه أو في بقية خصال الفطرة، وكذلك في اللباس والهيئة، والمسكن ، والمأكل ، والمركب . . . إلخ .

كل هذه الأمور قد يحصل التساهل فيها ، ويقع البعض في الإسراف المحرم ،والمخيلة، وحب الشهرة ، وليس هنا موضع التفصيل وضرب الأمثلة ؛ فكل إنسان أعلم بنفسه وحاله .

وقد نجد من يقول عند الحديث حول هذه المخالفات : إنها من القشور ،

وينبغي أن نهتم باللب . . . إلخ .

وهذا القول في نظري خاطئ ، ومنحرف ، وغريب على معنى الاستسلام لله عز وجل وشرعه ، فليس في الدين قشور ولباب ، وإنما هو لحمة واحدة ، والاستسلام لله عز وجل في الصغير كالاستسلام له في الكبير .

يقول تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [البقرة : ٢٠٨] .

٣ـ منكرات البيوت :

يوجد من الدعاة إلى الله عز وجل من يتساهل في أمور البيوت ، ومقتنياتها ، فلا يحكم فيها بشرع الله عز وجل ، وهو الداعية المتصدر لإرشاد الناس وتوجيههم .

* فنجد مثلاً من يتساهل في إبقاء التلفاز مع ما فيه من شر مستطير ، وإثم كبير يغضب رب العالمين ، فبالله كيف يقدم على ذلك داعية يخاف حساب الله عز وجل ويرجو ثوابه ، ويريد هداية الناس .

كيف يطاوع نفسه الأمارة ، أو يطاوع أهله وأولاده في الإبقاء على هذا المنكر ؟ ثم بعد ذلك يدعو الناس ويرشدهم ، بل كيف سيقبل الناس دعوة من يناقض نفسه بنفسه ؟ .

والأخطر من ذلك تضليل الناس ودهمائهم ، وتحبيب هذا المنكر لهم بحجة التأسي بهذا الداعية ، ولو كان منكراً لما أبقاه فلان وفلان من الدعاة وطلبة العلم ! ! .

* **ومن منكرات البيوت أيضاً** : والتي يحصل التساهل والترخص فيها وجود الخدم الأجانب والخادمات الأجنبيات الحرائر ، ووجود السائقين الذي يخلون بالمحارم من البنات والأخوات والزوجات ، ومعلوم ما في هذا من المخالفة لشرع الله جهاراً نهاراً ، وكل هذه المنكرات لا تحتاج إلى مناقشة وتدليل على حرمتها لوضوح ذلك وبيانه، ومع ذلك يحصل الترخص من بعض الطيبين في ذلك ، ويرضخ للأمر الواقع على حد زعمهم ، وتنتشر مثل هذه المخالفات في البيئات المترفة المنعمة دون التقيد بالضوابط الشرعية في ذلك .

* **ومن منكرات البيوت أيضاً** : التساهل في صور ذوات الأرواح حتى أصبح ذلك الأمر طبيعياً في حياة الناس - دعاتهم وعوامهم - إلا من رحم الله، ويتمثل ذلك في إدخال المجلات المصورة ومجلات الأزياء والمجلات النسائية . . . إلخ ، بحجج واهية لا تسمن ولا تغني من جوع .

* **ومن منكرات البيوت أيضاً** : التساهل في حشمة النساء داخل المنزل، خاصة إذا وجد أكثر من عائلة ، وكان هناك مجال للاختلاط ، كما يحصل نوع من التبرج المقصود أو غير المقصود عند الخروج من المنزل ، كما أن هناك من يترخص ويتوسع في أدوات الزينة والتجميل ؛ مما قد يكون بعضه محرماً ، وولي الأمر في غفلة من هذا ، أو في تغافل عنه .

٤ - إهمال تربية الأهل والأولاد :

يقول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [التحريم : ٦] .

وهذه الفقرة متعلقة أو مرتبطة بما قبلها ؛ بل إن الملاحظة السابقة ثمرة من ثمار الإهمال والتساهل في تربية الأهل والأولاد ، ومعلوم أن أولى الناس بالمعروف والدعوة، هم أهل الإنسان وخاصته، ولكن ـ وللأسف ـ نجد التساهل الشديد في هذا الأمر عند الكثير منا .

ومن مظاهر هذا التساهل ؛ أن نرى الداعية نشيطاً ومتحركاً في الخارج ، في جميع المجالات ، بينما لا ينعم أهله ومن استرعاه الله عليهم برؤيته إلا قليلاً، وتراهم يجهلون كثيراً من أحكام الدين الأساسية ، وقد يقعون في بعض المحظورات والمنهيات ، فلا يهتم بهم ولا يأمرهم وينهاهم ، بل لا يتفقد أحوالهم ليعلم وقوعها منهم؛ لأنه لا يجد الوقت الذي يجلس معهم فيه ليعلمهم ويربيهم .

أليس من المؤسف له أن يوجد في بيوت كثير من الدعاة من الأهل والأولاد من لا يعرف كيف يتوضأ أو كيف يصلي؟ أو يجهلون أحكام الصيام وكثيراً من فروض العين الواجب على كل مسلم بعينه أن يتعلمها ؟ ؛ قال رسول الله ﷺ : « **كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ؛ فالإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها ، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته** » قال الرواي وهو عبد الله بن عمر : فسمعت هؤلاء من النبي ﷺ ، وأحسب النبي ﷺ قال :« **والرجل في مال أبيه راع ومسؤول عن رعيته ؛ فكلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته** »[1] .

وهناك معالجات خاطئة لحقوق الزوجة والأولاد بين الإفراط والتفريط ؛

(١) متفق عليه .

فقد يوجد من يهمل أهله ، وبيته بحجة الدعوة إلى الله عز وجل ، والتضحية في سبيله، كما يوجد في الطرف الثاني من يهمل أمور الدعوة ، وطلب العلم والجهاد ،بحجة حقوق الزوجة والأولاد ؛ فلا تجده إلا وهو يدور في فلكهم وطلباتهم ، والموفق من وفقه الله عز وجل في هذا الأمر وبأن أعطي كل ذي حق حقه ، والوسطية سمة من سمات هذا الدين العظيم.

٥- التفريط في حقوق الوالدين وصلة الأرحام وحقوق الجار :

قال الله تعالى : ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا** ﴾ [النساء: ٣٦].

إن هذه الحقوق قد تساهل فيها كثير من الطيبين، مع المعرفة بها وبفرضيتها ، وبالذات حقوق الوالدين التي تأتي بعد الأمر بتوحيد الله عزوجل ، وما بعد الشرك بالله عز وجل ذنب أشد من عقوق الوالدين ، ومع ذلك فهناك تفريط في هذا الحق ، وبالأخص حق الأم ، والمقام هنا ليس مقام تفصيل وتدليل ؛ إنما المراد التذكير والإشارة إلى ضرورة الانتباه إلى هذا الواجب العظيم ، وألا يفرط فيه بحجة أو بأخرى .

ومن أمثلة التساهل في هذه الحقوق التقصير في خدمة الوالدين ، وتلبية طلباتهم ، وتقديم النوافل على طاعتهم الواجبة ، ومن ذلك أيضاً عدم التلطف معهم ، وخفض الجناح لهم والصبر عليهم ، وتفقد أحوالهم ، وما يطرأ عليهم في الكبر ،وتقديم رضا الآخرين عليهم . . . إلخ .

وهناك أمثلة أخرى من التفريط لا يتسع لها المقام ، وكل هذا مع الأسف

يصـدر من بعض الدعـاة الذين يحضـون في دعـوتهم على بر الوالدين ، والقيام بحقوقهم ، فليت شعري كيف يستقيم الظل والعود أعوج !!

ومن الحقوق المتساهل فيها أيضاً : حقوق الأقارب ، وصلة الأرحام ، وعدم زيارتهم ومواساتهم ، وتفقد أحوالهم ، وخدمتهم عند الحاجة ، وذلك من الأخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات ونحوهم .

ومن الحقوق التي يحصل التفريط فيها أيضاً: حقوق الجار، وعدم الإحسان إليه ، بل يتعدى الأمر إلى الإيذاء والمضايقة والهجران .

٦ـ التساهل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

هناك من الدعاة من يهون من شأن هذا الأمر ، وأنه ترقيع وتضييع للجهود ، ومعلوم ما في هذا القول من خطر ، وفتح الباب للفساد ، وترك المفسدين ليفسدوا في الأرض ، والله تعالى يقول : ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فياليت أن مثل هذا الصنف من الناس لهم جهود أخرى في الدعوة والتعليم والتوجيه، ليعذروا في تركهم هذا الواجب العظيم ، وياليتهم إذ عجزوا عن هذه الشعيرة العظيمة تركوا غيرهم ليسدها .

٧ـ التساهل في صلاة الجماعة :

ويظهر ذلك في التأخر عنها وعدم التبكير لها ، وإدراك الصف الأول ، وتكبيرة الإحرام ، بل قد تفوت الصلاة كلها أو بعضها بغير عذر شرعي ، وخاصة صلاة الفجر والعصر ، واللتان هما من أفضل الصلوات ، بل إن ظاهرة تأخر الطيبين عن الصلاة بدأت تلاحظ في كثير من المساجد ، وأصبح

بعض العوام يشهرون ويتندرون، بأن الذين يقضون بعد الصلاة ، من بينهم كثير من الطيبين الملتحين !!.

٨ـ التفريط في طلب العلم والتفقه في الدين :

يكتفي كثير من الطيبين بالتقليد ، والنتف من العلم : كالاكتفاء بالرسائل الصغيرة ، والأشرطة المسجلة، والخطب ، والمحاضرات ، وكل هذه الأمور طيبة ، وضرورية ، خاصة وتلك التي يغلب عليها الوعظ والتذكير ، أما الدروس العلمية والكتب العلمية المؤصلة فتضعف النفس إزاءها ، ولا يوجد الجلد والصبر على قراءتها وملازمة العلماء، رغم كثرة الكتب، وتوفرها وتفننها، ورغم توفر الدروس والعلماء وطلاب العلم ووجود الفراغ الذي لم يستثمر ، وإنما يضيع في ما لا ينفع في أكثر الأحيان، ومعلوم ما للعلم من دور كبير في معرفة الحق ، واستنارة الطريق ، والدعوة إلى الله عز وجل على بصيرة.

٩ـ آفات اللسان :

وهي كثيرة ومتنوعة ولا يكاد يخلو منها مسلم إلا من رحم الله تعالى ، وأعانه على نفسه وشيطانه ، فمن هذه الآفات :

* تساهل الكثير من الطيبين في صدق الحديث والوقوع في ضده؛ وهو الكذب والخداع والمراوغة ، وأكثر الأحيان لا يوجد مبرر لذلك . ومن المؤسف له أننا نعلم حرمة هذه المخالفات وعدم شرعيتها ، فكيف يتصور وقوع هذه المحرمات من دعاة يرجون النصر من الله عز وجل على أعدائهم؟!.

* ومن آفات اللسان أيضاً : الغيبة ، والنميمة ، واللمز ، والهمز،

واللغو ، والسخرية ، وكل هذه الآفات قد جاء الإسلام بتحريمها ، ومع ذلك يترخص الكثير فيها بمبرر أحياناً وبدون مبرر أحياناً كثيرة ، والجدير بالذكر هنا أنه لا ينقصنا معرفة حرمة هذه المنهيات ؛ فكم قرأنا في كتاب الله عز وجل وفي سنة رسوله ﷺ عن التحذير منها ، ومع ذلك لم يحصل الارتداع والانتهاء ، فما السر في ذلك ؟ ! .

السر في ذلك ـ والله أعلم ـ هو ما ذكرته آنفاً في مقدمة الموضوع عن أمراض القلوب ، وأنها أساس الأمراض كلها ، فما لم نصلح أمراض قلوبنا ، ونطهرها من الحسد وحب الترفع عن الناس والكبر . . . إلخ ، فإنا لن نستطيع الإقلاع عن هذه المساوئ من الأخلاق ، مهما قرأنا وعلمنا ؛ فلا يصلح الغصن والجذر فاسد .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ كلام نفيس حول دوافع الغيبة ، يرجعها إلى فساد القلوب ، فتراه يقول رحمه الله تعالى (جـ٢٨ ص٢٣٦ ـ ٢٣٨) (باختصار) :

« * من الناس من يغتاب موافقةً لجليسائه وأصحابه وعشائره ، مع علمه أن المغتاب بريء مما يقولون ، أو فيه بعض ما يقولون ، لكن يرى أنه لو أنكر عليهم لقطع المجلس ، واستثقله أهل المجلس ونفروا عنه .

* ومنهم من يخرج الغيبة في قوالب شتى : تارة في قالب ديانة وصلاح ، ويقول : ليس لي عادة أن أذكر أحداً إلا بخير ، ولا أحب الغيبة والكذب ، وإنما أخبركم بأحواله ، ويقول : والله إنه مسكين ورجل جيد ولكن فيه كيت وكيت ، وربما يقول : دعونا منه ، الله يغفر لنا وله ، وقصده من ذلك استنقاصه .

* ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة ؛ فيجمع بين أمرين قبيحين : الغيبة والحسد .

* ومنهم من يخرج الغيبة في قالب تمسخر ولعب ؛ ليضحك غيره باستهزائه ومحاكاته واستصغار المستهزأ به .

* ومنهم من يخرج الغيبة في قالب التعجب فيقول : تعجب من فلان كيف لا يفعل كيت وكيت ؟! ، ومن فلان كيف وقع منه كيت وكيت؟! .

* ومنهم من يخرج الاغتمام ، فيقول : مسكين فلان غمني ما جرى له، وما تم له ، فيظن من سمعه أنه يغتم له ، ويتأسف ، وقلبه منطو على التشفي به ، ولو قدر لزاد على ما به .

* ومنهم من يظهر الغيبة في قالب غضب وإنكار منكر وقصده غير ما أظهر »[1] اهـ باختصار.

* ومن آفات اللسان : الفحش والبذاءة في القول، خاصة عند الخصومة والجدال ، فقد يوجد داعية طيب حسن المعتقد ذو همة في دعوته ، ولكن ما إن يحصل بينه وبين أحد خصومة أو جدل ، حتى ينقلب إلى وحش كاسر قد اشتد غضبه، وارتفع صوته ، وسفه عقل مخاصمه ، وبالتالي يفجر في خصومته، والرسول ﷺ قد عد الفجور في الخصومة من خصال المنافق ، وبين لنا أن المؤمن ليس بالسباب ولا اللعان ، ولا الفاحش البذيء.

١٠ـ التفريط في غض البصر :

وهذه السيئة لا يكاد يخلو منها أحد إلا من رحم الله ، وجاهد نفسه

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/ ٢٣٦ـ ٢٣٨).

وهواه. والناس فيها بين مقل ومكثر ؛ فالنظر إلى النساء الأجنبيات وإلى صورهن في الأفلام أو المجلات والصحف ؛ كل هذا قد جاءت الشريعة بتحريمه، إلا نظرة الفجاءة الأولى ، ويكفي في ذلك قوله تعالى : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ** ﴾ [النور : ٣٠].

والمطلوب منا في هذا الأمر أن نبذل أسباب الوقاية من ذلك ؛ فيجاهد المسلم نفسه ألا يعرض نفسه لمواطن النساء قدر ما يستطيع : كالأسواق والحدائق والمطارات والأسفار . . . إلخ ، وأن يعمل جاهداً ـ كما سبق أن أشرنا إليه في منكرات البيوت ـ في منع دخول بيته المجلات والأفلام والصحف ، التي تتخذ المرأة سلعة رخيصة للدعاية وجلب الأنظار ، والله المستعان .

١١ـ الرضى من النفس بالدون :

يوجد من الطيبين من يحقر نفسه ، حتى يحط من قدرها وهمتها ، وأنها ليست على مستوى طلاب العلم ، والدعاة إلى الله عز وجل ؛ وهذا مدخل شيطاني دقيق ؛ لأن الشيطان حريص على تخذيل الإنسان وتحطيم همته ، كما قال تعالى : ﴿ **وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً** ﴾ [الفرقان : ٢٩].

فيجب أن ننتبه لهذا الأمر ، ونرتفع بأنفسنا إلى مستوى إسلامنا وإلى المهام العليا ، وفرق بين قوة النفس والهمة العالية وبين الغرور والعجب ، كما أن هناك فرقاً بين التواضع المحمود وبين الدونية الممقوتة ، ويكفي أن يكون قدوتنا في ذلك عباد الرحمن الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾ [الفرقان : ٧٤].

فهم يسألون الله عز وجل أن يجعلهم أئمة وقادة وقدوة للمتقين ، وليسوا

من المتقين فحسب ، فما أعظمها من همة .

١٢- السفر إلى بلاد الكفر والفساد لغير ضرورة:

ويقع في هذه المخالفة بعض الطيبين من الدعاة، بحجة السياحة واستطلاع أحوال الأعداء! ،وحضور بعض المنتديات أو المعارض والمؤتمرات، التي لا تكافئ مصلحة حضورها المفسدة الناجمة عنها ؛ إذ إنها من باب الكماليات وليست من الضروريات ولا الحاجيات ، ومما يزيد الأمر سوءاً تساهل هؤلاء الطيبين باصطحاب أهليهم وأولادهم ، وهذا مما يزيد الطين بلة؛ حيث يتحمل وزر نفسه ووزر من سافر معه ، والجميع يعرف ما في بلاد الكفر ، ودول الفساد من الفتن ، والمفاسد العظيمة التي تؤثر في الدين ، والأخلاق . والمسلم مطلوب منه أن يفر بدينه من الفتن لا أن يفر بدينه إلى الفتن.

١٣- التهوين من شأن العلماء والدعاة والحط من قدرهم :

ويصدر هذا العمل المشين من بعض الطيبين المتعجلين أو المتعصبين ، وذلك عندما يقع بعض العلماء أو الدعاة في بعض الأخطاء التي صدرت منهم اجتهاداً أو ضعفاً ؛ مما يؤدي إلى انتقادهم ، والتشهير بأخطائهم من قبل هؤلاء المتعصبين .

ومن المعلوم أن غيبة العلماء والتهوين من قدرهم - بسبب خطأ ارتكبوه - فيه فتنة وخطر كبير؛ لأن أهل الشر والفساد يستغلون مثل ذلك للنيل من علماء الإسلام ، وتوهين الارتباط بينهم وبين عامة الناس ، وبالتالي فإن هذا يمهد للنيل من الإسلام نفسه .

وفرق بين النصيحة للعالم ومعالجة الخطأ الصادر منه ، وفهم المبررات والملابسات التي أدت إلى ذلك ، والاعتذار له بعد ذلك ؛ فرق بين هذا وبين التشهير به ، والنيل من عرضه ؛ فلحوم العلماء مسمومة (كما يقال) .

وعندما نذكر العلماء والدعاة في هذا الصدد نقصد أولئك العلماء المخلصين ؛ حيث إنهم صمام الأمان لأمتهم ، وإذا ذهب العلماء ، وذهبت هيبتهم ذهب الدين تبعاً لذلك . أما علماء السوء ، وكل منافق عليم اللسان، فلا يدافع عنه ولا كرامة ؛ لأنه قد عرض نفسه للتهم والشبهات، ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه .

والحديث عن العلماء يجرنا إلى الحديث عن الدعاة المخلصين ؛ حيث يوجد من يهون من شأنهم وجهدهم وتراثهم وفكرهم، لا لشيء إلا أنه خالفه في الأسلوب أو الطريقة أو أنه ليس من طائفته ، وفي هذا بخس للناس في أشيائهم ، وفيه لوثة الكبر والعجب . فكأن ليس في الساحة الدعوية إلا هو ومن حوله ، وليس من يؤلف ويكتب ويفهم الأمور إلا هو ، أما الآخرون فهم أقل من ذلك، وإن وجد من يؤلف أو يقوم بدور دعوي ، فإنه يغمض عينه عن ذلك ، أو يشكك في مقاصدهم . . إلى غير ذلك من الظلم والعدوان .

ولو كانت القلوب سليمة نقية لحصل العكس؛ ألا وهو الفرح بدعوة الدعاة الآخرين وجهودهم ؛ فالداعية المخلص يفرح بذلك ويرى أن الدعاة يكمل بعضهم بعضاً ، والداعية الصادق يذكر لأهل الفضل فضلهم وخيرهم وبلاءهم، والداعية الناصح يسعى لإقامة التعاون بين الدعاة ، ويسعى لوحدة الصف واجتماع الكلمة،وإن تعذر فلا أقل من أن يحب بعضهم

بعضاً ، وأن يثني بعضهم على ما يرى عند البعض من خير ، وسلامة منهج، ونظافة سلوك ، وهذا كله من مقتضيات الولاء ، ومن لوازم العدل والإنصاف .

١٤ـ الحزبية المقيتة :

وهذه السيئة متعلقة بما قبلها ؛ بل هي سبب لها . ومنبع هذه الخلة المذمومة تلوث معنى الولاء في القلب ، فبدل أن يبذل الولاء لكل مسلم صحيح المعتقد ، نرى أنه يوجه لأفراد الحزب أو الطائفة أو القوم الذين هو منهم ، فلا يحب ولا يبغض إلا على أساسهم ، ولا ينظر إلا بمنظارهم .

وواضح ما في هذا من انحراف وتخبط، يتحمل وزره ، ويبوء بإثمه من تلبس به ، ومن ربى غيره عليه ، فأصل الموالاة والمعاداة في الإسلام على العقيدة ؛ فكل مسلم صحيح الإيمان يجب أن يبذل له من المحبة والموالاة بغض النظر عن جنسه ولونه أو لغته، وصاحب العقيدة الصحيحة من أهل السنة والجماعة، والمتخلق بأخلاق السلف، يجب أن يبذل له الولاء التام الكامل .

أما المسلم المقدوح في عقيدته أو سلوكه ـ لكن لا تصل هذه القوادح إلى حد الكفر ـ فمثل هذا يبذل له الولاء العام المكافئ لما فيه من الإيمان والخير ، ويتبرأ من بدعته ، وخلقه المشين . أما الذي ينتفي عنه الولاء بالكلية ، ولا يجوز في حقه إلا البراءة التامة ، فهو الكافر والمنافق نفاقاً اعتقادياً ظهرت عليه علاماته .

١٥ـ إهمال كتاب الله عز وجل قراءة وتدبراً :

هناك تقصير ملاحظ في حق كتاب الله عز وجل، والذي قال الله عز وجل

عنه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨] .

ومن مظاهر هذا التقصير هجر قراءته، إلا في أوقات متباعدة ، وهجر تدبره وتعاهده ، والعمل به ، وقد يبرر هذا الانشغال بأمور الدعوة ، أو القراءة في كتب العلم الأخرى ، وقد يمر على الداعية يوم أو يومان أو أكثر ، وما قرأ فيها من كتاب الله عز وجل شيئاً ، وإن قرأ فبدون تدبر وخشوع ؛ بل يقرأ أحدنا القرآن وهو متلبس ببعض المنهيات التي نهى عنها القرآن ، أو تاركاً لبعض الواجبات التي أمر بها القرآن، والإصرار على ذلك ؛ كمن يقع منه الكذب والغيبة والنميمة والظلم والعدوان وإطلاق البصر وقطيعة الرحم والحسد والرياء . . . إلخ .

وما كان هذا هو منهج السلف في قراءتهم للقرآن وتلقيهم لأحكامه ؛ بل المعروف عنهم أنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يفهموها ، ويعملوا بها؛ فيتعلمون العلم والعمل ، وجاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في وصف حالة السلف مع القرآن، ووصف من بعدهم قوله : « كنا نؤتى الإيمان قبل القرآن ، فيقرأ أحدنا القرآن فيقف عند زاجره وآمره ، وحلاله وحرامه . ولقد أدركت أناساً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان ، فيقرأ أحدهم القرآن من فاتحته إلى خاتمته لا يقف عند زاجره ولا آمره »، أو كما قال رضي الله تعالى عنه .

إذن كان السلف رحمهم الله تعالى يقرءون القرآن ، وقد امتلأت قلوبهم بالإيمان ؛ فيكون لكلام الله عز وجل أثر في حياتهم وسلوكهم ، أما من أوتي

القرآن والقلب خاوياً من الإيمان ؛ فإنه يقرأ القرآن والقلب مشحون ، ومملوء بشهوات الدنيا ، ومتفرق في شعابها ، وقد يكون حافظاً للقرآن ، ويقرؤه بتجويد وصوت حسن لكن بدون تدبر وخشوع وعمل . وأكبر دليل على ذلك أن كثيراً منا يقرأ القرآن من جلدته إلى جلدته دون أن تقطر عينه من خشية الله وسماع كلامه عز وجل .

١٦ـ التفريط في كسب المال الحلال :

إن هناك تساهلاً كبيرًا عند بعض الدعاة ، في تحري الحلال والطيبات من الرزق ، في الوقت الذي ينبغي فيه الحذر الشديد من جراء التساهل في هذا الأمر ، وخاصة في عصرنا اليوم ، والذي عز فيه المكسب الحلال لكثرة الشبه ، وانفتاح كثير من أبواب الربا ، والبيوع المحرمة ، وغموض كثير من المعاملات التجارية ، مع ما يصاحبها من قلة إيمان وضعف نفس .

ويتمثل هذا التساهل ، إما في عين المال المكتسب في بعض التجارات المشبوهة ، والتي لا يمكن الحصول عليها إلا بالوقوع في الحرام أو شبه الحرام أو يتمثل هذا التساهل أيضاً في طريقة الكسب ؛ كالتقصير في إتقان الوظيفة أو المهمة المسندة لصاحبها ؛ سواء في ضبط دوامها أو تضييع الوقت أثناءها ، أو الاستفادة من الوظيفة وخدماتها في الأغراض الشخصية .

كما يظهر التساهل أيضاً في الترخص في مصاحبة من لا خلاق له من تجار الدنيا ، ومداومة الجلوس معهم ومداهنتهم ، وبالذات إذا كانت المعاملة مع غير المسلمين ! .

١٧ـ الجبن والبخل :

إن هذين الخلقين الذميمين قد أكثر الرسول ﷺ من التعوذ منهما في أكثر

من دعاء ، فقال : « **اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال** »[١] ، وقال: «**اللهم إني أعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وعذاب القبر** »[٢] .

وقد يظهر الجبن والبخل على اللسان ، وقد لا يظهران إلا عند المواقف التي تتطلب الشجاعة والكرم ، وهذان الخلقان لا يجوز أن يجتمعا عند داعية، مع العلم أنه قلما يوجد أحد هذين الخلقين عند شخص إلا ويوجد معه الخلق الآخر، وغالباً ما يكون البخيل جباناً ، والجبان بخيلاً ؛ لأن الشح يجمعهما ؛ فالجبان شح بنفسه ، والبخيل شح بماله ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر : ٩].

وإن داعية فيه هاتان الخلتان الذميمتان ، لا يصلح لدعوة فيها بذل وتضحية؛ لأن الدعوة إلى الله عز وجل تتطلب التضحية بالمال والنفس .

ولما جاء وفد إلى رسول الله ﷺ وهو وفد بني سلمة من الأنصار ، قال لهم الرسول ﷺ : « **من سيدكم يا بني سلمة ؟ قالوا : الجد بن قيس على أنا نبخله ، فقال بيده هكذا ، ومد يده ، وأي داء أدوأ من البخل، بل سيدكم عمرو بن الجموح** »[٣] .

فمن هذه القصة نرى أن الرسول ﷺ لم يرض لمن يسود الناس أن يكون بخيلاً .

---

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٦٩)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٦).

(٢) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٧٤).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني- صحيح الأدب المفرد (٢٢٧/ ٢٩٦) ، وانظر : الإصابة- ترجمة عمرو بن الجموح.

وقد يظهر شخص ما أنه سالم من هاتين الصفتين ، والحقيقة غير ذلك لأنه لم تأت المواقف التي توضح وجودهما من عدمهما .

وهناك موقفان يبتلي الله عز وجل بهما عباده المؤمنين ليعلم من يثبت ممن يزل ويزيغ ؛ألا وهما : موقفا الخوف والطمع ؛ فموقف الخوف يظهر الجبن والشجاعة ، وموقف الطمع يظهر البخل والشح ،وإيثار الحياة الدنيا، من غير ذلك .

ولقد ابتلى الله عز وجل بهذين الموقفين بني إسرائيل فسقطوا؛ ابتلاهم بالخوف عندما أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة فنكلوا وجبنوا ، وقالوا : ﴿ **إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ** ﴾ [المائدة: ٢٢].

وابتلاهم الله عز وجل بالطمع فحجز الحيتان عنهم إلا يوم السبت ، فما صبروا على شهواتهم ، بل خارت نفوسهم ، وانساقوا مع شهواتهم .

وابتلى الله عز وجل أصحاب محمد ﷺ بالخوف والطمع فنجحوا واستعلوا عليهما ، فقالوا للرسول ﷺ عندما استشارهم في غزوة بدر : «والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك » .

ومدحهم الله عز وجل في أعقاب غزوة أحد بقوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ [آل عمران: ١٧٣] .

وقال عنهم يوم الأحزاب : ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٢٢] ، ثم ابتلاهم الله عز وجل بالدنيا وانفتاحها عليهم ؛ فاستعلوا عليها وزهدوا فيها ورضوا منها بالكفاف.

إذن ؛ إذا أردنا أن نكشف وجود هذين الداءين في نفوسنا من عدمهما

فلنتفقدهما عند موقفي الخوف والطمع ، وإن هذا لا يعني أن نتعمد مواطن الخوف والطمع ؛ كلا ، فالمطلوب من المسلم أن يفر بنفسه من مواطن الفتن؛ لأنه لا يدري ما ستكون حاله حينئذ ، وكما قال الرسول ﷺ : « **لا تمنوا لقاء العدو ، وإذا لقيتموهم فاصبروا** »[1] .

وثمة مسألة أخيرة تتعلق بهذا الموضوع؛ ألا وهي : وقوع بعض الطيبين في الحب المفرط لنفسه ومصالحها، مما قد يؤدي به إلى الأنانية والأثرة المقوتة، وإن هذه الصفة الذميمة لها نتائج وخيمة ، ومن أبرز هذه النتائج : وقوع صاحبها في الشح والجبن المشار إليهما سابقاً ، ووقوعه أيضاً في ضعف الهمة وخور العزيمة ، وضعف النفس ودناءتها ، وإذلالها للغير في سبيل تحقيق مصلحة ، أو دفع مفسدة عنها .

ومن نتائج حب الذات المفرط أيضاً : العجب، والغرور، والأنانية، وقلة المروءة، وحب الظهور والمدح، وإهمال حقوق الأخوة وحقوق الآخرين ، وعدم المسارعة في خدمة المسلمين وإعانتهم على حوائجهم . . . إلخ .

١٨- نقل الأخبار دون تمحيص وتثبت :

لقد ابتلي بهذه الصفة كثير من الطيبين؛ حيث تراه يحدث بكل ما سمع دون تثبت ولا تمحيص ، وقد يكون ما سمعه لا أصل له ، وقد يكون مزاداً عليه ، وقد ينقله دون فهم ووعي لمراد المتكلم به ، وقد ينقله بعبارة يفهم السامع الآخر منها غير المراد ، ومعلوم ما ينتج من ذلك كله من إذكاء الشائعات ، والوقوع في الكذب ، وسوء الظن ، والعدوان على الناس بغير حق . يقول الله تعالى : ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٦].

---

(١) رواه البخاري في الجهاد (٣٠٢٥)، (٣٠٢٦)، ومسلم في الجهاد (١٧٤١)، (١٧٤٢).

١٩ـ التصدر للتدريس والجرأة على الفتوى بلا علم:

يقول الله تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]. ومع ذلك يوجد في بعض الدعاة، من لا يتردد في إفتاء الناس عما يسألون، بشبهة علم أو بغير علم أصلاً، أو أن يتصدر للتدريس في فن من الفنون قبل أن تجتمع عنده الآلة في ذلك، كل ذلك سببه مرض في القلب؛ وهذا المرض هو حب الشهرة والظهور بمظهر العالم الواعي الذي حوى من كل علم بنصيب، ولا يريد أن يتصف بالجهل، ومعلوم ما في هذا من الإثم والمنقصة في الدين، وفي النهاية يجازى بنقيض قصده؛ وهو استنقاص الناس له ومقتهم له وعدم الثقة به وبعلمه.

٢٠ـ الغلظة والفظاظة:

يقول الله تعالى: ﴿... وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

قال سيد قطب رحمه الله حول ظلال هذه الآية:

« فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم ... في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم، ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم، ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء ...

وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ، وهكذا كانت حياته مع الناس؛ ما غضب لنفسه قط، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئاً من أعراض هذه الحياة، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة

ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم، وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه، نتيجة لما أفاض عليه ﷺ من نفسه الكبيرة الرحيبة»[١] اهـ .

هذه هي صفات نبينا محمد ﷺ الذي أمرنا الله عز وجل بالتأسي به، واقتفاء أثره، وهي نموذج لكل داعية يريد دعوة الناس إلى الخير، ويحببهم فيه، ولكن مع ذلك بعضنا يفرّط في هذه الصفات، ويصدر منه من المواقف والتصرفات ما ينم عن الغلظة، والفظاظة، وعدم الحلم، وسعة الصدر، متمثلاً في تقطيب الوجه، وانقباض النفس، والتعنيف على الأخطاء، وفقدان الرفق والأناة، ومعلوم ما ينتج عن ذلك من نفرة الناس وكرههم لمن هذه أخلاقه، فوق ما في ذلك من الإثم وحرمان الأجر .

قال الرسول ﷺ: « **لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق** »[٢] .

وثمة شيء آخر يتعلق بهذا الموضوع ألا وهو ما درج عليه بعض المربين والموجهين من الدعاة من القسوة على من معهم، وتربيتهم على التقليد الأعمى، وعدم السماح لهم بإبداء آرائهم، ومعارضتهم، وقفل باب التشاور معهم .

وهذه الطريقة الخاطئة من التربية، تفرز لنا دعاة مقلدين متعصبين منفذين لما يقال لهم بدون بصيرة، وهذه في الحقيقة تربية عبيد لا تربية قادة، وهذا يخالف قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [يوسف: ١٠٨] .

❁ ❁ ❁

(١) في ظلال القرآن، عند الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .
(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٦) .

الخاتمة

في ختام هذا الموضوع أود التنبيه إلى الملاحظات التالية :

١ ـ لم أراع ـ في ترتيب الملاحظات السلوكية في هذا البحث ـ الأولوية والأهمية ، إلا فيما يتعلق بأمراض القلوب باعتبارها أخطر الأمراض ، فاحتلّت الرقم الأول على بقية الملاحظات لأهميتها وشدة خطرها ، أما ما تم سرده بعد ذلك فلم يكن حسب الأهمية ، بل كلما عنّ للخاطر ملاحظة دونتها ، وقد يكون ما بعدها أخطر منها ، وهكذا.

٢ ـ إن ما تم طرحه من المساوئ السلوكية والقلبية هو على سبيل المثال من الواقع العملي ، وليس على سبيل الحصر ، وإلا لو رجع كل منا إلى نفسه أو ما يشاهد من حوله لوجد أكثر مما طرح في هذا الموضوع. ولما كان هدف هذه الدراسة هو التنبيه على خطر هذه الأمراض وخطر نسيان النفس في زحمة الدعوة للآخرين ـ لما كان الأمر كذلك ـ اكتفيت بذكر نماذج من هذه القوادح؛ لعلها تكون حافزاً لنا، لتوجيه الدعوة والتربية إلى أنفسنا في الوقت الذي نوجهها لغيرنا ، كما أرجو أن يكون هذا الموضوع حافزاً لأهل الخير والصلاح وأرباب التربية والتوجيه إلى الاعتناء بمثل هذه المواضيع توجيهاً وكتابة ونصحاً .

٣ ـ لعل مما يلاحظ على هذا الموضوع أنه لم يتطرق للقوادح التصورية والعقدية المنتشرة عند بعض الدعاة ، ولكن تعمدت ترك ذلك ؛ لأن المقصود بهذا البحث الذين يفترض فيهم صحة المعتقد وسلامة المنهج من أهل السنة والجماعة .

وهنا ملاحظة مهمة يحسن طرحها بهذه المناسبة ؛ ألا وهي ضرورة العلم بأن منهج السلف - رحمهم الله تعالى - ليس فكراً مجرداً في الذهن ، وإنما هو عقيدة وسلوك ، وتصور وأخلاق ، ولكن المتأمل في حياتنا معشر أهل السنة يلحظ انفصالاً - ولو بصفة جزئية - بين الجانب العقدي النظري وبين الجانب السلوكي العملي ، انفصالاً بين النظرية والتطبيق .

فقد يلاحظ مثلاً أن هناك داعية عالماً معتقداً لعقيدة السلف في التوحيد بأنواعه ، وفي أصول الاستدلال ، وفي . . . إلخ ؛ ولكن ما إن يختبر في سلوكه إلا ويظهر عليه بعض الأخلاق المشينة المخالفة لعمل السلف .

إذن عندما ننادي بمنهج أهل السنة ومنهج السلف ، فإنا نريد من ذلك منهجهم الشامل في العقيدة وفي السلوك ، ولا نريد جزئية المنهج بأن يحصل الالتزام في الجانب العقدي ويفرط في الجانب السلوكي ، كما لا نريد العكس ؛ بحيث يكون الالتزام بالجانب السلوكي والتفريط في الجانب العقدي ، ولكن نريد الأمرين جميعاً . ولو رجعنا إلى سيرة سلفنا الصالح لوجدناهم خير مثال لهذا المنهج المتكامل .

وإذ كان الأمر كذلك فنحن بحاجة إلى إدراك المقصود بمنهج أهل السنة أو منهج السلف ، وأن المراد منه الجانبان معاً : العقدي والسلوكي ، ونحن بحاجة إلى أن نكون على منهج السلف في السلوك والأخلاق كحرصنا على أن نكون على أثرهم في المعتقد والفهم ، وإذا تم إدراك ذلك فسوف تختفي من حياتنا تلك الصور والمواقف المتناقضة .

نعم ، سوف لا نجد شخصاً هو على عقيدة السلف في توحيد الألوهية والأسماء والصفات ومحاربته للبدع ، ومع ذلك يخالف سلوك السلف في حبهم للجماعة وكرههم للفرقة ، أو يخالف سلوك السلف في اقترافه

للظلم، والكذب، والغيبة، والحسد، والشحناء، والتي ليست من أخلاق السلف .

إن هذه الازدواجية في الالتزام بمنهاج السلف سوف تزول أو تقل - إن شاء الله تعالى - بإدراك الأمر المشار إليه آنفاً .

ومن أجل ذلك الأمر - والله أعلم - نجد أن كتابات السلف - رحمهم الله تعالى - في عقيدة أهل السنة والجماعة تشير دائماً إلى بعض الجوانب السلوكية؛ وذلك لأهميتها ، فنرى مثلاً شيخ الإسلام رحمه الله تعالى يذكر ذلك في العقيدة الواسطية ، وهو يسرد أصول أهل السنة ، فقال :

« ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة ، ويرون إقامة الحج والجهاد ، والجمع ، والأعياد ، مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجاراً ، ويحافظون على الجماعات ، ويدينون بالنصيحة للأمة ، ويعتقدون معنى قوله ﷺ : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً** » . وشبك بين أصابعه[1] ، وقوله ﷺ : «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر** »[2]، ويأمرون بالصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء، والرضا بمر القضاء ، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ويعتقدون معنى قوله ﷺ : « **أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً** »[3] ويندبون إلى أن تصل من قطعك ، وتعطي من

---

(١) رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥).

(٢) رواه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦).

(٣) رواه أبو داود في السنة (٤٦٨٢)، والترمذي في الرضاع (١١٦٢)، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٨٤).

حرمك، وتعفو عمن ظلمك، ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل ، والرفق بالمملوك ، وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق ، ويأمرون بمعالي الأخلاق ، وينهون عن سفاسفها » اهـ .

رحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية ، فلقد كان مدركاً للترابط بين العقيدة والأخلاق ، وما إيراده لهذه الأخلاقيات في كتاب العقيدة الواسطية إلا أكبر دليل على أن الالتزام بمنهج السلف رحمهم الله تعالى يعني أن تتمثل في أهله عقيدة السلف وأخلاقهم ، وبقدر ما ينقص من هذه الجوانب سواء في المعتقد أو الأخلاق بقدر ما يحصل النقص في الالتزام بهذا المنهاج العظيم الكريم، الذي من سار عليه نجا وأفلح ، ومن تركه خاب وخسر .

نسأل الله عز وجل أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، كما نسأله سبحانه أن يهدينا لأحسن الأخلاق ؛ لا يهدي لأحسنها إلا هو ، وأن يصرف عنا سيئها ؛ لا يصرف عنا سيئها إلا هو .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه .

❋ ❋ ❋





الرسالة الرابعة

﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾

[الأنعام : ٨٣]



إن ربك حكيم عليم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن الله عز وجل خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له . وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ، حيث يرجعون إليه سبحانه فيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، ثم إن الله سبحانه وتعالى قد ركب في فطر خلقه الاستعداد للتوحيد ، والانجذاب إليه سبحانه فيما لو تركت النفس بدون مغير ؛ كما قال الله عز وجل في الحديث القدسي «**إني خلقت عبادي حنفاء** ... الحديث»[1] .

وقد أودع عز وجل في هذا الكون من الآيات الباهرات التي تدل عليه سبحانه وأنه وحده الخالق المدبر لهذا الكون ، وأنه هو المستحق للعبادة وحده .

ولكن مع كل هذا الاستعداد الفطري للتوحيد ومعرفة الله عزّ وجلّ بآياته إلا أنه سبحانه وتعالى وبواسع رحمته ، وعظيم إحسانه لم يكلنا إلى فطرتنا وحدها ؛ ذلك لما يعتري الفطرة السليمة من الفساد والركام بفعل المؤثرات

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٦٥) .

الخارجية أولاً ، وثانياً: لأن الفطرة الإنسانية مهما كانت سليمة وموحدة لبارئها وعالمة به في الجملة ؛ إلا أن هذا العلم والتوحيد سيبقى مجملاً وناقصاً .

ومن أجل ذلك أرسل الله عز وجل الرسل عليهم الصلاة والسلام ليزيلوا ركام الوثنية والشرك الذي تراكم على النفوس ليردوها إلى التوحيد الخالص لله عز وجل ويعرفوهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى والتي لا تدركها الفطرة بدون معلم، كما يعلمونهم الأحكام ، والتشريعات الربانية التي تُصلح أمور دينهم ودنياهم ،ويعلموهم أن لهم ميعاد يوم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، وأن هناك جنة وناراً وللجنة أهلون لهم صفات يليقون بها ، وللنار أهلون لهم صفات يستحقون العذاب بسببها، وكل هذه المعارف والعقائد لا تعرف لولا رحمة الله عز وجل ، بإرسال الرسل وإنزال الكتب .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومن أمور التوحيد التي فصلها سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ، وعلى لسان رسوله ﷺ أمر أسمائه الحسنى وصفاته العليا، التي يعرف بها العباد خالقهم ورازقهم ومعبودهم سبحانه حتى يقدروه حق قدره ،ويعبدوه حق عبادته ،ولتمتلئ النفوس بعظمته وجلاله وليتعبدوا له سبحانه ويدعونه بها، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وإن توحيد الأسماء والصفات له شأن عظيم ، وأثر كبير في النفوس

والقلوب ، ولا يصح إيمان عبد إلا بإيمانه بأسماء الله عز وجل وصفاته ، ولكن ما معنى الإيمان بالأسماء والصفات ؟ .

إن الإيمان بأسماء الله عز وجل وصفاته لا يتم على الوجه الصحيح إلا أن ينبني الفهم فيها على ثلاث أسس مهمة ذكرها الإمام الشنقيطي رحمه الله تعالى في محاضرة له عن (منهج دراسة لآيات الأسماء والصفات) ، قال في خاتمتها : إنا نوصيكم وأنفسنا بتقوى الله ، وأن تلتزموا بثلاث آيات من كتاب الله :

الأولى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ [الشورى: ١١] ؛ فنزهوا رب السموات والأرض عن مشابهة الخلق .

الثانية : ﴿ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى: ١١] ؛ فتؤمنوا بصفات الجلال والكمال الثابتة بالكتاب والسنة، على أساس التنزيه كما جاء ﴿ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ .

الثالثة : أن تقطعوا أطماعكم عن إدراك حقيقة الكيفية ؛ لأن إدراك حقيقة الكيفية مستحيل ، وهذا نص الله عليه في سورة طه ؛ حيث قال تعالى : ﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا** ﴾ [طه: ١١٠].

وإن هذا الذي ذكره الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى في المنهج الصحيح لفهم الأسماء والصفات ، لابد أن ينضم إليه الشعور بآثارها القلبية، والتعبد لله عز وجل ودعائه بها ، وإلا لن يتم الإيمان بالأسماء والصفات كما آمن به سلف الأمة الذين جمعوا بين الفهم والعمل ، ونظروا إلى كل اسم من أسماء الله عز وجل بأن فيه حقاً من العبودية لله عز وجل على العباد، يتعبدون لله سبحانه وتعالى به .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى [(١)] :

«فصل» والأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والأمر ، اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين ، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها ؛ أعني من موجبات العلم بها ، والتحقق بمعرفتها ، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح .

فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة ؛ يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً ، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً .

وعلمه بسمعه تعالى وبصره ، وعلمه وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وأنه يعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؛ يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله . وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه ، فيثمر له ذلك الحياء باطناً ، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح .

ومعرفته بغناه ، وجوده ، وكرمه ، وبره ، وإحسانه ، ورحمته ؛ توجب له سعة الرجاء ، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه ، وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة . وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي من موجباتها .

وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة

---

(١) مفتاح دار السعادة ص٤٢٤ .

بمنزلة أنواع العبودية ، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها ارتباط الخلق بها ، فخلقه سبحانه وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضياتها . اهـ .

وقال رحمه الله تعالى في (طريق الهجرتين) :

« والمقصود أن الرب أسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم سوء ، وأوصافه كلها كمال ليس فيها صفة نقص ، وأفعاله كلها حكمة ليس فيها فعل خال عن الحكمة والمصلحة ، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ، موصوف بصفة الكمال ، مذكور بنعوت الجلال منزه عن الشبيه والمثال ، ومنزه عما يضاد صفات كماله ؛ فمنزه عن الموت المضاد للحياة ، وعن السِّنَة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيومية ، وموصوف بالعلم منزه عن أضَداده كلها ، من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه ، موصوف بالقدرة التامة منزه عن ضدها من العجز ، واللغوب ، والإعياء ، موصوف بالعدل منزه عن الظلم ، موصوف بالحكمة منزه عن العبث ، موصوف بالسمع والبصر منزه عن أضدادهما من الصمم والبكم ، موصوف بالعلو والفوقية منزه عن أضداد ذلك ، موصوف بالغنى التام منزه عما يضاده بوجه من الوجوه مستحق للحمد كله .

فيستحيل أن يكون غير محمود كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حي وله الحمد كله واجب لذاته ، فلا يكون إلا محموداً كما لا يكون إلا إلهاً ورباً قادراً »[1] .

مما سبق من هذه النقول ، يتبين أن المقصود من الإيمان بتوحيد الأسماء

(١) طريق الهجرتين ص ٢٠٣ .

والصفات ليس مجرد المعرفة الذهنية فقط ، وإنما المقصود أن نفهمها كما فهمها رسول الله ﷺ وصحابته الكرام لفظاً ومعنى ، والتعبد لله سبحانه وتعالى بها والعمل بمقتضاها .

ولقد أحدث أهل الكلام وتلامذتهم من المبتدعة حدثاً كبيراً في هذا الركن الركين من التوحيد ؛ حيث تحول التعبد لله تعالى بأسمائه وصفاته إلى جدل كلامي ، ودراسات فلسفية ، وانعكس ذلك بدوره حتى على الذين يدرسون أو يُدرِّسون الأسماء والصفات على منهاج أهل السنة والجماعة ، فقلما نجد من الدارسين أو المدرسين لهذا العلم العظيم من يشير إلى المقصود الأساسي من دراسة هذا العلم ؛ ألا وهو التعبد لله تعالى بأسمائه وصفاته والعمل بمقتضاها كما مر بنا في كلام الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى .

ولكي يثبت لنا صحة هذه الملاحظة وأننا نمر على أسماء الله تعالى وصفاته ولا نقف عند مدلولاتها وآثارها في القلب وفي الواقع ، نأخذ على سبيل المثال ـ لا على سبيل الحصر ـ اسمين من أسماء الله تعالى الحسنى طالما قرأناهما مقترنين في كتاب الله تعالى ، ومع ذلك لا نقف على سر اقترانهما ، ولا على مدلول ولوازم كل اسم منهما ، وماذا يجب علينا من العبودية فيهما .

وهذان الاسمان هما المذكوران في عنوان هذا البحث : ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ .

قال تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٦].

والآيات التي ختمت بهذين الاسمين الكريمين كثيرة جداً في كتاب الله عز وجل ، فما معنى هذين الاسمين الجليلين، وما مقتضاهما ومدلولهما ؟ .

قال الإمام الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ :

الحكم في الاصطلاح: هو من يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها ، فالله جل وعلا حكم لا يضع أمراً إلا في موضعه ، ولا يوقعه إلا في موقعه ، ولا يأمر إلا بما فيه الخير ، ولا ينهى إلا عما فيه الشر ، ولا يعذب إلا من يستحق العذاب وهو جل وعلا ذو الحكمة البالغة له الحجة والحكمة البالغة .

وأصل الحكم في لغة العرب: معناه : المنع ؛ نقول : حكمه ، وأحكمه إذا منعه . قال الشاعر :

أبني حنيفة أحْكِموا سفهاءكم   إني أخاف عليكم أن أغضبا

وقال آخر :

فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

هذا هو أصل الحكم .

والحكمة : فعلة من الحكم ، وأظهر تفسير لها : العلم النافع ؛ لأن العلم النافع هو الذي يحكم الأقوال والأفعال؛ أي يمنعها من أن يعتريها الخلل ؛ فمن كان عنده العلم الكامل ؛ فإنه لا يضع الأمر إلا في موضعه ، ولا يوقعه إلا في موقعه ؛ لأن كل إخلال في الأحكام إنما هو من الجهل بعاقبة الأمور ، فترى الرجل الحاذق البصير يفعل الأمر ؛ يظن أنه في غاية الإحكام ، ثم ينكشف الغيب أنه فيه هلاكه؛ فيندم حين لاينفع الندم ؛ ويقول : ليتني لم أفعل ، أو لو أني فعلت كذا لكان أحسن .

أما الله سبحانه العالم بعواقب الأمور وما تصير إليه والعالم بما كان ويكون ، فلا يضع أمراً إلا في موضعه . ومحال أن ينكشف الغيب عن أن ذلك الأمر على خلاف الصواب لعلمه سبحانه بما تؤول إليه الأمور .

والعليم : صيغة مبالغة ؛ لأن علم الله جل وعلا محيط بكل شيء؛ يعلم خطرات القلوب ، وخائنات العيون ، وما تخفي الصدور ؛ حتى إن من إحاطة علمه سبحانه علمه بالعدم الذي سبق في علمه ألا يوجد ، فهو عالم أن لو وجد كيف يكون .

وأن اسم (الحكيم العليم) فيه أكبر مدعاة للعباد أن يطيعوه ، ويتبعوا تشريعه ؛ لأن حكمته سبحانه تقتضي ألا يأمرهم إلا بما فيه الخير ، ولا ينهاهم إلا عما فيه الشر ، ولا يضع أمراً إلا في موضعه ، وبإحاطة علمه يعلمون أن ليس هنالك غلط في ذلك الفعل ، أو أن ينكشف عن غير المراد ؛ بل هو في غاية الإحاطة والإحكام ، وإذا كان من يأمرك بحكم لا يخفى عليه شيء حكيم في غاية الإحكام لا يأمرك إلا بما فيه الخير ، ولا ينهاك إلا عن ما فيه

الشر ، فإنه يحق عليك أن تطيع وتمتثل »[1] اهـ .

مما سبق من كلام الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى يتبين أن اسم الحكيم يقتضي الإيمان بأن الله عز وجل حكيم في أحكامه وقضائه وقدره ؛ فكما أنه حكيم في شرعه ودينه فهو حكيم في قضائه وقدره؛ لأن من المعلوم أن ما يحكم به سبحانه وتعالى ويقتضيه في هذا الكون نوعين من الحكم :

١ ـ حكم كوني قدري .

وهو قسمان :

- قسم يمكن مدافعته .
- قسم ليس في الوسع مدافعته .

٢ ـ حكم ديني شرعي :

والله سبحانه وتعالى حكيم عليم في أحكامه الكونية القدرية ، وحكيم عليم في أحكامه الدينية الشرعية . قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في (طريق الهجرتين)[1] :

« بل الأحكام ثلاثة :

الحكم الأول : حكم شرعي ديني :

فهذا حقه أن يتلقى بالمسالمة والتسليم وترك المنازعة ؛ بل الانقياد المحض، وهذا تسليم العبودية المحضة ؛ فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد ، ولا يرى إلى خلافه سبيلاً البتة ، وإنما هو الانقياد المحض والتسليم والإذعان والقبول .

فإذا تلقي بهذا التسليم والمسالمة، إقراراً وتصديقاً بقي هناك انقياد آخر ،

(١) من شريط مسجل بصوت الشيخ رحمه الله تعالى .

(٢) طريق الهجرتين ص ٦٣ .

وتسليم آخر له، إرادة وتنفيذاً وعملاً ؛ فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه ، كما لا تكون له شبهة تعارض إيمانه وإقراره ، وهذا حقيقة القلب السليم الذي سلم من شبهة تعارض الحق ، وشهوة تعارض الأمر ، فلا استمتع بخلاقه كما استمتع به الذين يتبعون الشهوات ، ولا خاض في الباطل خوض الذين يتبعون الشبهات ، بل اندرج خلاقه تحت الأمر ، واضمحل خوضه في معرفته بالحق ، فاطمأن إلى الله معرفة به ، ومحبة له ، وعلماً بأمره ، وإرادة لمرضاته ، فهذا حق الحكم الديني الشرعي .

الحكم الثاني : الحكم الكوني القدري، والذي للعبد فيه كسب واختيار وإرادة :

والذي إذا حكم به يسخطه ويبغضه ويذم عليه ، فهذا حقه أن ينازع ويدافع بكل ممكن ولا يسالم البتة ، بل ينازع بالحكم الكوني أيضاً ، فينازع حكم الحق بالحق للحق ؛ فيدافع به وله، كما قال شيخ العارفين في وقته عبد القادر الجيلي : « الناس إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا ، وأنا انفتحت لي روزنة[1] ، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والعارف من يكون منازعاً للقدر لا واقفاً مع القدر » .

فإن ضاق ذرعك عن هذا ، فتأمل قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد عوتب على فراره من الطاعون ، فقيل له : أتفر من قدر الله ؟ ، فقال : «نفر من قدر الله إلى قدره» .

ثم كيف ينكر هذا الكلام من لا بقاء له في هذا العالم إلا به ، ولا تتم له مصلحة إلا بموجبه ؛ فإنه إذا جاء قدر الجوع والعطش أو البرد نازعه وترك

---

(١) الروزنة : الكوّة النافذة في أعلى السقف .

الانقياد له ومسالمته ودفعه بقدر من الأكل والشرب واللباس ؛ فقد دفع قدر الله بقدره .

وكذا إذا وقع الحريق في داره ، فهذا بقدر الله ، فما باله لا يستسلم له ويسالمه ويتلقاه بالإذعان؟ ، بل ينازعه ويدافعه بقدر الله، وما خرج في ذلك عن قدر الله .

وهكذا إذا أصابه مرض بقدر الله دافع هذا القدر ونازعه بكل ما يمكنه ؛ فإن غلبه وقهره حرص على دفع آثاره وموجباته بالأسباب التي نصبها الله لذلك، فيكون قد دفع القدر بالقدر ، ومن لم يستبصر في هذه المسألة ويعطيها حقها لزمه التعطيل للقدر أو الشرع شاء أو أبى ، فما للعبد ينازع أقدار الرب بأقداره في حظوظه ، وأسباب معاشه ، ومصالحه الدنيوية ، ولا ينازع أقداره في حق مولاه وأوامره ودينه ؟ وهل هذا إلا خروج عن العبودية ونقص في العلم بالله وصفاته وأحكامه ؟! .

ولو أن عدواً للإسلام قصده لكان هذا بقدر الله ، ويجب على كل مسلم دفع هذا القدر بقدر يحبه الله ؛ وهو الجهاد باليد أو المال أو القلب، دفعاً لقدر الله بقدره ، فما للاستسلام والمسالمة هنا مدخل في العبودية ؛ اللهم إلا إذا بذل العبد جهده في المدافعة والمنازعة ، وخرج الأمر عن يده ، فحينئذ يبقى من أهل :

الحكم الثالث : وهو الحكم القدري الكوني الذي يجري على العبد بغير اختياره ، ولا طاقة له بدفعه ولا حيلة له في منازعته :

فهذا حقه أن يتلقى بالاستسلام والمسالمة ، وترك المخاصمة ، وأن يكون فيه كالميت بين يدي الغاسل ، وكمن انكسر به المركب في لجة البحر وعجز عن السباحة ، وعن سبب يدنيه من النجاة ، فها هنا يحسن الاستسلام

والمسالمة ؛ مع أن عليه في هذا الحكم عبوديات أخرى سوى التسليم والمسالمة، وهي أن يشهد عزة الحاكم في حكمه ، وعدله في قضائه ، وحكمته في جريانه عليه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن الكتاب الأول سبق بذلك قبل بدء الخليقة، فقد جف القلم بما يلقاه كل عبد ، فمن رضي ، فله الرضا، ومن سخط فله السخط .

ويشهد أن القدر ما أصابه إلا لحكمة اقتضاها اسم الحكيم جل جلاله وصفته الحكمة ، وأن القدر قد أصاب مواقعه ، وحل في المحل الذي ينبغي له أن ينزل به ، وأن ذلك أوجبه عدل الله وحكمته وعزته وعلمه وملكه العادل ، فهو موجب أسمائه الحسنى ، وصفاته العلى ، فله عليه أكمل حمد وأتمه ، كما له الحمد على جميع أفعاله وأوامره »[1] اهـ .

وفي ضوء هذا الكلام البديع للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى تبرز لنا حقيقتان مهمتان من لوازم ومقتضيات اسم الله عز وجل (الحكيم) :

الحقيقة الأولى :

أن اسم (الحكيم) يلزم الإيمان به لوازم قلبية تعبدية تقتضي الإيمان الجازم بأن الله عز وجل حكيم في جميع أحكامه الدينية الشرعية ، ليس لأحد من البشر أن يعارضها أو يأتي بما يناقضها أو يخلطها بغيرها .

بل إن اسم (الحكيم) لله سبحانه يفرض على العبد الاستسلام لشرع الله الحكيم ، فيحكم به ، ويتحاكم إليه ، ويرفض كل شرع يخالف شرع الله حكماً وتحاكماً ، ويؤمن إيماناً جازماً أن من شرع ديناً ونظاماً لم يأذن به الله تعالى ، وادعى أنه أصلح لحياة الناس ومعاشهم ، أو ساواه بشرع الله ، أو

---

(١) طريق الهجرتين ، ص٦٣ .

جوز الحكم به ، فإنه قد أشرك بالله عز وجل ، ومن أطاعه في ذلك على علم فقد أشرك بالله أيضاً .

ذلك لأن في هذا الصنيع كفراً بأسماء الله عز وجل وصفاته ، ومنها اسم (الحكيم)، فوق ما فيه من كفر بتوحيد الألوهية ، وبالذات توحيد الطاعة والاتباع . قال تعالى : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء : ٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** ﴾ .

[الأحزاب : ٣٦]

وقال تعالى : ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** ﴾ .

[الأنعام : ١٢١]

وإن خطورة هذا الشرك لتظهر في عصرنا اليوم الذي أُقْصي فيه شرع الله عز وجل جانباً، وحكم في الأنفس والعقول والأموال والأعراض بأنظمة البشر وأهواء البشر، التي تخلو من العلم والحكمة ، ومعرفة عواقب الأمور، وإنما الذي يسيطر عليها الجهل والهوى والتخبط . وإنه لم يظهر مثل هذا الشرك الخطير في تاريخ الأمة الإسلامية كما ظهر في زماننا اليوم .

ونظراً لخطورة هذا الأمر ، وقلة من تكلم عنه أنقل كلاماً نافعاً للشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى ، وهو يتحدث عن هذا الشرك الجديد في (أضواء البيان) عند قوله تعالى : ﴿ **وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ٢٦] .

قال رحمه الله تعالى : « قرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا ابن عامر «ولا يشركُ» بالياء المثناه التحتية ، وضم الكاف على الخبر ، ولا نافية ،

والمعنى : ولا يشرك الله جل وعلا أحداً في حكمه ، بل الحكم له وحده جل وعلا ، لا حكم لغيره البتة ، فالحلال ما أحله تعالى ، والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ، والقضاء ما قضاه ، وقرأه ابن عامر من السبعة : « ولا تُشركْ » بضم التاء المثناة الفوقية وسكون الكاف بصيغة النهي ؛ أي لاتشرك يا نبي الله ، أو لا تشرك أيها المخاطب أحداً في حكم الله جل وعلا ، بل أخلص الحكم لله من شوائب شرك غيره في الحكم ، وحكمه جل وعلا المذكور في قوله : ﴿ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ شامل لكل ما يقضيه جل وعلا ، ويدخل ـ في ذلك ـ التشريع دخولاً أولياً .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الحكم لله وحده لا شريك له فيه ، على كلتا القراءتين ، جاء مبيناً في آيات أخر ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠]، قوله تعالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْت ... ﴾ الآية [يوسف: ٦٧]، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية [الشورى: ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ .

[غافر: ١٢]

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨] ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٧٠]، وقوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ [الأنعام: ١١٤]، إلى غير ذلك من الآيات .

ويفهم من هذه الآيات كقوله : ﴿ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون بالله ، وهذا المفهوم جاء مبيناً في آيات أخرى ؛ كقوله فيمن اتبع تشريع الشيطان في إباحة الميتة بدعوى أنها ذبيحة الله : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١] فصرح بأنهم مشركون بطاعتهم .

وهذا الإشراك في الطاعة واتباع التشريع المخالف لما شرعه الله تعالى هو المراد بعبادة الشيطان في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠، ٦١] ، وقوله تعالى تعالى عن نبيه إبراهيم: ﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ [مريم: ٤٤]، وقوله تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧] ، أي : ما يعبدون إلا شيطاناً ، وذلك باتباع تشريعه ؛ ولذا سمى الله تعالى الذين يطاعون فيما زينوا من المعاصي شركاء، في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ... ﴾ الآية [الأنعام: ١٣٧].

وقد بين النبي ﷺ هذا لعدي بن حاتم رضي الله عنه لما سأله عن قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ... ﴾الآية [التوبة: ٣١]، فبين له أنهم أحلوا لهم ما حرم الله ، وحرموا عليهم ما أحل الله ، فاتبعوهم في ذلك، وأن ذلك هو اتخاذهم إياهم أرباباً .

ومن أصرح الأدلة في هذا أن الله جل وعلا في سورة النساء بين أن من يريدون أن يتحاكموا إلى غير ماشرعه الله يتعجب من زعمهم أنهم مؤمنون،

وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب ؛ وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ .

[النساء : ٦٠]

وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور : أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على ألسنة رسله صلى الله عليهم وسلم، أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم »(١) اهـ .

وحول هذا الموضوع أيضاً قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء : ٥٩] : « إن هذه الآية تتضمن أموراً . . . » إلى أن قال :

« ومنها : أنه جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه ، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان ؛ ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه ، ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين ؛ فإنه من الطرفين ، وكلاً منهما ينتفي بانتفاء الآخر ، ثم أخبرهم أن هذا الرد خيرٌ وأن عاقبته أحسن عاقبة ، ثم أخبر أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكَّم الطاغوت وتحاكم إليه .

والطاغوت : كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع ؛ فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ،

(١) أضواء البيان (٤/ ٩٠ ـ ٩٢).

أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله .

فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم [عَدَلُوا] من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت ، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت ، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته ، وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة وهم الصحابة ومن تبعهم، ولا قصدوا قصدهم ؛ بل خالفوهم في الطريق والقصد معاً .

ثم أخبر تعالى عن هؤلاء ، بأنهم إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أعرضوا عن ذلك ، ولم يستجيبوا للداعي ، ورضوا بحكم غيره ، ثم توعدهم بأنهم إذا أصابتهم مصيبة في عقولهم وأديانهم وبصائرهم وأبدانهم ، وأموالهم بسبب إعراضهم عما جاء به الرسول ، وتحكيم غيره، والتحاكم إليه ، كما قال تعالى: ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ** ﴾ [المائدة: ٤٩]، اعتذروا بأنهم إنما قصدوا الإحسان والتوفيق ؛ أي بفعل ما يرضي الفريقين، ويوفق بينهما، كما يفعله من يروم التوفيق بين ما جاء به الرسول ، وبين ما خالفه ، ويزعم أنه بذلك محسن قاصد الإصلاح والتوفيق .

والإيمان إنما يقتضي إلقاء الحرب بين ما جاء به الرسول وبين كل ما خالفه من طريقة وحقيقة وعقيدة وسياسة ورأي ؛ فمحض الإيمان في هذه الحرب لا في التوفيق ، وبالله التوفيق.

ثم أقسم سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل ، ولم يكتف في إيمانهم بهذا

التحكيم بمجرده حتى ينتفي عن صدورهم الحرج، والضيق عن قضائه وحكمه ، ولم يكتف منهم أيضاً بذلك حتى يسلموا تسليماً ، وينقادوا انقياداً.

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦] ، فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله ، ومن تخير بعد ذلك فقد ضل ضلالاً مبيناً.

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١] ؛ أي: لا تقولوا حتى يقول ، ولا تأمروا حتى يأمر ، ولا تفتوا حتى يفتي ، ولا تقطعوا أمراً حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويمضيه ، روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ، وروى العوفي عنه قال : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه .

والقول الجامع في معنى الآية : لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل.

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢] . فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سبباً لحبوط أعمالهم ، فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه ؟ أليس هذا أولى أن يكون محبطاً لأعمالهم ؟ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ

عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢] ، فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه ، فأولى أن يكون من لوازمه ألا يذهبوا إلى قول ولا مذهب إلا بعد استئذانه ، وإذنه معروف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه »[1] اهـ .

الحقيقة الثانية :

ومن لوازم الإيمان باسم الله (الحكيم) الإيمان بأن ما يقضيه الله عز وجل من أحكامه الكونية القدرية فيها الحكمة البالغة ، وفيها الصلاح والخير ، إما في الحال أو المآل ، ولو ظهر فيها شيء مما تكرهه النفوس وتتألم منه مما يقدره الله سبحانه ، ففيه الخير والصلاح للناس ولو لم يظهر للبشر هذه الخيرية ؛ فلابد من الإيمان بأن الله عز وجل له الحكمة البالغة فيما يقدر ، وهذا ما يقتضيه اسم الله (الحكيم) .

يقول الله تعالى : **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾** [البقرة: ٢١٦].

قال سيد قطب رحمه الله حول هذه الآية : « . . . إنه من يدري فلعل وراء المكروه خيراً ، ووراء المحبوب شراً . إن العليم بالغايات البعيدة المطلع على العواقب المستورة هو الذي يعلم وحده ، حيث لا يعلم الناس شيئاً »[2] اهـ.

والمقصود أن الإيمان بأن الله سبحانه حكيم في قضائه وقدره ؛ يفرض على المسلم الاستسلام والرضا بما يقدره الله عز وجل، من الأحكام الكونية

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٥٠).
(٢) في ظلال القرآن ص ٣٢٣ ـ دار المعرفة .

القدرية ، من مصائب وأمراض وغيرها ، مما لا يستطيع دفعه بالأسباب الشرعية ، أما ما يمكن دفعه ومنازعته بقدر آخر من أقدار الله عز وجل ؛ فإن هذا لا يعارض الإيمان بالقدر ، كما سبق نقله عن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى[١] .

فالإيمان بعلم الله عز وجل وكتابته لجميع المقادير قبل وقوعها ، ثم الإيمان بأنه سبحانه حكيم فيما يفعل ويقضي ويقدر ، كل هذا يبث الرَّوح والطمأنينة ويسكبها في قلب المسلم المخبت لربه ، المطمئن لقضائه وقدره ، الموقن بأن كل ما يكتبه الله عز وجل عليه من مصائب وغيرها فهي خير له إما عاجلاً أو آجلاً ، كما قال تعالى : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، وكما قال ﷺ : « **عجباً لأمر المؤمن ! إن أمره كله له خير ؛ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له** »[٢] ، وكقوله ﷺ : « ... **والخير كله في يديك والشر ليس إليك** »[٣] .

فالشر ليس إليه سبحانه ولو ظهر لنا أن هذا الفعل شر ومكروه ، فهو بالمآل خير وصلاح . ولقد كان أنبياء الله عز وجل يدركون ما في أسماء الله عز وجل من العبوديات وما يلزم عليها من الرضا والتسليم والطمأنينة لقضاء الله وقدره .

فهذا نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام عندما جاءه الخبر بحجز ابنه الثاني عند عزيز مصر - وقد سبق ذلك فقده ليوسف عليه السلام - توجه

---

(١) انظر ص : ١٥٤ - ١٥٥ .
(٢) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق (٢٩٩٩) .
(٣) مسلم - كتاب صلاة المسافرين (٧٧١) .

برجائه ودعائه لله عز وجل . قال تعالى يحكي حاله : ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف : ٨٣] .

ومن خلال التأمل للآيتين السابقتين نلاحظ أن يعقوب وابنه عليهما الصلاة والسلام قد ختما تضرعهما لله عز وجل بعد المصائب التي حلت بهما بهذين الاسمين العظيمين (العليم الحكيم) .

واختيار هذين الاسمين الجليلين في هذا المقيام له دلالته ومغزاه ؛ لأن أعرف الناس بالله عز وجل هم أنبياؤه ورسله، ولقد ختما تضرعهما إلى الله عز وجل باسم (العليم الحكيم) ، وذلك والله أعلم لما يبثه هذان الاسمان الكريمان في قلب المسلم من الرضا والطمأنينة والتسليم لقدر الله عز وجل ، وأن شيئاً في هذا الكون لا يحدث إلا بعلم الله عز وجل وحكمته البالغة .

وبينما كنت في نهاية هذا البحث وخاتمته قدر الله عز وجل الأحداث الموجعة التي تعيشها المنطقة الإسلامية هذه الأسابيع ، والتي تعرف بأحداث الخليج على إثر الاجتياح العراقي لدولة الكويت ، ومع ما تحمله هذه الأحداث من مصائب ونكبات، إلا أنه ظهر وسيظهر من مقتضيات اسم الله (العليم الحكيم) دروس وعبر ومشاهد ، تزيد في إيمان المؤمن بأسماء الله عز وجل الحسنى وصفاته العليا .

ولذا أحببت أن أُدلي ببعض المعاني التي جالت في الخاطر إزاء هذه الأحداث بعد ربطها بهذين الاسمين الجليلين العظيمين من أسماء الله عز وجل الحسنى (العليم) ، (الحكيم) ، فأقول وبالله التوفيق :

إن من الأصول المستقرة في باب الإيمان بالله عز وجل، الإيمان بقضائه وقدره، وأن شيئاً لا يحدث في هذا الكون صغيراً أو كبيراً إلا بعلم الله عز وجل وإرادته وخلقه له؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣].

كما أن الإيمان بالله سبحانه وقضائه وقدره وأسمائه وصفاته، لا يحصل إلا بأن يجزم المسلم أن ما يكتبه الله عز وجل ويقدره في هذا الكون من ورائه حكمة بالغة، ولو ظهر للناظر أنه شر ومكروه؛ فالإنسان بإدراكه المحدود في الزمان والمكان، ولأن من طبيعته الجهل والظلم، فإنه لا يمكن أن يدرك مآلات الأمور وعواقبها، ولا يعلم بذلك إلا العليم الحكيم، خالق الأشياء ومقدرها، وعالم الغيب والشهادة.

قال تعالى: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

[الحديد: ٢٢]

إذ الأمر كذلك؛ فلا شك ولا ريب، أن ما حصل من أحداث، وشرور في أحداث الخليج إثر الاجتياح البعثي للكويت لابد وأن نخضعه للأصول الآنفة الذكر، وأن من حاد عن هذا المنهج فقد خسر إيمانه بالله عز وجل أصلاً، وانحاز إلى معسكر الكفر والإلحاد، الذين لا يؤمنون بشيء من هذه الحقائق، وإنما يفسرون أحداث التاريخ تفسيراً مادياً معزولاً عن علم الله عز وجل وتقديره، وحكمته البالغة فيما يخلق ويقدر.

وعلى ضوء ما سبق ؛ فإن الواجب على المسلم إزاء هذه الأحداث أن يؤمن إيماناً جازماً أن ماقدره الله عز وجل في أحداث الخليج، وإن كانت موجعة مؤلمة ؛ فإن من ورائها حكمة بالغة اقتضتها حكمة أحكم الحاكمين والمرتبطة باسمه (الحكيم) سبحانه وتعالى .

ولقد ظهرت بعض الدروس والحكم جلية من خلال هذه الأحداث المؤلمة ، مع أن ما خفي علينا في غيب الله عز وجل من الحكم والمصالح أكثر، ومن هذه الدروس التي ظهرت ما يلي :

الدرس الأول : التعرف على سنة الله عز وجل في التغيير وهي التفسير الإسلامي للأحداث :

إن ما حصل من أحداث في دولة الكويت ، وما ترتب على هذا الحدث من أمور ومستجدات قد فتح أعيناً عمياً وآذاناً صماً على حقيقة مهمة وسنة ثابتة لا تتغير ؛ ألا وهي : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١] ، وأصبحنا والحمد لله نجد هذه الحقيقة على ألسن كثير من الناس الذين منَّ الله عليهم باليقظة بعد الغفلة رجالاً ونساءً وعوام ومثقفين ، وهذا بحد ذاته نعمة ومنحة ورحمة من الله عز وجل لم تكن لتحصل لولا قدر الله عز وجل لهذا الحدث .

لقد كنا نعترف ونؤمن بهذه الحقيقة قبل ذلك ، ولكنه إيمان ضعيف ، أما الآن فقد تحول هذا الإيمان إلى صورة واقعية عملية ؛ صار الخبر فيها عياناً، ولا شك أن الإيمان بهذه السنة الثابتة وأثرها على النفوس سيكون أبلغ وأقوى من الإيمان بها قبل وقوعها ، وكما هو معروف أن الطرق على الحديد وهو ساخن أقوى بكثير في تليينه وتأثره من الطرق عليه وهو بارد .

كما أن رحمة الله عز وجل وحكمته البالغة قد تجلت في هذا الحادث بأنه لم يترك الناس ينحدرون وبعجلة سريعة إلى الفساد ، وهم غافلون عما ينتظرهم من الهوة السحيقة التي هم قادمون عليها لو استمر انحدارهم ، ولم يأت ما يوقفهم ويحد من انحدارهم إذا لم يصلحوا أنفسهم ، ويوقفوا فسادهم بالوسائل الشرعية للإصلاح ، فيقدر عليهم أحداثاً مؤلمة تشدهم عن المزيد من الانحدار ، وتقف أمام تهالكهم على الفساد لعلهم يرجعون ويتوبون ويستيقظون من غفلتهم .

قال الله تعالى : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الروم: ٤١] ، وهذه والله هي عين النعمة والرحمة ، وإن كان ظاهرها التشريد والقتل وفقد الأموال ، فإن كل هذه المصائب تهون وتصغر عند فقد الدين ، وما يترتب على ذلك من مفاسد كبيرة ، لو استمرت عجلة الفساد في انحدارها الشديد ، ولم يأت للناس ما يوقفهم ويهز رؤوسهم ليستيقظوا ويتداركوا أنفسهم من السقوط في هوة سحيقة هم متجهون إليها لو لم يوقفهم الله عز وجل بما يقدره من أحداث .

وإن هذا الدرس العظيم لا يدركه ، ولا يستفيد منه إلا المؤمن الذي يجعل من مثل هذه الأحداث باباً إلى التوبة ومحاسبة النفس ، والرجوع إلى الله عز وجل ، وتغيير الأحوال .

أما المنافق ، والمادي ، والعلماني ، وغيرهم من أهل الإلحاد والزندقة ، فلا تراهم إلا ساخرين ومستهزئين من هذه المعاني العظيمة ، والأصول الإيمانية الثابتة ، ولا تزيدهم هذه الأمور إلا كبراً ما هم ببالغيه ، ولن

يزيدهم هذا إلا رجساً إلى رجسهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٦].

وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣] .

الدرس الثاني : تمييز الخبيث من الطيب :

يقول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ . . . الآية ﴾ [آل عمران: ١٧٩]

إن من رحمته تعالى وحكمته البالغة أن يقدر أحداثاً مؤلمة تتميز من خلالها الصفوف ، وتتعرى فيها النفوس ، فتظهر على حقيقتها للناس . وهذا هو الذي ظهر من خلال هذه الأحداث ؛ حيث ظهرت حقائق مهمة ساهمت في توعية الناس ، والدعاة منهم بصفة خاصة ، وذلك بحقيقة أعدائهم ، وتهافت راياتهم ، وانكشاف مخططاتهم ، وادعاءاتهم الكاذبة التي كانوا يخدعون بها الناس .

وتعرت بذلك دول وأفكار ودعوات ، بل إن الإنسان نفسه قد تعرى أمام نفسه ، وكشف من خلال هذه الأحداث حقائق من حوله ، ومن نفسه ، ما كانت لتعرف لو لم يقدر الله عز وجل مثل هذه الأحداث، وإن هذه الثمرة الكبيرة، من توعية المسلمين بحقيقة أعدائهم ، وبحقيقة الأفكار والنحل التي

تتلاطم من حولهم ، ما كانوا ليعرفوا عنها شيئاً ، وبهذا الكم الهائل من المعلومات، لولا تقدير الله عز وجل لهذا الحدث .

وقد حقق الله عز وجل هذه الثمرة في أسابيع عدة ما كانت الدعوة الإسلامية لتحصل عليها في عدة سنوات ، والأيام حبلى بدروس وعبر جديدة ؛ أليس هذا من رحمة الله وفضله ؟ ، بلى والله .

ولا يعني هذا أنا نتمنى المصائب والفتن ؛ معاذ الله ، فإن المسلم لا يدري ما تكون حاله حينئذ ، وقد نهانا رسول الله ﷺ عن ذلك بقوله : « **لا تتمنوا لقاء العدو ، وإذا لقيتموه فاصبروا** »[1] .

ولكن أردت الإشارة هنا إلى ربط الأحداث بعلم الله عز وجل وحكمته البالغة ، وأن شيئاً في هذا الكون لا يكون إلا بعلم الله عز وجل وحكمته البالغة ، ويريد الله عز وجل منه الخير للمسلمين في الحال أو المآل .

الدرس الثالث : أهمية التوحيد والتربية عليه :

لقد ظهر من خلال هذه الأحداث الأهمية البالغة لتربية النفوس على عقيدة التوحيد الخالص ، ولقد بدا من خلال الأحداث أن هناك ضعفاً شديداً في هذا الجانب المهم في حياة المسلم ، كما ظهر من خلال الأحداث أن هذا الأصل المهم من أصول الإيمان لم يأخذ حقه من التربية العلمية والعملية .

ولعل من أهم دروس هذا الحدث أن يشعر المسلمون وأرباب التوجيه والتربية بضعف هذا الجانب ، وما كان ليعرف هذا الخلل لولا تقدير الله

---

(١) متفق عليه .

سبحانه وتعالى هذه الأحداث .

ومن مظاهر هذا الضعف ما حصل من الارتباك الشديد في بعض المفاهيم العقدية، والتي تعتبر من الثوابت والأصول التي لا تتزعزع ، ولا تهتز ولا تتغير مهما تغيرت الأحوال والأزمان والأمكنة ، ومن أهم هذه الأصول التي اعتراها الاهتزاز ، مفهوم الولاء والبراء، والعداوة للكافرين والمشركين والمنافقين بشتى مللهم وأفكارهم .

أما أن يصبح العدو صديقاً والصديق عدواً ، وأما أن تبذل المحبة للكافر والعداوة للمسلم ، ويكون الميزان في الحب والعداوة موازين الأرض وموازين المصالح الشخصية ؛ فهذا كله مما ترفضه عقيدة التوحيد الثابتة ، والتي تقوم الموالاة والمعاداة على أساسها ، وهذا هو أصل لا إله إلا الله ؛ الكلمة الطيبة التي وصفها الله عز وجل بقوله : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا** ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥] .

وهي الكلمة التي من أجلها أُرسل الرسل وأُنزلت الكتب ، وجاهد من أجلها أنبياء الله عز وجل ودعاته الصادقون ، كما قال تعالى : ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ** ﴾ [الممتحنة: ٤].

أما ما سواها من المصالح الشخصية والموازين الأرضية فليس لها صفة الثبات؛ بل إن أبرز خصائص المصالح والموازين الأرضية ؛ عدم الثبات والروغان ، فالذي يحب ويعادي من أجل المصالح الدنيوية يدور مع هذه

المصالح حيث دارت ، فقد يعادي في الصباح من أحبه في المساء ، وقد يوالي في المساء من عاداه في الصباح ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٦، ٢٧] ، اللهم ثبتنا بقولك الثابت ، ولا تضلنا مع الظالمين .

ومما يؤيد ضرورة الاهتمام الشديد بالتربية على التوحيد ؛ ما ظهر من النقص والضعف في توحيد التوكل والاستعانة والاستغاثة وغيرها ، وما نتج عن هذا الضعف من الركون إلى غير الله عز وجل من أعداء هذا الدين ، والثقة بما عندهم أكثر من الثقة فيما عند الله عز وجل .

ولأجل كل ما سبق، ظهر أن الحاجة ماسة جداً إلى مزيد من التربية على العقيدة علماً وعملاً ؛ بأن نتعلم أركان التوحيد ، وما يضاده من الشرك القديم والجديد، وألا يستخفنا الذين لا يوقنون من أرباب السياسة والمصالح الأرضية ، فيستهووننا معهم ، ويركبوننا في ركابهم ، بل يجب علينا الحذر الشديد منهم ومن مكرهم ، وأن نقبل على ديننا نتعلمه ، ونعمل به وندعو إلى الله ، ونصبر على الأذى فيه ، وألا نستطول الطريق أو الوقت الذي نمضيه في تعلم التوحيد ، وكل متعلقاته .

كما يجب علينا أن نعي واقعنا، وأن نربط ما تعلمناه من دين الإسلام بقضايا عصرنا ، ومستجداته من الأفكار والنحل التي لم تكن موجودة عند أسلافنا ، وأن يكون للتربية الشاملة على التوحيد دورها في مواجهة الشرك المعاصر ، والتي تشن فيه العلمانية معارك طاحنة ضد المسلمين بوسائل شتى .

أي أننا نريد منهجاً دعوياً يقوم على (**سلفية المنهج وعصرية المواجهة**)[١] ونقصد بالسلفية : العودة بأصول الفهم والاستدلال إلى الكتاب والسنة ، وقواعد الفهم المعتبرة لدى أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان ؛ وذلك لنتمكن من خلال هذا المنهج من المواجهة السلفية المعاصرة لمشكلات عصرنا المتجددة ، حيث لا نقصد بالسلفية الوقوف فحسب عند القضايا العقدية التي واجه بها سلفنا الصالح انحرافات عصرهم ، وكانت فريضة الوقت يومئذ ، ثم نتخلى عن المعارك الطاحنة التي تديرها الجاهلية في المجتمعات المعاصرة ؛ حيث ضاعت إسلامية الراية وإسلامية النظم وذلك في أكثر بلدان المسلمين .

إن السلفية الحقة لا تقبل أن تستهدف الدعوة في بعض المواقع تحرير العقائد من شرك الأموات ، والتمائم ، وتضرب صفحاً عن شرك الأحياء والأوضاع والنظم ؛ والتي لا تقل خطراً عن شرك الأصنام ، وكلا الشركين خطير .

كما لا تقبل السلفية الحقة أن تحارب التشبيه والتعطيل في صفات الله عزوجل وتقف عند ذلك ، ولا تعلن الحرب على تعطيل الشريعة ، وتحكيم القوانين الوضعية ، وفصل الدين عن الدولة ، وإننا بهذا المنهج الشامل والسلفية المعاصرة ، نسلم وتسلم عقيدتنا الثابتة من أي خلط أو اهتزاز ، كما هو الحاصل في هذه الأيام ، ولكنها الفتن ؛ نعوذ بالله منها ؛ ما ظهر منها وما بطن .

---

(١) المراد (بعصرية المواجهة) أن يواجه أصحاب المنهج السلفي في كل عصر ما يكون في عصرهم من بدع وشركيات ومنكرات سواء كانت لها جذور قديمة أو كانت جديدة لم يسبق لها نظير بعينها وإن كان إنكارها له أصل شرعي .

وما أحسن ما كتبه الأستاذ محمد قطب في كتابه القيم (واقعنا المعاصر) حول أهمية التربية والرد على من يستطول طريقها ويريد قطف الثمرة قبل استكمالها ، فقال ص٤٨٦ : « أما الذين يسألون إلى متى نظل نربي دون أن (نعمل)[1] ؟ فلا نستطيع أن نعطيهم موعداً ؛ فنقول لهم : عشر سنوات من الآن أو عشرين سنة من الآن ! ، فهذا رجم بالغيب لا يعتمد على دليل واضح، وإنما نستطيع أن نقول لهم : نظل نربي حتى تتكون القاعدة المطلوبة بالحجم المعقول . . . » ثم يستمر وفقه الله حول هذا الموضوع إلى أن قال : « . . . ونكتفي بثلاثة أبعاد ، ننتقيها من بين أبعاد كثيرة ومجالات عديدة ؛ لأنها ذات أهمية خاصة ؛ وذلك بالنسبة لبناء القاعدة المطلوبة .

يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨]، ولو أنك سألت أي إنسان في الطريق: من الذي يرزقك لقال لك على البديهة: الله ، ولكن انظر إلى هذا الإنسان إذا ضيق عليه في الرزق ، يقول : فلان يريد قطع رزقي ! فما دلالة هذه الكلمة ؟

دلالتها أن تلك البديهة ذهنية فحسب ، وبديهة تستقر في وقت السلم والأمن ، ولكنها تهتز إذا تعرضت للشدة ؛ لأنها ليست عميقة الجذور . . . فلا يصلح لتلك الأعباء إلا شخص قد استقر في قلبه إلى درجة اليقين أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، وأن الله هو المحيي المميت ، وأن الله هو الضار النافع ، وأن الله هو المعطي والمانع ، وأن الله هو المدبر ، وأن الله هو الذي بيده كل شيء . . .

ترى كم جلسة ؟! كم درساً ؟! كم موعظة ؟! كم توجيهاً يحتاج إليها

(١) الكلام هنا موجه لأولئك الشباب المتحمس الذي ينقصه التربية والعلم الشرعي والإمكانات ومع ذلك يطالب بإعلان الجهاد ضد الأنظمة التي تنكرت لشرع الله واستحلت ما حرم الله.

الإنسان ؟! ليرسخ في قلبه إلى درجة اليقين أن الله هو الذي يدبر ، وأن المخلوقات البشرية التي يخالطها في حياته إن هي إلا أدوات لقدر الله ، وأنها حين تضره فهو بشيء قد قدره الله له ، وحين تنفعه فإنما تنفعه بشيء قد كتبه الله له ، فلا يتوجه إلا إلى الله في سرائه وضرائه سواء ، ويعلم يقيناً أن الخلق كلهم لا يملكون له ولا لأنفسهم ضراً ولا نفعاً » اهـ .

الدرس الرابع : صحة الفهم وحسن القصد ودورهما في درء الفتن :

في أيام الفتن تضطرب الأفهام ، وتحتار العقول أمام الشبهات ، كما أن القلوب تضعف أمام الشهوات ، ولا يعصم منها إلا من عصمه الله تعالى بعلم صحيح ، وفهم دقيق يدرأ بهما الشبهات ، وبدين وتقوى وصبر يدرأ بها الشهوات ، فبالعلم واليقين تدرأ الشبهات ، وبالصبر وحسن القصد تدرأ الشهوات .

ولا يسلم من الفتن ورياحها إلا من تحلى بهاتين الصفتين : الفهم الصحيح والقصد الصحيح ، ومن فقد إحدى هاتين الصفتين ؛ فقد عرض نفسه للفتن ، ولقد تجلَّت مظاهر فقد هذين الأمرين أو أحدهما في هذه الأيام، أيام الأحداث والفتن ، فسقط في هذه الفتن من سقط ، وهلك فيها من هلك ، ولا تتعدى أسباب السقوط هذين الأمرين الآنفي الذكر ؛ فبضعف اليقين والبصيرة تسيطر الشبهات ، وبضعف التقوى وفساد المقصد تسيطر الشهوات .

وصحة اليقين والفهم يتمان بأمرين اثنين : بالعلم بدين الله عز وجل وأحكامه وشرعه ، وبالعلم بالواقع وأبعاده؛ فمن فرط في أي من هذين العلمين والفهمين فسد فهمه ، وعرض نفسه للشبهات ، وأخذ الباطل يحسبه حقاً .

أما من تحلى بالفهم بأحكام الله والفهم بالواقع ، ثم وقَّع الأول على الثاني ؛ فقد تمت له البصيرة ، ووصل إلى الحق ، ولكن معرفة الحق لا تكفي في النجاة من الفتن حتى ينضم إليها التقوى والصبر وحسن القصد ، فينقاد إلى الحق الذي ظهر ويذعن له ، وإلا لو كان الصبر ضعيفاً أو القصد فاسداً ؛ فإن المسلم يتعرض للفتن من باب الشهوات ، فلا يصبر على الحق ، ويثبت عليه أمام المغريات والشهوات .

ولقد ساق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى هذه المعاني بأوضح عبارة وأدقها وأبلغها ؛ حيث قال رحمه الله تعالى في كتابه القيم (إعلام الموقعين)، في معرض شرحه لخطاب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في القضاء ؛ فقال في شرحه لقول عمر : «فافهم إذا أدلي إليك» :

« **صحة الفهم** ، **وحسن القصد** من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما ، بل هما ساقا الإسلام ، وقيامه عليهما ، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم ، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت فهومهم وقصودهم ، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة .

وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد ، يميز به الصحيح والفاسد ، والحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، ويمده حسن القصد، وتحري الحق ، وتقوى الرب في السر والعلانية ، ويقطع مادته اتباع الهوى، وإيثار الدنيا ، وطلب محمدة الخلق وترك التقوى .

ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم :

أحدهما : فهم الواقع والفقه فيه ، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات، والعلامات حتى يحيط به علماً .

النوع الثاني: فهم الواجب في الواقع؛ وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع ، ثم يطبق أحدهما على الآخر ، فمن بذل جهده ، واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجراً، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله»[1] اهـ .

وبعد هذا الكلام المفيد من كلام الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، وبعد النظر الدقيق للمواقف المضطربة إزاء الأحداث والفتن هذه الأيام ، وبعد خوض من خاض ، وهلاك من هلك فيها ، إما بقلبه أو لسانه أو يده ، يتبين لنا أن هناك خللاً في منهاج الدعوة عند بعض الدعاة ، ونقصاً في التربية، لعل من دروس هذه الأحداث اكتشافنا لهذا الخلل حتى نتفاداه .

ويمكن مما سبق تلخيص هذا الخلل في النقاط التالية :

١ - عدم التربية على طلب العلم الشرعي من مصادره الصحيحة وأصوله المنضبطة .

٢ - عدم التربية على طلب العلم والفقه بالواقع ، والوعي الصحيح بسبيل المؤمنين فيه ، وبسبيل المجرمين .

٣ - هناك خلل في القلوب ،وفساد في القصود ، لابد من تداركه ، والاهتمام بتزكية القلوب وتربيتها على الإخلاص لله عز وجل وإنشاء هم

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٨٧) .

الآخرة والزهد في الدنيا ، وعدم طلب محمدة الناس ، والتربية على الصبر والثبات أمام الشهوات والمغريات .

وعندما يتم التغلب على هذه الأنواع من الخلل ، ويربى الناس عليها ، وعلى طلبها ؛ فإنه بإذن الله تتم العصمة من الفتن وأخطارها ؛ فبالعلم بدين الله ، والعلم بالواقع تتقى الشبهات ، وبحسن القصد ، والإخلاص لله عز وجل والصبر أمام المغريات تتقى الشهوات ، والله أعلم .

وبعد :

فإن الدروس والحكم كثيرة وكثيرة ، وليس مقصود البحث هنا هو التفصيل فيها ، ولكن ذكرت بعض هذه العبر والحكم والمصالح من هذا الحادث المحيط بنا هذه الأيام، لنتذكر من خلاله أن لأسماء الله عز وجل وصفاته لوازم ومقتضيات لا يتم الإيمان إلا بها ، ومن هذه الأسماء الكريمة اسم (الحكيم)، والذي هو موضوع بحثنا في تفصيل لوازم هذا الاسم الجليل، والتعرف على العبوديات التي يتضمنها ، والآثار التي يتركها في القلب والجوارح، وما يلزم عليه من لوازم ومقتضيات ، ومنها ما تم استعراضه من الدروس الماضية، لحدث واحد مما يقضيه الله عز وجل ويقدره، من بين أحداث وأحداث كثيرة، وكثيرة تصغر في حجمها وتكبر ، ولكنها كلها لا تخرج عن علم الله عز وجل وتقديره ، ولا تخرج عن حكمته البالغة وتيسيره.

❋ ❋ ❋

الخاتمة

لقد تبين من خلال هذه الدراسة السريعة أن الإيمان بأسماء الله عز وجل وصفاته تقتضي إثباتها له سبحانه على الوجه الذي يليق به وعظمته من غير تكييف ولا تحريف ولا تعطيل ولاتمثيل ، كما أن الإيمان بأسماء الله عز وجل وصفاته تقتضي التعبد لله سبحانه وتعالى بها والإيمان بلوازمها .

ولقد اخترت في هذه الدراسة اسمين من أسماء الله عز وجل الجليلة هما (العليم والحكيم) وفصلت في الثاني وما فيه من العبوديات في اسم واحد من أسماء الله عز وجل ، فكيف ببقية أسمائه سبحانه الحسنى وصفاته العلى؟ .

إنني أتوجه في نهاية هذه الدراسة إلى علمائنا ، وأرباب التوجيه والتربية، بأن يولوا هذا الجانب المهم من أسماء الله عز وجل عناية كبيرة في دروسهم وحلقاتهم التعليمية ، وأن تتم التربية من خلاله على تقوية الإيمان وتجريد التوحيد لله والثبات على الإسلام ، والجهاد في سبيله ، وألا يقفوا في دراسة توحيد الأسماء والصفات على الجوانب الذهنية المجردة أو الردود على أهل البدع والأهواء فقط ، وإنما يجمعون - في دراسة هذا الجانب المهم من توحيد الله عز وجل - بين الجانب العلمي والعملي والتعبدي .

أسأل الله عز وجل أن يحسن فهومنا ومقاصدنا وختامنا ، والله أعلم .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

* * *



الرسالة الخامسة

﴿ متى نصر الله ﴾

[البقرة : ٢١٤]



متى نصر الله

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ،ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ،ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً.

أما بعد :

لا ريب أن من أعز مقاصد المؤمنين وأشهى مطالبهم وغاية نفوسهم : رؤية دينهم ظاهراً وكتابهم مهيمناً وعلو راية التوحيد خفاقة مع قهر أهل الكفر والطغيان وإذلالهم.

إن هذا الهدف الأعظم وتلك الأمنية السامية لا تتحقق عن طريق الدعاوى والأماني بل عن طريق البحث والتنقيب عن سنن الله في النصر ، تلك السنن الربانية التي قدرها ـ تبارك وتعالى ـ لنصر حزبه الموحدين وخذلان حزب الشيطان اللعين .

فيجب علينا معشر المؤمنين حتى نحقق صدق الدعوة ونقيم عليها البينة العادلة أن نتعرف على تلك السنن وطبيعة الصراع وحجم التكاليف وشراسة الأعداء ومباينة السبل واختلاف المناهج والغايات والتوجهات بين المؤمنين والكافرين ، حتى نقضي على فرية وحدة الأديان وتوحيد الرايات والالتقاء في الطريق تحت ستار الأسرة الواحدة والشرعية الدولية.

إن دين الله - الذي اصطفاه لنا ولا يعبد إلا به - يقتضي أن يكون - جل شأنه - حاكماً لا معقب لحكمه ، وأن يوحد بالعبادة والتلقي والتوجه وأن يفرد بالولاء ، مع الكفر والبراءة والانخلاع من كل ما يعبد من دونه .

ومن هنا وجب إعداد العدة والأخذ بالسنن الربانية لتحقيق النصر المأمول مع الحذر الشديد من العوائق الداخلية والأمراض الفتاكة التي تفتك بجسد الأمة وتسلمها فريسة سهلة لأعدائها لتحول بينها وبين غايتها العظمى ودورها المنشود المناط بها ، بل المدقق في تلك العوائق الداخلية ليتيقن أنها الأساس المنيع الذي تستمد منه العوائق الخارجية وجودها وهيمنتها .

إن الله - عز وجل - بعلمه الشامل وحكمته البالغة قدر وقضى أن يكون الصراع بين الحق والباطل موجوداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وأما عن طبيعة هذا الصراع : فسمته أنه حرب ضروس لن يخمد لهيبها إلى قيام الساعة . قال تعالى: ﴿ **وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ولا يخفى ما تحويه لفظة: ﴿ **وَلا يَزَالُونَ** ﴾ من الاستمرارية والبقاء دون انقطاع، ولهذا جاء الأمر واضحاً من العليم الحكيم لأوليائه: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** ﴾ [الأنفال: ٣٩] ، والفتنة لن تخلو منها الأرض، بل الساعة تقوم على شر أهلها.

وكذلك أخبر النبي ﷺ بأن : « **الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة** »[١] .

هذه السنة الربانية قد خص بها حشد من النصوص المستفيضة حتى

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٥٠)، وفي المناقب (٣٦٤٤).

بلغت حد التواتر اللفظي والمعنوي ، وغدت من المعلوم بالاضطرار من هذا الدين وأصبح المكذب بها مكذباً بالدين طاعناً على رب العالمين متبعاً غير سبيل المؤمنين .

وهذا من أبلغ الحجج والبراهين على دحض افتراءات العلمانيين و المنافقين ـ الذين وقفوا على طريق جهنم وأعلوا رايتهم ملوحين بها للناس أن هلموا إلينا ليقذفوهم فيها ـ الذين يزعمون ويفترون بأن الحرب الدينية اليوم قد انتهت ، وحري بالعالم أجمع أن يجتمع تحت راية واحدة وأن يكونوا كالجسد الواحد المتجانس الشعور والإحساس ولا تحول معتقداتهم دون هذا البتة ، بل يجب أن تبقى هذه المعتقدات حبيسة القلوب وحبيسة دور العبادة والمحاريب ولا تتعدى جدرانها ولا تتخطى حدودها !!

ومن المعلوم أن الخصوم في حروبها تلجأ إلى ناصر وولي ومعين ، تحتمي بحماه وتقهر بقوته وتعتز بعزته ، فالله ـ جل شأنه ـ لم يرتض لأوليائه ناصراً سواه ولا ولياً دونه ولا معيناً عداه ، قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال سبحانه : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ** ﴾ [محمد: ١١].

ومن هنا وجب علينا معشر المسلمين وأمة التوحيد أن نتوكل على مولانا وناصرنا ، ونعي آثار أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فنتعبد لله بها وتظهر في القلوب آثارها فتطمئن لوعد الله وتثق بنصره ، حتى ولو صال الباطل وانتفش في وقت من الأوقات ، فإن المؤمن يوقن أن ما قدره الله هو الخير ويحوي في طياته الرحمة والنعمة وإن كان ظاهره الألم والمشقة ، ذلك أن رحمة الله سبحانه قد سبقت غضبه وأن الشر ليس إلى الله عز وجل .

إن معبود وولي المؤمنين هو **الجبار القوي** : الذي لا يعجزه شيء . **العزيز** : فلا يغلبه شيء . **المتكبر** : الذي تكبر عن السوء والظلم . **الرحمن** : الذي هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها . **العليم** : فلا يخفى عليه شيء ، والسر والجهر عنده سواء لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض . **الحكيم** : في أفعاله وقدره وأحكامه . **القدير** : فالسماوات مطويات بيمينه والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، ما قدره أولياؤه حق قدره فضلاً عن أعدائه . **المحيط** : بظلم الظالمين ومكر الماكرين لا يفوته شيء . **العليّ** : قد علا على كل شيء دونه وتحت قهره وغلبته .

يقول ابن القيم رحمه الله :

«وكذلك اسمه **السلام** : فإنه الذي سَلِمَ من العيوب والنقائص . ووصفُه بالسلام أبلغ في ذلك من وصفه بالسالِم ، ومن موجبات وصفه بذلك سلامةُ خَلْقه من ظُلمه لهم . فسَلِم سبحانه من إرادة الظلم والشر ، ومن التسمية به ، ومن فعله، ومن نسبته إليه . فهو السلامُ من صفات النقص وأفعال النقص وأسماء النقص ، المُسلِّم لخلقه من الظلم . ولهذا وصف سبحانه ليلة القدر بأنها سلام ، والجنة بأنها دار السلام ، وتحية أهلها السلام . وأثنى على أوليائه بالقول السلام . كل ذلك السالم من العيوب . وكذلك **الكبير** من أسمائه، و**المتكبر** .

قال قتادة وغيره : هو الذي تكبر عن السوء. وقال أيضاً: الذي تكبر عن السيئات . وقال مقاتل : المتعظم عن كل سوء . وقال أبو إسحق : الذي يكبر عن ظلم عباده . وكذلك اسمه **العزيز** الذي له العزة التامة . ومن تمام عزته براءته عن كل سوء وشر وعيب، فإن ذلك ينافي العزة التامة .

كذلك اسمه **العليّ** الذي علا عن كل عيب وسوء ونقص . ومن كمال عُلوه أن لا يكون فوقه شيء . بل يكون فوق كل شيء .

وكذلك اسمه **الحميد** ، وهو الذي له الحمد كله، فكمال حمده أن لا ينسب إليه شر ولا سوء ولا نقص لا في أسمائه ولا في أفعاله ولا في صفاته . فأسماؤه الحسنى تمنع نسبة الشر والسوء والظلم إليه ، مع أنه سبحانه الخالقُ لكل شيء ، فهو الخالق للعباد وأفعالهم وحركاتهم وأقوالهم .

والعبد إذا فعل القبيح المنهيّ عنه كان قد فعل الشر والسوء . و الرب سبحانه هو الذي جعله فاعلاً لذلك . وهذا الجعل منه عدل وحكمة وصواب، فجَعْلُهُ فاعلاً خير ، والمفعول شر قبيح ، فهو سبحانه بهذا الجعل قد وضع الشيء موضعه لما له في ذلك من الحكمة البالغة التى يُحمد عليها ، فهو خير وحكمة ومصلحة ، وإن كان وقوعه من العبد عيباً ونقصاً وشراً وهذا أمر معقول مشاهد .

فإن الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العوجاء والحجر المكسور واللبنة الناقصة فوضع ذلك في موضع يليقُ به ويناسبه كان ذلك منه عدلاً وصواباً يمدح به ، وإن كان في المحل عوجٌ ونقص وعيب يُذم به المحل . ومن وضع الخبائث في موضعها ومحلها اللائق بها كان ذلك منه حكمةً وعدلاً وصواباً . وإنما السفه والظلم أن يضعها في غير موضعها . فمن وضع العمامة على الرأس ، والنعل في الرجل ، والكُحل في العين ، والزبالة في الكناسة ، فقد وضع الشيء موضعه ، ولم يظلم النعل والزبالة إذ هذا محلُّهما .

ومن أسمائه سبحانه **العدل** و**الحكيم** الذي لا يضع الشيء إلا في موضعه، فهو المحسن الجواد الحكيم العدل في كل ما خلقه وفي كل ما وضعه

في محله وهيأه له . وهو سبحانه له الخلق والأمر . فكما أنه في أمره لا يأمر إلا بأرجح الأمرين ، ويأمر بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وإذا تعارض أمران رجح أحسنهما وأصلحهما . وليس في الشريعة أمر يفعل إلا ووجوده للمأمور خير من عدمه ، ولا نهيٌ عن فعل إلا وعدمه خير من وجوده »[١] اهـ.

وقد قضى الله سبحانه وتعالى بأن البقاء للحق ؛ لأنه الأصل الذي قامت عليه السماوات والأرض وأما الباطل فهو طارئ وزاهق ، قال تعالى : ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: ٨١] ، وقال سبحانه : ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ** ﴾ [الرعد: ١٧].

ولكن حكمة الله عز وجل البالغة اقتضت أن يوجد الباطل لاختبار أوليائه وإظهار آثار أسمائه الحسنى وصفاته العلى وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً، وإلا لو شاء الله عز وجل لم يكن هناك كفر ولا باطل. قال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ** ﴾ [محمد: ٤].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والرضا بالقضاء الكوني القدري ، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته ـ مما لا يلائمه ، ولا يدخل تحت اختياره ـ مستحب . وهو من مقامات أهل الإيمان وفي وجوبه قولان ، وهذا كالمرض والفقر ، وأذى الخلق له، والحر والبرد ، والآلام ونحو ذلك .

---

(١) شفاء العليل. ص ٣٨٠ .

والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره ـ مما يكرهه الله ويسخطه ، وينهى عنه ـ كأنواع الظلم والفسوق والعصيان : حرام يعاقب عليه . وهو مخالفة لربه تعالى . فإن الله لا يرضا بذلك ولا يحبه . فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه ؟ فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء .

فإن قلت : كيف يريد الله سبحانه أمراً لا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويُكَوِّنه؟ وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكراهيته ؟

قيل : هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً، وتباينت عنده طرقهم وأقوالهم .

فاعلم أن « المراد» نوعان : مراد لنفسه ، ومراد لغيره .

فالمراد لنفسه : مطلوب محبوب لذاته ولما فيه من الخير ، فهو مرادٌ إرادة الغايات والمقاصد .

والمراد لغيره : قد لا يكون في نفسه مقصوداً للمريد ، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته . وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده . فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته ، ومراد له من حيث إفضائه وإيصاله إلى مراده . فيجتمع فيه الأمران : بغضه ، وإرادته ، ولا يتنافيان ، لاختلاف متعلقهما ، وهذا كالدواء المتناهي في الكراهية ، إذا علم متناوله أن فيه شفاءه ، وكقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده ، وكقطع المسافة الشاقة جداً إذا علم أنها توصله إلى مراده ومحبوبه . بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب ، وإن خفيت عنه عاقبته ، وطويت عنه مغبته ، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب ؟ فهو سبحانه وتعالى يكره الشيء ويبغضه في

ذاته . ولا ينافي ذلك إرادته لغيره ، وكونه سبباً إلى ما هو أحب إليه من فوته .

مثال ذلك : أنه سبحانه خلق إبليس ، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال ، والاعتقادات والإرادات، وهو سبب شقاوة العبيد ، وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى ، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة ، فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالى ، مسخوط له ، لعنه الله ومقته ، وغضب عليه ، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ، وجودها أحب إليه من عدمها.

* منها : أن تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات . وذلك من أدل الدلائل على كمال قدرته وعزته، وسلطانه وملكه، فإنه خلق هذه المتضادات ، وقابل بعضها ببعض ، وجعلها محال تصرفه وتدبيره وحكمته . فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته، وكمال تصرفه وتدبير مملكته .

* ومنها : ظهور آثار أسمائه القهرية ، مثل (القهار، والمنتقم ، والعدل، والضار ، وشديد العقاب ،وسريع الحساب ، وذي البطش الشديد ، والخافض ، والمذل) فإن هذه الأسماء والأفعال كمال . فلابد من وجود متعلقها ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملَك : لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

* ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه، ومغفرته وستره ، وتجاوزه عن حقه ، وعتقه لمن شاء من عبيده. فلولا خلق ما يكره من

الأسباب المفضية إلى شهود آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله : **«لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»**(1) .

* ومنها : ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة ، فإنه سبحانه « الحكيم الخبير» الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها ، فلا يضع الشيء في غير موضعه ، ولا ينزله غير منزلته ، التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته ، فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل ،ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع، ولا الثواب موضع العقاب ، ولا العقاب موضع الثواب، ولا الخفض موضع الرفع، ولا الرفع موضع الخفض، ولا العز مكان الذل ، ولا الذل مكان العز، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه ،ولا ينهى عما ينبغي الأمر به .

فهو أعلم حيث يجعل رسالته ، وأعلم بمن يصلح لقبولها ، ويشكره على انتهائها إليه ووصولها ، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ويستأهله ، وأحكم من أن يمنعها أهلها ، وأن يضعها عند غير أهلها .

فلو قُدِّر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له لتعطلت هذه الآثار، ولم تظهر لخلقه ، ولفاتت الحكم والمصالح المترتبة عليها ، وفواتها شر من حصول تلك الأسباب .

فلو عطلت تلك الأسباب ـ لما فيها من الشر ـ لتعطل الخير الذي هو أعظم

---

(1) رواه أحمد بنحوه (1/ 289)، وله شواهد في السلسلة الصحيحة (970).

من الشر الذي في تلك الأسباب . وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر والضرر ، فلو قدر تعطيلها - لئلا يحصل منها ذلك الشر الجزئي - لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لانسبة بينه وبينه .

* ومنها : حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت ، ولكان الحاصل بعضها ، لا كلها . فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه، ولوكان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها : من الموالاة فيه سبحانه ، والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه ، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الرب على محاب النفس.

* ومنها :عبودية التوبة ، والرجوع إليه واستغفاره، فإنه سبحانه يحب التوابين ويحب توبتهم ، فلو عطلت الأسباب التي يتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها .

* ومنها: عبودية مخالفة عدوه ، ومراغمته في الله وإغاظته فيه ، وهي من أحب أنواع العبودية إليه ، فإنه سبحانه يحب من وليه أن يغيظ عدوه ويراغمه ويسوءه ، وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس .

* ومنها : أن يتعبد له بالاستعاذة من عدوه ، وسؤاله أن يجيره منه، ويعصمه من كيده وأذاه .

* ومنها: أن عبيده يشتد خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حلَّ بعدوه

بمخالفته وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المرتبة الشيطانية ، فلا يُخلدون إلى غرور الأمل بعد ذلك .

* ومنها : أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته ، الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة . فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته .

* ومنها : أن نفس اتخاذه عدواً من أكبر أنواع العبودية وأجلها . قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر : ٦]، فاتخاذه عدواً أنفع شيء للعبد، وهو محبوب للرب .

* ومنها : أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر ، والطيب والخبيث ، وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد . فخُلِقَ الشيطان مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل ، وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل ، فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها ، ليترتب عليه آثاره ، وما في قوى أولئك من الشر ، ليترتب عليه آثاره ، وتظهر حكمته في الفريقين ، وينفذ حكمه فيهما ، ويظهر ما كان معلوماً له مطابقاً لعلمه السابق »[1] اهـ .

إن المتأمل اليوم في عصرنا الحاضر وما فيه من الصراعات ، يجد أن الصراع بين الحق والباطل قد بلغ أشده ، وأن ملل الكفر قد جمعت كل إمكانياتها ضد عدو واحد ألا وهو الإسلام ودعاته الصادقون الذين يصفونهم تارة بالمتطرفين وتارة بالأصوليين وتارة بالإرهابيين .

وإن المراقب للأحداث التي ظهرت في السنوات الأخيرة وبالذات

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٩٧).

بعد أحداث الخليج ونشوء ما يسمى النظام العالمي الجديد(١) ليلاحظ أنها

(١) النظام العالمي الجديد : هذا المصطلح - الذي يحمل في طياته الكثير من الخبث والمكر للإسلام والمسلمين - قد اصطلح عليه أئمة الكفر من اليهود والنصارى والشيوعيين لزيادة النكاية بالمسلمين والعمل الدؤوب لمنع ظهور الإسلام مسيطراً و مهيمناً لأداء دوره المنشود.

ومضمون هذا المصطلح : أن يكون العالم بأسره - على اختلاف ملله - تحت راية واحدة يوالي ويعادي من أجلها وتلك الراية بكل وضوح هي راية الصليب تحت ستار الأمم المتحدة - التي لم تتحد إلا على ضرب الإسلام وتمزيق أهله وإعلاء راية الكفر والطغيان - والقائمون على رأس هذا النظام من اليهود النصارى والمشركين لهم حق الحكم والقرارات والفصل في شتى المنازعات والخصومات بين كافة الدول والملل والمجتمعات دون حق التعقيب عليها من أحد ! بل على العالم أجمع الانصياع التام والعبودية الكاملة والطاعة المطلقة لتلك الطائفة الحاكمة .

وأما عن حكم هذا النظام الخبيث : فمن المعلوم بالاضطرار من الدين : أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت ، وهذا الحد متوفر في هذا النظام الخبيث لا ستباحته حق التشريع وسن القوانين والحكم بما شاء من غير تقيد أو امتثال لحدود الله سبحانه التي حدها في كتابه وسنة رسوله ﷺ وهذا هو لب العبادة وأصلها . والدليل على ذلك : حديث عدي بن حاتم - رضي الله عنه - عندما أقسم بالله للنبي ﷺ أنهم - أي أهل الكتاب - ما وقعوا في عبادة الأحبار والرهبان ، فاحتج النبي ﷺ بوجود أصل العبادة ولبها ، فقال : « **ألم يحلوا لكم الحرام، ويحرموا عليكم الحلال فاتبعتموهم** » قال : بلى . قال : «**فتلك عبادتكم إياهم**». وقال القرآن في حقهم : ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [التوبة : ٣١].

فتلك الأمة عندما أنزلت أحبارها ورهبانها منزلة ربها في التحليل والتحريم والتشريع من دونه خرجت بذلك عن عبادة ربها إلى عبادة الأحبار والرهبان . فكيف بمن يتخذ أحبار ورهبان وأئمة الكفر لملة لا يدين بها أرباباً من دون الله ؟!!

أما عن كيفية الكفر والبراءة من هذا الطاغوت : فيجب على كل مسلم أن يعلن الكفر والبراءة من هذا الطاغوت والانخلاع من طاعته في شريعته امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ولا يكفي هذا حتى يعادي عُبَّاد هذا الطاغوت ويظهر لهم العداوة و البغضاء أبداً حتى يكفروا به ويؤمنوا بالله وحده ، قال تعالى : ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ** ﴾ [الممتحنة : ٤].

تتسم بسمتين رئيسيتين هما :

١ـ التسارع الشديد والمفاجآت التي تصحبها، إلى حد أن المتابع لهذه الأحداث لا يفتأ يسمع بحدث ويبحث عن الموقف منه إلا وتفجؤه أحداث أخر تنسيه أو تشغله عن الحدث الأول .

٢ ـ إن أغلب هذه الأحداث ـ إن لم نقل كلها ـ تقع في المنطقة الإسلامية وأن المسلمين فيها هم المستهدفون بالدرجة الأولى .

إن هذا الصراع الذي نعيشه في الآونة الأخيرة قد رجحت فيه قوة الكفر والكافرين ـ لحكمة يعلمها الله عز وجل ، كما سبق أن بينّا ـ فاستباحوا بذلك ديار المسلمين ودماءهم و أعراضهم وبلغ المسلمون من الذلة والمهانة واستخفاف أعدائهم بهم ما لا يعلمه إلا الله عزوجل .

وفي ظل هذه الحملة الشرسة على ديار المسلمين ودينهم وأعراضهم صار الكثير من الدعاة إلى الله عز وجل يتساءلون مع بعضهم أو مع أنفسهم .

أما آن لهذه المهانة أن تنقشع ؟ متى ينجلي هذا الليل الطويل الذي ناء تحت كلكله كل مسلم غيور يهمه أمر هذا الدين ؟ متى يبزغ فجر الإسلام ؟ وبشكل عام ظهر سؤال كبير ألا وهو ذاك السؤال الذي سأله الرسول ﷺ والذين آمنوا معه بعدما أصابتهم البأساء والضراء وزُلزلوا فقالوا : متى نصر الله؟

قال الله تعالى واصفًا هذه الحالة : ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ [البقرة: ٢١٤].

من أجل ذلك جاءت هذه الدراسة المتواضعة في محاولة للإجابة على هذا السؤال الكبير من حيث المنهج لا من حيث الموعد ، لأن الموعد قريب إن شاء الله ﴿**أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾، ولكن المهم هو الطريق المؤدي إليه .

أسأله سبحانه أن يلهمنا رشدنا وأن يرزقنا السداد في القول والعمل .

* * *

• من سنن الله عز وجل في النصر •

لابد لمن يريد نصرة دين الله عز وجل والتمكين له في الأرض أن يتعرف على سنن الله تعالى في نصرة دينه، وبدون هذه المعرفة لن يتم الاهتداء إلى الطريق ، وبالتالي ستضيع الأوقات والجهود ولما يأت نصر الله .

ومن هذه السنن ما ورد في الآيات التالية من كتاب الله عز وجل :

السنة الأولى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧] .

السنة الثانية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]

السنة الثالثة : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨]

وتفصيل هذه السنن فيما يلي .

* * *

السُّنَّةُ الأولى

إن نصر الله عز وجل لدينه ولعباده المؤمنين آت لا محالة وإن التمكين للإسلام في الأرض سيتم بعز عزيز أو بذل ذليل ، هذا وعد الله سبحانه والله لا يخلف الميعاد ، يقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١] .

ويقول تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور : ٥٥] .

ويقول سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢١]

وقال عز من قائل : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٣] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة ، كما أن الوعد بنصرة دين الله عز وجل جاء على لسان رسوله ﷺ حيث قال : « **إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها** »[1] ، وقال ﷺ : « **ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا**

---

(١) رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩) .

أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يُذل به الكفر »[١]، وقال ﷺ : « تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت »[٢].

يقول الإمام ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢١].

«أي : قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة ﴿ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر : ٥١ ، ٥٢]. وقال هاهنا : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي : كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة» اهـ[٣].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٠٣)، وهو في السلسلة الصحيحة (٣).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٧٣)، وهو في السلسلة الصحيحة (٥).

(٣) تفسير ابن كثير ، سورة المجادلة ، الآية : ٢١ .

ويقول رحمه الله تعالى عند تفسيره قوله تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ الآية :

«قد أورد أبو جعفر ابن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالاً ، فقال : قد عُلم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه كيحيى وزكريا وشعياء، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى . فأين النصرة في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين :

أحدهما : أن يكون الخبر خرج عاماً والمراد به البعض فإن هذا سائغ في اللغة .

والثاني : أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعياء سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم .

وقد ذكر أن النمرود أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلط عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم ، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحاكماً مقسطاً فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام، وهذه نصرة عظيمة .

وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه ، أنه ينصر عباده

المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**يقول الله تبارك وتعالى : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**»[1] ، وفي الحديث الآخر : «**إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب**» ، ولهذا أهلك الله عز وجل قوم نوح ، وعاداً ، وثمود ، وأصحاب الرس ، وقوم لوط ، وأهل مدين ، وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق ، وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين فلم يُهلك منهم أحداً ، وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحداً ، قال السدي : لم يبعث الله عزوجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه ، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق يُقتلون ، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم و يطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا . قال : فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها .

وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه ؛ فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية ، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً ، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم ، وخذلهم ، وقتل صناديدهم ، وأسر سراتهم ، فاستاقهم مقرنين في الأصفاد ، ثم مَنَّ عليهم بأخذه الفداء منهم ، ثم بعد مدة قريبة فتح عليهم مكة ، فقرت عينه ببلده ، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم ، فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك ، وفتح به اليمن ، ودانت له جزيرة العرب بكمالها ، ودخل

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢).

الناس في دين الله أفواجاً، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله عز وجل ، ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا ، وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها ، ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ... ﴾ الآية، أي: يوم القيامة يكون النصرة أعظم وأكبر وأجل »[1] اهـ .

ويقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ حول هذا المعنى : « إن وعد الله واقع وكلمة الله قائمة ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات ١٧١ ـ ١٧٣] هذه هي الحقيقة في كل دعوة لله يخلص فيها الجند ويتجرد لها الدعاة أنها غالبة منصورة مهما وضعت في سبيلها العوائق وقامت في طريقها العراقيل ، ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار وقوى الدعاية والافتراء، وقوى الحرب والمقاومة ، وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرسله والذي لا يخلف ، ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه ؛ الوعد بالنصر والغلبة والتمكين ، هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية ، سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دورتها المنتظمة ، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان ، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء ، ولكنها مرهونة بتقدير الله يحققها حين يشاء» .

---

(١) تفسير ابن كثير ، سورة غافر ، الآية : ٥١ .

إلى أن يقول رحمه الله تعالى : « والمؤمن يتعامل مع وعد الله على أنه الحقيقة الواقعة فإذا كان الواقع الصغير في جيل محدود أو في رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة فهذا الواقع هو الباطل الزائل الذي يوجد فترة في الأرض لحكمة خاصة لعل منها استجاشة الإيمان وإهاجته لتحقيق وعد الله في وقته المرسوم ،وحيث ينظر الإنسان اليوم إلى الحرب الهائلة التي شنها أعداء الإيمان على أهل الإيمان في صورها المتنوعة من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد في عهود متطاولة بلغ في بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قتلوا وشردوا وعذبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية ، ثم بقي الإيمان في قلوب المؤمنين يحميهم من الانهيار ويحمي شعوبهم كلها من ضياع شخصيتها وذوبانها في الأمم الهاجمة عليها ومن خضوعها للطغيان الغاشم إلا ريثما تنقض عليه وتحطمه ، حين ينظر الإنسان إلى هذا الواقع في المدى المتطاول يجد مصداق قول الله تعالى ، يجده في هذا الواقع دون الحاجة إلى الانتظار الطويل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢٠ ، ٢١]

وعلى كل حال فلا يخالج المؤمن شك في أن وعد الله هو الحقيقة الكائنة التي لابد أن تظهر في الوجود .

إن وعد الله قاطع جازم ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [غافر : ٥١] بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يلقى في الأخدود ومنهم من يستشهد ومنهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد ، فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا ؟ ويدخل الشيطان في النفوس من

هذا المدخل ، ويفعل بها الأفاعيل ، ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير ! !

إن الناس يعيشون فترة قصيرة من الزمان وحيز محدود من المكان ، وهي مقاييس بشرية صغيرة ، فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان ، ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك ، وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها ، فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها ، وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها »[1] اهـ .

مما سبق يتبين لنا أهمية اليقين بوعد الله عز وجل في نصرة أوليائه ، وأنه آت لا محالة ، فإذا تأخر نصر الله عز وجل ، واشتد الكرب على المؤمنين بتسليط أعدائهم عليهم فإن هذا لا يعني عدم تحقق وعد الله وعدم مجيء نصره سبحانه ، ولكن لتأخره حكم وأسباب ، فبدلاً من اليأس من وعد الله عز وجل بالنصر يجب أن يتوجه البحث والتفكير عن أسباب تأخره التي يجب أن يتوجه الجهد لإزالتها ، وإيجاد المناخ والأسباب التي تهيئ لنصر الله عز وجل .

وقد ذكر سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ بعض الأمور التي قد يتأخر نصر الله عز وجل بسببها فقال :

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن، ص ٣٥٤ .

* «والنصر قد يبطئ لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ، ولم يتم بعد تمامها ، ولم تحشد بعد طاقاتها ، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات ، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً . .

* وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما تملكه من رصيد فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً ، لا تبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله . .

* وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها ، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر . . إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله . .

* وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة ، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر معها قرار ، فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستبقائه .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطئ النصر ، فتتضاعف التضحيات وتتضاعف الآلام ، مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية ، وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه ، وأداء ثمنه ، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه . .

* وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتتألم

وتبــذل ، ولا تجـد لهـا سنداً إلا الله ولا متـوجـهاً إلا إليـه وحـده في الضراء. . وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله.. فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به . .

* وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته، فهي تقاتل لمغنم تحققه ،أو تقاتل حمية لذاتها ،أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها ، والله يريد أن يكون الجـهاد له وحـده وفي سـبيله، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلابسه .

وقد سئل رسول الله ﷺ : الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى ، فأيها في سبيل الله ؟ فقال: « **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله** »[1].

* كما قد يبطئ النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصاً ، ويذهب وحده هالكاً ، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار . .

* وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً ، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله ، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة ، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى

---

(١) متفق عليه .

يتكشف عارياً للناس ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية »[٢] اهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن ، ص ٣٥٩ .

تنبيه : حول وجوب تعرية الباطل نقول : نعم لن تقوم لنا قائمة ويسود ديننا ـ الذي اصطفاه الله لنا ـ قبل تعرية الباطل والكشف عن وجهه الخبيث ، فكم من أناس من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا أجسادهم أجساد إنس وقلوبهم قلوب شياطين ، دعاة على أبواب جهنم من قبل دعوتهم قذفوه فيها . وقد كان دور هؤلاء الشياطين : ضرب الدين بالدين وتزييف الحقائق وقلب الموازين ، فهم يُحسِّنون كل قبيح ، ويُقبِّحون كل حسن . كل هذا عن طريق لي أعناق النصوص تارة ، وعن طريق التحريف لها تارة ، وعن طريق التحلل التام من قيودها تارة أخرى . ومن صور قلبهم للحقائق : أن أخرجوا الوثنية في ثوب التوحيد ، والبدعة في لباس السنة ، وموالاة اليهود والنصارى تحت شعار التعايش السلمي ، والإخاء ووحدة الأديان ، وكذلك المعاصي والفجور تحت ستار الرقي والتقدم ، والقضاء على حاكمية القرآن لإنهاء التخلف والجمود والرجعية ، وإحلال رايات وثنية ـ مثل القومية العربية والوطنية والعلمانية ـ محل راية التوحيد ، وكذا التولي والخذلان والمهانة مكان الجهاد والنصرة والعزة . . فهؤلاء الشياطين وأعوانهم يجب فضحهم ، وكشف خبث طويتهم وحقدهم اللئيم على الإسلام والمسلمين ، حتى تكفر بهم الأمة ، وتبرأ إلى الله منهم ، وتعلم الشعوب كم كانت ضحية لهؤلاء الشياطين يتاجرون بهم لتحقيق مآربهم وحظوظ نفوسهم ، وليعلم الدعاة إلى الله أن فضح وتعرية هؤلاء من أعز مقاصد التشريع امتثالاً لقول مولانا : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ ، وتحقيقاً لقول الله عز وجل : ﴿ **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ** ﴾ .

السُّنَّة الثانية

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]

إن كثيراً من الدعاة والمصلحين ليعلمون هذه السنة العظيمة القدر ، لكن الواقع العملي يغفل في كثير من الأحيان عن هذه السنة ، والتي هي مفتاح النصر والتمكين وهي المدخل لتغيير واقعنا ، حيث قضى الله عز وجل أنه لا يغير أحوال قوم أو أمة حتى يبدأوا هم فيغيروا ما بأنفسهم ويصلحوا أحوالهم، فيغير الله ما بهم ويأخذ بأيديهم ويعينهم .

وهذا يعني أنه متى تأخر نصر الله عز وجل مع الحاجة الماسة إليه فإن هناك أسباباً في تأخره ولا شك، ومن أهم هذه الأسباب أن الذين يبحثون عن نصر الله تعالى لم يغيروا ما بأنفسهم بعد .

وحينئذ يجب أن تتوجه الجهود إلى العمل الجاد في التغيير الذي يبدأ من داخل النفس ومن داخل الصف المسلم حتى يغير الله عز وجل ما بنا وتتهيأ الأسباب الجالبة لنصر الله تعالى .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله عز وجل : «﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣] : يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ

﴿ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ »[1] اهـ .

وهذه السنة الربانية ذات دلالتين في حالنا وواقعنا المعاصر :

أولاهما : أن التباين الشديد والهوة السحيقة بين الحياة الذليلة المهينة والضعف والانحسار وفقدان الثقة الذاتية مع تلقي المناهج والقيم والشرائع الغربية لتحقيق الذات واستمداد العزة ، وكذلك الهزيمة النفسية التي حلت في جذر قلب الأمة اليوم ،إن الفرق بين حياتنا هذه وبين الحياة العزيزة المهيمنة المستعلية القوية المتملكة لزمام العالم أجمع ، تلك الحياة التي كانت تُتبع ولا تَتبع وتقود ولا تقاد كانت أبرز سمات عصر سلفنا الصالح ، إن كل هذا التباين الشديد بيننا وبين سلف الأمة خير شاهد ودليل على أننا غيّرنا ما بأنفسنا فغيّر الله حالنا .

ثانيهما : أن حالنا اليوم لن يغيره الله حتى نغيّر ما بأنفسنا من كثرة البدع والشرك بشتى صوره ـ الجلية و الخفية ، الظاهرة والباطنة ـ ،وكذلك التبعية الغربية النابعة من انحسار الإيمان وعدم الاستعلاء به في النفوس مع فقدان الثقة في نبع عزنا ، وأيضاً محو آثار المعاصي والفجور التي لبست ثوب المباح والتقدم والرقي ، وخلعت لباس التقوى والعزة والكرامة . . مع الفرار مما سبق كله إلى إفراد الله ـ جل ثناؤه ـ بالحب والخوف والإنابة والتلقي والتوجه مع تجريد الولاء لله ولدينه ولرسوله ﷺ وللمؤمنين ، والشعور باستعلاء الإيمان في النفوس والثقة بهيمنة كتابنا وحاكميته المطلقة لكافة شؤون الحياة وأنه نبع العز والتمكين ، وأن تكون تلك هي الراية المعلنة

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، سورة الأنفال ٥٣ .

الخالصة من أية إضافة أو شائبة ، فعند هذا يُغيّر الله حالنا .

يقول صاحب الظلال ، رحمه الله تعالى :

« إن الله تبارك وتعالى يحرض المؤمنين على التجرد له والاتجاه إلى نصرة نهجه في الحياة ،ويعدهم على هذا النصر والتثبيت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : ٧ ، ٨] وكيف ينصر المؤمنون الله ؛حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت ؟ إن لله في نفوسهم أن تتجرد له ، وألا تشرك به شيئاً ، شركاً ظاهراً أو خفياً ، وألا تستبقي فيها معه أحداً ولا شيئاً وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى ،وأن تُحكّمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها وسرها وعلانيتها ونشاطها كله وخلجاتها، فهذا نصر الله في ذوات النفوس .

وإن لله شريعة ومنهاجاً للحياة تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة ، ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء فهذا نصر الله في واقع الحياة. .

وإنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين وتمثلت في واقع حياتهم منهجاً للحياة ونظاماً للحكم وتجرداً لله في كل خاطرة وحركة وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة ، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً . . وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامي كله واقعة واحدة تخالفها . . ونحن نقرر في ثقة بوعد الله لا يخالجها شك أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله ، إلا وهناك ثغرة في حقيقة

الإيمان ـ إما في الشعور وإما في العمل ـ ومن الإيمان أخذ العدة وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله ، وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة ـ وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ثم يعود النصر للمؤمنين ـ حين يوجدون . .

ففي أحُد مثلاً كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول ﷺ وفي الطمع في الغنيمة ، وفي حُنَيْن كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها ونسيان السند الأصيل، ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئاً من هذا . . نعرفه أو لا نعرفه . . أما وعد الله فهو حق في كل حين . . نعم إن المحنة قد تكون للابتلاء . . ولكن الابتلاء إنما يجيء لحكمة هي استكمال حقيقة الإيمان ومقتضياته من الأعمال. فمتى اكتملت تلك الحقيقة بالابتلاء والنجاح فيه جاء النصر وتحقق وعد الله عن يقين . .

ويجب أن نفهم أن الهزيمة هي هزيمة الروح وكلال العزيمة . . فالهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها في النفوس هموداً وكلالاً وقنوطاً ، فأما إذا بعثت الهمة وأذكت الشعلة وبصرت بالمزالق وكشفت عن طبيعة العقيدة وطبيعة المعركة وطبيعة الطريق. . فهي المقدمة الأكيدة للنصر الأكيد والله سبحانه يقول: ﴿ **وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** ﴾ [النساء: ١٤١] وإنما يشير سبحانه إلى أن الروح المؤمنة هي التي تنتصر والفكرة المؤمنة هي التي تسود . وإنما يدعو سبحانه الجماعة المسلمة إلى استكمال حقيقة الإيمان في قلوبها تصوراً وشعوراً ، وفي حياتها واقعاً وعملاً. . وألا يكون اعتمادها كله على عنوانها . فالنصر ليس للعناوين وإنما

هو للحقيقة التي وراءها . . وليس بيننا وبين النصر في أي زمان وفي أي مكان إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك .

ومن حقيقة الإيمان أن نأخذ العدة ونستكمل القوة . ومن حقيقة الإيمان ألا نركن إلى الأعداء وألا نطلب العزة إلا من الله ، ووعد الله هذا الأكيد يتفق تماماً مع حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر في هذا الكون ، إن الإيمان صلة بالقوة الكبرى التي لا تضعف ولا تفنى ، وإن الكفر انقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها ، ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة في هذا الكون ، غير أنه يجب أن نفرق دائما بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان . .

إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونية ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل . وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة أن تقهرها . ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر فإن حقيقة الكفر تغلبه إذا هي صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها ؛ لأن حقيقة أي شيء أقوى من مظهر أي شيء ، ولو كانت هي حقيقة الكفر وكان هو مظهر الإيمان ، إن قاعدة المعركة لقهر الباطل هي إنشاء الحق وحين يوجد الحق بكل حقيقته وبكل قوته يتقرر مصير المعركة بينه وبين الباطل مهما يكن هذا الباطل من الضخامة الظاهرية الخادعة للعيون ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ [الأنبياء: ١٨].

والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول، فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير ، وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد

أن يستعلوا بالحق في الباطن . .

إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية ، فإذا ظل الإيمان : مظهراً لم يتجسم في القلب، والحق : شعاراً لا ينبع من الضمير ، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان ؛ لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان، يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب ، فتصبحان أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ، ويصول بها الطغيان »[1] اهـ .

ونختم الحديث حول هذه السنة بكلام بديع لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ، ننقله بطوله لعظيم فائدته ـ حيث يقول رحمه الله تعالى :

«ولكن تُذكر هنا نكتة نافعة، وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من مصائب، وما يصيب كثيراً من الكفار والفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك ، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور ، وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما يتنعمون به إلا قليلاً ، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين ، وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأن العاقبة للتقوى ، وقول الله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ [الصافات : ١٧٣] ـ وهو ممن يصدِّق بالقرآن ـ حمل هذه الآيات على الدار الآخرة فقط ، وقال : أما في الدنيا فما نرى بأعيننا إلا أن الكفار

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن ، ص٢٤٨ .

والمنافقين فيها يظهرون ويغلبون المؤمنين ، ولهم العزة والنصرة ، والقرآن لا يَرد بخلاف المحسوس ، ويعتمد على هذا فيما إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى ، فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق ، فيقول : أنا على الحق وأنا مغلوب ، وإذا ذكره إنسان بما وعده الله من حسن العاقبة للمتقين، قال : هذا في الآخرة فقط .

وإذا قيل له : كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور ؟ قال : يفعل ما يشاء ، وربما قال بقلبه أو لسانه ، أو كان حاله يقتضي أن هذا من نوع الظلم ، وربما ذكر قول بعضهم : ما على الخلق أضر من الخالق ، لكن يقول : يفعل الله ما يشاء . وإذا ذُكِّر برحمة الله وحكمته لم يقل إلا أنه يفعل ما يشاء ، فلا يعتقدون أن صاحب الحق والتقوى منصور ومؤيد ، بل يعتقدون أن الله يفعل ما يشاء .

وهذه الأقوال مبنية على مقدمتين :

إحداهما : حسن ظنه بدين نفسه نوعاً أو شخصاً، واعتقاد أنه قائم بما يجب عليه ، وتارك ما نُهي عنه في الدين الحق ، واعتقاده في خصمه ونظيره خلاف ذلك : أن دينه باطل نوعاً أو شخصاً ، لأنه ترك المأمور وفعل المحظور .

والمقدمة الثانية : أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره . وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا ، فلا ينبغي الاغترار بهذا .

والمقدمتان اللتان بنيت عليهما هذه البلية مبناهما على الجهل بأمر الله

ونهيه، وبوعده ووعيده . فإن صاحبهما إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق ، فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور ، وتارك للمحظور، وهو على عكس ذلك، وهذا يكون من جهله بالدين الحق .

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا ، بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار على المؤمنين، ولأهل الفجور على أهل البر ، فهذا من جهله بوعد الله تعالى .

أما الأول: فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها ، وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها، بل ما أكثر من يعبد الله بما حرم ويترك ما أوجب ، وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه، وأن خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه ، ولا يكون الأمر كذلك ، بل يكون معه نوع من الباطل والظلم، ومع خصمه نوع من الحق والعدل .

وحبك الشيء يعمي ويصم، والإنسان مجبول على محبة نفسه ، فهو لا يرى إلا محاسنها ، ومبغض لخصمه، فلا يرى إلا مساوئه ، وهذا الجهل غالبه مقرون بالهوى والظلم ، فإن الإنسان ظلوم جهول .

وأكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم ، وتقليدهم في التصديق والتكذيب، والحب والبغض ، والموالاة والمعاداة .

كما قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [لقمان: ٢١]. وقال تعالى : ﴿ **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا** ﴾ [الأحزاب:٦٦، ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤].

وأما الثاني: فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء معذبين بما فيه، بخلاف من فارقهم إلى طاعة أخرى أو سبيل آخر، ويكذب بوعد الله بنصرهم.

والله سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين فقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال تعالى في كتابه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

وقال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١].

وقال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

وقال تعالى في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

[الأنفال: ٢٩]

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقد روي عن أبي ذر، عن النبي ﷺ أنه قال: «لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم» رواه ابن ماجه وغيره[(١)].

وأخبر أن ما يحصل لهم من مصيبة انتصار العدو وغيرها، إنما هو بذنوبهم، فقال تعالى في يوم أحد: ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الروم: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ [الشورى: ٣٤].

وذم في كتابه من لا يثق بوعده لعباده المؤمنين، وذكر ما يصيب الرسل والمؤمنين، فقال تعالى: ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ

---

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٢٠)، ورواه أيضاً الإمام أحمد (٥/١٧٨) بلفظ: «لو أن الناس كلهم أخذوا بهذه الآية لكفتهم»، وقال الألباني في مشكاة المصابيح: إنه ضعيف.

الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١٤].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩ - ١١١].

ولهذا أمر الله رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم، وهو طاعته، وهو المقدمة الأولى. وأمرهم بانتظار وعده، وهي المقدمة الثانية. وأمرهم بالاستغفار والصبر، لأنهم لابد أن يحصل لهم تقصير وذنوب فيزيله الاستغفار، ولابد مع انتظار الوعد من الصبر، فبالاستغفار تتم الطاعة، وبالصبر يتم اليقين بالوعد، وإن كان هذا كله يدخل في مسمى الطاعة والإيمان.

قال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

[الأنعام: ٣٤]

وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

وأمرهم أيضاً بالصبر إذا أصابتهم مصيبة بذنوبهم ، مثل ظهور العدو ، وكما قال تعالى في قصة أحد : ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤١].

وأيضاً فقد قص سبحانه في كتابه نصره لرسله ولعباده المؤمنين على الكفار في قصة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وفرعون وغير ذلك . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [النور: ٣٤].

وهذا يتبين بأصلين :

أحدهما : أن حصول النصر وغيره من أنواع النعيم لطائفة أو شخص لا ينافي ما يقع في خلال ذلك من قتل بعضهم وجرحه ومن أنواع الأذى ، وذلك أن الخلق كلهم يموتون ، فليس في قتل الشهداء مصيبة زائدة على ما

هو معتاد لبني آدم ، فمن عد القتل في سبيل الله مصيبة مختصة بالجهاد كان من أجهل الناس ، بل إن الفتن التي تكون بين الكفار وتكون بين المختلفين من أهل القبلة ليس مما يختص بالقتال ، فإن الموت يعرض لبني آدم بأسباب عامة ، وهي المصائب التي تعرض لبني آدم من مرض بطاعون وغيره ، ومن جوع وغيره . وبأسباب خاصة ، فالذين يعتادون القتال لا يصيبهم أكثر مما يصيب من لا يقاتل ، بل الأمر بالعكس ، قد جرَّبه الناس .

ثم موت الشهيد من أيسر الميتات ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ **قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا** ﴾ [الأحزاب : ١٦ ، ١٧] .

فأخبر سبحانه أن الفرار من القتل أو الموت لا ينفع ، فلا فائدة فيه ، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلاً ، إذ لابد من الموت .

وأخبر أن العبد لا يعصمه من الله أحد إن أراد به سوءاً أو أراد به رحمة وليس من دون الله ولي ولا نصير ، فأين نَفرٌ من أمره وحكمه ؟ ولا ملجأ منه إلا إليه ، قال تعالى : ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الذاريات : ٥٠] وهذا أمر يعرفه الناس من أهل طاعة الله وأهل معصيته ، كما قال أبو حازم الحكيم : «لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقاه الذي يتقي الله من معالجة التقوى» .

والله تعالى قد جعل أكمل المؤمنين إيماناً أعظمهم بلاء ، كما قيل للنبي ﷺ : أي الناس أشد بلاء ؟ قال : «**الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خُفف عنه ، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي**

على الأرض وليس معه خطيئة»[1] .

فالجهاد للكفار أصلح من هلاكهم بعذاب سماء من وجوه :

أحدها : أن ذلك أعظم في ثواب المؤمنين وأجرهم وعلو درجاتهم ، لما يفعلونه من الجهاد في سبيل الله ، لأن تكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله .

الثاني : أن ذلك أنفع للكفار أيضاً ، فإنهم يؤمنون من الخوف ، ومن أسر منهم وسيمَ من الصغار يسلم أيضاً ، وهذا من معنى قوله تعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

قال أبو هريرة : «وكنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة» ، فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وأفلح بذلك المقاتَلون ، وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا من معنى كون محمد ﷺ ما أرسل إلا رحمة للعالمين ، فهو رحمة في حق كل أحد بحسبه حتى المكذبين له ، هو في حقهم رحمة أعظم مما كان غيره .

ولهذا لما أرسل الله إليه ملك الجبال وعرض عليه أن يقلب عليهم الأخشبين قال : «**لا ، استأن لهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له** »[2] .

---

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٤٠٠) ، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣) وهو في السلسلة الصحيحة (١٤٣) .

(٢) رواه البخاري بنحوه في بدء الخلق (٣٢٣١) ، ومسلم في الجهاد (١٧٩٥) .

الوجه الثالث : أن ذلك أعظم عزة للإيمان وأهله ، وأكثر لهم ، فهو يوجب من علو الإيمان وكثرة أهله ما لا يحصل بدون ذلك ، وأمر المنافقين الفجار بالمعروف ونهيهم عن المنكر هو من تمام الجهاد وكذلك إقامة الحدود.

ومعلوم أن في الجهاد وإقامة الحدود من إتلاف النفوس والأطراف والأموال ما فيه ، فلو بلغت هذه النفوس النصر بالدعاء ونحوه من غير جهاد ، لكان ذلك من جنس نصر الله للأنبياء المتقدمين من أممهم لمّا أهلك نفوسهم وأموالهم .

وأما النصر بالجهاد وإقامة الحدود فذلك من جنس نصر الله لما يختص به رسوله، وإن كان محمد ﷺ وأمته منصورين بالنوعين جميعاً ، لكن يشرع في الجهاد باليد ما لا يشرع في الدعاء»[1] اهـ .

* * *

(١) جامع الرسائل ، جـ٢ الرسالة الثالثة (قاعدة في المحبة)، ص٣٢٤-٣٣٩ .

• السنة الثالثة •

بالجمع بين السنة الأولى والثانية تظهر معالم هذه السنة، وذلك لو أن الناس لم يغيروا ما بأنفسهم، فهل معنى هذا أن نصر الله عز وجل لن يأتي ؟

والجواب: كلا، فلا بد من أن يأتي نصر الله عز وجل، كما تقرر ذلك في السنة الأولى ولكن يقف في سبيل ذلك عدم الأخذ بالسنة الثانية في التغيير. وفي هذه الحالة تأتي سنة الله عز وجل الثالثة والمتضمنة تبديل من رفضوا تغيير ما بأنفسهم وواقعهم بجيل يحبهم الله عز وجل ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله لا يخافون في الله لومة لائم. فيحققون بذلك أسباب النصر، فينزل الله عز وجل عليهم نصره ويشرفهم به.

وهذا كثير في كتاب الله عز وجل حيث يقول سبحانه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، ويقول تعالى: ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ... الآية﴾ [التوبة: ٣٩]، ويقول جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية : «يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته ، فإن الله يستبدل من هو خير لها منه وأشد منعة وأقوم سبيلاً»[1] .

* * *

محصلة السنن الثلاث :

إن نصر الله عز وجل آت لا محالة ، ولكن له أسباب وسنن، وهو يبدأ من تغيير الناس ما بأنفسهم أولاً حتى يغير الله عز وجل ما بأرضهم ويمكن لهم دينهم ، وإنهم إن لم يغيروا ما بأنفسهم فإن هذا لا يعني عدم مجيء نصر الله عز وجل ، وإنما يستبدل الله عز وجل قوماً آخرين يحققون أسباب النصر والتغيير ويشرفهم سبحانه بأن ينزل عليهم نصره المبين ، ويدفع بهم الفساد ، ويعذب الكافرين بأيديهم .

وبعد إيضاح هذه السنن وعلاقة بعضها ببعض يحسن بنا أن نذكر جملة من العوائق في طريق النصر حتى يتوقاها المسلمون ويكونوا منها على بينة وبصيرة .

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، سورة المائدة ، الآية : ٥٤ .

عوائق في طريق النصر

إن العوائق والتحديات التي تعترض سبيل الدعوة اليوم كثيرة جداً بعضها أخطر من بعض ، وقد أدت هذه العوائق ببعض النفوس إلى داء خطير إذا حل في النفوس حطمها وأذلها ، ألا وهو اليأس أو الهزيمة النفسية من الداخل ، وهذا الداء هو في حد ذاته من أكبر العوائق .

وقد حذر الله عز وجل من هذا الداء أن يتسرب إلى نفوس المؤمنين به سبحانه ؛ لأن بمجرد دخول الإيمان إلى القلوب فإنه ينفي الهوان والذلة والضعف عنها ، ويورثها القوة والعزة والكرامة مهما كانت الظروف التي تعيشها هذه القلوب المؤمنة من تشريد أو سجن أو تعذيب . فغاية ما يملكه المتسلطون هو الجسد فقط ، أما القلب المعمور بالإيمان ففيه قوة الإيمان التي تستعلي على كل ابتلاء وهزيمة واستضعاف .

والله سبحانه يقول للمؤمنين وقد أصابهم القرح في أحد : ﴿ **وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٩] ، فلا يجتمع الوهن والاستكانة مع الإيمان الحقيقي أبداً .

وقال أيضاً في هذا المقام : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا**

وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1] [آل عمران: ١٤٦، ١٤٧] .

فتأمل وصفه تعالى للربيين عند حلول المصيبة بأنهم ما ضعفوا . . وما استكانوا . . وما وهنوا . . فكيف بعد هذا للهوان أو اليأس أن يتطرق إلى قلوب المؤمنين في أي ظرف من الظروف وهم يملكون الإيمان الذي يرفعهم على كل هزيمة وكيد ومكر ؟

وبعد هذه التوطئة التي لا بد منها نعود إلى ذكر أهم هذه العوائق التي تقف في طريق النصر والتي يمكن إجمالها في :

١ـ العوائق الخارجية .

٢ـ العوائق الداخلية .

أولاً ـ العوائق الخارجية :

ويقصد بها تلك العوائق والتحديات الواردة من خارج الصف الإسلامي وذلك من أعداء هذا الدين والمتمثلين فيما يلي :

---

(١) إن هذه الآية ترسم الموقف الشرعي حال الاستضعاف والهزيمة حيث يتمثل في أربعة معالم أساسية :

أ ـ الحذر من الهوان والذلة والاستكانة عند الهزيمة ؛ لأن المؤمن يركن إلى من بيده ملكوت كل شيء .

ب ـ مراجعة النفس لأنها في الغالب منها المصائب والهزائم وذلك من ذنوبها وإسرافها في أمرها ، وهذا هو الذي فعله الربيون عندما أصابهم القرح ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ... ﴾ الآية .

جـ ـ الصبر الجميل في مثل هذه الظروف ، ودعاء الله عز وجل ، وهذا ما مدحهم الله عز وجل به حيث قال في آخر الآية : ﴿ **والله يحب الصابرين** ﴾ .

د ـ دعاء الله عز وجل بالثبات على الدين والانتصار على الكافرين .

١ـ الكفار الصرحاء الذين أسفروا عن عدائهم وحقدهم على الإسلام وأهله كاليهود والنصارى والوثنيين وغيرهم .

٢ـ المنافقون المظهرون للإسلام والمبطنون للكفر والزندقة ، وهؤلاء من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا كما هو الحال من العلمانيين والباطنيين الذين يكيدون لهذا الدين ويوالون أعداءه من اليهود والنصارى .

٣ـ الأنظمة الحاكمة في أكثر بلدان المسلمين التي وجهت عداءها وكيدها على شعوبها المسلمة باسم مكافحة التطرف والإرهاب فأكثروا في الأرض الفساد ووقفوا في وجه كل حركة إصلاحية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

ثانياً ـ العوائق الداخلية :

ويقصد بها العوائق التي توجد داخل الصف المسلم من الانحراف الموجود في الفهم أو القصد ، وهذه العوائق تتمثل فيما يلي :

١ـ عوائق داخل الصف الإسلامي للدعاة تتمثل في الفُرقة المشينة والاختلاف والشحناء والبغضاء .

٢ـ عوائق داخل نفوس أفراد الدعوة من أمراض وأدران وركون إلى الدنيا وتحاسد ورياء وكبر . . إلخ .

وبمقارنة العوائق الواردة من الخارج بالعوائق الواردة من داخل الصف الإسلامي يظهر لنا خطورة العوائق الداخلية وأثرها في تأخر نصر الله عز وجل ، ولولم توجد العوائق الداخلية لما كان للعوائق الواردة من الخارج أن تؤثر بكيدها ومكرها في الصف الإسلامي والمجتمع المسلم .

قال تعالى : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

[آل عمران : ١٢٠]

ففي هذه الآية الكريمة يعلمنا الله عز وجل أن كيد العدو الخارجي لا يضر المؤمنين شيئاً إذا اتصفوا بالصبر والتقوى ؛ لأن الله عز وجل محيط بعمل الكفار وتخطيطهم ، وهم في قبضته والعكس بالعكس؛ فمتى ظهر كيد الكفار في الصف المسلم فإن هذا دليل على ضعف الصبر والتقوى ، ويؤكد هذا المعنى أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

مما سبق يتبين لنا خطورة العوائق الداخلية وأن التغيير المنشود في الأرض يبدأ من التغيير في النفس وتفقدها سواءً في سلامة الفهم والمعتقد أو في سلامة المقصد والنوايا ، وأن أي خلل في الفهم والقصد يظهر أثره في تسلط الأعداء وتأخر نصر الله عز وجل .

إنه بدلاً من أن نسقط أسباب ضعفنا ومهانتنا على عدونا الخارجي ؛ يجب علينا أن نرجع إلى أنفسنا ونتوجه إلى إصلاحها وإصلاح ذات بيننا حتى نكون أهلاً لنصر الله عز وجل وحتى يغير الله ما بنا .

إن إصلاح النفوس وإقامة حكم الله فيها عقيدة وعبادة وسلوكاً هو الطريق إلى إقامة حكم الله في الأرض . . وإلا فما قيمة المطالبة بإقامة حكم الله في الأرض واستعجال نصر الله تعالى ، ولما تستقم النفوس على منهج الله تعالى وتنقد له؟!

وما أحسن مقولة من قال : «أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم على أرضكم» .

إن المسلم العارف لسنن الله عز وجل في التغيير ليتألم من حالنا وواقعنا وما حل بيننا من فرقة وشحناء وأهواء، ويتساءل بمرارة كيف يأتي نصر الله عز وجل في هذه الظروف والله عز وجل يقول : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] ؛ هذا على مستوى الدعاة والجماعات ؟!!

أما إذا جئنا إلى نفوس الدعاة كأفراد فإن المراقب لواقعنا وأخلاقنا واهتماماتنا لا ينقضي عجبه وهو يرى ذلك التناقض بين ما يدعو إليه الداعية وبين سلوكياته وأخلاقه ، وبالتالي يتكرر نفس السؤال المطروح آنفاً ، كيف ينزل نصر الله عز وجل على أناس هذه أخلاقهم وتلك تضحياتهم وهذه مقاصدهم ؟!!

يقول الدكتور محمد أمين المصري - رحمه الله تعالى - حول هذا الموضوع :

« إن الأعداء في الخارج يرقبون حركات المسلمين ويتربصون بهم الدوائر ويكيدون لهم كيداً ، ويمكرون بهم مكر الليل والنهار ، ومرجع هذا الصراع إلى عصور مترامية تمتد إلى الحين الذي دكت فيه عروش القياصرة والأكاسرة وامتد حكم الإسلام إلى أطراف العالم ؛ فهنالك الحركة الصليبية، وهنالك الصهيونية والاستعمار الغربي والشرقي، وهؤلاء جميعاً يختلفون فيما بينهم ولكنهم يصطلحون على حرب المسلمين ، ويجمعون أمرهم كيلا تقوم للمسلمين قائمة ولا تجتمع لهم كلمة . ويعتبر هذا الجانب خارجياً ، وهو -

وإن بلغ ذروة الكيد ـ ليس أكبر الجانبين أهمية بل هو ـ كما سنرى ـ نتيجة تابعة للعامل الثاني الذي هو الجانب الداخلي وهو المجتمع الذي يعيش فيه المسلمون ، وهنا نجد عقبات في الأفراد أنفسهم وفي تنشئتهم وتربيتهم .

وليس من شك في أن أكبر الأخطار التي تواجه المسلمين اليوم كامنة في النقص في تربية أفراد المسلمين أنفسهم ، والضعف الذي أصيب به شبابهم .

وأكبر المصائب أن يصاب الفرد بنفسه ؛ ذلك لأن معالجة أي خطر ممكنة ميسرة حينما تكون تربية الأفراد تربية قوية تستطيع أن تجابه المصاعب وتصمد للحوادث .

ومن عادة الضعيف أن يلقي بأسباب ضعفه على عوامل خارجية يدَّعي أنه لايملك التصرف فيها ليسوغ لنفسه ما هو فيه ، ولقد اعتدنا أن نفعل ذلك وأن نلقي تبعات ما نحن فيه من ضعف وتقصير على الاستعمار أولاً ، وعلى الماضي ثانياً ، وعلى مجتمعنا ثالثاً ، ولايخطر ببال أحدنا أن يجعل نفسه مركز الاتهام بينما يجعل القرآن العامل الأساسي فيما يصيب الإنسان من مصيبة هو نفسه ، قال تعالى : ﴿ **أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ .

[آل عمران : ١٦٥]

يبين الله تعالى بشأن بني النضير حين غلبهم المسلمون أنهم أُتوا من حيث لم يحتسبوا وكان ذلك من قبل أنفسهم . قال تعالى : ﴿ **مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا**

أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] .

لم يؤت هؤلاء من نقص في ذخيرتهم أو عددهم أو حصونهم ، ولكنهم أُتوا من قبل أنفسهم ، أيضاً قال رسول الله ﷺ : «**ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت**»[1] .

الحديث الكريم يخبر عن سنة عميقة من سنن الاجتماع تبين ما تنتهي إليه الجماعة حين تفسد فطرتها وتملأ الدنيا قلوب أفرادها ، ولقد كشف هذه الحقيقة الباحثون المحدثون لدراسة الجماعات وعوامل انحطاطها . قال أحد هؤلاء : إن الأسباب الحقيقية لكل انحطاط داخلية لا خارجية . وليس علينا أن نلوم العواصف حين تحطم شجرة نخرة في أصولها ، إنما اللوم على الشجرة النخرة نفسها .

والقرآن الكريم يهدي إلى هذه السنة ويبين للناس بأنَّ ما يقع على الأمم من ظلم واضطهاد مرجعه إلى الناس أنفسهم وما كسبت أيديهم ، ولذا نجد التعبير بظلم النفس يتكرر في مواطن كثيرة في القرآن الكريم يقول تعالى : ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [النحل : ١١٨].

والأمة التي تصاب بأبنائها هي التي تتعرض للمصائب والنكبات وتصبح عرضة لغزو العدو .

فهي إذن عوامل ثلاثة تعمل معاً : عدو خارجي متربص ، ومجتمع ، وأفراد . والمكانة التي تشغلها الأمة من محصلة هذه العوامل الثلاثة ، فقد

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم (٤٢٩٧) . وهو في صحيح سنن أبي داود (٣٦١٠) .

تكون بسبب ضعفها الداخلي مغزوة من الخارج، وقد تكون بسبب قوتها الداخلية وتماسك مجتمعها غازية في الخارج.

وليست الحياة إلا صراعاً تقاوم فيه الصعوبات التي تتحدى الفرد والجماعة ثم تكون الغلبة والانتصار أو الاستسلام والهزيمة؛ تلك سنة الله منذ بدء الخليقة [1] اهـ.

* * *

(١) من كتاب المسئولية ـ الدكتور / محمد أمين المصري، ص١٣.

المعالم الرئيسية لمنهج التغيير الصحيح

إن عدم الانتباه لسنن الله عز وجل السابق ذكرها في التغيير مع العوائق الشديدة التي تواجه الدعاة إلى الله عز وجل في طريقهم قد يؤدي ذلك كله ببعض الطيبين ـ وقد أدى ـ إلى اليأس والإحباط حتى ألقى بيديه ينتظر خارقة أو مهدياً [١] ينصر الله به دينه، كما أدى ذلك بالبعض الآخر إلى أن يظن أن الحل يكمن في التنازل للأعداء والرضا بالحلول الوسط؛ فدخل في تحالفات أو مجالس وبرلمانات ليحقق بذلك بعض المكاسب للدعوة أو يدفع بعض

(١) المهدي حقيقة ثابتة نؤمن بها حيث ورد ذكره في أحاديث كثيرة أوصلها بعض العلماء إلى حد التواتر، ولكن المؤمن بوعد الله عز وجل يوقن بانتصار هذا الدين ولا يربطه بخروج المهدي، وإنما يربطه بأسبابه الشرعية. صحيح أن الانتصار النهائي الشامل لن يكون ـ والله أعلم ـ إلا بعد خروجه، لكن المهدي حينها لن يخرج على الدنيا وحده، وإنما لا بد وأن فئة من المؤمنين قد تهيأت لمخرجه وأعدت نفسها بكل ما تعني كلمة الإعداد من معنى. أما الذين أهملوا أنفسهم وركنوا لدنياهم ولم يعدوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله عز وجل سواء مع المهدي أو مع أي مصلح آخر فسوف يكونون أبعد الناس عن اتباعه ولو ظهرت على يديه الخوارق المعجزات. إن الخوارق والمعجزات لم تنفع بني إسرائيل عندما طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه، مع أن الله عز وجل قد أيده بمعجزة التابوت الذي فيه سكينة من ربهم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، ومع ذلك فقد نكل أكثرهم، ولما عرضهم على النهر شربوا منه إلا قليلاً منهم، والقليل منهم لما برزوا لجالوت وجنوده: ﴿ **قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ** ﴾، فالعبرة إذن ليست بخروج المهدي وظهور الخوارق وأن الناس سيتبعونه إذا رأوا ذلك منه.. كلا لن يثبت ويواصل السير إلا من وفقه الله عز وجل وكان له حظ من التربية على الإيمان والصبر واليقين.

المفاسد عنها .

وفي المقابل نشأ فريق آخر يرى المواجهة واستعجال النصر ولكن قبل أوانه . كل ذلك ـ والله أعلم ـ نشأ من الضغوط الشديدة من العوائق الخارجية والداخلية وإغفال سنن الله عز وجل في التغيير .

وإن الحل لواقعنا المرير هو المنهج الصحيح في التغيير والذي يكمن في منهج الرسول ﷺ وبالذات في بدء الدعوة واستضعافها . وباستقراء معالم هذا المنهج الكريم يتبين أن أهمها ما يلي :

١ـ الانطلاق في الدعوة إلى الله عز وجل من أصلين عظيمين أمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن ينطلق بهما ، وهذان الأصلان مذكوران في سورة مكية حيث يقول الله عز وجل : ﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف : ١٠٨].

فقد حددت هذه الآية الكريمة صفات الدعوة الصالحة المقبولة عند الله عز وجل وأنها هي التي ترتكز على هذين الأصلين العظيمين وهما :

الأصل الأول : ﴿**أَدْعُو إِلَى اللَّهِ**﴾ : والمراد من ذلك الدعوة إلى التوحيد بادئ ذي بدء[١] والموالاة والمعاداة على أساسه ، والإخلاص والصدق في

---

(١) أورد الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هذه الآية في كتاب التوحيد باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله ليدلل على أهمية التوحيد وأنه أول ما يدعى الناس إليه ، كما أنه استدل بهذه الآية أيضاً على وجوب التجرد لله سبحانه وتعالى في الدعوة إليه ، وأن تكون الدعوة خالصة له وحده ، فذكر رحمه الله تعالى في مسائل الباب حول هذه الآية قوله : التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه .

الدعوة، وأن المراد منها وجه الله عز وجل، وإخلاص العبادة له وتوحيده، وأنه لا يدعو إلى شيء إلا إلى الله عز وجل؛ لا إلى شخص، أو حزب، أو راية أو أي غرض من أغراض الدنيا، والمراد من هذا الأصل **سلامة القصد**.

الأصل الثاني: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾: أي أن تكون الدعوة على بصيرة وعلم ودليل واتباع للرسول ﷺ، والمراد من هذا الأصل **سلامة الفهم**.

فإذا انطلقت الدعوة إلى الله عز وجل من قصد سليم وفهم سديد فهذه هي الدعوة الموفقة الموافقة لمنهج النبي ﷺ.

إذن فعلينا معاشر الدعاة إلى الله عز وجل أن نعيد النظر في مقاصدنا وفهومنا، إذ إن نصر الله عز وجل لا ينزل إلا على قوم قد صحت مقاصدهم فأخلصوا لله دعوتهم وعبوديتهم، وصحت فهومهم بالسير على ما كان عليه الرسول ﷺ وصحبه الكرام عقيدة وعبادة وسلوكاً، أما إذا تأخر نصر الله تعالى فهذا دليل على خلل في القصد أو خلل في الفهم وعندئذ يجب تلافي هذا الخلل والانسجام مع سنن الله عز وجل في التغيير ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١].

٢- إيمان بالله عز وجل وبوعده الذي لا يتخلف وأن نصره تعالى لعباده المؤمنين آت لا محالة، وأن نوقن بذلك كما نرى الشمس في رابعة النهار. وهذا ما كان يربي النبي ﷺ عليه أصحابه وهم في حالة استضعاف وإيذاء، ومن ذلك قوله ﷺ لخباب بن الأرت عندما جاءه يشكو إليه أذى المشركين ويطلب نصر الله تعالى: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه**.

والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »[١] .

٣ ـ السعي إلى توحيد صفوف أهل السنة ورأب الصدع وتأليف القلوب وتحقيق معنى قوله ﷺ : «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »**[٢] .

وكذلك قوله ﷺ : «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً** ـ وشبك بين أصابعه »[٣] ، فهل هذه المعاني العظيمة متحققة الآن بين الدعاة المؤمنين أم أن الحاصل هو الفرقة والاختلاف ؟!

إن الله عز وجل قد حذرنا من التنازع والتفرق وأخبرنا أن الفشل والهزيمة وتغلب الأعداء ثمرة حتمية للتنازع ، قال تعالى : ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال: ٤٦] ، فكيف نرجو نصراً ونحن بهذه الحالة ؟!

إن الواجب على كل مؤمن صادق مخلص أن يسعى جاهداً للوحدة والائتلاف ويكره وينبذ الفرقة والاختلاف، وإن لم يستطع جمع الكلمة فلا أقل من أن يكفَّ شره ولا يفرق ، فمن استطاع أن يجمع فليفعل ، ومن لم يستطع فلا يفرق، فهذا منه خير .

كما يجب على الدعاة المخلصين المتبعين للسنة أن يتعاونوا بينهم وأن

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الإكراه (٦٩٤٣).

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

يتركوا التلاوم والنقد فيما يسعه الاختلاف، وأن يقدر كل منهم الآخر ويذكر له خيره وجهده، وأن يكمل بعضهم بعضاً ، لا أن يضاد بعضهم بعضاً ويُسفِّه بعضهم البعض الآخر ، ويحتقر جهده ، ويسيء الظن به ، فهذا كله من الشيطان الذي لا يفتأ يسعى للتحريش والتفريق بين المؤمنين .

٤ ـ التربية الجادة للنفوس وإحياء السلوك الإسلامي وأخلاق السلف الفاضلة والقضاء على الرواسب والأخلاق الرديئة. وهذا يحتاج إلى صبر طويل وجهد كبير .

٥ ـ التركيز على الجانب العبادي وتكثيفه كما كان الرسول ﷺ يربي عليه أصحابه في مكة من صلاة الليل والذكر وغيره ، والتربية على الزهد في الدنيا وإنشاء همّ الآخرة وانتظار موعود الله عز وجل فيها .

٦ ـ توطين النفوس على الصبر على البلاء ، والنَفَس الطويل وعدم العجلة في ذلك حتى يتم صقلها وتمحيصها، وأن تربى على أن يكون الانطلاق من الشريعة وقواعدها لا من ردود الفعل والعواطف الملتهبة، وهذا يحتاج إلى تربية طويلة وصبر جميل ودعوة هادئة مستمرة يتم فيها إبلاغ الناس بدين الله عز وجل ويتميز فيها الخبيث من الطيب كما هو الحال في العهد المكي الذي ظهرت فيه هذه المعاني بوضوح وجلاء ؛ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة .

٧ ـ توسيع نطاق الدعوة إلى الله عز وجل والبلاغ العام لكافة الطبقات وإقامة الحجة وتعرية الباطل باللسان والبيان .

٨ ـ إعداد النفوس للجهاد في سبيل الله عز وجل والذي هو ذروة سنام

هذا الدين وهو ثمرة الفهم الصحيح والقصد الصحيح والصبر الطويل في التربية عليهما .

فلابد من الاستعداد والإعداد له ، فنحن نوقن تمام اليقين أنه لا يرفع عن المسلمين ما هم فيه من ذلة ومهانة إلا أن تحيا معاني الجهاد في نفوسهم ، قال ﷺ : «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد في سبيل الله ، سلّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**»[1] .

فحياة المسلمين وعزهم وشرفهم في الجهاد في سبيل الله عز وجل، فوق ذلك فإنه واجب شرعي لتبليغ دين الله عز وجل والقضاء على الفساد في الأرض وتعبيد الناس لربهم سبحانه ، قال تعالى : ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [الحج : ٤٠] ، وقال سبحانه : ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ٢٥١] .

وقد قال الرسول ﷺ : «**من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق**»[2] .

---

(١) رواه أبو داود ، في البيوع والإجارات (٣٤٦٢)، وقال محقق « جامع الأصول » : هو صحيح .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة (١٩١٠).

إن المتأمل في أحوالنا اليوم وطريقة تفكيرنا ومعيشتنا وتعاملاتنا ليرى عدم المصداقية الكافية عندنا في إعداد النفس للجهاد وتحديثها بالغزو على جميع المستويات إلا من رحم الله تعالى ، فمجرد نظرة سريعة إلى اهتماماتنا ، وما يشغل قلوبنا نرى أنها ليست اهتمامات مجاهدين . وكذلك أسلوب معيشتنا وما يشتمل عليه من الترف والترهل وحب الدعة والراحة والركون إلى الدنيا وكراهية الموت ، كل هذا لا يتفق مع حقيقة تحديث النفس بالغزو وإعدادها للجهاد .

إن « تحديث النفس بالغزو » الذي ينجي من شعب النفاق لا يكفي له أن يحدث الإنسان نفسه أنه سيغزو ويجاهد ويكتفي بهذا الحديث النفسي وهو متكئ على أريكته مشحون قلبه بدنياه ، كلا ليس هذا هو الحديث المنجي . إنما تحديث النفس بالغزو يعني أموراً عملية لابد من العزيمة عليها من الآن أهمها ما يلي :

١ـ الإعداد العلمي والفقه في الدين والبصيرة فيه حتى تكون دعوة الفرد ويكون جهاده على بصيرة وروية ووضوح راية ، ويفقه لماذا يجاهد ؟ وكيف يجاهد ؟ ومن يجاهد ؟ وعلى أي عقيدة يجاهد ؟ كل هذا لا يتأتى إلا بالعلم والفقه في دين الله عز وجل .

٢ـ الإعداد التربوي والسلوكي ابتداء من تقوية الصلة بالله عز وجل ، وإخلاص النية له ، والتقرب له بالطاعات ، والزهد في الدنيا والتخفف منها ، والرغبة فيما عند الله عز وجل من الجنة والرضا ، والتخلق بأخلاق الإسلام ، وهذا كله يحتاج إلى جهد كبير وترويض شديد وصبر طويل .

٣ـ التعبئة النفسية وبث روح الجهاد ، وانتشال النفس مما هي فيه من

كسل ودعة واستخذاء، والارتفاع بها من الهزيمة النفسية إلى الاعتزاز بهذا الدين، والثقة بنصر الله عز وجل واليقين التام بأهمية الجهاد وما أعده الله عز وجل للمجاهدين .

٤ ـ التربية على الإنفاق في سبيل الله عز وجل، والتضحية بالغالي والنفيس في سبيله عز وجل، وتخليص النفس من الشح وحب الدنيا .

٥ ـ الشعور بواجب الدعوة إلى الله عز وجل وتجميع الناس حول الإسلام والاهتمام بأمر هذا الدين ، والغَيْرة على محارم الله عز وجل ، وأن هذا الأمر يتفاوت وجوبه والإثم المترتب على تركه حسب حال العبد ومرتبته من العلم أو القدرة أو الغنى . . إلخ . ويوضح ذلك الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه القيم إعلام الموقعين حيث يقول :

«ولله سبحانه على كل أحد عبودية بحسب مرتبته ، سوى العبودية العامة التي سوى بين عباده فيها ؛ فعلى العالم من عبودية نشر السنة والعلم الذي بعث الله به رسوله ما ليس على الجاهل ، وعليه من عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره ، وعلى الحاكم من عبودية إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه من هو عليه به والصبر على ذلك والجهاد عليه ما ليس على المفتي ، وعلى الغني من عبودية أداء الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير ، وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما .

وتكلم يحيى بن معاذ الرازي يوماً في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقالت له امرأة : هذا واجب قد وضع عنا ، فقال : هبي أنه قد وضع عنكن سلاح اليد واللسان ، فلم يوضع عنكن سلاح القلب ، فقالت :

صدقت جزاك الله خيراً .

وقد غر إبليس أكثر الخلق بأن حسَّن لهم القيام بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع ، وعطلوا هذه العبوديات ، فلم يحدثوا قلوبهم بالقيام بها ، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من أقل الناس ديناً، فإن الدين هو القيام لله بما أمر به ، فتارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالاً عند الله ورسوله من مرتكب المعاصي ، فإن ترك الأمر أعظم من ارتكاب النهي من أكثر من ثلاثين وجهاً ذكرها شيخنا رحمه الله في بعض تصانيفه ، ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ وبما كان عليه هو وأصحابه رأى أن أكثر من يشار إليهم بالدين هم أقل الناس ديناً ، والله المستعان .

وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تُنْتهك، وحدوده تُضاع، ودينه يُترك، وسنة رسوله ﷺ يُرغب عنها؛ وهو بارد القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق ، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المتحزن المتلمظ ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذَّل وجَدَّ واجتهد ، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه.

وهؤلاء ـ مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم ـ قد بُلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب ، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى ، وانتصاره للدين أكمل »[1] .

٦ ـ الإعداد الجسمي والعضلي لتحمل الجهاد ومشاق الطريق وذلك

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٧٦).

بالرعاية الصحية والرياضة البدنية وركوب الخيل والسباحة والرماية وكل ما يحتاجه جهاد الكفار من إعداد وكل ما من شأنه إرهاب عدو الله وعدو المؤمنين قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال : ٦٠].

وكل هذه الأنواع من الإعداد قد قام بها الرسول ﷺ وهو في مكة حيث لم يؤذن له بعد بالقتال، وقد يقول قائل : ما الدليل على أنه ﷺ كان يدرب أصحابه على الرماية والرياضة في مكة؟

والجواب : إنهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك فطبيعة نشأتهم وبيئتهم وحياتهم كانت في الأصل طبيعة قتالية مدربة جاهزة لا يحتاجون معها إلا إلى الأمر ومجيء الوقت المناسب للجهاد.

٧ ـ وقبل ذلك وبعده (في الإعداد للجهاد) يجب أن ترتبط النفوس المؤمنة بطلب رضا الله عز وجل وجنته قبل أن يحصل لها أي هدف في هذه الدنيا الفانية ولو كان إقامة حكم الله عز وجل؛ لأنه قد يتأخر إقامة علم الجهاد، وقد يبطئ نصر الله عز وجل لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، وقد يموت المؤمن الذي أعد نفسه للغزو والجهاد ولم ير ثمرة الجهاد، لكن حسبه أنه أعد نفسه وحدثها بالغزو ونجا من النفاق وسار في مرضات الله عز وجل، وهذا في حقيقته انتصار كبير.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى :

« ولقد كان القرآن ينشئ قلوباً يعدها لحمل الأمانة، وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع ـ وهي تبذل كل

شيء وتحتمل كل شيء - إلى شيء في هذه الأرض. ولا تنتظر إلا الآخرة، ولا ترجو إلا رضوان الله. قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال، بلا جزاء في هذه الأرض قريب. ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين.. حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء إلا أن تعطي بلا مقابل، وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للجزاء.. وموعداً كذلك للفصل بين الحق والباطل.

وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت، أتاها النصر في الأرض وائتمنها عليه. لا لنفسها، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة، منذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه، ولم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه، وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه. فالنصر ليس بالعدد وليس بالعدة. وليس بالمال والزاد. إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العباد»[1].

وختاماً أسأل الله عز وجل أن يرفع علم الجهاد وأن يقر أعيننا بنصرة دينه والتمكين لأوليائه، وأن يجعلنا من الذين ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ**﴾ [المائدة: ٥٤].

كما أسأله سبحانه أن يجمع كلمة دعاته الصادقين على الحق، وأن يوحد صفوفهم ويؤلف بين قلوبهم، وأن يعيذهم من نزغات الشيطان، وأن يريهم

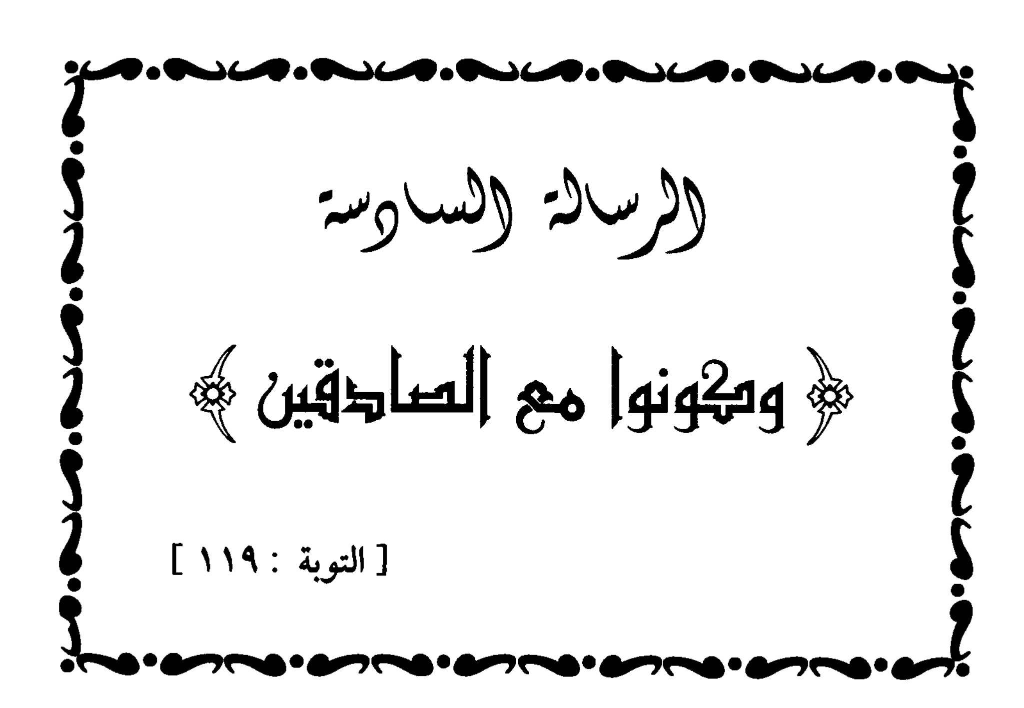
(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن، ص٣٦١.

الحق حقاً ويرزقهم اتباعه، ويريهم الباطل باطلاً ويرزقهم اجتنابه.

اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ؛ اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

* * *


الرسالة السادسة
﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾
[التوبة : ١١٩]

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً.

أما بعد :

فإن الله عزوجل خلق السموات والأرض بالحق وخلق الخلق ليعبدوه، وأمرهم بأن يقيموا حياتهم على الإيمان الحق الذي قامت عليه السموات والأرض، ولا يكون الإيمان حقاً حتى يكون قائماً على الصدق المقتضي للإخلاص التام لله عزوجل باطناً وظاهراً، والمقتضي للمتابعة الصادقة للرسول ﷺ في جميع الأحوال. وبالتالي تسعد البشرية بهذه الحياة المبنية على الحق والصدق، وعندئذ تختفي كل مظاهر الظلم والكذب والنفاق والتي ترزح البشرية اليوم تحت وطأتها وتكتوي بنارها.

إن حيرة البشر اليوم وشقوتهم ترجع إلى انحرافهم عن هذا الأصل الواضح، وإلى تسلط أكاذيب وأوهام المنافقين والدجاجلة على أنفسهم وأفكارهم حتى أبعدتهم عن الصراط المستقيم والنهج القويم.

إن منزلة الصدق منزلة عظيمة في دين الإسلام بل في جميع الأديان، لا لأن الصدق خلق من الأخلاق الحميدة فحسب، بل لأنه أصل الإيمان المقبول عند الله عزوجل، وهو أساس النجاة من عذاب الله عز وجل، وبه يتميز

أهل الإيمان الحق من المنافقين الكاذبين.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في منزلة الصدق: « وهي منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين. وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران. وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه. مَنْ صال به لم ترد صولته، ومن نطق به عَلَتْ على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال، ومَحكّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة «النبوة» التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجنات: تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومَعين »[(١)] .

من الكلام السابق لابن القيم رحمه الله تعالى يتضح لنا أهمية الصدق وخطورة شأنه، ومدى الحاجة الماسة إلى معرفة حقيقته ومعناه؛ حتى تنصبغ قلوبنا وألسنتنا وجوارحنا به، فلا نكنّ في صدورنا إلا الصدق، ولا نقول إلا الصدق، ولا نعمل إلا الصدق، ويالها من مرتبة ما أعزها، وغاية ما أشرفها وأعظم أجرها، والناس فيها متفاوتون، وفي الوصول إليها متنافسون.

ولا يصل إلى تكميل هذه المنزلة إلا أولو العزائم القوية من أهل الإيمان والعلم والعمل الذين وفقهم الله عزوجل وأوصلهم إليها: ﴿ **وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ [فصلت: ٣٥].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن عظم منزلة الصدق وشدة

(١) مدارج السالكين (٢ / ٢٦٨).

حمله: « وأيضاً فحمل الصدق كحمل الجبال الرواسي، لا يطيقه إلا أصحاب العزائم، فهم يتقلبون تحته تقلب الحامل بحمله الثقيل. والرياء والكذب خفيف كالريشة لا يجد له صاحبه ثقلاً البتة. فهو حامل له في أي موضع اتفق، بلا تعب ولا مشقة ولا كلفة، فهو لا يتقلب تحت حمله ولا يجد ثقله »[1] اهـ.

أهمية الموضوع:

لقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة وآثار السلف في فضل الصدق وخطورة أمره وعلو شأنه.

ولقد اخترت في هذه الرسالة (**من رسائل الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم**) أن يكون عنوانها (**وكونوا مع الصادقين**)، وهي جزء من قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [التوبة: ١١٩] وذلك لأنطلق منها إلى هذا الموضوع المهم الذي يهم كل مسلم بصفة عامة، ويهم الدعاة إلى الله عزوجل بصفة خاصة، وبالذات في واقعنا المعاصر، وإن أهميته لتأتي من الأمور التالية:

الأمر الأول:

لأنه أساس الإيمان وركنه الركين، وأساس قبول الطاعات والقربات عند الله عزوجل، وعليه يترتب الأجر والثواب يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ **لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ** ﴾ [الأحزاب: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ **هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ [المائدة: ١١٩].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٧٦).

ولأنه أساس الطاعات وجماعها أصبحت الصفة الفارقة بين المؤمن والمنافق هي الصدق، يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

«الصدق أساس الحسنات وجماعها، والكذب أساس السيئات ونظامها، ويظهر ذلك من وجوه [منها]:

* أن الصدق والكذب هو المميز بين المؤمن والمنافق، ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»[1]، وفي حديث آخر «**على كل خلق يطبع المؤمن ليس الخيانة**»[2]. ووصف الله المنافقين في القرآن بالكذب في مواضع متعددة، ومعلوم أن المؤمنين هم أهل الجنة، وأن المنافقين هم أهل النار في الدرك الأسفل من النار.

* أن الصدق هو أصل البر، والكذب هو أصل الفجور كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتي يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**»[3].

* أن الصادق تنزل عليه الملائكة والكاذب تنزل عليه الشياطين، كما قال تعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢)**

(١) البخاري في الإيمان (٣٣) / فتح (١/ ١١١)، مسلم في الإيمان (٥٩) / (١/ ٧٨).
(٢) رواه الإمام أحمد (٥/ ٢٥٢) بنحوه، وضعفه الألباني/ السنة (١١٤).
(٣) البخاري في الأدب (٦٠٩٤)/ فتح (١٠/ ٥٢٣)، مسلم في البر والصلة (٢٦٠٧)/ (٤/ ٢٠١٣).

يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣] » اهـ. باختصار[١] .

الأمر الثاني :

إن الصدق في كل الأمور يوصل صاحبه إلى مرتبة الصديقية التي هي المرتبة التالية لمرتبة النبوة، وعندما نقول: «في كل الأمور» نريد بذلك عدم حصر الصدق في اللسان فقط، وإنما الصدق في النيات والأقوال والأعمال وتحري الصدق دائماً في ذلك كله. إن مجاهدة النفس على تحري الصدق في جميع الأمور يوصلها إلى هذه المرتبة العظيمة: «مرتبة الصديقية» كما جاء في الحديث السالف الذكر «... **وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً** »[٢] ، وهنيئاً لمن وصل إلى هذه المرتبة فيالها من رتبة ما أشرف قدرها وأعظم فضلها.

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في وصف أهل هذه الطبقة:

« (الطبقة الرابعة): ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم، وهم القائمون بما بعثوا به علماً وعملاً ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم. وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة، وهي مرتبة الصدّيقية، ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء فقال تعالى: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴾ [النساء: ٦٩]، فجعل درجة الصدّيقية معطوفة على درجة النبوة وهؤلاء هم الربانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول وأمته، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه، وهم المضمون

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٧٤ ـ ٧٧) باختصار وتصرف.

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك »[١] اهـ.

ثم يقول بعد ذلك رحمه الله تعالى: «والمقصود أن درجة الصديقية والربانية ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هي أفضل درجات الأمة، ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كل من علم بتعليمهم وإرشادهم أو علم غيره شيئاً من ذلك كان له مثل أجره مادام ذلك جارياً في الأمة على آباد الدهور.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال لعلي بن أبي طالب: «**والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**»[٢]، وصح عنه ﷺ أنه قال: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فعُمل بها بعده، كُتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء**»[٣]. وصح عنه ﷺ أيضاً أنه قال: «**إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[٤]، وصح عنه ﷺ أنه قال: « **من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»[٥].

وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: « ... **إن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى النملة في جحرها**»[٦]، وعنه ﷺ أنه قال: « **إن الله**

---

(١) طريق الهجرتين ص٦١٤ ط. الشئون الدينية ـ قطر.

(٢) البخاري في الجهاد (٢٩٤٢)/ فتح(٦/ ١٣٠)، مسلم في فضائل الصحابة(٢٤٠٦)/ (٤/ ١٨٧٢)، كلاهما بنحوه.

(٣) مسلم ك العلم (١٠١٧)/ (٤/ ٢٠٥٩).

(٤) مسلم ك الوصية (١٦٣١)/ (٣/ ١٢٥٥) بنحوه.

(٥) البخاري في العلم (٧١)/ فتح (١/ ١٩٧)، مسلم في الزكاة (١٠٣٧)/ (٢/ ٧١٨).

(٦) الترمذي ك العلم (تحت٢٦٨٣)/ (٧/ ٣٢٥)، وأخرجه أيضاً غيره، وهو جزء من حديث طويل صححه الألباني. والذي فيه: «الحيتان في الماء» بدلاً من: «النملة في جحرها».

وملائكته يصلون على معلم الناس الخير»[1]، وعنه ﷺ أنه قال: **«إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»**[2]، وعنه ﷺ: **«العالم والمتعلم شريكان في الأجر، ولا خير يى سائر الناس بعد»**[3]، وعنه ﷺ أنه قال: **«نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها»**[4]، والأحاديث في هذا كثيرة.

وقد ذكرنا مائتي دليل على فضل العلم وأهله في كتاب مفرد، فيالها من مرتبة ما أعلاها، ومنقبة ما أجلها وأسناها؛ أن يكون المرء في حياته مشغولاً ببعض أشغاله، أو في قبره قد صار أشلاء متمزقاً وأوصالاً متفرقة، وصحف حسناته متزايدة يملي فيها الحسنات كل وقت، وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا يحتسب.

تلك والله المكارم والغنائم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وعليه يحسد الحاسدون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم. وحقيق بمرتبة هذا شأنها أن تنفق نفائس الأنفاس عليها، ويسبق السابقون إليها، وتوفر عليها الأوقات وتتوجه نحوها الطلبات. فنسأل الله الذي بيده مفاتيح كل خير أن يفتح علينا خزائن رحمته، ويجعلنا من أهل هذه الصفة بمنه وكرمه.

---

(١) الترمذي ك العلم (٢٦٨٦)/ (٧/ ٣٢٧) بنحوه، وصححه الألباني.

(٢) هو جزء من الحديث المخرج قريبًا في الترمذي (تحت ٢٦٨٣) وطرفه: «من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا...».

(٣) رواه الطبراني بنحوه في الكبير (١٠٤٦١)، وفي الأوسط (٧٥٧١)، وضعفه الألباني في إرواء الغليل (٤١٤).

(٤) الترمذي بمعناه ك العلم (٢٦٦٠) / (٧/ ٣٠٧). وفي الباب أحاديث بمعناه عن جمع من الصحابة وهي مخرجة في السنن، وصححها الألباني.

وأصحاب هذه المرتبة يُدعون عظماءَ في ملكوت السماء كما قال بعض السلف: من علم وعمل وعلّم فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماء. وهؤلاء هم العدول حقاً بتعديل رسول الله ﷺ لهم، إذ يقول فيما يروى عنه من وجوه شد بعضها بعضاً: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**»[١] »[٢] اهـ.

الأمر الثالث:

ومما يؤكد أهمية الصدق تلك الثمرات العظيمة التي تحصل منه في الدنيا والآخرة من البركة والقبول والإصلاح في الدنيا، والأجر العظيم والثواب الجزيل في الآخرة. وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى في (ثمرات الصدق) في آخر البحث.

الأمر الرابع:

خطورة الكذب والنفاق وأثرهما على الفرد والمجتمع والأمة، وخاصة في مجتمعاتنا اليوم والتي كثر فيها الكذب والدجل والمداهنة، وقل الصدق فيها والصادقون. ولا أعلم ـ والعلم عند الله ـ عصراً ظهر فيه الكذب والنفاق بوسائله الماكرة المتطورة كما ظهر في عصرنا اليوم، حتى أصبح الكذب والمكر له مدارسه وأساليبه التي تعلم الناس كيف يكذبون، وكيف ينافقون، وكيف يدلسون .. إلخ.

ولا أبالغ إذا قلت: إن وسائل الإعلام اليوم ـ المقروء منها والمسموع

---

(١) الحديث أخرجه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (٥٤)، وابن عبد البر في التمهيد (١/ ٥٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٠٩).

(٢) طريق الهجرتين ص ٦١٩ ط. الشئون الدينية بقطر.

والمنظور ـ قد قامت في أغلب برامجها على الكذب وقلب الحقائق، وتسمية الأمور بغير مسمياتها.

وقد تجاوز الأمر حده حتى أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وظهر الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق، وأصبحنا نسمع من يقول عن المسلم الصادق الذي يتحرى الصدق بأنه ساذج وبسيط وسطحي.. إلخ، في الوقت الذي يوصف الكاذب والمنافق بأنه السياسي الحكيم المحنك.

إن مجتمعاً كهذا حري بالسقوط والدمار، ولا نجاة ولا فلاح إلا بالصدق، والأمة الصادقة مع ربها سبحانه ومع رسولها ﷺ ومع أبنائها لا تهزم أبداً.

الأمر الخامس:

ظهور بعض علامات ضعف الصدق في صفوفنا معشر الدعاة إلى الله عزوجل، وذلك بوجود بعض التصرفات والممارسات التي تتنافى مع الصدق في الدعوة إلى الله عزوجل والجهاد في سبيله؛ فقل الصادقون الربانيون الذين يصدقون في نياتهم وأقوالهم وأعمالهم ويضحون في سبيل الله عزوجل بكل ما يملكون لنيل مرضات الله عزوجل وجنته.

نعم إنه بمحاسبة عجلى لنفوسنا يتبين لنا هذا الضعف وأننا في أمس الحاجة إلى تقوية هذا الأمر، ونبذ كل ما يتنافى معه من صور الكذب والنفاق ووهن العزيمة وضعف الهمة. وإلا فما معنى وجود هذه الجهود الضخمة المبذولة اليوم في طريق الدعوة إلى الله عزوجل ثم لا نرى لها إلا

أثراً ضعيفاً لا يوازي تلك الجهود المبذولة .

الأمر السادس :

إن الصراع الذي نشاهده اليوم بين الحق والباطل، بين دعاة الشر والكفر ودعاة الخير والإصلاح؛ ليحتم على أهل الخير حرصهم الشديد على الصدق مع الله سبحانه واليقين بنصره وثوابه؛ حتى لا تزل الأقدام وتضعف العزائم إزاء هذا البلاء العظيم والمعركة الشرسة بين الحق والباطل. وهذه المواطن هي التي يتميز فيها الصادقون عمن سواهم، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣]، وكذلك أيام الفتن لا يثبت فيها إلا الصادقون العالمون العاملون، وهم الذين يشرفهم الله عزوجل بنصره، ويمكن لهم في الأرض، ويجعلهم أئمة، ويجعلهم الوارثين.

* * *

حقيقة الصدق ومعناه

تعريف الصدق:

قال في لسان العرب (باختصار):

«الصدق: نقيض الكذب. صَدَق يَصْدُق صَدقاً وصدقاً وتصداقاً. وصَدَّقه: قبل قوله، وصَدَقهُ الحديث: أنبأه بالصدق. ويقال: صدقت القوم أي قلت لهم صدقاً. والمصدِّق: الذي يصدقك في حديثك. ورجل صِدق وامرأة صِدق: وُصفا بالمصدر.

والصدِّيق: الدائم التصديق، ويكون الذي يصدق قوله بالعمل، وفي التنزيل ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] أي مبالغة في الصدق والتصديق. وهذا مصداق هذا: أي ما يصدقه. ورجل ذو مَصدق بالفتح: أي صادق الحملة، يقال ذلك للشجاع والفرس الجواد، وصادق الجري. ومصداق الأمر: حقيقته» اهـ. لسان العرب.

وقال الراغب: «أصل الصدق والكذب في القول ماضياً كان أو مستقبلاً وعداً كان أو غيره، ولا يكونان بالقصد الأول إلا في الخبر، وقد يكونان في غيره كالاستفهام والطلب. والصدق: مطابقة القول الضمير، والمخبر عنه، فإن انخرم شرط لم يكن صدقاً، بل إما أن يكون كذباً أو متردداً بينهما على اعتبارين، كقول المنافق: «محمد رسول الله» فإنه يصح أن يقال: «صدق» لكون المخبر عنه كذلك، ويصح أن يقال: «كذب» لمخالفة

قوله ضميرَه، والصدِّيق من كثر منه الصدق، وقد يستعمل الصدق والكذب في كل ما يحق ويحصل في الاعتقاد نحو: صدق ظني، وفي الفعل نحو: صدق في القتال ومنه« قد صدَّقت الرؤيا » »[١] اهـ (ملخصاً).

من هذه التعريفات السابقة للصدق يتضح لنا معنى الصدق اللغوي، وأنه نقيض الكذب، وهو مطابقة القول للعمل، ومن هذا التعريف استمدت حقيقة الصدق الواردة في كتاب الله عزوجل وأحاديث الرسول ﷺ وأقوال العلماء، وذلك فيما يلي:

حقيقة الصدق:

إن حقيقة الصدق أوسع من كونها الصدق في الحديث فقط، وإنما حقيقة الصدق شاملة لصدق النية والعزيمة وصدق اللسان وصدق الأعمال كما سيتبين بتفصيل ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ في (مراتب الصدق).

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (ومما ينبغي أن يعرف أن الصدق والتصديق يكون في الأقوال وفي الأعمال كقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**كتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة؛ فالعينان تزنيان وزناهما النظر، والأذنان تزنيان وزناهما السمع، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**»[٢].

ويقال: حملوا على العدو حملة صادقة؛ إذا كانت إرادتهم للقتال ثابتة

---

(١) مفردات الراغب ص٤٠٩.

(٢) البخاري بنحوه ك الاستئذان (٦٢٤٣)/ فتح(١١/ ٢٨)، مسلم بنحوه أيضاً ك القدر (٢٦٥٧)/ (٤/ ٢٠٤٦).

جـازمـة، ويقـال: فـلان صـادق الحب والمودة ونحـو ذلك. ولهـذا يريدون بالصـادق؛ الصـادق في إرادته وقـصـده وطلبـه، وهو الصـادق في عـمله، ويريدون الصـادق في خبـره وكلامه، والمنافق ضد المؤمن الصـادق، وهو الذي يكون كاذباً في خبره أو كاذباً في عمله كالمرائي في عمله. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ. . . الآية ﴾ [النساء: ١٤٢] »[1] اهـ.

ويفصل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى القول في هذا المعنى فيقول:

« والإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب، فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

وأخبر سبحانه: أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه، قال تعالى: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣]، فالذي جاء بالصدق: هو مَنْ شأنُهُ الصدقُ في قوله وعمله وحاله. فالصدق: في هذه الثلاثة.

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السنبلة على ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤).

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة.

فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق. وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به: تكون صديقيته. ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه: ذروة سنام الصدّيقية. سُمي «الصديق» على الإطلاق، و«الصديق» أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق.

فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقية. وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ، مع كمال الإخلاص للمرسِل»[1].

الفرق بين الصدق والإخلاص:

«الصدق والإخلاص عملان قلبيان من أعظم أعمال القلوب وأهم أصول الإيمان. فأما الصدق فهو الفرقان بين الإيمان والنفاق، وأما الإخلاص فهو الفرقان بين التوحيد والشرك ـ في قول القلب واعتقاده أو في إرادته ونيته. والأعمال ـ التي رأسها وأعظمها «شهادة أن لا إله إلا الله» ـ لا تقبل إلا بتحقق الصدق والإخلاص.

ومن هنا كانا شرطين من شروطها، وأكذب الله المنافقين في دعوى الإيمان، وقول الشهادة لانتفاء الصدق فقال تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾ [المنافقون: ١]، وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ [العنكبوت: ٣].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٦٩).

كما أبطل سبحانه زعْم أهل الكتاب والمشركين أن دينهم هو الحق بانتفاء الإخلاص فقال: ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ** ﴾ [البينة: ١] ، إلى أن يقول: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ . [البينة: ٥]

والصدق والإخلاص مع تقاربهما ومع ترادفهما أحياناً يعرف التمييز بينهما بضد كل منهما: فالصدق ضده انتفاء إرادة الله بالعمل أصلاً كمن آمن أو صلى كاذباً ولم يرد الإيمان والصلاة وإنما فعل ذلك لسبب آخر، كما فعله المنافقون حفظاً لأنفسهم وأموالهم من السيف، وجبناً عن تحمل أعباء المواجهة الصريحة للإيمان.

والإخلاص ضده انتفاء إفراد الله بالإرادة والتوجه كمن آمن أو صلى صارفاً ذلك لأحد مع الله، وهذا هو الشرك الذي وقع فيه أكثر العالمين ومنهم أهل الكتاب والمشركون الذين اتخذوا من دون الله أولياء من الأنبياء أو غيرهم وعبدوهم زاعمين أنهم يقربونهم إلى الله زلفى. ومما يميز بينهما أن الصدق لا يختص بالاعتقاد بل يكون في الأعمال أيضاً بخلاف الإخلاص فإنه عمل قلبي محض لكن تظهر آثاره على الجوارح، وعلى قدر تحقيق العبد لشعب الإيمان وأعماله يكون حظه من الصدق حتى يصل إلى درجة «الصديقية»، وعلى قدر ما يحقق العبد الإخلاص لربه يكون ترقيه في «المخلصين» الذين صرف الله عنهم غواية الشيطان وأثنى عليهم في كل أمة »[١] اهـ.

---

(١) ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ص٤٣٨. (رسالة جامعية).

مجالات الصدق كما يجب

مما سبق يتبين لنا أن حقيقة الصدق تشمل :

١ـ صدق النية :

بأن تكون خالصة لله عزوجل وابتغاء مرضاته، وأن لا يكون هناك باعث في الحركات والسكنات إلا لله عزوجل، فإن شاب النية شيء من حظوظها لم تكن صادقة، وإن تكلم العبد بلسانه خلاف ما في قلبه فهذا أيضاً دليل على عدم الصدق في النية. والأدلة في ذلك كثيرة منها قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿ **يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾ [الفتح: ١١]، وقال تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

والأحاديث في ذلك كثيرة أشهرها حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة[١].

ومن الصدق في النية: الصدق في العزيمة على الفعل إذا تمكن منه؛ لأن النية قد تكون صادقة لكن العزيمة على الفعل ضعيفة وصاحبها متردد، وقد تكون العزيمة صادقة لكن إذا جد الجد وعزم الأمر وهاجت الشهوات خارت وضعفت في بدايته ولم يحصل الوفاء بالعزيمة، وقد لا تضعف في البداية

(١) انظر الحديث بطوله في صحيح مسلم ـ كتاب الإمارة (١٩٠٥) / (٣/ ١٥١٣).

لكن إذا باشرت الفعل وذاقت مرارته ضعفت ونكلت، والموفق من وفقه الله تعالى وأمده بعونه ورحمته ولو وكل العبد إلى نفسه ضاع وهلك.. فياحي يا قيوم برحمتك نستغيث، أصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً...

وقد ذكر صاحب الإحياء كلاماً جيداً حول هذه المسألة ننقله باختصار حيث يقول:

« فإن الإنسان قد يقدّم العزم على العمل فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالاً تصدّقت بجميعه ـ أو بشطره، أو إن لقيت عدوّاً في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق. فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق هاهنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال: لفلان شهوة صادقة. ويقال: هذا المريض شهوته كاذبة، إذا لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي أو كانت ضعيفة، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى.

والصادق والصديق هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوّة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد: بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات.

وأما الصدق في الوفاء بالعزم، فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء

بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فقد روي عن أنس: أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، أما والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع! قال: فشهد أحداً في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ فقال: واهاً لريح الجنة! إني أجد ريحها دون أحد. فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة، فقالت أخته بنت النضر: ما عرفت أخي إلا ببنانه(١)، فنزلت هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾»(٢) اهـ.

ونختم الحديث عن صدق النوايا والعزائم بما قصه الله سبحانه علينا في كتابه الكريم عن الملأ من بني إسرائيل الذين جاءوا من بعد موسى عليه السلام، وطلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، وفي هذه القصة من العبر والدروس خير شاهد على ما سبق الحديث عنه من صدق العزائم وضعفها، وأن أصحاب العزائم الصادقة مع الله عزوجل هم الذين يثبتون إذا عزم الأمر وهم الذين ينصر الله بهم دينه ويدفع بهم الفساد عن الأرض ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم.

يقول الله تعالى في معرض قصة هؤلاء الملأ مع قائدهم طالوت وما جرى لهم من الاختبار الذي تنكشف به العزائم:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن

---

(١) مسلم ك الإمارة (١٩٠٣) / (٣/ ١٥١٢).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٥٩٦).

شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في ظلال هذه الآيات: « قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾

هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل. . إنه مقدم على معركة؛ ومعه جيش من أمة مغلوبة، عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة. وهو يواجه جيش أمة غالبة فلابد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة. هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة. الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلي على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء.

فلابد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه، وصموده وصبره: صموده أولاً للرغبات والشهوات، وصبره ثانياً على الحرمان والمتاعب. . واختار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات: عطاش؛ ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه، ويؤثر العافية. . وصحت فراسته:

﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾

شربوا وارتووا. فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده،

تبل الظمأ ولكنها لا تشي بالرغبة في التخلف! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم. انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم. وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف، لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة. والجيوش ليست بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الجازمة، والإيمان الثابت المستقيم على الطريق.

ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفي؛ ولابد من التجربة العملية، ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها. ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذي لم يهزه تخلف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى.. بل مضى في طريقه.

وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت ـ إلى حد ـ ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد:

﴿ **فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ** ﴾

لقد صاروا قلة. وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته: بقيادة جالوت. إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم. ولكنهم هنا أمام الواقع الذي يرونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهته. إنها التجربة الحاسمة. تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور. وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم، فاتصلت بالله قلوبهم؛ وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع إيمانهم، غير الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم!

وهنا برزت الفئة المؤمنة. الفئة القليلة المختارة. والفئة ذات الموازين الربانية:

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

هكذا.. «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة».. بهذا التكثير. فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقو الله. القاعدة: أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار. ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى؛ ولأنها تمثل القوة الغالبة. قوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، محطم الجبارين، ومخزي الظالمين، وقاهر المتكبرين.

وهم يكلون هذا النصر لله: «بإذن الله».. ويعللونه بعلته الحقيقية: «والله مع الصابرين».. فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل..

ونمضي مع القصة. فإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله، التي تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء، وتستمد قوتها كلها من إذن الله، وتستمد يقينها كله من الثقة في الله، وأنه مع الصابرين.. إذا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة، الثابتة، التي لم تزلزلها كثرة العدو وقوته، مع ضعفها وقلتها.. إذا هذه الفئة هي التي تقرر مصير المعركة. بعد أن تجدد عهدها مع الله، وتتجه بقلوبها إليه، وتطلب النصر منه وحده، وهي تواجه الهول الرعيب»[1] اهـ.

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢٦٨، ٢٦٩).

ويعلق القرطبي رحمه الله تعالى على هذه القصة بقوله: « قوله تعالى: ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً** ﴾ الفئة: الجماعة من الناس والقطعة منهم؛ من فأوْتُ رأسه بالسيف وفأيته أي قطعته. وفي قولهم رضي الله عنهم: ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ** . . . الآية ﴾، تحريضٌ على القتال واستشعارٌ للصبر واقتداءٌ بمن صدّق ربه.

قلت: هكذا يجب علينا نحن أن نفعل، لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدّام اليسير من العدوّ كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا! وفي البخاري: وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم. وفيه مُسْند أن النبي ﷺ قال: « **هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم** »[1].

فالأعمال فاسدة والضعفاء مُهْمَلون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلة! قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال: ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا** ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾[النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ** ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الأنفال: ٤٥].

فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحلَّ بنا! بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدِّين إلا رسْمُه لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد

(١) رواه البخاري ك الجهاد (٢٨٩٦) / (٦/ ١٠٤) بنحوه.

حتى استولى العدو شرقاً وغرباً براً وبحراً، وعَمّت الفتن وعظُمت المحَن ولا عاصم إلا من رحِم»[١] . اهـ.

من خلال القصة السابقة يتبين دور العلماء الربانيين العالمين أن وعد الله حق والعاملين الصابرين الصادقين في نياتهم وعزائمهم، وأنهم هم الذين يثبتون في الشدائد والمحن وهم الذين ينزل عليهم نصر الله وتأييده.

٢ـ الصدق في الأقوال :

«وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو ما يتضمن الإخبار وينبه عليه، والخبر إما أن يتعلق بالماضي فلا يخبر عن الأشياء على خلاف ما هي عليه، أو بالمستقبل كالوفاء بالوعد والعهد»[٢] .

وهذه المرتبة من الصدق هي التي يحصر كثير من الناس الصدق فيها ولا يتجاوزونها إلى غيرها، ولاشك أنها مرتبة عظيمة وتكميلها من أعز الأمور وأشقها على النفس، ولكنها يسيرة على من يسرها الله عليه وجاهد نفسه في تحقيقها. والصدق في الأقوال له صور عديدة منها :

أ ـ الصدق في نقل الأخبار :

فلا ينقل المسلم إلا الأخبار الصادقة وهذا بدوره يتطلب من الناقل التثبت فيما يقال واجتناب الظنون والأوهام والحذر من التحدث بكل ما يسمع. فمن حفظ لسانه من الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق في خبره، وهذا يقتضي الابتعاد عن الظنون والإشاعات، قال ﷺ :

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٢٥٥).
(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٥٥٣).

«**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»[١]، وقال ﷺ : «**كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع**»[٢] .

ب ـ الصدق في الوعد والوفاء به :

لأن إعطاء الوعد غالباً ما يكون بالقول فالوفاء بالوعد من الصدق في الأقوال وإخلافه يعد كذباً، إلا إذا كانت النية عند إعطاء الوعد صادقة ثم حال بينه وبين تنفيذ الوعد أمر خارج عن إرادته فإن هذا لا يعد إخلافاً للوعد وبالتالي لا يعتبر كذباً.

والوعد قد يكون على مكان معين أو في زمن معين أو على أعطية أو زواج أو أي أمر آخر يعد به الرجل أخاه؛ فإن الإخلاف في هذه الأمور وأمثالها بدون مبرر شرعي يعتبر كذباً؛ يقول تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا** ﴾ [مريم: ٥٤] .

جـ ـ الوفاء بالعقود والعهود :

وهذا أيضاً من الصدق في الأقوال. فإخلاف العهد والغدر فيه من أشد أنواع الكذب، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** ﴾ [المائدة: ١] ، وقال تعالى: ﴿ **وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا** ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

ومن الوفاء بالعهود حفظ الأسرار وكتمانها. ولعل قوله ﷺ في التحذير من صفات المنافقين خير شاهد لما سبق ذكره؛ يقول ﷺ : «**أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من نفاق: إذا**

---

(١) رواه البخاري ك الأدب (٦٠٦٦)/ فتح (١٠/ ٤٩٩)، ومسلم ك البر والصلة (٢٥٦٣) / (٤/ ١٩٨٥).

(٢) رواه مسلم في المقدمة(٥) / (١/ ١٠).

حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر »[١] .

وقال ﷺ : « لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب امرئ، ولا يجتمع الكذب والصدق جميعاً، ولا تجتمع الخيانة والأمانة جميعاً »[٢] .

❋ ❋ ❋

(١) البخاري ك الإيمان (٣٤)/ فتح (١/ ١١١)، ومسلم ك الإيمان (٥٨)/ (١/ ٧٨) واللفظ له .
(٢) أحمد (٢/ ٣٤٩).

الصدق المذموم

وهنا مسألة تتعلق بالصدق في الأقوال ألا وهي: الأحوال التي يجوز فيها الكذب بل يجب أحياناً، ويكره عندها الصدق أو يحرم.

إن هذه المسألة تتعلق بتعارض المصالح والمفاسد؛ فالصدق ممدوح وواجب في أحوال وشئون المسلم كلها إلا أن يترتب على قول الصدق مفاسد متحققة على أحد المقاصد التي جاءت الشريعة للمحافظة عليها (الدين، النفس، العقل، النسل، العرض، المال)، ففي هذه الحالة يقوم الصدق مقام الكذب في القبح والمعرة أو يزيد. ومن ذلك مايلي:

١ ـ الغيبة :

فإن الكلام في أعراض الناس ولو كان بصدق محرم ومذموم كما جاءت الأحاديث بذلك.

٢ ـ النميمة :

والسعاية ولو كان بشيء واقع صادق، والأحاديث في تحريم النميمة معروفة ومشهورة.

٣ ـ في التأليف بين الزوجين والإصلاح بين الناس:

فإذا كان نقل الصدق سيترتب عليه إيغار الصدور وإثارة الشحناء فلا يجوز الصدق في ذلك بل يجوز الكذب تأليفاً للقلوب.

٤ ـ في الحروب مع الكفار والمكايدة لأعداء الدين :

فلا يجوز الإخبار بالصدق إذا كان سيترتب عليه مفاسد على الدين أو على المسلمين وديارهم فهنا يتعين الكذب .

عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « **يا أيها الناس ، ما يحملكم على أن تتابعوا على الكذب كتتابع الفراش على النار . الكذب كله على ابن آدم إلا في ثلاث خصال : رجل كذب امرأته ليرضيها ، ورجل كذب في الحرب فإن الحرب خدعة ، ورجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما** »[1] .

وذكر صاحب قواعد الأحكام العز بن عبد السلام مسائل في هذا الباب فقال : « المثال الرابع والأربعون : الكذب مفسدة محرمة إلا أن يكون فيه جلب مصلحة أو درء مفسدة فيجوز تارة ويجب أخرى وله أمثلة :

أحدها : أن يكذب لزوجته لإصلاحها وحسن عشرتها فيجوز ؛ لأن قبح الكذب الذي لا يضر ولا ينفع يسير ، فإذا تضمن مصلحة تربي على قبحه أبيح الإقدام عليه تحصيلاً لتلك المصلحة ، وكذلك الكذب للإصلاح بين الناس وهو أولى بالجواز لعموم مصلحته .

الثاني : أن يختبئ عنده معصوم من ظالم يريد قطع يده فيسأله عنه فيقول : ما رأيته ، فهذا الكذب أفضل من الصدق ، لوجوبه من جهة أن مصلحة حفظ العضو أعظم من مصلحة الصدق الذي لا يضر ولا ينفع ، فما الظن بالصدق الضار؟ وأولى من ذلك إذا اختبأ عنده معصوم ممن يريد قتله .

الثالث : أن يسأل الظالمُ القاصد لأخذ الوديعة المستودعَ عن الوديعة

---

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٤٠) .

فيجب عليه أن ينكرها، لأن حفظ الودائع واجب وإنكارها هاهنا حفظ لها ولو أخبره بها لضمنها، وإنكارها إحسان.

الرابع: أن تختبئ عنده امرأة أو غلام يُقصدان بالفاحشة فيسأله القاصد عنهما فيجب عليه أن ينكرهما.

الخامس: أن يُكره على الشرك الذي هو أقبح الكذب أو على نوع من أنواع الكفر فيجوز له أن يتلفظ به حفظاً لنفسه؛ لأن مفسدة لفظ الشرك من غير اعتقاد دون مفسدة فوات الأرواح.

والتحقيق في هذه الصور وأمثالها أن الكذب يصير مأذوناً فيه ويثاب على المصلحة التي تضمنها على قدر رتبة تلك المصلحة من الوجوب في حفظ الأموال والأبضاع والأرواح، ولو صدق في هذه المواطن لأثم إثم المتسبب إلى تحقيق هذه المفاسد، وتتفاوت الرتب له ثم التسبب إلى المفاسد بتفاوت رتب تلك المفاسد.

المثال الخامس والأربعون من ترجيح المصالح على المفاسد: الغيبة مفسدة محرمة لكنها جائزة إذا تضمنت مصلحة واجبة التحصيل أو جائزة التحصيل؛ ولها أحوال:

أحدها: أن يشاور في مصاهرة إنسان فذكره بما يكره، كما قال ﷺ لفاطمة بنت قيس لما خطبها أبو جهم ومعاوية: « **إن أبا جهم ضراب للنساء، وإن معاوية صعلوك لا مال له**»[1]؛ فذكرهما بما يكرهانه نصحاً لها ودفعاً لضيق عيشها مع معاوية وتعريضاً لضرب أبي الجهم، فهذا جائز. والذي

---

(١) متفق عليه.

يظهر لي أنه واجب لأمر رسول الله ﷺ بالنصح لكل مسلم»[1] اهـ .

وقد ذكر صاحب الإحياء صورة مهمة لا يكمل الصدق في الأقوال إلا بها، ألا وهي الصدق مع الله سبحانه فيما يناجي به العبد ربه من الألفاظ فيقول: «يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله تعالى: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [الأنعام: ٧٩] ، فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بأماني الدنيا وشهواتها فهو كذب. وكقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقوله: أنا عبد الله، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقاً، ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله: أنا عبد الله، لعجز [عن] تحقيقه، فإنه إن كان عبداً لنفسه أو عبداً لدنيا أو عبداً لشهواته لم يكن صادقاً في قوله. وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام: يا عبيد الدنيا! وقال نبينا ﷺ: « **تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، وعبد الحلة وعبد الخميصة** »[2] ، فسمى كل من تقيد قلبه بشيء عبداً له.

وإنما العبد الحق ـ لله عزوجل ـ من أعتق أوّلاً من غير الله تعالى فصار حراً مطلقاً، فإذا تقدّمت هذه الحرّية صار القلب فارغاً فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى»[3] اهـ.

---

(١) قواعد الأحكام ص ٩٦ ، ٩٧ للعز بن عبد السلام.

(٢) البخاري بنحوه ك الجهاد (٢٨٨٧)/ فتح (٦/ ٩٥).

(٣) الإحياء (٤/ ٥٩٤).

٣- الصدق في الأعمال:

وهو استواء الأفعال على الأمر والمتابعة. وأن يجاهد العبد نفسه في أن تكون سريرته وعلانيته واحدة، وأن لاتدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف به حقيقة، كمن يتظاهر بالخشوع في الظاهر والقلب ليس كذلك، أو يتظاهر بالحرقة على الدين والغيرة على المحارم وهو في الباطن ليس كذلك. والصور كثيرة جداً منها صور الرياء المختلفة، والقول باللسان ما ليس في القلب. وهذا لا يعني أن يترك المرء الأعمال الصالحة حتى يصلح باطنه، كلا، ولكن يجاهد نفسه في أن يستجرَّ باطنه إلى تصديق ظاهره.

يقول صاحب الإحياء: «إن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص، وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق، وقال يزيد بن الحارث: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور. وقال معاوية بن قرة: من يدلني على بكَّاء في الليل بسَّام في النهار»[1] اهـ.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في شرحه لخطاب عمر رضي الله عنه المشهور في إعلام الموقعين:

«وأما قوله: «ومن تزين بما ليس فيه شانه الله» لما كان المتزين بما ليس فيه ضد المخلص - فإنه يظهر للناس أمراً وهو في الباطن بخلافه - عامله الله بنقيض قصده، فإن المعاقبة بنقيض القصد ثابتة شرعاً وقدراً، ولما كان المخلص يُعَجَّل له من ثواب إخلاصه الحلاوة والمحبة والمهابة في قلوب الناس

---

(١) الإحياء (٤/ ٥٩٨).

عجَّل للمتزين بما ليس فيه من عقوبته أن شانهُ الله بين الناس، لأنه شان باطنه عند الله، وهذا موجب أسماء الرب الحسنى وصفاته العليا وحكمته في قضائه وشرعه.

هذا، ولما كان من تزين للناس بما ليس فيه من الخشوع والدين والنسُك والعلم وغير ذلك قد نصَب نفسَه للوازم هذه الأشياء ومقتضياتها فلابد أنَ تطلب منه، فإذ لم توجد عنده افتضح، فيشينه ذلك من حيث ظن أنه يزينه، وأيضاً فإنه أخفى عن الناس ما أظهر لله خلافه، فأظهر الله من عيوبه للناس ما أخفاه عنهم، جزاءً له من جنس عمله، وكان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشوع النفاق، قالوا: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب غير خاشع، وأساس النفاقِ وأصله هو التزين للناس بما ليس في الباطن»[1] اهـ.

ومن الصدق في الأعمال:

حفظ الأمانة بمفهومها الواسع في الأموال والأولاد والودائع والأعراض وجميع الأوامر والنواهي.. إلخ، كل هذا إذا صاحبه الإخلاص والتجرد لله عزوجل والمتابعة لرسوله ﷺ، فصاحب العمل من الصادقين الأبرار، ويدخل في ذلك الوفاء بجميع المعاملات مع الناس في البيع والشراء وتجنب الغش وحب الخير لهم... إلخ. كل هذا من الصدق في الأعمال. قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**﴾ [المؤمنون: ٨].

٤ـ الصدق في مقامات الدين:

قال صاحب الإحياء في هذه المرتبة:

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٨٠).

«وهو أعلى الدرجات وأعزها؛ الصدقُ في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور. فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سُمي صاحبه صادقاً فيه، كما يقال: فلان صادق القتال. ويقال: هذا هو الخوف الصادق، وهذه هي الشهوة الصادقة.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

وسئل أبو ذرّ عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقيل له: سألناك عن الإيمان؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ عن الإيمان فقرأ هذه الآية(١).

ولنضرب للخوف مثلاً: فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، ولكنه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة، أما تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره، حتى لا ينتفع به أهله وولده، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة، وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار، كل ذلك خوفاً من درك المحذور. ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند

(١) قال محقق الإحياء: رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة.

جريان معصية عليه، ولذلك قال ﷺ: « **لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها** »[١] . فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوي سمي صادقاً فيه »[٢] اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) الترمذي بنحوه ك (صفة جهنم) (٢٦٠٤)/ (٧/ ٢٦٤).

(٢) الإحياء (٤/ ٥٩٨).

ذكر بعض الآيات الواردة في معنى الصدق وفضله

الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

يقول الإمام ابن كثير عن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾: «أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا. وأولئك هم المتقون؛ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات»[١] اهـ.

ويقول القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾: «وصفهم بالصدق والتقوى في أمورهم والوفاء بها، وأنهم كانوا جادين في الدين، وهذا غاية الثناء. والصدق خلاف الكذب. ويقال: صدقوهم القتال. والصديق: الملازم للصدق»[٢] اهـ.

وقد ذكر الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله عند تفسير هذه الآية

(١) تفسير ابن كثير آية ١٧٧ سورة البقرة.

(٢) تفسير القرطبي آية ١٧٧ سورة البقرة.

كلاماً طويلاً ومفيداً أنصح بالرجوع إليه في كتابه القيم «صفوة الآثار والمفاهيم». وأكتفي بما عقب به بعد تفسير هذه الآية الكريمة حيث يقول رحمه الله:

« فهذه الآية الكريمة ـ آية البر ـ جمعت بين الدين والسياسة في بدايتها ونهايتها، إذ اشتملت على أصول العقيدة وتكاليف النفس والمال، وركزت حقيقة منهج الله في الحياة، فقد ابتدأها الله بالسياسة العالمية وختمها بها: فأولها قوله: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾.

وقد أوضحنا حقيقة الإيمان بالله وأنه يستلزم عبادته الصحيحة المرضية له، وعبادته مبنية على الحب والتعظيم، ومحبته لا تتحقق إلا بمحبة ما يحبه، والسعي لها يعني السعي لمحبوباته، وبغض ما يبغضه وعداوته والابتعاد عنه، وأن لا يوالي أحداً من أعدائه أو يسر إليهم بالمودة مهما كانت حالهم أو قرابتهم، ولا يعادي أحداً من أحباب الله لأي غرض نفسي أو طريقة سياسية، بل ولا يتخلى عن أهل الله الذين هم أهل ملته، وإن ابتلوا بحكام يحيدون عن سبيل الله، فليعامل الشعوب معاملة دينية مرضية لله.

فعبادة الله التي هي نتيجة الإيمان ليست مقصورة على إقامة شيء من الشعائر الدينية أو جميعها، بل هي شاملة لجميع نظام الحياة، لا يستقيم حب الله وتعظيمه إلا برعايتها حق الرعاية. فتعظيم الله لا يتحقق إلا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه في كل ناحية من شؤون الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ولا يحصل الإخلال بذلك إلا ممن ضعف إيمانه لنقص حبه لله وتعظيمه، أو من جاهل لا يعرف معنى عبادة الله، بل تسيره شياطين الجن والإنس، وتعصف بعقله أهازيج الدجاجلة.

ومن اعتقد قصر عبادة الله أو حصرها على الشعائر التعبدية فقط كما يريده العصريون من قصر الدين على المساجد ونحوها، فهذا من أجهل الناس باللغة العربية، فضلاً عن المدلولات الشرعية، ومن أجهل الناس بمعاني الألوهية وحقيقة الإيمان بها، فيكون جميع الكفار من أقوام الرسل الذين أولهم نوح وآخرهم محمد ﷺ أعلم منه بمعنى دعوتهم: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٢].

ومن لوازم الإيمان بالله جعل الحاكمية لله وحده، فلا يحتكم إلى غير شريعته، لا في الأمور السياسية ولا الاقتصادية ولا الاجتماعية، لأن من احتكم إلى غير الله في شيء من هذه الشؤون كان رافضاً لألوهية الله أو ملحداً في أسمائه، كالذي يزعم التطور فيبيح ما أحل الله أو يحرم ما أباحه بهذا المزعم الخبيث، أو يسقط حدود الله باسم الإنسانية، زاعماً أن حدود الله قاسية لا تناسب العصر.

فهذا وذاك قد ألحدوا في أسمائه، فلم يعتبروه عليماً ولا خبيراً ولا محيطاً ولا حكيماً ولا رحماناً ولا رحيماً. وكذلك من يزعم أن سمة العصر أو متطلباته لا يناسبها دين الله ولا شرعه، وأنهما لا يصلحان للعصر الصناعي المتطور في العلم والحضارة.

وكذلك من يجعل لنفسه الخيرة في سلوك ما يشاؤه من أنواع الحكم والعلاقات الداخلية والخارجية، فإن هذا منازع لله في سلطانه، بعيد عن الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، فهكذا ابتدأ الله الآية بما هو من لباب السياسة التي يوجب على عباده سلوكها في الحياة إيجاباً قطعياً لا يجوز لهم تخطيه، فلا يكون لهم قصد ولا غاية سواه، ولا يكون لهم

نقطة ارتكاز يتجمعون حولها سوى دين الله، فهو المبدأ الذي يتجمعون عليه، ويقاتلون من أجله، ويعيشون من أجله، ويموتون في سبيله، ويتجمع حولهم الوجود كله إذا أخلصوا المقاصد وأصلحوا الأعمال، وأنه لا يجوز أن يكون لهم هدف سوى دين الله وطاعته، فلم يخلقهم الله سدى وهملاً، يعملون ما يريدون، وأن من خرج عن هذا فليس من الإيمان في شيء وسياسته سياسة شيطانية، يتعثر بها، ويشقى بها تابعوه.

ثم ثنى الله في هذه الآية بتكاليف النفس والمال من إيتاء المال حالة حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المفروضة زيادة على ذلك، كما أوضحناه سابقاً.

فإن الجمع بين إيتاء الزكاة وبين دفع المال على حبه لتلك الجهات، مما يحقق الإنسانية ويضمن كرامتها ويرفعها عن البؤس، ويحفظها من شرور الحقد.

وإقامة الصلاة في الإسلام مظهر لنشاط الإنسان في قواه الثلاثة: جسمه وعقله وروحه، بتوجهها إلى الله جميعاً في ترابط واتحاد، فقيامه وقعوده وركوعه وسجوده تحقيق لنشاط الجسد، وتكبيراته بتفهم، وقراءته بتدبر وتفكير في معانيها ومبانيها، يتحقق به نشاط العقل، وتوجهه واستسلامه لله يتحقق به نشاط الروح كلها في وقت واحد، ففيها تعريف للمصلي بفكرة الإسلام كلها عن الحياة واتجاهها بجميع طاقاتها لله وحده في كل الشؤون.

ثم ختم الله الآية أيضاً بالسياسة العالمية المتضمنة للوفاء الصحيح بالعهد الذي لا يراه أهل الجاهلية قديماً ولا حديثاً ولا يتمسكون به إلا وفق أهوائهم ومصالحهم، وقد كرره القرآن كما أسلفنا وجعله من الإيمان، لأنه يحصل به

إيجاد جو من الثقة والطمأنينة في علاقات الأفراد والجماعات والدول والأمم.

ثم الصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وهو من صميم السياسة الإنسانية في الجهاد النفسي الداخلي والجهاد الخارجي، وفيه تربية وإعداد للنفوس، كي لا تذهب حسرات مع أي فاجعة ولا تنهار جزعاً في أي نازلة، بل تثابر على الصبر والمصابرة، ثقة بالله وانتظاراً لفرجه، حتى يحصل انجلاء الغمة ويتبدل العسر إلى يسر بإذن الله ورحمته وفضله، وبذلك قوة ورباطة جأش للنفوس وسلامة من الهزيمة الحسية أو المعنوية.

فيالها من آية جمعت أصول الحياة الطيبة السعيدة، وجعلتها كلها جزءاً لا يتجزأ، ووحدة لا تنفصم عراها، وطبعتها بعنوان واحد هو (البر).

ولا شك أن هذه الآية خلاصة لمبادئ الإسلام الضرورية التي لا غنى للمسلمين عنها في دينهم ودنياهم والتي يتحقق بتطبيقها صدقهم مع الله وتقواهم له، ولذلك ختمها الله بقوله: : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ يعني صدقوا مع الله ومع خلقه في مطابقة أفعالهم لأقوالهم وفي الترجمة عما في قلوبهم من الإيمان أو مايزعمونه من دعوى الإيمان، فإن الإيمان ليس بالدعاوى بل بالأعمال التي تبرهن عما في القلب، وهم المتقون الذين أخذوا لأنفسهم وقاية من الله بامتثال أوامره.

فالمتقون هم الذين اتقوا مساخط الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وأخذوا لأنفسهم وقاية من عذابه. وفي إتيان الله بضمير الفصل بقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ حصر للصدق والتقوى على أهل هذه الأوصاف. كما أن تكرير الله لهذه الواوات في الأوصاف بهذه الآية لاعتبار الجمع. فمن

شرائط البر وتمامها أن تجتمع هذه الأوصاف في المؤمن البار ليكون من الصادقين المتقين؛ ومن أتى ببعضها دون بعض لم يستحق هذا المقام إلا عند استجماعها، فلا يظن الإنسان أنه إذا صبر حين البأس أو في الضراء والبأساء يكون منهم، ولا المقتصر على الإنفاق أو على مجرد الإيمان أو مجرد الوفاء بعهد المخلوقين السياسي؛ فإنه لا يكون منهم، ولكن الموفي بعهد الله الكلي في معاملته لله معاملة المحب لحبيبه في جميع شؤون الحياة بتطبيق جميع أوامر الشريعة وتنفيذ جميع شعب الإيمان التي منها مضمون هذه الآية، فهذا يكون من أهل البر الصادقين المتقين ـ جعلنا الله منهم أجمعين»[1] . اهـ.

الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾.

[التوبة: ١١٩]

ومن هذه الآية أخذت عنوان هذه الدراسة. وقد جاء هذه التوجيه الرباني في أعقاب قصة الثلاثة الذين خلفوا وتاب الله عليهم بسبب صدقهم فيما اعتذروا به، وعدم كونهم مع المنافقين الذين كذبوا على الله ورسوله. يقول كعب بن مالك رضي الله عنه (وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا): «وقلت: يا رسول الله، إنما أنجاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت. فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كلمة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي، وأنزل الله: ﴿**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ**

(١) صفوة الآثار والمفاهيم «سورة البقرة آية ١٧٧».

وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ـ إلى قوله ـ **وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾** [التوبة: ١١٧ -١١٩]، فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ـ فقال: **﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ** ـ إلى قوله ـ **الْفَاسِقِينَ﴾** [التوبة: ٩٥، ٩٦] »[١] .

يقول القرطبي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: « فيه مسألتان :

الأولى: قوله تعالى: **﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾** هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين.

قال مُطرِّف: سمعت مالك بن أنس يقول: قلما كان رجل صادقاً لا يكذب إلا مُتّع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف.

واختلف في المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال؛ فقيل: هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب. وقيل: هو خطاب لجميع المؤمنين؛ أي اتقوا مخالفة أمر الله. **﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾** أي مع الذين خرجوا مع النبي ﷺ لا مع المنافقين. أي كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم. وقيل: هم الأنبياء؛ أي كونوا معهم بالأعمال الصالحة في الجنة. وقيل: هم المراد بقوله: **﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ** ـ الآية إلى قوله ـ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾**. وقيل: هم الموفون بما عاهدوا؛ وذلك لقوله تعالى:

---

(١) البخاري ك المغازي (٤٤١٨) / فتح (٧/ ٧١٧)، ومسلم ك التوبة (٢٧٦٩) (٤/ ٢١٢٠).

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾. وقيل: هم المهاجرون؛ لقول أبي بكر يوم السَّقيفة؛ إن الله سمّانا الصادقين فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الآية، ثم سماكم بالمفلحين فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ﴾ الآية. وقيل: هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم.

قال ابن العربي: وهذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى؛ فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والمخالفةُ في الفعل، وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان ومن دونهم على منازلهم وأزمانهم. وأما من قال: إنهم المراد بآية البقرة فهو معظم الصدق ويتبعه الأقل وهو معنى آية الأحزاب. وأما تفسير أبي بكر الصديق فهو الذي يعمّ الأقوال كلها؛ فإن جميع الصفات فيهم موجودة.

الثانية: حقّ مَن فهم عن الله وعَقَل عنه أن يلازم الصّدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والصفاء في الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل إلى رضا الغفار؛ قال ﷺ: «**عليكم بالصّدق فإن الصّدق يَهْدي إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصْدقُ ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً**»[1]. والكذب على الضد من ذلك»[2]. اهـ.

ويشير صاحب الظلال إلى جانب من جوانب الصدق في هذه الآية ويربطها بالآيات التي بعدها فيقول رحمه الله تعالى:

«وفي ظل قصة التوبة على الذين ترددوا والذين تخلفوا؛ وفي ظل

(١) سبق تخريجه ص٢٥٠.

(٢) تفسير القرطبي الآية (١١٩) من سورة البقرة.

عنصر الصدق البادي في قصة الثلاثة الذين خلفوا؛ يجيء الهتاف للذين آمنوا جميعاً أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين في إيمانهم من أهل السابقة؛ ويجيء التنديد بتخلف أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب، مع الوعد بالجزاء السخي للمجاهدين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[التوبة: ١١٩ - ١٢١]

إن أهل المدينة هم الذين تبنوا هذه الدعوة وهذه الحركة، فهم أهلها الأقربون. وهم بها ولها. وهم الذين آووا رسول الله - ﷺ - وبايعوه؛ وهم الذين باتوا يمثلون القاعدة الصلبة لهذا الدين في مجتمع الجزيرة كله. وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة وقد أسلمت؛ وباتت تؤلف الحزام الخارجي للقاعدة. . فهؤلاء وهؤلاء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله، وليس لهم أن يؤثروا أنفسهم على نفسه.

وحين يخرج رسول الله - ﷺ - في الحر أو البرد. في الشدة أو الرخاء. في اليسر أو العسر. ليواجه تكاليف هذه الدعوة وأعباءها، فإنه لا يحق لأهل المدينة، أصحاب الدعوة، ومن حولهم من الأعراب، وهم قريبون من شخص رسول الله ﷺ - ولا عذر لهم في ألا يكونوا قد علموا - أن يشفقوا

على أنفسهم مما يحتمله رسول الله ﷺ .

من أجل هذه الاعتبارات يهتف بهم أن يتقوا الله وأن يكونوا مع الصادقين، الذين لم يتخلفوا، ولم تحدثهم نفوسهم بتخلف، ولم يتزلزل إيمانهم في العسرة ولم يتزعزع. . وهم الصفوة المختارة من السابقين والذين اتبعوهم بإحسان»[١] اهـ.

الآية الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾

[الأحزاب: ٢٣، ٢٤]

ورد في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت في أنس بن النضر رضي الله عنه والذي ضرب أروع الأمثلة في الصدق والوفاء، ويكفي في إيراد هذا السبب تفسيراً وتعليقاً على هذه الآية الكريمة :

روى البخاريّ ومسلم والترمذي عن أنس قال : «قال عمّي أنس بن النَّضْر ـ سُمِّيت به ـ ولم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ فكَبُر عليه فقال : أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه، أما والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ لَيَرَيَنّ الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ؛ فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحُد من العام القابل، فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو أين؟ قال : واها لريح الجنة! أجدها دون أحُد ؛ فقاتل حتى قُتل، فوجِد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورَمْية . فقالت عَمّتي

---

(١) في ظلال القرآن «سورة التوبة آية ١١٩ ».

الرُّبَيِّع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببَنَانه. ونزلت هذه الآية ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ »[1] . هذا لفظ الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الآية الرابعة:

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ .

[محمد: ٢١]

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

« ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة فيصدقه في عزمه وفي فعله: قال تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل، فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم: فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه وألا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه. فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور.

ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره. وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الإخلاص وصدق التوكل؛ فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله»[2] اهـ.

---

(١) البخاري ك المغازي (٤٠٤٨) / فتح (٧/ ٤١١) بنحوه، ومسلم ك الإمارة (١٩٠٣) / (٣/ ١٥١٢)، والترمذي ك التفسير (٣١٩٨)/ (٨/ ٣٤١).

(٢) الفوائد ص١٨٦.

الآية الخامسة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

[الحجرات: ١٥]

يقول سيد قطب رحمه الله حول هذه الآية:

« فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله. التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب. التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب، ولا تهجس فيه الهواجس، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور. والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله.

فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه، لابد من دافع لتحقيق حقيقته في خارج القلب. وفي واقع الحياة. وفي دنيا الناس. يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان، وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة.

ولا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه، والصورة الواقعية من حوله. لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة. ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس. فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن. يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه، ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس.

والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الإيماني، وواقعه العملي. وعدم

استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الإيماني الكامل الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص الشائن المنحرف. فلابد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله، حتى تنثني هذه الجاهلية إلى التصور الإيماني والحياة الإيمانية.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.. الصادقون في عقيدتهم. الصادقون حين يقولون: إنهم مؤمنون. فإذا لم تتحقق تلك المشاعر في القلب، ولم تتحقق آثارها في واقع الحياة، فالإيمان لا يتحقق. والصدق في العقيدة وفي ادعائها لا يكون.

ونقف قليلاً أمام هذا الاحتراس المعترض في الآية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾.. إنه ليس مجرد عبارة. إنما هو لمس لتجربة شعورية واقعية. وعلاج لحالة تقوم في النفس. حتى بعد إيمانها..

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ وشبيه بها الاحتراس في قوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله.. ثم استقاموا..﴾ فعدم الارتياب، والاستقامة على قوله: «ربنا الله» تشير إلى ما قد يعتري النفس المؤمنة ـ تحت تأثير التجارب القاسية، والابتلاءات الشديدة ـ من ارتياب ومن اضطراب. وإن النفس المؤمنة لتصطدم في الحياة بشدائد تزلزل، ونوازل تزعزع. والتي تثبت فلا تضطرب، وتثق فلا ترتاب، وتظل مستقيمة موصولة هي التي تستحق هذه الدرجة عند الله.

والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق، وأخطار

الرحلة، لتعزم أمرها، وتحتسب، وتستقيم، ولا ترتاب عندما يدلهمّ الأفق، ويُظلم الجو، وتناوحها العواصف والرياح!»[١] اهـ.

والآيات في معنى الصدق وفضله كثيرة جداً نكتفي بما تم إيراده فيما سبق، والله نسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

❋ ❋ ❋

(١) في ظلال القرآن آية ١٥ الحجرات.

ذكر الأحاديث والآثار الواردة في معنى الصدق وفضله

الحديث الأول:

عَن ابْن مَسْعُود رَضيَ اللهُ عَنْهُ عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّ الصِّدْقَ يَهْدي إلَى الْبِرِّ، وَإنَّ الْبِرَّ يَهْدي إلَى الْجَنَّة، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يكُونَ صدِّيقاً، وإنَّ الْكَذبَ يَهْدي إلَى الْفُجُور، وإنَّ الْفُجُورَ يَهْدي إلَى النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذبُ حَتَّى يُكْتَبَ عنْدَ الله كَذَّاباً**»[(١)] مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

فقه الحديث:

أفاد الحديث الترغيب في الصدق لأنه سبب كل خير وتقى، وأن من تكرر منه الصدق حتى صار له سجية وخلقاً في جميع أحواله فهو الصديق الذي له ثواب الصديقين، كما أفاد التحذير من الكذب لأنه سبب كل شر وأن تكراره من الإنسان يصيره خلقاً وسجية حتى يكتب عند الله من الكاذبين. كما أفاد الحديث عاقبة الصدق وهي الجنة، وعاقبة الكذب وهي النار.

الحديث الثاني:

عَنْ أبي مُحَمَّد الْحَسَن بْن عَليِّ بْن أبي طالب رَضيَ اللهُ عَنْهُما قالَ: حَفظْتُ منْ رَسُول الله ﷺ: «**دَعْ مَا يَريبُكَ إلَى مَا لَا يَرِيبُكَ؛ فَإنَّ الصِّدْقَ**

(١) البخاري ك الأدب (٦٠٩٤) / فتح (١٠/ ٥٢٣)، مسلم ك البر (٢٦٠٧)/ (٤/ ٢٠١٢).

طُمَانينَةٌ، والْكَذِبَ رِيبَةٌ»[1] رَوَاهُ التِّرْمذِيُّ وقَالَ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ. قَوْلُهُ «يَرِيبُكَ» هُوَ بِفَتْحِ اليَاءِ وضَمِّها: ومَعْنَاهُ اتْرُكْ مَا تَشُكُّ في حِلِّه واعْدِلْ إلَى ما لا تَشُكُّ فيه.

فقه الحديث:

إن الصدق يبعث في النفس الطمأنينة والثقة والثبات والاستقرار وهذه ثمرة من ثمرات الصدق، وعكسه الكذب الذي لا يورث إلا الريبة والشك والقلق والاضطراب وعدم الثقة بين الناس.

الحديث الثالث:

عَنْ أبي خَالد حَكِيم بْن حزَام رَضيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«الْبَيِّعان بالْخيارِ ما لَمْ يتفرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وبَيَّنا بُورِكَ لَهُما في بَيْعِهِما، وإنْ كَتَما وكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»**[2] مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

فقه الحديث:

أفاد الحديث فضيلة الصدق في المعاملة وأنه سبب في نماء المال وبركته وزكاته بخلاف الكذب والغش والكتمان التي تؤدي إلى محق البركة ونقص النماء، كما يستفاد من الحديث بصفة عامة ثمرة الصدق في كل أنواع التعاملات. ويدخل في ذلك الصدق مع الله عزوجل وأنه سبب قبول الأعمال وبركتها.

---

(١) الترمذي ك صفة القيامة (٢٥٢٠)/ (٧/ ٢٠٥)، أحمد (١/ ٢٠٠). وقال الترمذي: صحيح، وصححه الألباني [صحيح الترمذي ٢٠٤٥].

(٢) البخاري ك البيوع (٢٠٧٩)/ فتح (٤/ ٣٦٢)، ومواضع أخرى، مسلم ك البيوع (١٥٣٢)/ (٣/ ١١٦٤).

الحديث الرابع :

عَنْ أبي ثَابت، وقيلَ أبي سَعَيد، وقيلَ أبي الْوَلَيد، سَهْل بْن حُنَيف، وهُوَ بَدْرِيٌّ رَضيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي ﷺ قالَ: «**مَنْ سَأَلَ اللهَ تعالَى الشَّهادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنازِلَ الشُّهَدَاءِ، وإنْ ماتَ على فِراشِه**»[1] رواهُ مُسْلِمٌ.

فقه الحديث :

أفاد الحديث ثمرة النية الصادقة، وأن من نوى شيئاً من أعمال البر أثابه الله عليه ولو قصرت النية عن العمل. والنية الصادقة هي التي لا يشوبها عرض من أعراض الدنيا ولم يصبها التردد والضعف في العزيمة على الوفاء بها. ومثل هذا الحديث ما رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من طلب الشهادة صادقاً أعطيها ولو لم تصبه**»[2].

ومثل هذا الحديث الحديث التالي:

الحديث الخامس :

عن سعيد الطائي أبي البختري أنه قال: حدثني أبو كبشة الأنماري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«**ثَلاث أقسمُ عَلَيْهِنَّ وأحَدِّثُكُمْ حَديثاً فاحفَظُوهُ**. قال: **مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، ولا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إلا زَادَهُ الله عِزّاً، ولا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إلا فتَحَ الله عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ** - أوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - **وأحَدِّثُكُمْ حَديثاً فاحْفَظُوهُ**. فقال: **إنَّمَا الدُّنْيَا لأرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مالاً**

(١) مسلم ك الإمارة (١٩٠٩)/ (٣/ ١٥١٧).

(٢) مسلم ك الإمارة (١٩٠٨)/ (٣/ ١٥١٧).

وَعلْماً فَهُوَ يَتَّقِي رَبَّهُ فيه وَيَصِلُ به رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لله فيه حَقّاً فَهَذا بأفْضَلِ المَنَازلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله علْماً وَلَم يرزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّة يَقُولُ: لَوْ أنَّ لِيَ مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بعَمَلِ فُلان فَهُوَ بنِيَّته فَأجْرُهُمَا سَوَاء، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَلَم يَرْزُقْهُ علْماً يَخبطُ في مَاله بغَيْرِ علْم، لا يَتَّقِي فيه رَبَّهُ وَلا يَصِلُ فيه رَحِمَهُ، وَلا يَعْلَمُ لله فيه حقاً، فَهُوَ بأخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يرْزُقْهُ الله مَالاً وَلا علْماً فَهُوَ يقُولُ: لَوْ أنَّ لي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلان، فَهُوَ بنيَّته فَوِزْرُهُمَاسَوَاء»[1].

الحديث السادس:

عن ابن عمرَ رضيَ اللهُ عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «بَينَما ثلاثةُ نفرٍ ممَّن كانَ قبلَكم إذ أصابهم مَطَر، فأوَوا إلى غارٍ فانطَبقَ عليهم، فقال بعضُهم لبعضٍ: إنهُ والله يا هؤلاء لا يُنجيكم إلا الصِّدق، فلْيَدْعُ كلُّ رجُلٍ منكم بما يعلم أنهُ قد صدَقَ فيه. فقال واحدٌ منهم: اللَّهمَّ إن كنتَ تَعلمُ أنهُ كان لي أجيرٌ عمِلَ لي على فرَقٍ من أرُزٍّ، فذَهَبَ وتركَهُ، وإني عمَدْتُ إلى ذلكَ الفرَقِ فزَرَعتهُ، فصار من أمره أني اشتريتُ منهُ بقراً، وأنهُ أتاني يَطلبُ أجرَهُ، فقلتُ له: اعمَدْ إلى تلك البقرِ فسُقْها، فقال لي: إنما لي عندَكَ فرَقٌ من أرُزٍّ. فقلتُ له: اعمَدْ إلى تلك البقرِ، فإنها من ذلكَ الفرَقِ. فساقَها. فإن كنتَ تَعلم أني فعلتُ ذلكَ من خَشيَتك ففرِّج عنا. فانساخَت عنهمُ الصخرة. فقال الآخرُ: اللهمَّ إن كنتَ تعلمُ أنهُ كان لي أبَوان شيخان كبيران، وكنتُ آتيهما كلَّ ليلةٍ بلَبَنِ غنمٍ لي، فأبطأتُ عنهما ليلةً، فجئتُ

---

(١) الترمذي ك الزهد (٢٣٢٦)/ (٧/ ١٨)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه مختصراً ك الزهد (٤٢٢٨)/ (٢/ ١٤١٣). وصححه الألباني.

وقـد رقَدا ؛ وأهلي وعـيـالي يتَضـاغَونَ منَ الجُوع، وكنت لا أسـقـيـهـم حـتـى يَشـربَ أبوايَ، فكرِهتُ أن أُوقظهـمـا، وكـرهتُ أن أدَعَهُمـا فـيَسـتَكنّا لشَربتهما، فلم أزلْ أنتظرُ حتى طلعَ الفجر. فإن كنتَ تعلمُ أني فعلتُ ذلك من خَشيتكَ ففرِّجْ عنَّا. فانساخَت عنهمُ الصخرةُ حتى نَظروا إلى السماء. فقال الآخر: اللهمَّ إن كنتَ تعلمُ أنهُ كان لي ابنةُ عمٍّ من أحبِّ الناس إليَّ، وأني راودْتُها عن نفسها فأبَتْ إلا أن آتيهَا بمائةِ دينارٍ، فطلَبتُها حتى قدَرْتُ فأتيتُها بها فدفَعْتُها إليها، فأمكنَتْني من نفسِها، فلما قعَدْتُ بينَ رجلَيها فقالت: اتَّقِ الله ولا تَفُضَّ الخاتَمَ إلا بحقِّه، فقُمتُ وتركتُ المائةَ الدِّينار. فإن كنتَ تعلمُ أني فعلتُ ذلك من خَشيتكَ ففرِّجْ عنَّا، ففرَّجَ اللهُ عنهم فخرَجوا»[1].

فقه الحديث:

فضل الصدق وأثره في النجاة من الشدائد والكربات، وأن المؤمن لا يذكر حينئذ من أعماله إلا ما كان صادقاً، وهو الذي يبقى ثوابه عند الله عزوجل.

الحديث السابع:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وحسن خليقة، وصدق حديث، وعفة في مطعم»[2].

---

(١) البخاري ك أحاديث الأنبياء (٣٤٦٥)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٣).

(٢) أحمد (٢/ ١٧٧)، وصححه الألباني / الصحيحة (٧٣٣).

فقه الحديث :

أن من حاز على هذه الفضائل فقد حاز على الخير كله، وذلك لما في هذه الفضائل من خيري الدنيا والآخرة، ولو تأملنا في كل هذه الفضائل لرأيناها تنبع من الصدق بمفهومه الواسع لأن الصدق مع الله عزوجل والصدق مع خلقه يقتضي هذه الفضائل وغيرها.

* * *

مواقف صادقة

وفي هذه الفقرة نستعرض بعض المواقف الصادقة التي أثمرها الصدق مع الله عزوجل والصدق مع دينه سبحانه، وهي على سبيل المثال لا الحصر وإلا فمواقف أنبياء الله عزوجل والتابعين لهم بإحسان كلها مواقف صدق وإخلاص وتضحية، نسأل الله سبحانه أن يحشرنا في زمرتهم وإن قصرت أعمالنا وعزائمنا عنهم قصوراً شديداً شديداً، و«المرء مع من أحب» إن كان صادقاً في حبه لهم.

صديق الأمة الأكبر رضي الله عنه :

إنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه والذي اتسمت حياته كلها بالصدق والإخلاص والتضحية والبذل والمحبة الصادقة لله عزوجل ولنبيه محمد ﷺ ، ومن أجل ذلك استحق هذا اللقب الشريف من رسول الله ﷺ والذي سبق به غيره من المؤمنين، ومن أجل ذلك فاق إيمانه إيمان الأمة، وبه فضل على الناس جميعاً سوى الأنبياء.

ولا يعني هذا أن ليس في الأمة صديق إلا أبا بكر رضي الله عنه، كلا، بل الصديقون في هذه الأمة كثير، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، ولكن أبا بكر رضي الله عنه قد حاز الكمال في الصديقية، وكل من وصل إلى رتبة الصديقية فهو دون أبي بكر عدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

مثال في صدق العزائم :

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «غزا نبيٌّ من الأنْبياء صَلَواتُ الله وسَلامُهُ عليْهِمْ، فَقَالَ لقَوْمِه: لا يَتْبَعَنِّي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرأةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أنْ يَبْنِيَ بِهَا ولمَّا يَبْنِ بِهَا، ولا أحدٌ بَنَى بُيُوتاً لَمْ يرفَعْ سُقُوفَها، ولا آخرُ اشْتَرى غَنَماً أوْ خَلِفاتٍ وهُوَ يَنْتَظِرُ ولادَها. فَغَزَا فَدَنا من القَرْيَةِ صَلاةَ العَصْرِ أوْ قَرِيباً مِنْ ذلكَ، فَقَالَ للشَّمْسِ: إنّكِ مَأمُورَةٌ وأَنَا مَأمُورٌ، اللّهُمَّ احْبِسْها عَلَيْنا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْه، فَجمعَ الْغَنائِمَ فَجاءَتْ ـ يَعْنِي النَّارَ ـ لتَأكُلَها فَلَمْ تَطْعَمْها، فقالَ: إنَّ فيكُمْ غُلُولاً فَلْيُبايِعْني منْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِه فقَالَ: فيكُمُ الْغُلُولُ؛ فَلْتُبايِعْنى قَبِيلَتُكَ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أوْ ثَلاثَةٍ بِيَدِه فَقَالَ: فيكُمُ الغُلُولُ. فَجَاءُوا بِرَأسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَوَضَعُوهَا فَجاءَت النَّارُ فأكَلَتْها، ثُمَّ أحَلَّ اللّهُ لَنا الْغَنائِمَ؛ رأى ضَعْفَنا وعَجْزَنا فأحلَّها لَنا»[1] مُتّفَقٌ عَلَيْه.

«الْخَلِفاتُ» بِفَتْحِ الْخَاءِ الْمُعْجَمَة وكَسْرِ اللامِ: جَمْعُ خَلِفَةٍ وهِيَ النَّاقَةُ الْحَاملُ.

أمثلة في الصدق مع الله عزوجل في الجهاد والوفاء بالعهد :

أ ـ قد مضت قصة أنس بن النضر في غزوة أحد وما نزل فيه من القرآن في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْه. . . الآية﴾ فليرجع إليها في الآيات الواردة في فضيلة الصدق .

ب ـ عن شداد بن الهاد أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ

(١) البخاري ك الخمس (٣١٢٤)/ فتح (٦/ ٢٥٤)، مسلم ك الجهاد (١٧٤٧)/ (٣/ ١٣٦٦).

فآمن به واتبعه ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة غنم النبي ﷺ سبياً فقسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قَسمَ له وكان يرعى ظهرهم فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قالوا: قسْمٌ قَسَمه لك النبي ﷺ، فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ فقال ما هذا؟ قالَ: «**قسمته لك**»، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أُرمى إلى هاهنا - وأشار إلى حلقه - بسهم فأموت فأدخل الجنة. فقال: «**إن تصدق الله يصدقك**». فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو فأتي به النبي ﷺ يُحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: «**أهو هو؟**»، قالوا: نعم، قال: «**صدق الله فصدقه**»، ثم كفنه النبي ﷺ في جبته ثم قدمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «**اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقتل شهيداً، أنا شهيد على ذلك**»[1].

وفي هذه القصة فضل احتساب جميع الأجر من الله في الآخرة والعزوف عن كل عرض دنيوي يأتي من وراء الدعوة والجهاد.

جـ - البكاؤون: وهم الذين جاءوا إلى النبي ﷺ ليحملهم معه في غزوة تبوك فاعتذر منهم بعدم الكفاية في الظهر، فانصرفوا باكين لا لفوات دنيا ولكن لتخلفهم عن رسول الله ﷺ في الجهاد معه والفوز بالثواب والأجر العظيم، فقال تعالى عاذراً لهم: ﴿**وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ**﴾ [التوبة: ٩٢].

(١) النسائي ك الجنائز ب الصلاة على الشهداء (٤/ ٦٠).

د ـ ومن ترجمة واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: عن محمد بن سعد قال: « أتى واثلة رسول الله ﷺ فصلى معه الصبح. وكان رسول الله ﷺ إذا صلى وانصرف تصفح أصحابه. فلما دنا من واثلة قال: **من أنت؟** فأخبره فقال: **ما جاء بك؟** قال: جئت أبايع. فقال رسول الله ﷺ: **فيما أحببت وكرهت؟** قال: نعم. قال: **فيما أطقت؟** قال: نعم. فأسلم وبايعه.

وكان رسول الله ﷺ يتجهز يومئذ إلى تبوك فخرج واثلة إلى أهله فلقي أباه الأسقع فلما رأى حاله قال: قد فعلتها؟ قال نعم. قال أبوه: والله لا أكلمك أبداً. فأتى عمه فسلم عليه فقال: قد فعلتها؟ قال: نعم. قال: فلامه أيسر من ملامة أبيه وقال: لم يكن ينبغي لك أن تسبقنا بأمر. فسمعت أخت واثلة كلامه فخرجت إليه وسلمت عليه بتحية الإسلام. فقال واثلة: أنى لك هذا يا أخيّة؟ قالت: سمعت كلامك وكلام عمك فأسلمت. فقال: جهِّزي أخاك جهاز غاز فإن رسول الله ﷺ على جناح سفر. فجهزته فلحق برسول الله ﷺ قد تحمَّل إلى تبوك وبقي غبَّرات من الناس وهم على الشخوص فجعل ينادي بسوق بني قينقاع: من يحملني وله سهمي؟ قال: وكنت رجلاً لا رُحلة بي. قال: فدعاني كعب بن عجرة فقال: أنا أحملك عقبةً بالليل وعقبةً بالنهار ويدك أسوة يدي وسهمك لي. فقال واثلة: نعم. قال واثلة: جزاه الله خيراً لقد كان يحملني ويزيدني وآكل معه ويرفع لي، حتى إذا بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل خرج كعب في جيش خالد وخرجت معه فأصبنا فيئاً كثيراً فقسمه خالد بيننا فأصابني ست قلائص، فأقبلت أسوقها حتى جئت بها خيمة كعب

بن عجرة فقلت: اخرج رحمك الله فانظر إلى قلائصك فاقبضها، فخرج وهو يبتسم ويقول: بارك الله لك فيها ما حملتك وأنا أريد أن آخذ منك شيئاً»(١).

هـ- وقال محمد بن المثنى: حدثنا عبد الله بن سنان قال: «كنتُ مع ابن المبارك، ومُعتمر بن سليمان بطَرَسوس، فصاح الناسُ: النفير، فخرج ابن المبارك والناس، فلما اصطفَّ الجمعان، خرج رومي، فطلب البراز، فخرج إليه رجلٌ، فشدَّ العلج عليه فقتله، حتى قتل ستةً من المسلمين، وجعل يتَبَخْترُ بينَ الصَّفين يطلُب المبارزة، ولا يخرجُ إليه أحد، فالتفتَ إليَّ ابنُ المبارك، فقال: يا فلان، إن قُتلتُ فافعل كذا وكذا، ثم حرَّك دابته، وبرز للعلْج، فعالج معه ساعة، فقتل العلج، وطلب المبارزة، فبرز له علج آخر فقتله حتى قَتل ستة علوج، وطلب البراز، فكأنهم كاعوا عنه، فضرب دابته، وطرد بين الصفين، ثم غاب، فلم نشعر بشيء، وإذا أنا به في الموضع الذي كان، فقال لي: يا عبد الله لئن حدَّثت بهذا أحداً، وأنا حيٌّ، فذكر كلمة»(٢).

و- وعن عبد الله بن قيس، أبي أمية الغفاري قال: «كنا في غزاة لنا فحضر عَدُوهُم، فَصِيحَ في الناس، فهم يثوبون إلى مصافِّهم، إذا رجل أمامي، رأسُ فرسي عند عَجُز فَرَسه، وهو يُخاطب نفسه ويقول: أي نفس ألم أشهد مشهدَ كذا وكذا فقلت لِي: أهلك وعيالك، فأطعتك ورجعت؟ ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت: أهلكَ وعيالك، فأطعتك ورجعت؟ والله لأعرضنَّك اليوم على الله، أخذك أو تَركك. فقلتُ: لأرمُقنَّه اليوم. فرمقته

(١) صفة الصفوة (١/ ٦٧٤).
(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٠٨).

فحمل الناسُ على عدوّهم فكان في أوائلهم. ثم إن العدوّ حمل على الناس فانكشفوا فكان في حُماتهم، ثم إن الناس حملوا فكان في أوائلهم، ثم حمل العدوّ وانكشف الناس فكان في حُماتهم. قال: فوالله مازال ذلك دأبَه حَتَّى رأيْته صريعاً. فعدَدْتُ به وبدابته ستِّين، أو أكثر من ستِّين، طَعنةً»[١].

أمثلة في الصدق مع الخلق:

أ ـ عن الفِرْيابي: حدثني أبو بكر سعيد بن يعقوب الطَّالقاني، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن الأوزاعي، عن هارون بن رِئاب، أن عبد الله بن عمرو لما حضرته الوفاة قال: «انظروا فلاناً ـ لرجل من قريش ـ فإني كنت قلت له في ابنتي قولاً كشبيه العدة، وما أحِبُّ أن ألقى الله تعالى بثُلثُ النفاق، وأشْهِدكم أني قد زوجته»[٢].

ب ـ عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»[٣]. وزاد ابن حبان: «فكان جرير بن عبد الله إذا بايع أحداً قال: اعلم يا أخي أن ما أخذنا منك خير مما أعطيناك فاختر». كل هذا من النصح والصدق للمسلم والصدق مع الناس.

(١) صفة الصفوة (٤/ ٤٢١).
(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٩٦).
(٣) البخاري ك الإيمان (٥٧)/ فتح (١/ ١٦٦)، ومواضع أخرى، ومسلم ك الإيمان (٥٦)/ (١/ ٧٥).

مثال في الصدق مع النفس :

عن جعفر بن برقان قال : «بلغني عن يونس بن عبيد فضلٌ وصلاحٌ فكتبت إليه : يا أخي بلغني عنك فضلٌ وصلاح فأحببت أن أكتب إليك ، فاكتب إليّ بما أنت عليه . فكتَب إليّ : أتاني كتابك تسألني أن أكتب إليك بما أنا عليه ، وأخبرك أني عرضت على نفسي أن تحبّ للناس ما تحب لها وأن تكره لهم ما تكره لها ؛ فإذا هي من ذلك بعيد ، ثم عرضت عليها مرَة أخرى تَرك ذكرهم إلا من خير ؛ فوجدت الصوم في اليوم الحار الشديد الحَر بالهواجر بالبصرة أيْسر عليها من تَرك ذكرهم ، هذا أمري يا أخي والسلام»[١] .

مثال في الصدق في قول كلمة الحق :

قال أبو الفرج ابنُ الْجوْزي : «أقام جَوهر القائد[٢] لأبي تميم صاحب مصر أبا بكر النَّابُلسي ، وكان ينزل الأكواخ ، فقال له : بَلَغَنا أنَّكَ قلت : إذا كان مع الرَّجل عشرةُ أسهم ، وجب أن يَرْمي في الرُّوم سَهْماً ، وفينا تسعة ، قال : ما قلتُ هذا ، بل قلت : إذا كان معه عشرةُ أسهم ، وجبَ أن يرميكُمْ بتسعة ، وأن يَرميَ العاشر فيكم أيضاً ، فإنكم غيّرتم الملَّة ، وقَتَلْتُم الصَّالحين ، وادَّعيتُم نور الإلهية ، فشهرَهُ ثمَّ ضربَه ، ثم أمر يهودياً فَسَلَخه» .

وقال الذهبي في ترجمته لأبي بكر النابلسي : «قال أبو ذرٍّ الحافظ : سَجَنَه بنو عُبيد ، وصلَبُوه على السنّة ، سمعتُ الدَّارقُطنيَّ يذكُرُه ، ويَبْكي ، ويقول : كان يقول وهو يُسْلَخ : ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ [الإسراء : ٥٨] »[٣] .

---

(١) صفوة الصفوة (٣/ ٣٠٣) .

(٢) هو أحد قادة دولة بني عبيد الباطنية في مصر .

(٣) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٤٨) .

مثالان في الصدق مع الله عزوجل في الثبات على الإيمان والصبر على البلاء :

أ ـ قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام :

وفي هذه القصة من الصدق والإيمان الحق الشيء العظيم، فإن شئت رأيت ذلك في الراهب الذي قطع بالمنشار ليرجع عن دينه فلم يرجع، وإن شئت رأيت ذلك في جليس الملك الذي فُعل به ما فُعل بالراهب، وإن شئت وجدت ذلك في الغلام الذي هُدّد بجميع أصناف القتل فاستعلى على ذلك وأنجاه الله، حتى إذا رأى أن في قتله إيمان الناس من حوله فتح ذراعيه للقتل باذلاً نفسه لربه عزوجل، وإن شئت وجدت ذلك الصدق العظيم في المؤمنين الذين حرقوا بالنار ليرجعوا عن دينهم فاستعلوا على ذواتهم وعلى الحياة بأسرها وأقدموا على النيران المتأججة ليسقطوا فيها فداءً لدينهم وشراءً لرضوان الله عزوجل وجنته.

والقصة طويلة أوردها الإمام مسلم في الحديث (٣٠٠٥) في كتاب الزهد والرقائق، نقتطع الشاهد منها، وذلك من قوله ﷺ: «**فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى. فَدَعَا بِالمِنشَارِ. فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ. فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ. ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ المَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى. فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ. فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ. ثُمَّ جِيءَ بِالغُلامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا. فَاصْعَدُوا بِهِ الجَبَلَ. فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلا فَاطْرَحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الجَبَلَ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبَلُ فَسَقَطُوا. وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى المَلِكِ.**

فَقَالَ لَهُ المَلكُ: مَا فَعَلَ أصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ. فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلا فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا. وَجَاءَ يَمْشِي إِلَي المَلِك. فَقَالَ لَهُ المَلكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَقَالَ لِلْمَلك: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ. وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ. ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي. ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ. ثُمَّ قُلْ: بِسْمِ اللهِ رَبِّ الغُلامِ، ثُمَّ ارْمِنِي؛ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللهِ رَبِّ الغُلامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ. فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ. آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ .آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ. فَأُتِيَ المَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ؛ قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا؛فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الغُلامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي، فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ»[1].

ب ـ ماشطة ابنة فرعون:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الرسول # قال: «لما كانت الليلة التي أسري بي فيها وجدت رائحة طيبة فقلت: ما هذه الرائحة الطيبة يا جبريل؟

---

(١) مسلم ك الزهد (٣٠٠٥)/ (٤/ ٢٢٩٩).

قال: هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها قلت: ما شأنها ؟ قال: بينما هي تمشط بنت فرعون ذات يوم إذ سقطت المدرى من يدها، فقالت: بسم الله، قالت بنت فرعون: أبي؟ فقالت: لا ولكن ربي ورب أبيك الله، قالت: أخبره بذلك؟ قالت: نعم، فأخبرته فدعاها، وقال: يا فلانة وإن لك ربًا غيري؟!! قالت: نعم ربي وربك الله، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر أن تلقى هي وأولادها فيها، قالت له: إن لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا، قال: ذلك لك علينا من الحق، قال: فأمر بأولادها فألقوا بين يديها واحدًا واحدًا، إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مُرضَع وكأنها تقاعست من أجله، قال: يا أمه اقتحمي؛ فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت»[1].

---

(١) أحمد (١/ ٣٠٩) وصححه أحمد شاكر (٢٨٢٢) (٤/ ٢٩٥).

من علامات الصدق

إن للصدق علامات ومظاهر تنفي ضدها، وإذا لم توجد أو كانت ضعيفة فإن ذلك دليل على ضعف الصدق وتسلط العوائق عليه. ومن هذه العلامات مايلي:

١ - طمأنينة القلب واستقراره:

إن الصدق في جميع الأحوال - باطنها وظاهرها - يورث الطمأنينة والسكينة في القلب، وينفي عنه التردد والريبة والاضطراب التي لا توجد إلا في حالات الشك وضعف الصدق أو عدمه. وقد مر بنا في الأحاديث السابقة قوله ﷺ: «**دع ما يريبك إلى مالا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة**»، فإذا وجدنا الطمأنينة وعدم الريبة فإن هذا علامة على وجود الصدق إن شاء الله تعالى.

ومن علامات هذه الطمأنينة الثبات في المواقف التي يختبر فيها الإيمان، والصبر على البلاء، والتسليم لله عزوجل. يقول الله تعالى في الثناء على أهل الصدق يوم الأحزاب: ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وفي مقابل هذه الصورة الوضيئة يصف الله سبحانه أهل الكذب والريبة والنفاق في يوم الأحزاب، فيقول تعالى: ﴿ **فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**... الآية ﴾ [الأحزاب: ١٩]،

وهذه الحالة من الخوف والاضطراب إنما نشأت من الكذب والنفاق والريبة التي أفرزت انزعاج القلب وتقلبه وعدم استقراره.

وقد مر بنا في المواقف الصادقة قصة أصحاب الأخدود وغلامهم وغيرهم حيث ثبتوا على الأهوال والشدائد وباعوا أنفسهم لله عزوجل، وليس ذلك إلا من الإيمان الحق والصدق العظيم الذي أورث طمأنينة القلب وشجاعته، وهكذا يفعل الصدق بالقلوب. وينقل ابن القيم رحمه الله تعالى كلاماً لشيخ الإسلام حول هذا المعنى نقتطف منه مايلي:

«قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠]، فإن الخفيف لا يثبت بل يطيش وصاحب اليقين ثابت. يقال: أيقن إذا كان مستقراً، واليقين استقرار الإيمان في القلب علماً وعملاً؛ فقد يكون علم العبد جيداً، لكن نفسه لا تصبر عند المصائب بل تطيش. قال الحسن البصري: إذا شئت أن ترى بصيراً لا صبر له رأيته، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيته، فإذا رأيت بصيراً صابراً فذاك. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]»[(١)].

٢ - الزهد في الدنيا والتأهب للقاء الله عز وجل:

ومن علامة طمأنينة القلب - النابعة عن الصدق - انشراحه وزهده في الدنيا والتأهب للآخرة قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، لما نزلت هذه الآية سئل الرسول ﷺ عن شرح الصدر فقال:

(١) الفوائد ص٢١٢.

«نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح»، قيل: وهل لذلك أمارة، قال: **«نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»**[١].

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في طريق الهجرتين كلاماً بديعاً حول حقيقة الاستعداد للقاء الله عزوجل وعلامة الصدق في ذلك فقال: « (فصل) صدق التأهب للقاء الله من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته، فإن من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها، وخمدت من نفسه نيران الشهوات وأخبت قلبه إلى الله، وعكفت همته على الله وعلى محبته وإيثار مرضاته.

إلى أن يقول: والمقصود أن صدق التأهب للقاء الله هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة والأحوال الإيمانية ومقامات السالكين إلى الله ومنازل السائرين إليه، من اليقظة والتوبة والإنابة والمحبة والرجاء والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمال القلوب والجوارح، فمفتاح ذلك كله صدق التأهب والاستعداد للقاء الله، والمفتاح بيد الفتاح العليم لا إله غيره ولا رب سواه.

ثم يقول رحمه الله تعالى: وإذا علم هذا فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه إلى الله طريق العلم والتعليم، قد وفر عليه زمانه مبتغياً به وجه الله، فلا يزال كذلك عاكفاً على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك الطريق إلى الله ويفتح له فيها الفتح الخاص أو يموت في طريق طلبه فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته، قال تعالى: ﴿وَمَن

---

(١) هذا الحديث قواه ابن كثير في التفسير لتعدد طرقه (٢/ ١٧٦). وتعقبه الشيخ محمود محمد شاكر في تفسير الطبري ـ ط دار المعارف ـ ١٢/ ٩٨ ـ ٩٩ (١٣٨٥٢).

يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [النساء: ١٠٠] ، وقد حكي عن جماعة كثيرة ممن أدركه الأجل وهو مريض طالب للقرآن أنه رئي بعد موته وأخبر أنه في تكميل مطلوبه وأنه تعلم في البرزخ، فإن العبد يموت على ما عاش عليه.

ومن الناس من يكون سيد عمله الذكر وقد جعله زاده لمعاده ورأس ماله لمآله، فمتى فتر عنه أو قصر رأى أنه قد غبن وخسر. ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة، فمتى قصر في ورده منها أو مضى عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد لها أظلم عليه وقته وضاق صدره. ومن الناس من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدي، كقضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وأنواع الصدقات، قد فتح له في هذا وسلك منه طريقاً إلى ربه.

ومن الناس من يكون طريقه الصوم، فهو متى أفطر تغير عليه قلبه وساءت حاله.

ومن الناس من يكون طريقه تلاوة القرآن وهي الغالب على أوقاته وهي أعظم أوراده. ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد فتح الله [له] فيه ونفذ منه إلى ربه. ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه الحج والاعتمار.

ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة ومراعاة الخواطر وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة.

ومنهم جامع المنفذ السالك إلى الله في كل واد الواصل إليه من كل

طريق، فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينه يؤمها أين كانت، ويسير معها حيث سارت، قد ضرب مع كل فريق بسهم، فأين كانت العبودية وجدته هناك: إن كان علم وجدته مع أهله، أو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أو صلاة وجدته في القانتين، أو ذكر وجدته في الذاكرين، أو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين، أو محبة ومراقبة وإنابة إلى الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين، يدين بدين العبودية أنى استقلت ركائبها، ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها، لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت وأين كانت، جالبة ما جلبت، مقتضية ما اقتضت، جمعتني أو فرقتني، ليس لي مراد إلا تنفيذها والقيام بأدائها مراقباً له فيها عاكفاً عليه بالروح والقلب والبدن، قد سلمت إليه المبيع منتظراً منه تسليم الثمن»[1] اهـ.

مما سبق يتبين لنا أن الصادق مع الله عزوجل لا تراه إلا متأهباً للقاء ربه مستعداً لذلك بالأعمال الصالحة والقيام بأوامر الله عزوجل والانتهاء عن نواهيه، يريد بذلك وجه الله عزوجل متبعاً في ذلك رسول الله ﷺ.

٣ ـ سلامة القلب :

إن من علامة الصدق سلامة القلب وخلوه من الغش والحقد والحسد للمسلمين، فالعبد المؤمن الصادق في إيمانه لا يحمل في قلبه غلاً للمؤمنين ولا شراً، بل إن حب الخير والنصح للمسلمين هو طبعه وعادته. وهذه الحالة القلبية تظهر علاماتها على الأعمال وذلك بتجنب الظلم والعدوان والاستطالة على الأعراض والحرص على العدل والقسط مع الناس،

---

(١) طريق الهجرتين ص١٦٧ ـ ١٧١.

والانطلاق بما في الوسع لقضاء حاجات المسلمين، وإغاثة ملهوفهم ودفع الظلم عنهم، والحزن على مصابهم والفرح لفرحهم. إن كل هذه الخلال يفرزها سلامة القلب والذي هو بدوره علامة من علامات الصدق. وهذه الحالة تفرز أيضاً علامة أخرى من علامات الصدق ألا وهي: محبة الناس لمن هذه حاله فيصبح مألوفاً لهم؛ لأنه صدق معهم فألفهم وألفوه وتواضع لهم فأحبوه، وهذا مصداق قول الرسول ﷺ: «**المؤمن مؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**»[1].

٤ ـ حفظ الوقت وتدارك العمر:

إن الصادق في إيمانه لا تجده إلا محافظاً على وقته شحيحاً به، لا ينفقه إلا فيما يرجو نفعه في الآخرة، ينظر إلى العمر كله كأنه ساعة من نهار وإلى الدنيا كأنها ظل شجرة نزل تحتها ثم قام وتركها، فبادر بالأعمال الصالحة في فراغه وصحته وشبابه وحياته، وابتعد عن كل آفة تقطع عليه طريقه وتضيع عليه وقته وتبدد عليه عمره القصير بما لا ينفع.

يقول الشيخ سفر وفقه الله تعالى:

«فإذا عرف العبد أن الحياة ما هي إلا أنفاس تتلاحق ودقائق تتسابق وأنه لو أحصى حظه منها لوجده ينقص كثيراً عن عمر بعض الطيور والزواحف والأشجار فضلاً عن أعمار الكواكب والنجوم فضلاً عن عمر الكون كله فضلاً عن مدى عالمي الغيب والشهادة مجتمعين.. وعلم مع هذا أنه مخلوق لحكمة واضحة وغاية محددة هي عبادة ربه سبحانه وحده لا شريك له، فلابد أن يحرص أشد الحرص على حفظ الوقت، وإشغاله بالعبودية وإعمال

---

(١) أحمد (٢/ ٤٠٠)، وصححه أحمد شاكر (٩١٨٧)/ (١٨/ ١٧).

البدن في الطاعة وإلا اعتراه النقص في إيمانه بقدر ما يعتريه من نقص في ذلك»[١] .

وهذا ليس نقصاً وحسب بل هو تأخر وانقطاع لأنه «إن لم يكن في تقدم فهو في تأخر ولابد؛ فالعبد سائر لا واقف؛ فإما إلى فوق وإما إلى أسفل، وإما إلى أمام وإما إلى وراء، وليس في الطبيعة ولا في الشريعة وقوف ألبتة، ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طي إلى الجنة أو إلى النار؛ فمسرع ومبطئ، ومتقدم ومتأخر، وليس في الطريق واقف ألبتة؛ وإنما يتخالفون في جهة السير وفي السرعة والبطء ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٥ - ٣٧] ، ولم يذكر واقفاً؛ إذ لا منزل بين الجنة والنار ولا طريق لسالك إلى غير الدارين ألبتة، فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة»[٢] اهـ.

٥ ـ الزهد في ثناء الناس ومدحهم بل وكراهة ذلك:

ويتبع ذلك الزهد فيما عند الناس والقناعة بما كتب الله عزوجل، وهذه الصفة إذا وجدت فهي علامة على الصدق والإخلاص وهي تنبع أصلاً من صحة المعتقد وكمال التوحيد لله عزوجل.

وحول هذه الصفة والوصول إليها يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل

(١) عن كتاب: ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ص١١١ .
(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٦٧).

على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص؛ فإن قلت: وما الذي يسهل عليّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره ولا يؤتي العبد منها شيئاً سواه.

وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ إن مدحي زين وذمي شين، فقال: «**ذلك الله عزوجل**»[1].

فازهد في مدح من لا يزينك مدحه وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه وكل الشين في ذمه. ولن يقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب. قال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ**﴾ [الروم: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة: ٢٤]»[2].

٦ ـ تصديق القول بالفعل وموافقة الظاهر للباطن:

يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢، ٣]، فإذا وجد تطابق القول مع الفعل عند أحد فهذا من علامة الصدق إن شاء الله، وهذا مرتبط بموافقة الظاهر للباطن والسريرة للعلانية؛ فإذا أمر بأمر كان أول الفاعلين له، وإذا

---

(١) الترمذي ك التفسير (٣٢٦٣)/ (٩/ ١٩).

(٢) الفوائد لابن القيم ص١٤٩.

نهى عن شيء كان أول المنتهين عنه، وإذا تكلم بأمر فهو الذي في قلبه وليس من الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

ذكر الذهبي رحمه الله تعالى في السير في ترجمة الحسن البصري: «عن عبد الصمد بن عبد الوارث: حدَّثنا محمد بن ذكوان، حدثنا خالد ابن صفوان، قال: لقيتُ مسلمة بن عبد الملك فقال: يا خالد، أخبرني عن حَسَنِ أهل البصرة؟ قلتُ: أصلحكَ الله، أخبِرُكَ عنه بعلم، أنا جارُه إلى جَنْبه، وجَليسُهُ في مجلسه، وأعلم من قبَلي به: أشبهُ الناسِ سريرةً بعلانية، وأشبهُهُ قوْلاً بفعل، إنْ قعدَ على أمْرٍ قامَ به، وإنْ قام على أمْرٍ قعد عليه، وإنْ أمر بأمر كان أعملَ الناس به، وإنْ نهى عن شيء كان أتركَ الناس له، رأيتُه مستغنياً عن الناس، ورأيتُ الناس محتاجين إلَيه، قال: حَسْبُكَ، كيف يَضِلُّ قومٌ هذا فيهم؟!»[1].

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في تعليقه على قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه»: «إشارة إلى أنه لا يكفي قيامه في الحق لله إذا كان على غيره، حتى يكون أول قائم به على نفسه، فحينئذ يقبل قيامه له على غيره، وإلا فكيف يقبل الحق ممن أهمل القيام به على نفسه»[2].

٧ ـ الصدق في الحديث:

ولعل هذه العلامة من أبرز علامات الصدق الظاهرة على اللسان. والذي يصدق فيما يخبر به من أمور ماضية، ويصدق فيما يعد به من أمور مستقبلة، ويأتي حديثه مطابقاً لواقع الأمر؛ إن مثل هذا يكون في العادة

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٧٦).
(٢) إعلام الموقعين (٢/ ١٨).

صادقاً في أموره الأخرى إذا أراد التقرب بذلك لله عزوجل وقد مربنا الحديث المشهور «**وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً**. . . الحديث».

ومما يرتبط بالصدق في نقل الأخبار التثبت في نقلها، وعدم العجلة في تلقف الأخبار دون تمحيص وتبين، واتباع الظن. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا** . . . الآية﴾ [الحجرات: ٦]، كما أن الصدق في الحديث يستلزم مجانبة الظنون كما قال الرسول ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»[1].

كما أن من علامات صدق الحديث: قلة الكلام وعدم التحدث بكل ما يسمع قال ﷺ: «**كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع**»[2]. كما أن من علامة الحرص على صدق الحديث عدم الدخول فيما لا يعني قال ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه**»[3].

٨ ـ إخفاء الأعمال الصالحة وكراهة الظهور:

إن من علامة صدق العبد فيما يعمله لله عزوجل حرصه على إخفاء عمله وكراهة اطلاع الناس عليه، كما أن كراهة الشهرة والظهور علامة من علامات الصدق الذي يبعد صاحبه عن الرياء والسمعة والتصنع للخلق، فكلما كان العبد صادقاً مع ربه عزوجل كان حريصاً على إخفاء أعماله حيث لا يطلع عليها إلا الله عزوجل الذي يسمع ويرى ويجازي على الحسنة بعشر أمثالها. وإن حياة سلفنا الصالح مليئة بهذه النماذج الوضيئة نذكر منها ما

---

(١)، (٢) سبق تخريجهما ص٢٧٠.

(٣) الترمذي ك الزهد (٢٣١٨)/ (٧/ ٧٧)، وصححه الألباني [صحيح الترمذي (١٨٨٦)/ (٢/ ٢٦٨)].

يلي:

* عن بكر بن ماعز قال: مارُئيَ الربيع متطوعاً في مسجد قومه قطّ إلا مرةً واحدة[١].

* وعن سفيان قال: أخبرتني سُرِّيَّة الربيع بن خثيم قالت: كان عمل الربيع كلُّه سراً؛ إن كان لَيجيءُ الرجل وقد نَشَرَ المصحف فيغطيه بثوبه[٢].

* وعن منذر، عن الربيع بن خيثم قال: كلّ مالا يُبْتَغَى به وجْهُ الله عزوجل يضمحل[٣].

* وعن أبي حمزة الثمَّالي قال: كان علي بن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدق به. ويقول: «إن صدقة السرّ تطفئ غضب الرب عز وجل»[٤].

* وعن عمرو بن ثابت، قال: لما مات علي بن الحسين فغسلوه جعلوا ينظرون إلى آثار سُود في ظهره، فقالوا: ما هذا؟ فقالوا: كان يحمل جُرُبَ الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة[٥].

* وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ٦١).
(٢) صفة الصفوة (٣/ ٦١).
(٣) صفة الصفوة (٣/ ٦١).
(٤) صفة الصفوة (٢/ ٩٦).
(٥) صفة الصفوة (٢/ ٩٦).

الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]»[١].

٩ - الشعور بالتقصير والانشغال بإصلاح النفس ونقدها أكثر من الآخرين:

إن من أخطر ما على النفوس أن ينشغل العبد بغيره بالنقد والتقويم وينسى نفسه والتفتيش عن عيوبها وهذا - وللأسف - كثير عندنا في زماننا هذا. وإن من علامات صدق العبد مع ربه ومع نفسه أن ينشغل بنفسه وإصلاحها وتقويمها أكثر مما يعطيه لغيرها، وإذا وجدت هذه الصفة نتج عنها المحاسبة للنفس والتربية والتزكية لها، كما ينتج عن ذلك أيضاً احتقار النفس في ذات الله عزوجل والنظر إليها بعين التقصير في جنب الله، وبالتالي تنتفي صفات العجب والغرور والاعتداد بالنفس، وعلى هذا فلا يجتمع الصدق والعجب في قلب المؤمن أبداً. كما أن هذه الصفة تطهر القلب من الحقد على المسلمين وتَصَيُّد أخطائهم وعثراتهم، والتفكه بذلك في المجالس بحجة الدعوة وبيان الأخطاء والتحذير منها. وهاهم أصحاب محمد ﷺ في محاسبتهم لأنفسهم، واستصحابهم الشعور بالتقصير وسوء الظن بالنفس، واستعظام الهفوة حتى أنهم يرون ما ليس بذنب ذنباً.

(١) تفسير ابن كثير سورة الأعراف آية ٥٥.

* عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه ـ في حديث عظيم له ـ «ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً. .»[1].

* وعن إبراهيم أن أباه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أتي بطعام وكان صائماً فقال: «قتل مصعب بن عمير ـ وهو خير مني ـ كفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه ـ وأراه قال: وقتل حمزة ـ وهو خير مني ـ ، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا. ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام»[2].

١٠ ـ الاهتمام بأمر هذا الدين والجهاد في سبيل الله عزوجل :

إن الصدق في محبة الله عزوجل ومحبة دينه تقتضي أن يكون أمر هذا الدين هو شغل المؤمن الشاغل؛ حيث لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال وهو يرى دين الله عزوجل ينتهك ويقصى من الحياة، وبالتالي يرى الفساد المستطير يدب في أديان الناس ودمائهم وأعراضهم وعقولهم وأموالهم، إن المؤمن الصادق الإيمان لا يُقدِّم على هذا الهم الأكبر أي اهتمام من أمور الدنيا الفانية.

ولكن إلى الله نشكو حالنا وضعف إيماننا وركوننا إلى دنيانا؛ حيث إننا

(١) مسلم ك الزهد (٢٩٦٧)/ (٤/ ٢٢٧٩).

(٢) البخاري ك الجنائز (١٢٧٥)/ فتح (٣/ ١٦٩)، ومواضع أخرى.

إذا رجعنا إلى قلوبنا وفتشنا عن الاهتمامات التي تملؤها؛ لم نجد عند أكثرنا ـ ويا للأسف ـ إلا اهتمامات دنيوية بحتة هي التي تحتل الأرقام الأولى في تفكيرنا: فمنا من همه الأول منصب يحصل عليه، ومنا من همه شهادة يتسلمها ليعيش بها، ومنا من همه زوجته وأولاده أو تجارته وأمواله . . . إلخ. من هذه الاهتمامات الفانية. ثم إن كان هناك فضول تفكير واهتمامات جاء أمر هذا الدين والدعوة إليه بعد الاهتمامات السابقة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ضعف الصدق عندنا في الدعوة إلى الله عزوجل والجهاد في سبيله.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسوله ﷺ يرغب عنها، وهو بارد القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المتحزن المتلمظ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم ـ قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون؛ وهو موت القلوب؛ فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ولرسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل»[1] اهـ.

١١ ـ التميز:

إن التميز في حياة المؤمن أمر ضروري جداً خاصة في عصور الغربة

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٤٧٦).

وطغيان أعمال الجاهلية والحياة المادية على حياة الناس. وإن من علامة الصدق في التمسك بهذا الدين والعض عليه؛ أن يتميز المسلم بالتمسك والقبض على دينه عقيدة وعبادة وسلوكاً، وأن لا يتميع في دينه وينصهر مع المتفلتين منه تحت وطأة الفساد وضغوط الواقع ومسايرة المجتمع.

نعم، إن المسلم الصادق يعرف بتميزه وإصراره على دينه بين الناس، فيعرف بصحة معتقده عند فساد المعتقدات، وبالتزامه بالسنة عند فشو المبتدعات، وبصدق إيمانه إذا فشا الكذب والنفاق، وبعبادته إذ الناس يلهون ويلعبون، وبأخلاقه إذا أهدرت الأخلاق وضيعت، وبالصدق في المعاملات إذا فشا الغش والخيانة والغدر، ويعرف بصمته إذا كثر الخوض والقيل والقال، وبمحاسبة نفسه وتهذيبها إذا خاض الناس بعضهم في بعض، وبدعوته وجهاده في سبيل الله عزوجل إذا أقبلت الدنيا على أهلها وغرقوا في لجحها... إلخ صور التميز التي يقتضيها الصدق والإخلاص. ولاشك أن المعاناة ستكون شديدة لكنها محمودة العواقب في الدنيا والآخرة. وهذه هي صفات الغرباء الذين قال فيهم الرسول ﷺ: «**طوبى للغرباء؛ أناس صالحون في أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**»[1].

«والحقيقة أن قلب الصادق شديد الحساسية فلا يحتمل هؤلاء المثبطين؛ ولهذا فهو يضيق بهم ولا يستطيع مجاورتهم ولا مصاحبتهم ولا مجالستهم. إنه ينشرح صدره ويهش لمن يشوقه إلى الإسراع إلى الله والدعوة إليه»[2].

(١) أحمد (٢/ ١٧٧)، وصححه أحمد شاكر (٦٦٥٠)/ (١٠/ ١٣٥)، وصححه الألباني/ صحيح الجامع (٣٩٢١).

(٢) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان ص٣٣٤.

١٢ ـ قبول الحق والتسليم له :

إن من علامات الصدق لدى المسلم إذعانه للحق وقبوله من أي جهة كانت، فالصادق لا تراه إلا باحثاً عن الحق الذي يتعبد به لربه عزوجل ويقربه إلى مولاه، وإذا بان له الدليل ولاح له الحق فرح به ووجد فيه بغيته، ولا يرده أبداً مهما كان قائله: صغيراً كان أو كبيراً، عدواً كان أو صديقاً.

وإذا وجدت هذه الصفة الكريمة عند المسلم وصارت من عادته وأخلاقه فإنها تنفي كثيراً من الصفات الذميمة مثل: الكبر والاستعلاء والتعصب للآراء والتحزب للأشخاص والهيئات، كما أنها تورث المحبة والألفة بين أهل العلم والدين، وتورث الاجتماع والائتلاف وتنفي الفرقة والاختلاف.

كما أن قبول الحق والتمسك به يقتضي القول به والدعوة إليه دون لبس أو تردد؛ فالصادق لا تراه إلا صادعاً بالحق لا يخاف في الله لومة لائم ولا يجامل ويداهن في ذلك، ولا تصده رغبة ولا رهبة عن قول الحق، كما أن محبته للصدق وقول الحق يجعله لا يمدح أحداً بما ليس فيه، ولا يبخس الناس أشياءهم وحقوقهم؛ فلا يدفعه حبه لشخص ما أن يدفن عيوبه أو يبررها، كما لا يدفعه بغضه لشخص أن يدفن محاسنه أو يسيء الظن بها، وإنما رائده في ذلك كله الصدق والعدل والإنصاف.

❋ ❋ ❋

بعض الوسائل الجالبة للصدق

إن معرفة الوسائل الجالبة للصدق لا تكفي وحدها لجلب الصدق مالم يصاحبها الصدق في طلب الصدق، فمتى علم الله سبحانه صدق عبده في التوجه إليه هداه لذلك. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

ومن هذه الوسائل:

١ ـ توحيد الله عزوجل وصحة المعتقد :

إن توحيد الله عزوجل وإفراده بالعبادة هو الغاية التي خلقنا الله من أجلها، وهو أول واجب على المكلف، وإن تحقيق التوحيد وتصحيح المعتقد هو الذي يجلب الصدق والإخلاص للعبد، فكلما تحقق التوحيد منه ظهر الصدق في حياته جلياً واضحاً؛ لأن أكثر ما يوقع المرء في الكذب والنفاق هو الخوف من المخلوق أو الطمع فيما عنده. وبمعنى آخر: هو التعلق بغير الله عزوجل رغبة ورهبة. فإذا صح التوحيد وتعلق العبد بالله وحده في كل أموره؛ فإن مظاهر الكذب والنفاق تختفي من حياته لأنه قد وجه وجهه لله وحده خوفاً ومحبة ورجاءً وتعظيماً.

وإن حقيقة التوحيد لا توجد إلا بأن يعرف العبد ربه حق المعرفة بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، كما عرّفنا هو سبحانه بنفسه وعرّفه رسوله ﷺ ، لا كما عرفه أهل الأهواء والبدع، وبالتالي يذعن بقلبه وقالبه لربه فيمتلئ

القلب بالمحبة والإجلال والخضوع والإخلاص والصدق وبقية أعمال القلوب، ويظهر مصداق ذلك على استسلام الجوارح وانقيادها لطاعة الله عزوجل؛ وبذلك يتوزع الصدق على قلبه ولسانه وجوارحه.

وإن معرفة الله عزوجل وتوحيده لابد لها من العلم الشرعي والفقه الصحيح لهذا الدين؛ حتى تتم عبادة الله عزوجل على بصيرة واتباع لا على عماية وابتداع، ومن هنا نقول أيضاً: إن العلم الشرعي وسيلة هامة من الوسائل الجالبة للصدق.

٢ ـ الإيمان باليوم الآخر واليقين بلقاء الله عزوجل :

إن المؤمن حقاً باليوم الآخر وبالحساب والجزاء وبالجنة والنار لا تراه إلا صادقاً في جميع أموره، وإن حصل منه كبوة فسرعان ما يقلع عنها بالتوبة والاستغفار؛ لأن من أيقن بالوقوف بين يدي ربه عزوجل والإحصاء الدقيق لكل أقواله وأعماله وأحواله وعرضها على الله عزوجل يوم القيامة؛ سوف يكون حذراً في الدنيا وسوف تنصبغ حياته بالصدق؛ لأنه يوقن أنه لا ينفع يوم القيامة إلا الصدق، قال تعالى: ﴿ **هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ** ﴾ [المائدة: ١١٩]

إن الإيمان باليوم الآخر وملاقاة الله عزوجل هو الذي دفع المؤمنين لطاعة ربهم، وهو الذي دفع المجاهدين في سبيل الله عزوجل ليبذلوا أنفسهم وأموالهم رخيصة لربهم عزوجل، ولولا صدق هذا الإيمان لما كانت هذه التضحيات وهذه البطولات الصادقة، قال تعالى: ﴿ **لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي**

رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٤، ٤٥].

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى:

«وهذه هي القاعدة التي لا تخطئ. فالذين يؤمنون بالله، ويعتقدون بيوم الجزاء، لا ينتظرون أن يؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد؛ ولا يتلكأون في تلبية داعي النفرة في سبيل الله بالأموال والأرواح؛ بل يسارعون إليها خفافاً وثقالاً كما أمرهم الله، طاعة لأمره، ويقيناً بلقائه، وثقة بجزائه، وابتغاء لرضاه. وإنهم ليتطوعون تطوعاً فلا يحتاجون إلى من يستحثهم، فضلاً عن الإذن لهم. إنما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلكأون ويتلمسون المعاذير، لعل عائقاً من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها، وهم يرتابون فيها ويترددون.

إن الطريق إلى الله واضحة مستقيمة، فما يتردد ويتلكأ إلا الذي لا يعرف الطريق، أو الذي يعرفها ويتنكبها اتقاء لمتاعب الطريق!»[1] ا.هـ.

وقد مر بنا في قصة بني إسرائيل الذين قاتلوا مع طالوت أن الذين ثبتوا في النهاية وحثوا قومهم على الثبات؛ هم الذين أيقنوا بلقاء الله عزوجل في الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

٣ ـ التخفف من الدنيا وعدم الركون إليها:

إن التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت

(١) في ظلال القرآن: سورة التوبة ٤٤ ـ ٤٥.

قبل نزوله، كل هذا من الوسائل المهمة في إنشاء الصدق في حياة المسلم والعكس صحيح؛ فالانغماس في ملذات الدنيا وترفها والركون إليها ينتج عنه غفلة عن الآخرة وينشأ عنه تشتت القلب في أوديتها وإعمال الفكر للاستزادة منها والخوف على فواتها، وهنا يضعف الصدق لشحن القلب بها. كما أن ضعف الصدق ينشأ أيضاً من مظاهر الكذب والتدليس والطمع والجشع والمعاملات المحرمة والتي قل من يسلم منها من أهل الدنيا، وخاصة في واقعنا المعاصر والذي كثرت فيه المعاملات المحرمة والشبهات والكذب والغش والجشع.

٤ ـ مصاحبة الصادقين :

إن في صحبة الصادقين من المؤمنين نفعاً عظيماً لمن صاحبهم وخالطهم وهذا شيء معروف ومجرب؛ فالإنسان تؤثر فيه البيئة التي يعيش فيها والخلطاء الذين يخالطهم. وهذا هو ما يسميه المربون وعلماء النفس التربية بالقدوة؛ لأن رؤية القدوات الصادقة لابد أن تؤثر فيمن صاحبهم ـ إذا كان أهلاً للخير ـ ، والعكس صحيح فصحبة المنافقين والكذابين والدجالين لابد أن تظهر صفاتهم على من صاحبهم. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩]، فالكون مع الصادقين طريق إلى الصدق والاتصاف بصفاتهم والتحلي بأخلاقهم، وهم الذين ظهرت عليهم علامات الصدق التي أشرنا إليها في المبحث السابق.

قال يوسف الواعي في سلوك المسلم :

« العيش مع الصادقين نعمة لا ينالها إلا كل سعيد، ومخالطتهم هناء لا يحظى به إلا كل موفق، ومصاحبتهم أمان لا يحسه إلا أصحاب البصائر والنهى؛ لأن للكذابين ضمائر خربة وذمماً ملوثة، لا يؤمن لهم جانب، أو

يُطمأن إلى قولهم أو يؤنس إلى فعلهم، فمن سمات الصادقين، شفافية ووضوح، ونقاء وطهر، ورجولة ووفاء، ومن علامات الصدق طمأنينة القلب إليه»[١] اهـ.

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لولا ثلاث لما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر». وقال أيضاً: «اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون، فإنهم تجلى لهم أمور صادقة، وذلك لقرب قلوبهم من الله».

كما يدخل في هذه الوسيلة الإكثار من قراءة سير الصالحين الصادقين من أنبياء الله الكرام وصحبهم الأجلاء والتابعين لهم بإحسان؛ فإن في ذلك تربية بالقدوة والسير على آثارهم.

٥ ـ النظر في عاقبة الصدق:

إنه يكفي لجلب الصدق والتخلق به أن ننظر في عاقبته الحميدة في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا تحصل منه البركة والنماء في الأموال كما قال ﷺ: **«البيعان بالخيار مالم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما»**[٢]، كما أن فيه النجاة من مضايق الدنيا وشدائدها كما سبق في حديث الثلاثة أصحاب الغار، كما أن فيه كسب محبة الناس وتقديرهم، وغير هذا كثير في الدنيا.

أما في الآخرة فيكفي أن نعلم أنه لا ينفع من الأعمال والأقوال عند الله عزوجل يوم القيامة إلا ما كان فيه الصدق والإخلاص، وأما ما سوى ذلك

---

(١) سلوك المسلم ليوسف الواعي ص٥١.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٩٥.

فيذهب أدراج الرياح ولا يكون حظ صاحبه منه إلا التعب والسهر. قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال عزوجل: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

والمقصود أن من أعظم الوسائل الجالبة للصدق هو استشعار هذا الأمر، وتحري الصدق في كل الأحوال حتى يربح العبد ثواب الله عزوجل، ويحرص أشد الحرص على تجنب ما يفسدها مما ينافي الصدق، فتضيع عليه أعماله في يوم أشد ما يكون حاجة إلى حسنة واحدة يرجح بها ميزانه.

٦ ـ الإكثار من الأعمال الصالحة وإخفاء ما يمكن منها :

إن الإكثار من الأعمال الصالحة وخاصة المخفي منها يعتبر من الوسائل التي يتوصل بها إلى الصدق والإخلاص، يقول الله عزوجل في الحديث القدسي: «**وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**... الحديث»[1].

فالشاهد من هذا الجزء من الحديث القدسي هو محبة الله عزوجل للمكثر من النوافل حتى تصبح جوارحه لا تنطلق إلا في مرضاة الله عزوجل، وهذا هو حقيقة الصدق، ثم إنه كلما كان العمل لا يراه إلا الله عزوجل كان أقرب للصدق والإخلاص، ولذا جاء الترغيب في أداء النوافل في البيوت وإخفاء ما يمكن إخفاؤه لأنه أرجى للقبول والثواب لتحقق الصدق، أما مالا يمكن إخفاؤه كأداء الفرائض فهذه لابد من إظهارها مع جماعة المسلمين، وهي

(١) سيأتي تخريجه.

وسيلة مهمة من وسائل جلب الصدق والتعود عليها إذا صاحبها الإخلاص.

٧ـ تحري الصدق في الحديث وتجنب الكذب :

إن توطين النفس على الصدق في الحديث ومجاهدتها في ذلك هو بداية الطريق الموصل بإذن الله عزوجل للوصول إلى الصدق الشامل في جميع الأحوال، بل هو الوسيلة إلى نيل مرتبة الصديقية الشريفة. قال ﷺ : « . .**ومايزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً**. . . الحديث».

فتحري الصدق وترويض النفس عليه يصيره خلقاً وعادة للنفس يسري على جميع الأحوال، وكذا الحال في الكذب فإن التهاون به والترخص فيه وعدم محاسبة النفس في ذلك يبعدها عن الصدق بل يصير عادة وطبعاً للعبد، وقد يؤدي به ذلك إلى أن يكتب عند الله كذاباً والعياذ بالله.

والمقصود أن تحري الصدق والوسائل الموصلة إليه، وتجنب الكذب والوسائل المؤدية إليه، كل ذلك يؤدي إلى الصدق، وبالتالي إلى المرتبة العظيمة ؛ألا وهي مرتبة الصديقية التي يتنافس فيها الصادقون ويشمر إليها المشمرون.

وثمة مسألة أرى أن لها علاقة بهذه الوسيلة وهي من أكثر الوسائل التي توقع المرء في الكذب ألا وهي (الوقوع فيما يعتذر منه)؛ فإن الوقوع فيما يعتذر منه وينتقد فيه صاحبه لهو من الأسباب التي تُلجئ إلى الكذب حتى يبرر موقفه أو يزيل عن نفسه التبعة والخطأ؛ فيلجأ إلى الكذب ويفر من الصدق لأنه بظنه يؤدي إلى سقوطه من أعين الناس أو تحميله مسؤولية خطئه، مع العلم أن النجاة في الصدق ولو بعد حين، ولذلك أرى من

الوسائل الجالبة للصدق هو تجنب ما يعتذر منه ما أمكن، هذا أولاً، وثانياً لو وقع منه ما يعتذر منه فإن النجاة في الصدق ولو حصل مفسدة قليلة من جراء ذلك، اللهم إلا إذا كانت المفسدة كبيرة وعامة فحينئذ يوازن بين الأمرين كما سبق إيضاحه في الصدق المذموم.

« وقد يندفع الإنسان إلى الكذب حين يعتذر عن خطأ وقع منه، ويحاول التملص من عواقبه. وهذا غَباء وهوان، وهو فرار من الشر إلى مثله أو أشد. والواجب أن يعترف الإنسان بغلطه، فلعل صدقه في ذكر الواقع، وَألمهُ لما بَدَرَ منه يمسحان هفوته ويغفران زلته.

ومهما هَجس في النفس من مخاوفَ - إذا قيل الحقُّ - فالأجدر بالمسلم أن يتشجع، وأن يتحرج من لوثات الكذب»[1] اهـ.

٨ - الإكثار من دعاء الله عزوجل والاستغفار:

إن ما سبق ذكره من الوسائل لا تحصل للعبد بدون توفيق الله عزوجل وإعانته له على تحصيله لها؛ ولهذا فلابد للعبد أن يستعين بربه عزوجل في أموره كلها؛ ومنها هذا الأمر. -

فالأمر كله بيد الله عزوجل ولا حول ولا قوة إلا به، ولو تخلى الله سبحانه عن عبده لحظة واحدة لهلك؛ ولذلك جاء عن النبي ﷺ الإكثار من هذا الدعاء: «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»[2].

وقال ﷺ لمعاذ بن جبل: «**يا معاذ، والله إني لأحبك؛ أوصيك يا معاذ لا**

(١) أخلاق المسلم للغزالي ص٤٣.

(٢) رواه الحاكم (١/ ٥٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٥٨٢٠.

تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[(١)] ، فالعبد لا يقدر على شيء من أمور الدين أو الدنيا إلا بتوفيق الله سبحانه والاستعانة به عزوجل.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى:

«وشهدت شيخ الإسلام قدس الله روحه إذا أعيته المسائل واستعصت عليه فر منها إلى التوبة والاستغفار والاستعانة بالله واللجوء إليه، واستنزال الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته. فقلما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مداً، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ، ولاريب أن من وُفِّق لهذا الافتقار علماً وحالاً وسار قلبه في ميادينه بحقيقة وقصد فقد أعطي حظه من التوفيق، ومن حُرِمه فقد منع الطريق والرفيق، فمتى أعين مع هذا الافتقار ببذل الجهد في درك الحق فقد سلك به الصراط المستقيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»[(٢)] اهـ.

والمقصود أن من أعظم الوسائل الجالبة للصدق دعاء الله بصدق للتوفيق إلى الصدق، وقد كان من الدعاء الذي علمه الله سبحانه لنبيه ﷺ هو قوله: ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٨٠] ، ففي هذا الدعاء العظيم سؤال الله عزوجل الصدق في جميع المداخل والمخارج أن تكون لله وبالله وبأمره وابتغاء مرضاته.

---

(١) أبو داود ك الصلاة (١٥٢٢)/ (٢/ ١٨١)، والنسائي (٣/ ٥٣). وصححه الألباني [صحيح الجامع (٧٩٦٩)].

(٢) إعلام الموقعين (٤/ ١٧٨).

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : «وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه ـ أو مدخلاً آخر ـ إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله : لا يعدو الصدق والكذب، والله المستعان »[١] اهـ.

وقال القرطبي رحمه الله عن هذه الآية : « فهي دعاء، ومعناه : رب أصلح لي وردي وصدري في كل الأمور»[٢]اهـ.

وجاء عنه ﷺ دعاؤه : «**اللهم طهر قلبي من النفاق، وعملي من الرياء، ولساني من الكذب، وعيني من الخيانة؛ فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**»[٣].

وهذا دعاء بالصدق الشامل للقلب واللسان والعمل. والأدعية كثيرة، وما تم إيراده على سبيل المثال لا الحصر، والمقصود من ذلك التنبيه على هذا الباب العظيم من الوسائل الجالبة للصدق ألا وهو اللجوء إلى الله عزوجل بنية صادقة لالتزام الصدق وما يؤدي إليه.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

«والمعول في ذلك كله على حسن النية، وخلوص القصد، وصدق التوجه في الاستمداد من المعلم الأول : معلم الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم؛ فإنه لا يرد من صدق في التوجه إليه لتبليغ دينه وإرشاد

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٧١).

(٢) تفسير القرطبي الإسراء ٨٠.

(٣) رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٥/ ٢٦٨)، والبيهقي في الدعوات الكبير. وضعفه الألباني [ضعيف الجامع (١٢٠٩)].

عبيده ونصيحتهم والتخلص من القول عليه بلاعلم»[١] اهـ.

ومن دعائه ﷺ: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد**»[٢].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح وما أتي العبد إلا من تضييعهما أو تضييع إحداهما، فما أتي أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداآت له، أو من باب التهاون والتماوت وتضييع الفرصة بعد موافاتها. فإذا حصل الثبات أولاً، والعزيمة ثانياً أفلح كل الفلاح، والله ولي التوفيق»[٣] اهـ.

❋ ❋ ❋

(١) إعلام الموقعين (٤/ ٢٥٨)

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٢٥)، والنسائي (٣/ ٥٤).

(٣) مفتاح دار السعادة ص١٥٤.

من ثمرات الصدق

إن عاقبة الصدق حميدة في الدنيا والآخرة وثمراته كثيرة وعظيمة، وإن مدار القبول والثواب عند الله عزوجل على الصدق والإخلاص.

وعكس ذلك الكذب الذي هو أساس الفجور والفساد والهلاك.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «إياك والكذب فإنه يفسد عليك تصور المعلومات على ما هي عليه، ويفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس؛ فإن الكاذب يصور المعدوم موجوداً والموجود معدوماً، والحق باطلاً والباطل حقاً، والخير شراً والشر خيراً؛ فيفسد عليه تصوره وعلمه عقوبة له، ثم يصور ذلك في نفس المخاطب المغتر به الراكن إليه فيفسد عليه تصوره وعلمه.

ونفس الكاذب معرضة عن الحقيقة الموجودة، نزاعة إلى العدم، مؤثرة للباطل، وإذا فسدت عليه قوة تصوره وعلمه التي هي مبدأ كل فعل إرادي فسدت عليه تلك الأفعال وسرى حكم الكذب إليها؛ فصار صدورها عنه كصدور الكذب عن اللسان فلا ينتفع بلسانه ولا بأعماله: ولهذا كان الكذب أساس الفجور كما قال النبي ﷺ: **«إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار»**[1].

---

(١) سبق تخريجه.

وأول ما يسري الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده، ثم يسري إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها كما أفسد على اللسان أقواله؛ فيعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله فيستحكم عليه الفساد ويترامى داؤه إلى الهلكة إن لم يتداركه الله بدواء الصدق يقلع تلك المادة من أصلها.

ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلها الصدق، وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجبن والمهانة وغيرها أصلها الكذب؛ فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب.

والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته، فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق ولا مفاسدهما ومضارهما بمثل الكذب: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩]»[(١)] اهـ.

وقد سبق في مبحث (علامات الصدق) ذكر شيء من هذه الثمرات؛ لأن الثمرة إذا أينعت فإنها تصير علامة ظاهرة على صاحبها، ولذا فقد أضطر إلى التكرار لما جاء هناك ولكن بمنظار آخر.

ومن هذه الثمار مايلي:

١ ـ الحصول على الأجر العظيم والثواب الجزيل عند الله عزوجل:

إن الأعمال التي يصدق فيها صاحبها مع الله عزوجل ويبتغي بها وجهه

(١) الفوائد ص١٣٥.

سبحانه هي التي يبقى ذخرها ونفعها يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

يقول القرطبي عند تفسير هذه الآية: «وإنما ينفعهم الصدق في ذلك اليوم وإن كان نافعاً في كل الأيام لوقوع الجزاء فيه». ا. هـ.

ويقول الإمام الطبري عند هذه الآية: «﴿يَنفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ في الدنيا، ﴿صِدْقُهُمْ﴾ ذلك في الآخرة عند الله، ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ يقول: للصادقين في الدنيا جنات تجري من تحتها الأنهار في الآخرة ثواباً لهم من الله عزوجل، على ما كان من صدقهم الذي صدقوا الله فيما وعدوه، فوفوا به لله، فوفى الله عزوجل لهم ما وعدهم من ثوابه»[1] اهـ.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] أي ما كان خالصاً لوجه الله عزوجل، صادقاً فيه لربه سبحانه.

٢ ـ الطمأنينة والسكينة والثبات:

لقد مر بنا في علامات الصدق الحديث عن هذه الثمرة، وقد أوردتها هناك لأنها من علامات الصدق العظيمة التي يثمرها الصدق مع الله عزوجل في الأحوال كلها، ومن آثار الطمأنينة والسكينة في القلب عدم اضطرابه وتقلبه عند ثورة الشبهات أو الشهوات، بل يبقى ثابتاً مطمئناً لا تزعزعه الفتن ولا تقلقه البلايا والنوازل؛ وذلك لما في قلبه من الصدق الذي صار به

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٤٢) طبعة الحلبي.

مطمئناً مقتنعاً بما يعتقد، تزول الجبال ولا تزول هذه القناعة من قلبه؛ بعكس القلوب المريضة المليئة بالكذب والريبة فلا تراها إلا مضطربة لا تثبت على شيء ولا تتماسك أمام فتن الشبهات أو الشهوات، وهذا مصداق قوله ﷺ: «**الصدق طمأنينة، والكذب ريبة**»[(١)] .

وقد أورد الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى كلاماً نفيساً حول هذا المعنى فقال: «تحت قوله: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ، كنز عظيم من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غنم، ومن حُرمه فقد حُرم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما.

وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه وعبده ورسوله: ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [الأنفال: ١٢].

وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: «**وهو يسألهم ويثبتهم**»[(٢)] ، وقال تعالى لرسوله: ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾ [هود: ١٢٠]

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أحمد: ٢/ ٣٦٨، والترمذي ك صفة الجنة (٢٥٦٠): ٧/ ٢٣٤ عن أبي هريرة. وصححه الترمذي وأحمد شاكر (٨٨٠٣): ١٧/ ١٣. وأصله في الصحيحين بغير الجملة المذكورة هنا. وليس هو من حديث البجلي وإنما ورد من حديث أبي هريرة وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنهم.

فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت وفعل ما أمر به الله، فبهما يثبت الله عبده، فكل من كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتاً، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: ٦٦]، فأثبت الناس قلباً أثبتهم قولاً، والقول الثابت هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب؛ فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة؛ ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلباً، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلوناً وأقلهم ثباتاً، وأهل الفِرَاسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار وشجاعته ومَهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك، ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به، فقال: والله ما فهمت منه شيئاً إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل، فما مُنح العبد منحة أفضل من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم ويوم مَعادهم، كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر»[1] اهـ.

وإن من آثار الطمأنينة في القلب سكينته واستقراره، وهذا يظهر على

---

(١) أعلام الموقعين ١/ ١٧٦ـ١٧٧ .

والحديث في: البخاري ك الجنائز (١٣٦٩): ٣/ ٢٧٤ ، ومسلم ك الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧١): ٤/ ٢٢٠١ .

الجوارح والمواقف المختلفة، وأنقل هنا كلاماً بديعاً مفيدا للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى حول السكينة فيقول:

« فالسكينة فعيلة من السكون، وهي طمأنينة القلب واستقراره، وأصلها في القلب، ويظهر أثرها على الجوارح، وهي عامة وخاصة.

فسكينة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أخص مراتبها وأعلى أقسامها، كالسكينة التي حصلت لإبراهيم الخليل وقد ألقي في المنجنيق مسافراً إلى ما أضرَم له أعداء الله من النار، فلله تلك السكينة التي كانت في قلبه حين ذلك السفر! وكذلك السكينة التي حصلت لموسى وقد غَشيه فرعون وجنوده من ورائهم والبحر أمامهم، وقد استغاث بنو إسرائيل: يا موسى إلى أين تذهب بنا؟ هذا البحر أمامنا وهذا فرعون خلفنا! وكذلك السكينة التي حصلت له وقت تكليم الله له نداء ونجاء كلاماً حقيقة سمعه حقيقة بأذنه، وكذلك السكينة التي حصلت له وقد رأى العصا ثعباناً مبيناً، وكذلك السكينة التي نزلت عليه وقد رأى حبال القوم وعِصيَّهم كأنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة.

وكذلك السكينة التي حصلت لنبينا ﷺ وقد أشرف عليه وعلى صاحبه عدوهما وهما في الغار، فلو نظر أحدهم تحت قدميه لرآهما، وكذلك السكينة التي نزلت عليه في مواقفه العظيمة، وأعداء الله قد أحاطوا به كيوم بدر ويوم حُنَيْن ويوم الخندق وغيره.

فهذه السكينة أمر فوق عقول البشر، وهي من أعظم معجزاته عند أرباب البصائر، فإن الكذَّاب ـ ولا سيما على الله ـ أقلق ما يكون وأخوف ما يكون وأشده اضطراباً في مثل هذه المواطن؛ فلو لم يكن للرسل صلوات الله

وسلامه عليهم من الآيات إلا هذه وحدها لكفتهم.

وأما الخاصة فتكون لأتباع الرسل بحسب متابعتهم، وهي سكينة الإيمان وهي سكينة تسكن القلوب عن الريب والشك، ولهذا أنزلها الله على المؤمنين في أصعب المواطن أحوج ما كانوا إليها ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ [الفتح: ٤]، فذكر نعمته عليهم بالجنود الخارجة عنهم والجنود الداخلة فيهم، وهي السكينة عند القلق والاضطراب الذي لم يصبر عليه مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك يوم الحديبية.

قال الله سبحانه وتعالى يذكر نعمته عليهم بإنزالها أحوج ما كانوا إليها: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ [الفتح: ١٨]، لما علم الله سبحانه وتعالى ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخول بيت الله، وحبسوا الهديَ عن محله، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم، وقلقت ولم تُطق الصبر، فعلم تعالى ما فيها، فثبتها بالسكينة رحمة منه ورأفة ولطفاً، وهو اللطيف الخبير.

وتحتمل الآية وجهاً آخر، وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبته ومحبة رسوله فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها. والظاهر أن الآية تعم الأمرين، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينة وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها.

ثم قال بعد ذلك: ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ**

وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦] ، لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال مايناسبها جعل الله في قلوب أوليائه سكينة تقابل حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور، فكان حظ المؤمنين السكينة في قلوبهم، وكلمة التقوى على ألسنتهم، وحظ أعدائهم حمية الجاهلية في قلوبهم، وكلمة الفجور والعدوان على ألسنتهم.

فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جنداً من جند الله أيد بها الله رسوله والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم. وثمرة هذه السكينة الطمأنينة للخبر تصديقاً وإيقاناً وللأمر تسليماً وإذعاناً، فلا تدع شبهة تعارض الخبر ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوساوس الشيطانية التي يُبْتَلى بها العبد ليقوى إيمانه، ويعلو عند الله ميزانه، بمدافعتها وردها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله.

ومنها السكينة عند القيام بوظائف العبودية، وهي التي تورث الخضوع والخشوع وغَضَّ الطرف وجمعية القلب على الله تعالى بحيث يؤدي عبوديته بقلبه وبدنه، والخشوع نتيجة هذه السكينة وثمرتها، وخشوع الجوارح نتيجة خشوع القلب، وقد رأى النبي ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «**لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**»[١] .

فإن قلت: قد ذكرت أقسامها ونتيجتها وثمرتها وعلامتها، فما أسبابها الجالبة لها؟

قلت: سببها استيلاء مراقبة العبد لربه جل جلاله حتى كأنه يراه، وكلما

(١) موضوع مرفوعاً، وسنده جيد موقوفاً على سعيد بن المسيب. قاله الألباني في السلسلة الضعيفة (١١٠)/ (١/ ٢٢٧).

اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء مالا يحصل بدونها، فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها وعمودها الذي قيامها به، ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمة واحدة، وهي قوله في الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»(١) . فتأمل كل مقام من مقامات الدين، وكل عمل من أعمال القلوب، كيف تجد هذا أصله ومنبعه؟

والمقصود أن العبد محتاج إلى السكينة عند الوساوس المعترضة في أصل الإيمان ليثبت قلبه ولا يزيغ، وعند الوساوس والخَطَرات القادحة في أعمال الإيمان لئلا تقوى وتصير هموماً وغموماً وإرادات ينقص بها إيمانه، وعند أسباب المخاوف على اختلافها ليثبت قلبه ويسكن جأشه، وعند أسباب الفرح لئلا يطمح به مركبه فيجاوز الحد الذي لا يُعبَر فينقلب ترحاً وحزناً، وكم ممن أنعم الله عليه بما يفرحه فجمح به مركب الفرح وتجاوز الحد فانقلب ترحاً عاجلاً »(٢) اهـ.

مما سبق يتبين لنا أهمية الصدق مع الله عزوجل ومراقبته في جلب السكينة والطمأنينة، وهذه الثمرة العظيمة هي محك اليقين والإيمان الحق، ولا تظهر أو تختفي إلا حين الشدائد وثوران الشهوات و الشبهاتأو الخوف والطمع.

وقد مر بنا قصة الذين خرجوا مع طالوت وتساقطوا فئة فئة أمام الامتحان، ولم يثبت إلا الصادقون الموقنون بلقاء الله عزوجل : ﴿قَالَ الَّذِين

---

(١) رواه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩) من حديث أبي هريرة. ورواه مسلم في الإيمان (٨) من حديث عمر.

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٢٠٢).

يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قال القرطبي عند تفسير هذه الآية: «قال المؤمنون الموقنون بالبعث والرجوع إلى الله تعالى عند ذلك وهم عدة أهل بدر: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ . . .

قال ابن عباس والسدي: جاز معه النهر أربعة آلاف رجل فيهم من شرب، فلما نظروا إلى جالوت وجنوده وكانوا مائة ألف كلهم شاكون في السلاح رجع منهم ثلاثة آلاف وستمائة وبضعة وثمانون»[1] اهـ.

والحاصل: أن الثبات والطمأنينة أمام الخوف والطمع وأمام فتن الشبهات والشهوات؛ لا تتم وتكون إلا بالصدق في عبادة الله عزوجل واتباع محمد ﷺ والاستعداد الصادق للقاء الله سبحانه.

نسأل الله تعالى أن يربط على قلوبنا بالإيمان الصادق، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فهو سبحانه الذي بيده قلوب العباد يقلبها كيف يشاء، وينزل السكينة على من يشاء ويصرفها عمن يشاء بعلمه وحكمته؛ فلا يثبت إلا من ثبته الله عزوجل وعلم منه صدق التوجه واللجوء إليه سبحانه.

وعلى العبد أن لا يعرض نفسه للفتن والبلايا لأنه لا يدري ما تكون حاله حينئذ، بل يسأل الله عزوجل العافية، كما يسأله الصبر والثبات عند نزولها.

---

(١) تفسير القرطبي آية ٢٤٩ من سورة البقرة.

٣ ـ الاندفاع في الدعوة إلى الله عزوجل والتضحية في سبيله :

وهذه الثمرة هي محصلة الثمرة السابقة؛ فإن الصدق في عبادة الله عزوجل والاطمئنان لوعد الله عزوجل لعباده المؤمنين كل هذا يثمر في حياة المسلم اندفاعاً شديداً وحماساً متقداً للدعوة إلى الله عزوجل والجهاد في سبيله؛ وذلك لاطمئنانه بصحة طريقه ومنهجه ويقينه بلقاء ربه عزوجل ومجازاته على عمله يوم القيامة.

فبقدر ما يكون في القلب من الطمأنينة والقناعة بصحة المسار تكون الدعوة والتضحية، بعكس من لم يكن لديه القناعة والاطمئنان الكافيان فإن الحماس للدعوة يكون ضعيفاً، ولو كان قوياً في بداية الأمر فسرعان ما يضعف إذا لم يتحقق الصدق المثمر للثبات على الأمر وعدم الاهتزاز والتردد فيه.

وهذا أمر مهم يجب أن ننتبه إليه وينتبه إليه المربون وذلك في التربية على الصدق واليقين والقناعة التامة القائمة على الإخلاص لله عزوجل، والمتابعة لرسوله ﷺ . وهذا بدوره ينبهنا على بعض الأخطاء في التربية والتي يقوم بعضها على غير بصيرة وبالتالي على غير قناعة، وفي النهاية يخبو الحماس وتضعف التضحية أو لا توجد ألبتة.

إنه ليس أفضل ولا أربح في الدنيا والآخرة من العمل النابع من القناعة التامة بما يعمله المسلم والذي يثمر الاندفاع الشديد والعمل المتواصل إلى نهاية الأجل، وحتى توجد هذه الثمرة يجب علينا أن نتفقد حقيقة الصدق في نفوسنا نحو ديننا ونحو موعود الله عزوجل لنا، وأن لا نعلق أنفسنا ونحن ندعو إلى الله عزوجل في هذه الدنيا بشيء من مكاسبها، وإنما نربي أنفسنا

ومن حولنا على أن نبذل كل ما في وسعنا في هذا العمر القصير لنفوز برضوان الله عزوجل وجنته هناك في الدار الآخرة؛ لأن من تعلق بشيء من هذه الدنيا في عمله فإنه وإن اندفع في البداية فسيخبو بعد حين إذا نال مطلوبه أو يئس من الحصول عليه، بينما المؤمن الصادق المطمئن في سيره إلى الله عزوجل لا يتوقف أبداً إلا عند الموت؛ لأنه ربى نفسه على أن يعطي في هذه الدنيا ولا يأخذ فيها شيئاً وإنما علق نفسه بالآخرة هناك حيث الأجر والثواب.

وهذا ما كان يربي عليه الرسول ﷺ أصحابه حيث لم يعلقهم بشيء من هذه الدنيا وإن كان الله عزوجل قد فتح عليهم خزائنها، لكنه ﷺ كان يعلقهم بالجنة، فيمر على آل ياسر وهم يعذبون فلا يجد ما يواسيهم به إلا أن يقول: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**»[1].

وعندما سأله ﷺ الأنصار في بيعة العقبة بعد أن ذكر شرطه عليهم في البيعة فقالوا: مالنا إن بايعناك على ذلك؟ قال: «**لكم الجنة**»[2]، فلم يعدهم بشيء غير ذلك مع أنه قد تحقق لهم بهذه البيعة الفتوحات العظيمة، ولكنه ﷺ لم يعلقهم بذلك وإنما علقهم برضوان الله سبحانه والجنة، وهكذا تكون التربية.

والحاصل أنه كلما كان العبد صادقاً في معتقده وصادقاً في الاستعداد للقاء ربه سبحانه كلما كان مندفعاً مضحياً صابراً محتسباً في سبيل الله عزوجل، وإلا فما الذي جعل غلام الأخدود وإخوانه يقدمون على الموت

---

(١) الحاكم بنحوه: ٣/ ٣٨٨، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أحمد (٣/ ٣٢٢)، والحاكم (٢/ ٦٢٥) وصححه، ووافقه الذهبي وبنحوه مسلم (٣/ ١٣٣٤) تحت (١٧٠٩).

الأحمر وهم يرونه رأي العين ولا يترددون؟ إنه والله الإيمان الصادق الراسي في قلوبهم رسو الجبال، وكذلك الذين قدموا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله عزوجل ما الذي دفعهم إلى التضحية بكل ذلك غير الإيمان الحق واليقين الصادق. نسأل الله عزوجل أن يلحقنا بهم.

٤ ـ القبول عند الناس والتأثير فيهم :

وهذه من أعظم ثمرات الصدق في الدنيا لأن الكلمة الصادقة والتي تنبع من قلب صادق تفعل فعلها في القلوب ويكتب الله لها القبول عند الناس، وهذا أمر مشاهد؛ فما من رجل حقق الصدق مع ربه عزوجل ووافقت سريرته علانيته، والتزم بما يدعو إليه مع نفسه قبل دعوة الناس إليه؛ إلا ويستجيب الناس له وتؤثر دعوته فيهم، إلا من أعرض ونأى بجانبه عن الحق، فمثل هذا لا تنفع فيه المواعظ من أي جهة كانت ولو من أنبياء الله عزوجل الذين بلغوا الكمال في الصدق والإخلاص.

وإن أكثر ما ينفر الناس عن الداعية هو تناقض الداعية مع نفسه؛ حيث يدعو إلى الخير والبر وينسى نفسه، فهذه الحالة تجعل الناس في حيرة واضطراب بين سماع الطيب من كلام الداعية وبين ما يضاد ذلك من فعله وأحواله.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالي عند قوله تعالى: ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ٤٤]:

«والدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه، هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك لا في الدعاة وحدهم ولكن في الدعوات ذاتها. وهي

التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم، لأنهم يسمعون قولاً جميلاً، ويشهدون فعلاً قبيحاً؛ فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل؛ وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة؛ وينطفئ في قلوبهم النور الذي يشعه الإيمان؛ ولا يعودون يثقون في الدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين.

إن الكلمة لتنبعث ميتة، وتصل هامدة، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها. ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول، وتجسيماً واقعياً لما ينطق.. عندئذ يؤمن الناس، ويثق الناس، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق.. إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها؛ وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها.. إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة، لأنها منبثقة من حياة.

والمطابقة بين القول والفعل، وبين العقيدة والسلوك، ليست مع هذا أمراً هيناً، ولا طريقاً معبداً. إنها في حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة. وإلى صلة بالله، واستمداد منه، واستعانة بهديه؛ فملابسات الحياة وضروراتها واضطراراتها كثيراً ما تنأى بالفرد في واقعه عما يعتقده في ضميره، أو عما يدعو إليه غيره. والفرد الفاني ما لم يتصل بالقوة الخالدة ضعيف مهما كانت قوته، لأن قوى الشر والطغيان والإغواء أكبر منه؛ وقد يغالبها مرة ومرة ومرة؛ ولكن لحظة ضعف تنتابه فيتخاذل ويتهاوى، ويخسر ماضيه وحاضره ومستقبله؛ فأما وهو يركن إلى قوة الأزل والأبد فهو قوي قوي، أقوى من كل قوي. قوي على شهوته وضعفه. قوي على ضروراته

واضطراراته. قوي على ذوي القوة الذين يواجهونه»[١] .

وذكر صاحب الحلية عن مالك بن دينار قوله: «الصدق والكذب يعتركان، حتى يخرج أحدهما صاحبه، وإن الصدق يبدو في القلب ضعيفاً كما يبدو نبات النخلة، يبدو غصناً واحداً، فإذا شقها الصبي ذهب أصلها، وإن أكلتها عنز ذهب أصلها فتسقى فتنتشر، وتسقى فتنتشر حتى يكون لها أصل أصيل يُوطأ، وظل يُستظل به، وثمرة يؤكل منها. كذلك الصّدق يبدو في القلب ضعيفاً، فيتفقده صاحبه ويزيده الله تعالى، ويتفقده صاحبه، فيزيده الله، حتى يجعله الله بركة على نفسه، ويكون كلامه دواءً للخاطئين.

ثم قال مالك: أما رأيتموهم؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: بلى والله لقد رأيناهم: الحسن البصري، وسعيد بن جبير وأشباهم، الرجل منهم يحيي اللهُ بكلامه الفِئام ـ الجماعات ـ من الناس»[٢] .

وذكر الذهبي رحمه الله تعالى في ترجمة محمد بن واسع رحمه الله تعالى فقال: «روي أن قاصاً كان بقرب محمد بن واسع فقال: مالي أرى القلوب لا تخشع، والعيون لا تدمع، والجلود لا تقشعر؟ فقال محمد: يا فلان ما أرى القوم أتوا إلا من قبلك، إن الذكر إذا خرج من القلب وقع على القلب»[٣] .

٥ ـ الألفة والمحبة بين الناس :

لقد سبق في مبحث (علامات الصدق) الحديث عن سلامة القلب وحب

---

(١) في ظلال القرآن البقرة آية ٤٤ .

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٣٥٩).

(٣) السير للذهبي (٦/ ١٢٢).

الخير للناس ونقاء القلب من الحسد والبغضاء لهم، وأن هذا من علامات الصدق، وبالتالي فإن مثل هذه الصفات إذا وجدت بين الناس فلا شك أن الألفة والمحبة ستسود بينهم، وبالتالي ينشأ المجتمع متآلفاً متكافلاً تنتشر بين أفراده المحبة والإخاء والتعاون، فلا يخشى بعضهم من بعض أن يخونه أو يغشه أو يكيد له أو يمكر به؛ لأن كل هذه الخلال الذميمة ينفيها الصدق كما ينفي الكير خبث الحديد.

فإذا وجد مثل هذا المجتمع المتواد المتراحم المتلاحم فهو حري بالخير العميم والوقوف أمام كيد الأعداء ومخططاتهم؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ثم إن الصدق مع الله سبحانه في النصح للمسلمين يقتضي ترك الظنون والإشفاقَ عليهم والحرص على جماعتهم، وهو بدوره يثمر المحبة والإخاء بين الناس. وعكس ذلك مشاهد؛ فالمجتمعات التي ينتشر فيها الكذب والظنون والغش والخداع مجتمعات متفككة متدابرة متناحرة، قد ذهبت ريحها وعرضت نفسها لكيد الأعداء واستباحة الديار، قال تعالى: ﴿ **وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** . . . الآية ﴾ [الأنفال: ٤٦].

نعم، إن الفشل هو ثمرة التنازع والتدابر والتباغض الناشئ عن ضعف الصدق مع الله سبحانه في عباده المؤمنين، كما أن التآلف واجتماع الكلمة ثمرة من ثمار الصدق والإخلاص، فلا تكاد تجد صادقاً مع الله سبحانه ومع عباده المؤمنين، إلا ويحرص ويسعى إلى كل ما من شأنه التآلف

والاجتماع ويكره وينبذ كل ما يؤدي إلى الفرقة والاختلاف، قال ﷺ: **«ثلاث خصال لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»**(١).

٦ - الخير والنماء والبركة:

إن الصدق خير كله ليس في الآخرة فحسب وإنما في الدنيا قبل الآخرة، فبالصدق يأتي الخير والنجاح وتحل البركة في الأموال والأولاد وكل المعاملات والتصرفات، والعكس يكون في الكذب حيث يمحق الله بركة الشيء الناتج عن الكذب والخداع والمكر، وهذا مصداق قوله ﷺ: **«البيعان بالخيار مالم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»**(٢).

فهذا الحديث وإن كان في البيع والشراء فإنه يفيد أيضاً بركة الصدق في كل الأمور. ولو ظهر أن في الصدق خسارة أو هلاك الأموال فالعاقبة حميدة.

وقد يتوهم بعض الناس أن ستر الحقائق ودفن الأخطاء والعيوب في التعاملات يدر لهم ربحاً ويدفع عنهم شراً، وهذا وهم وسراب فلا شيء أفضل وأحسن بركة من الصدق ولو كان قليلاً، فقليل يبارك الله فيه خير من كثير يمحق الله بركته.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥/ ١٨٣). وابن ماجه في المقدمة (٢٣٠). وهو في صحيح سنن ابن ماجه (١٨٧).

(٢) متفق عليه. سبق تخريجه ص ٢٩٥.

فإن التاجر قد يكذب في بيعه أو شرائه ويظن أن هذا فطنة وذكاء في كسب المال، وما علم المسكين أن ماله الذي يكتسبه من ذلك هو محق وخسارة وضياع.

وهذا أمر مشاهد وملاحظ حيث نسمع كثيراً من التجار وأصحاب الأموال الطائلة الذين لم يتحروا في مكاسبهم الصدق والحلال؛ نسمعهم يقولون: إننا لا ندري أين تذهب أموالنا ولا نحس ببركتها ونمائها، وغيرهم من الذين حاسبوا أنفسهم في كسب الحلال والصدق في المعاملات؛ نجدهم مطمئنين لما رزقهم الله عزوجل ويشعرون بالبركة فيه ولو كان قليلاً.

٧ ـ تفريج الشدائد وكشف الكربات والنصر على الأعداء :

لقد سبق وأن مر بنا في فضل الصدق حديث الثلاثة الذين أطبقت عليهم صخرة فسدت عليهم باب الغار، وكيف أن الله عزوجل أنجاهم من هذه الشدة والضائقة بفضل صدقهم مع الله عزوجل في أعمالهم التي توسلوا بها إلى الله سبحانه.

وكذلك مربنا قصة المخلفين الثلاثة رضي الله عنهم كيف أن الله سبحانه تاب عليهم ونجاهم من الكرب الذي أصابهم بسبب صدقهم في عذرهم لرسول ﷺ وصدقهم في توبتهم، وقد جاء بعد توبتهم قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩].

وقد أدرك كعب بن مالك رضي الله عنه ـ وهو أحد الثلاثة ـ فضل الصدق وكيف أن الله سبحانه قد نجاه بالصدق فقال: «وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، ومن توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت». ويقول

الإمام ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية: « أي اصدقوا والزموا الصدق، تكونوا مع أهله، وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجًا »[1] .

ويقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

أما أثر الصدق في تحقيق النصر والتمكين في الأرض فيشهد لهذا أدلة الكتاب والسنة والحس والتجارب، ولا يتحقق الصدق في طلب النصر حتى يقوم العبد بالحق على نفسه وعلى غيره، ويكون قيامه بالحق لله عزوجل ويستعين في إقامة هذا الحق بالله سبحانه؛ فهذه ثلاث دعائم لتحقيق الصدق في طلب النصر والفرج من الله سبحانه.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

« . . . فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولاً، وكان قيامه بالله ولله لم يقم له شيء، ولو كادته السماوات والأرض والجبال لكفاه الله مؤنتها، وجعل له فرجاً ومخرجاً، وإنما يُؤتى العبدُ من تفريطه وتقصيره في هذه الأمور الثلاثة، أو في اثنين منها، أو في واحد، فمن كان قيامه في باطل لم يُنصر، وإن نُصرَ نصراً عارضاً فلا عاقبة له وهو مذموم مخذول، وإن قام في حق لكن لم يَقم فيه لله وإنما قام لطلب المَحْمَدَة والشكور والجزاء من الخلق أو التوصل إلى غرض دنيوي كان هو المقصود أولاً والقيام في الحق

(١) تفسير ابن كثير سورة التوبة ١١٩.

وسيلة إليه فهذا لم تضمن له النصرة، فإن الله إنما ضمن النصرة لمن جاهد في سبيله، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه، فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين، وإن نُصر فبحسب ما معه من الحق، فإن الله لا ينصر إلا الحق، وإذا كانت الدولة لأهل الباطل فبحسب ما معهم من الصبر، والصبر منصور أبداً، فإن كان صاحبه محقاً كان منصوراً له العاقبة، وإن كان مُبْطلاً لم يكن له عاقبة، وإذا قام العبد في الحق لله ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله مستعيناً به متوكلاً عليه مفوضاً إليه بَرِياً من الحَول والقوة إلا به فله من الخذلان وضعف النصرة بحسب ما قام به من ذلك، ونكتة المسألة أن تجريدَ التوحيد في أمر الله لا يقوم له شيء البتة، وصاحبه مؤيد منصور ولو توالت عليه زُمَرُ الأعداء»[1] .

٨ ـ غفران الذنوب وتكفير السيئات :

مر بنا في الفقرة السابقة قصة كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم، وأن صدقهم كان سبباً في توبة الله عزوجل عليهم، فالصدق في التوبة من الذنب سبب في المغفرة وتكفير السيئات ،قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥].

وأن التوبة النصوح التي أمر الله سبحانه عباده بها هي التوبة التي صدرت من قلب صادق، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [التحريم: ٨] .

ولا توصف التوبة بأنها صادقة إلا بالشروط التي ذكرها العلماء لقبول التوبة وغفران الذنوب، ألا وهي الندم والإقلاع والعهد بعدم العودة إليه مع

---

(١) إعلام الموقعين (٢ / ١٧٨).

الإخلاص في ذلك لله عزوجل.

إذن فالتوبة الصادقة ثمرتها المغفرة وتكفير السيئات، كما أن الصدق في أداء الأعمال الصالحة والإكثار من الحسنات يؤدي إلى محو السيئات وتكفيرها، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

٩ - الهداية للحق دلالة وانقياداً :

يقول الله عزوجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فمن هذه الآية نفهم أثر الصدق في مجاهدة النفس ابتغاء مرضاة الله عزوجل بفعل الطاعات والجهاد في سبيل الله سبحانه، وأن ثمرة ذلك الهداية للطريق المستقيم في الدنيا والآخرة والتوفيق لمعرفة الحق واتباعه والانقياد له.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عند هذه الآية ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: «أي لنبصرنهم سبلنا، أي طرقنا في الدنيا والآخرة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، أخبرنا عباس الهمداني أبو أحمد من أهل عكا في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون. قال أحمد بن أبي الحواري: فحدثت به أبا سليمان الداراني فأعجبه، وقال: ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر، فإذا سمعه في الأثر عمل به، وحمد الله حتى وافق ما في قلبه»[1] اهـ.

---

(١) تفسير ابن كثير آية ٦٩ العنكبوت.

ويقول العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى: «وكلما كثرت الطاعات تراكمت الأنوار حتى يصير المطيع إلى درجات العارفين الأبرار ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾، وهذا مما يعرفه المطيعون المخلصون، فإذا خلت الأعمال عن الإخلاص لم يزدد العاملون إلا ظلمة في القلوب، لأنهم عاصون بترك الإخلاص، وإبطال ما أفسده الرياء والتصنع من الأعمال»[١] .

ويقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى: « فإذا اجتهد العبد في طاعة الله وتقواه كان ترجيحه لما رجح أقوى من أدلة كثيرة ضعيفة. فإلهام مثل هذا دليل في حقه، وهو أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة والموهومة، والظواهر والاستصحابات الكثيرة التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذاهب والخلاف والفقه.

وقد قال عمر بن الخطاب: اقربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا ما يقولون؛ فإنهم تتجلى لهم أمور صادقة. وحديث مكحول المرفوع « **ما أخلص عبد العبادة لله تعالى أربعين يوماً إلا أجرى الله الحكمة على قلبه وأنطق بها لسانه** » ، وفي رواية : «**إلا ظهرت ينابيع الحكمة من على لسانه**»[٢] .

وقال أبو سليمان الداراني: إن القلوب إذا اجتمعت على التقوى جالت في الملكوت ورجعت إلى أصحابها بطرف الفوائد من غير أن يؤدي إليها عالم علماً .

وقد قال النبي ﷺ : «**الصلاة نور؛ والصدقة برهان؛ والصبر ضياء**»[٣] ،

---

(١) قواعد الأحكام ص٤٢ ط. الطباع.

(٢) ابن أبي شيبة في مصنفه (١٦١٩١)/ (١٣/ ٢٣١)، وهو مرسل.

(٣) جزء من حديث رواه مسلم ك الطهارة (٢٢٣)/ (١/ ٢٠٣).

ومن معه نور وبرهان وضياء كيف لا يعرف حقائق الأشياء من فحوى كلام أصحابها؟ ولا سيما الأحاديث النبوية؛ فإنه يعرف ذلك معرفة تامة؛ لأنه قاصد العمل بها؛ فتتساعد في حقه هذه الأشياء مع الامتثال ومحبة الله ورسوله، حتى أن المحب يعرف من فحوى كلام محبوبه مراده منه تلويحاً لا تصريحاً.

والعين تعرف من عيني محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها
إنارة العقل مكشوف بطوع هوى وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا

وفي الحديث الصحيح: «**ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**»[1]، ومن كان توفيق الله له كذلك فكيف لا يكون ذا بصيرة نافذة ونفس فعالة؟ وإذا كان الإثم والبر في صدور الخلق له تردد وجولان؛ فكيف حال مَن الله سمعه وبصره وهو في قلبه؟ وقد قال ابن مسعود: «الإثم حواز القلوب»، وقد قدمنا أن الكذب ريبة والصدق طمأنينة، فالحديث الصدق تطمئن إليه النفس، ويطمئن إليه القلب»[2].

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: «وإذا كان القلب معموراً بالتقوى انجلت له الأمور وانكشفت؛ بخلاف القلب الخراب المظلم، قال حذيفة بن اليمان: إن في قلب المؤمن سراجاً يزهر. وفي الحديث الصحيح: «**إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ**»[3]، فدل على أن المؤمن

---

(١) البخاري ك الرقاق (٦٥٠٢)/ فتح (١١/ ٣٤٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٢).
(٣) مسلم بلفظ مقارب. ك الفتن (تحت ٢٩٣٤)/ (٤/ ٢٢٤٩).

يتبين له مالا يتبين لغيره؛ ولا سيما في الفتن، وينكشف له حال الكذاب الوضاع على الله ورسوله؛ فإن الدجال أكذب خلق الله، مع أن الله يجري على يديه أموراً هائلة ومخاريق مزلزلة، حتى أن من رآه افتتن به، فيكشفها الله للمؤمن حتى يعتقد كذبها وبطلانها.

وكلما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له؛ وعرف حقائقها من بواطلها، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم؛ ولهذا قال بعض السلف في قوله: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] قال: هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور. فالإيمان الذي في قلب المؤمن يطابق نور القرآن؛ فالإلهام القلبي تارة يكون من جنس القول والعلم؛ والظن أن هذا القول كذب؛ وأن هذا العمل باطل؛ وهذا أرجح من هذا؛ أو هذا أصوب»[1] اهـ.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

«تكرر في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأثره، وكذلك الضلال. فأعمال البر تثمر الهدى وكلما ازداد منها ازداد هدى، وأعمال الفجور بالضد، وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازي عليها الهدى والفلاح، ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٤٥).

(٢) الفوائد ص١٢٩.

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ** ﴾ [يونس: ٩]: «فهداهم أولاً للإيمان فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية، ونظير هذا قوله: ﴿ **وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى** ﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا** ﴾ [الأنفال: ٢٩]، ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعز الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل»(١) اهـ.

ويقول رحمه الله تعالى من موطن آخر:

«وكلما قرب القلب من الله زالت عنه معارضات السوء، وكان نور كشفه للحق أتم وأقوى، وكلما بعد عن الله كثرت عليه المعارضات، وضعف نور كشفه للصواب؛ فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، يفرق به العبد بين الخطأ والصواب.

وقال مالك للشافعي رضي الله عنهما في أول ما لقيه: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية، وقد قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا** ﴾، ومن الفرقان النور الذي يفرق به العبد بين الحق والباطل، وكلما كان قلبه أقرب إلى الله كان فرقانه أتم، وبالله التوفيق»(٢) اهـ.

والحاصل من كل ما سبق أن الصدق مع الله سبحانه وتقواه كل هذا يثمر توفيق الله عزوجل للعبد إلى الحق والصواب، وبخاصة إذا التبست الأمور

---

(١) الفوائد ص١٣٠.

(٢) إعلام الموقعين (٤ / ٢٥٨).

وحارت العقول وكثرت الفتن كما هو الحال في زماننا هذا. فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه يا أرحم الراحمين.

١٠ ـ الزهد في الدنيا والتزود للآخرة :

« **إن الإيمان ليس بالتحلي والتمني ولكنه ما وقر في القلب وصدقه العمل** » فالإيمان الصادق بالله عزوجل وباليوم الآخر لابد أن يثمر العمل الصالح، والاستعداد للرحيل والإكثار من الزاد ليوم المعاد. وهذا بدوره يحمل على الحذر من كل ما يشغل عن هذه الغاية العظمى من فتن الدنيا المختلفة؛ فيزهد في ذلك كله ويجعلها في يده لا في قلبه، وقد مر بنا في علامات الصدق الحديث المروي عن الرسول ﷺ عندما سئل عن شرح الصدر في قوله تعالى: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ** ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فقال ﷺ : « **نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح** »، قيل فهل لذلك أمارة؟ قال: « **نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت** »[1].

وقد فصلت القول في مبحث (علامات الصدق) حول هذه المسألة وذلك ببعض النقولات عن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى؛ فليرجع إليها هناك حيث لا داعي لتكرارها.

١١ ـ حسن الخاتمة :

وهذه خاتمة المسك في ثمار الصدق فما أعظمها من ثمرة وما أشرفها من

---

(١) الحديث ذكره ابن كثير عند هذه الآية في تفسيره وقواه لتعدد طرقه، وقد مر ص٣١١.

غاية، فهي التي شمر إليها المشمرون، وهي التي أقضت مضاجع الصالحين وأوجلت قلوب العارفين. فما هو السبيل إليها؟

إن أعظم سبيل إليها هو الصدق مع الله سبحانه في الإيمان به وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والذي يثمر بدوره الأعمال الصالحة المنبثقة من العبودية الحقة لله عزوجل.

إن الصدق وتحريه طريق إلى مرتبة الصديقية والخاتمة الحسنة الموصلة لركب الصديقين، وهذا هوما يفهم من قوله ﷺ: «**وما يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً**»[1] ، وهذا يفيد حسن خاتمة من صدق وتحرى الصدق؛ لأن الله عزوجل يكتبه عنده صديقاً، ولا تكون هذه المرتبة إلا لمن علم الله حسن خاتمته وأنه سيموت على الإيمان الحق. وقال النبي ﷺ: «**من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة**»[2] . فما هو السر في حسن خاتمة من ختم كلامه بكلمة التوحيد؟

يجيب على ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى جواباً عظيم الفائدة له علاقة بالصدق في كلمة التوحيد وأثر ذلك في حسن الخاتمة فيقول:

«لشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها؛ لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسه المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلت بعد عزها، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها، واستسلمت بين يدي ربها وفاطرها ومولاها الحق، أذل ما كانت له، وأرجى

---

(١) سبق تخريجه ص٢٥٠.

(٢) رواه أبو داودك الجنائز (٣١١٦)/ (٣/ ٤٨٦)، والحاكم ١/ ٣٥١، ٥٠٠ وصححه، ووافقه الذهبي.

ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجه العبد وجهه بكليته إليه وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه، فاستسلم وحده ظاهراً وباطناً، واستوى سره وعلانيته؛ فقال لا إلا الله مخلصاً من قلبه، وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه، قد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيران شهوته، وامتلأ قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه وصارت الدنيا وراء ظهره؛ فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله فطهرته من ذنوبه وأدخلته على ربه؛ لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة وافق ظاهرها باطنها وسرها علانيتها، فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها وفر إلى الله من الناس وأنس به دون ما سواه، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الحياة وأسبابها، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله، فلو تجردت كتجردها عند الموت لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي، و الله المستعان»[1] اهـ.

* * *

(١) الفوائد ص٥٥.

الخاتمة

لا يسعني في نهاية هذا البحث وقبل ختمه إلا أن أفضي ببعض الخواطر التي جالت في الذهن أثناء كتابة هذا الموضوع، وما هي إلا هموم وأشجان أبثها في صورة نصائح أخص بها نفسي بادئ ذي بدء، ثم أبعثها بعد ذلك إلى من يهمهم أمر هذا الدين من علماء وطلبة علم ودعاة ومجاهدين ومربين وإعلاميين، ومن يملكون الكلمة في هذه الأمة كل في موقعه، فأقول وبالله التوفيق:

١ - إلى علماء الأمة وطلاب العلم فيها :

أوصي نفسي وإياكم بما أوصى به ربنا عزوجل عباده المؤمنين ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾.

يا علماء الأمة : هذه وصية الله إليكم فاقبلوها، واصدقوا مع ربكم فيما أنعم به عليكم من العلم، وأروا الأمة من أنفسكم خيراً بالعمل بما تعلمون. واصدقوا مع عباد الله عزوجل في تعليمهم الخير وتحذيرهم من الشر؛ فإن الله سبحانه سائلكم عن علمكم فيما عملتم به.

يا علماءنا الأجلاء : يا من تعقد عليهم الأمة أملها بعد الله سبحانه في إنقاذها مما هي فيه من جهل ومحن وبلاء ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾، وإن من لوازم الصدق مع الله سبحانه ومع عباده المؤمنين الحذر الشديد من

الدنيا وزينتها ومناصبها وزخرفها، فلا أضر على العالم منها؛ ولذا كان سلفنا الصالح يحذرونها أشد الحذر فبارك الله في علمهم وعملهم وأصلح الله بهم ما فسد.

وأسوق بهذه المناسبة كلاماً مفيداً للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى أذكر فيه علمائي الأفاضل وإخواني من طلاب العلم بخطر الدنيا وضرورة الحذر الشديد منها، ولا شك أنه معلوم للجميع، ولا يساق التمر إلى هجر.. ولكن من باب الذكرى والذكرى تنفع المؤمنين: يقول رحمه الله تعالى:

«كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها فلابد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه وفي خبره وإلزامه؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات؛ فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً، فإذا كان العالم والحاكم محبّين للرياسة متبعين للشهوات لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق، ولا سيما إذا قامت له شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى فيخفى الصواب وينطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهراً لاخفاء به ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته وقال: لي مخرج بالتوبة.

وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ [مريم: ٥٩].

وقال تعالى فيهم أيضاً:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ

وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩] .

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا: سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أولا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه، فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه.

وهؤلاء لابد أن يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل، فيجتمع لهم الأمران، فإن اتباع الهوى يعمي عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة.

فهذه آفة العلماء إذا آثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات، وهذه الآيات فيهم إلى قوله: **﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ﴾** [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

فهذا مثل عالم السوء الذي عمل بخلاف علمه»[1] .

وقد ذكر الآجري رحمه الله تعالى كلاماً يجدر بكل عالم وطالب علم

---

(١) الفوائد ص١٠٠ .

أن يقرأه وذلك في كتابه القيم أخلاق العلماء، أقتطف منه المناسب للمقام هنا في التحذير من الدنيا وفتنة السلاطين فيقول:

«أخبرنا عمر بن أيوب السقطي أخبرنا الحسن بن حماد الكوفي أخبرنا أبو أسامة عن عيسى بن سنان قال: سمعت وهب بن منبه يقول لعطاء الخراساني: كان العلماء قبلنا استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، فكانوا لا يلتفتون إلى دنياهم، فكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم، فأصبح أهل العلم منا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم. فإياك وأبواب السلاطين؛ فإن عند أبوابهم فتناً كمبارك الإبل، لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك مثله.

قال محمد بن الحسين الآجري: فإذا كان يخاف على العلماء في ذلك الزمان أن تفتنهم الدنيا فما ظنك به في زماننا هذا؟ الله المستعان ما أعظم ما قد حل بالعلماء من الفتن وهم عنه في غفلة»[1].

يا علماء الأمة في كل مكان: هكذا كان خوف سلفنا الصالح وحذرهم الشديد من الدنيا ومن تبعة العلم وحمله الثقيل. فالله الله في أمتكم ودينكم.. اصدقوا مع ربكم في تعليم الأمة دينها، واصدقوا مع ربكم في قول الحق وإبطال الباطل، ولا تتركوا الأمة في حيرتها وضلالها.

أيها العلماء الأجلاء: إن امتنا الإسلامية تمر في هذا الزمان بساعات رهيبة ومحن عظيمة ونوازل شديدة، وهي تنتظر كلمتكم وإرشادها بالنور

---

(١) أخلاق العلماء ص٦٦.

الذي تحملونه لتسير به في دياجير الظلمة التي تعيشها في هذا الزمان . . بالله عليكم لا تتركوها في حيرتها، ولا تسلموها لأعداء الملة من الكافرين والمنافقين يسيرونها وفق أهوائهم ويكيدون لها كيداً. وأنتم بارك الله فيكم تعلمون ذلك كله وأن الله سبحانه سائلكم عن علمكم فيما عملتم به فـ ﴿ لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

يا علماءنا الكرام ، ويا من نعقد عليهم الآمال بعد الله سبحانه :

إن الأمة تنتظر كلمتكم في قضايا كبيرة تصدعون فيها بالحق، وتبلغونها الموقف الشرعي فهذا أملنا فيكم وظننا بكم. وأملنا في الله عزوجل أن تلتحم صفوف المصلحين في هذه الأمة من علمائها ودعاتها ومجاهديها ليكونوا يداً واحدة في الإصلاح ومحاربة الفساد ورد شبه المفسدين في نحورهم، وعندئذ يزهق باطلهم ويرد كيدهم في نحورهم ﴿ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الروم: ٥] .

وأخيراً أرجو من علمائنا الأجلاء أن يقبلوا هذه المناصحات، ولو صدرت من العبد الفقير والابن الصغير؛ فالحق يؤخذ من كل أحد. ولكم في سيرة الإمام أحمد رحمه الله تعالى قدوة حيث استفاد في محنته من أعرابي عامي، فقد ذكر الذهبي في السير «عن أحمد بن أبي الحواري: حدثنا إبراهيم بن عبد الله، قال: قال أحمد بن حنبل: ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في رحبة طوق قال: يا أحمد، إن يقتلك الحق مت شهيداً، وإن عشت عشت حميداً.

فقوي قلبي»[١] .

٢ ـ إلى دعاة الأمة ومجاهديها :

أوصي نفسي وإياكم بما أوصى به الله سبحانه عباده المؤمنين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

* وإن من لوازم الصدق ومقتضياته أن تكون الدعوة إلى الله عزوجل والجهاد في سبيله لأجل الله عزوجل وابتغاء مرضاته ، فلا تكون لأجل مال أو منصب أو جاه أو كسب شهرة أو التعصب لشيخ أو حزب أو طائفة ؛ لأن كل ذلك ذاهب وضائع وممحوق البركة في الدنيا والآخرة ، فحري بنا أن نحاسب أنفسنا ونحن في طريق الدعوة والجهاد في سبيل الله . ما مدى صدقنا في دعوتنا إلى الله سبحانه؟ وهل هي خالصة لله وحده أم يشوبها ما يشوبها من أعراض الدنيا الفانية ؟

* وإن من لوازم الصدق في الدعوة إلى الله سبحانه أن يبادر الداعية إلى تصديق قوله وما يدعو إليه بفعله ، وأن لا يقول بلسانه ماليس في قلبه ، أو يُرغِّب في فعل ولا ينوي القيام به ، أو يظهر للناس حرقة وغيرة على هذا الدين ، والأمر لا يتعدى اللسان والكلام حيث القلب مشحون بأمر الدنيا وشهواتها وغارق في وديانها .

إن كل ذلك مما ينافي الصدق في الدعوة الى الله عزوجل .

* وإن من لوازم الصدق أيضاً في الدعوة إلى الله عزوجل سلامة قلب

---

(١) السير للذهبي (١١/ ٢٤١).

الداعية من الغل والحقد والحسد على إخوانه الآخرين من الدعاة، وإنما يكن المحبة لكل مصلح يدعو إلى الخير ويتعاون معه في طاعة الله عزوجل ولا يحتقر جهده مهما قل. ولا تراه إلا حريصاً وساعياً إلى اجتماع الكلمة ووحدة الصف؛ فالداعية الصادق يكره الفرقة والاختلاف إذا لم يكن في أصول الدين وكلياته، والدعاة الصادقون يرحم بعضهم بعضاً ويرفق بعضهم ببعض ويتناصحون بينهم.

* كما أن الصدق مع الله سبحانه في الدعوة والجهاد يفرض على المسلم أن يكون على بصيرة فيما يدعو إليه ويجاهد من أجله، وهذا يلزم التفقه في الدين والبصيرة فيه بما قال الله عزوجل وقال رسوله ﷺ وفهمه الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

* وإن من لوازم الصدق في الدعوة إلى الله سبحانه الحذر من كيد الأعداء المتربصين بهذا الدين وأهله من الكافرين والمنافقين، وخاصة في زماننا هذا والذي تنوعت فيه أساليب المكر والخبث، فحري بالداعية الصادق أن يتفطن لدسائس الأعداء ودجلهم ونفاقهم ولو ألبسوا ذلك كله لبوس الحكمة والمصلحة ودرء الفتن.

إن التنازل اليسير من الداعية إلى الله سبحانه لا يقف عند حد بل يتبعه تنازلات وتنازلات؛ لأن أعداء هذا الدين لا يكتفون بالقليل من الداعية، وقد حذر الله سبحانه نبيه ﷺ من هذا الخطر فقال: ﴿ **فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ** ﴾ [القلم: ٨، ٩]، وقال تعالى: ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا** ﴾ [الإنسان: ٢٤].

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى:

«والحقيقة التي ينبغي أن يعيش فيها أصحاب الدعوة إلى الله هي هذه الحقيقة التي لقنها الله لصاحب الدعوة الأولى ﷺ . . هي أن التكليف بهذه الدعوة تنزل من عند الله فهو صاحبها، وأن الحق الذي تنزلت به لا يمكن مزجه بالباطل الذي يدعو إليه الآثمون الكفار. فلا سبيل إلى التعاون بين حقها وباطلهم، أو الالتقاء في منتصف الطريق بين القائم على الحق، والقائمين على الباطل.

فهما منهجان مختلفان. . وطريقان لا يلتقيان. فأما حين يغلبه الباطل بقوته وجمعه، على قلة المؤمنين وضعفهم، لحكمة يراها الله. . فالصبر حتى يأتي الله بحكمه، والاستمداد من الله والاستعانة بالدعاء والتسبيح وهي الزاد المضمون لهذا الطريق. .

إنها حقيقة كبيرة لابُد أن يدركها ويعيش فيها رُواد هذا الطريق. . فالمحاولات كثيرة تلك التي حاولها المشركون مع رسول الله ﷺ في المساومة بالدعوة، ولكن الله عَصم منها رسوله، وهي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائماً. محاولة إغرائهم لينحرفوا ولو قليلاً عن استقامة الدعوة وصلابتها. ويرضوا بالحل الوسط الذي يغرونهم به في مقابل مغانم كثيرة.

ومن جملة الدعاة من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هيناً فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلياً. إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق.

وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة. فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها، ولو بالتنازل عن جانب منها.. ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق..

وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها ولو يسير. وفي إغفال طرف منها ولو ضيئل لا يملك أن يقف، عندما سلم به أول مرة. لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء.

والمسألة مسألة إيمان بالدعوة كلها. فالذي ينزل عن جزء منها مهما صغر، والذي يسكت عن طرف منها مهما ضؤل، لا يمكن أن يكون مؤمناً بدعوته حق الإيمان. فكل جانب من جوانب الدعوة في نظر المؤمن هو حق كالآخر»[1].

* ومن لوازم الصدق في الدعوة أن يحذر الداعية من الكذب على إخوانه المسلمين والدعاة المصلحين، ومن ذلك إشاعة الأخبار قبل التحقق من صحتها واستخدام الأساليب الملتوية والمراواغات بحجة السياسة والمصلحة، كل هذا لا يتفق وصدق الداعية وسلامة قلبه.

* ومن لوازم الصدق في الدعوة إلى الله سبحانه أن يعتني كل منا بنفسه بالوسائل الشرعية للتربية، وذلك في وسط بيئة صالحة معروفة بصحة الفهم وحسن القصد يتربى معها، ويعد نفسه للتضحية في سبيل الله عزوجل وبذل

---

(١) طريق الدعوة (١/ ١٩٦).

المال والنفس في ذلك، وأن يوطن نفسه لابتلاءات الطريق ومشاقه، والتي هي سنة من سنن الله عزوجل لتمحيص الصفوف، قال تعالى: ﴿الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣] ؛ فلا يتبين الصادق في دعوته من الكاذب إلا بالابتلاء. نسأل الله عزوجل العافية والصبر عند البلاء.

إن الداعية الذي يهمل نفسه فلا يربيها ويعدها للبيع لله عزوجل يوشك أن ينهزم وتخذله نفسه عند أول هزة وأول اختبار، مع أنه يحسب نفسه غير ذلك مما يعيشه ـ في حال الرخاء والأمن ـ من الحماس العاطفي والكلام الذي لا يجاوز التراقي.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى: «إن العقيدة وطريقها لشاقة بعيدة تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة. إن تكليف العقيدة هو جهد خطر، تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب الخاوية. ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبيئة المهزولة. قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [التوبة: ٤٢]»[١].

وإنني بهذه المناسبة أوصي نفسي وإخواني الدعاة والمجاهدين أن لا نتكلم في أمر أونقدم على موقف من مواقف الدعوة حتى تتوفر فيه الشروط التالية:

---

(١) طريق الدعوة (١ / ٢٥٩).

١ ـ الاطمئنان التام أنه الحق الذي يحبه الله تعالى، وإعداد النفس لتحمل تبعاته.

٢ ـ الاطمئنان التام على أن القيام في هذا الأمر هو لله سبحانه وحده وابتغاء مرضاته.

٣ ـ الاستعانة بالله وحده في تحقيق هذا الأمر والثبات عليه؛ إذ لا قدرة للعبد لحظة واحدة بدون عون الله وتوفيقه[1].

وإن عدم الالتفات للشروط السابقة هو الذي يوقعنا في عدم إتمام الأمر أو التخاذل وعدم الجدية في أخذه.

إن السبب في مثل هذه المواقف ـ والعلم عند الله سبحانه ـ هو أن أحد الشروط السابقة أو أكثر قد تخلف، فإما أن الأمر الذي أقدم عليه لم يكن مقتنعاً أنه الحق الذي يرضي الله، أو أنه كان مقتنعاً بأنه الحق لكن قومته لم تكن لله، أو أن استعانته بالله سبحانه في الدخول في هذا الأمر كانت ضعيفة، أو أنه لم يوطن نفسه ويهيئها لتبعات كلمة الحق وإنما الأمر كلام فحسب.

إذن يا إخواني الدعاة: إن الأمر جد ليس بالهزل.

فإذا كنا بهذه الحالة في أمر يسير، فكيف الحال بما هو أشد وأقسى؟! نسأل الله عزوجل العون والثبات، اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد.

---

(١) يرجع إلى ص٣٥٤، ٣٥٥ للاطلاع على كلام نفيس للإمام ابن القيم.

٣ - إلى المربين في هذه الأمة :

أوصي نفسي وإياكم بما أوصى الله سبحانه به عباده المؤمنين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]

أيها المربون من آباء وأمهات ومعلمين وموجهين إن المسؤولية عظيمة والأمانة جسيمة.

وإن الصدق مع الله عز وجل يستلزم أن تكونوا قدوات صالحة لمن ولاكم الله تربيته وتعليمه، فمعلوم أثر القدوة في التربية وأنها تفعل مالا يفعله كثير من وسائل التربية الأخرى، وإن الصدق في الإيمان بالله عزوجل والالتزام بأخلاق هذا الدين العظيم والدعوة إلى الله سبحانه، كل ذلك له أثره العظيم في تربية الأجيال وتعريفهم برسالة أمتهم التي ينتمون إليها والعقيدة التي يجتمعون عليها.

إن التربية لها معنى أوسع من التعليم وتلقين المعلومات؛ فالتربية هي الجهد الذي يبذله المربون في كل مجتمع من آباء ومعلمين وغيرهم في إنشاء الأجيال القادمة على أساس العقيدة التي يؤمنون بها، ومنحهم الفرصة الكافية لتشرب معاني الدين والتضحية من أجله والاعتزاز به بين الأمم. فالأمة الجادة هي التي تربي أبناءها طبقاً للعقيدة التي تدين بها لله تعالى وتسعى لنشرها بين الأمم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله تعالى، وهذه مهمة المربين في هذه الأمة فما أثقلها من تبعة وما أشرفها من رسالة.

* ومن لوازم الصدق أيها المربون الكرام أن تصدقوا مع من ولاكم الله

تربيتهم وتعليمهم؛ وذلك بتعليمهم الخير وربطهم بأبطال هذه الأمة ورعيلها الكرام، وتحذيرهم من الشر وأهله وتبصيرهم بسبيل المجرمين وأفكارهم الخبيثة وتفنيدها والتحذير منها.

* ومن لوازم الصدق في التربية إعداد المناهج الكريمة المستمدة من الكتاب والسنة وفهم الصحابة وفقه الواقع الذي تعيشه الأمة، فعلى المسؤولين عن مناهج التعليم في المجتمعات المسلمة أمانة عظيمة وتبعة ثقيلة فليصدقوا مع الله عزوجل في أمة محمد ﷺ وأبنائها، فلا يختاروا إلا ما فيه الخير والإصلاح وتنشئة الأجيال على العقيدة العظيمة لهذا الدين وأخلاقه السامقة. وأن يردوا ويُسقطوا كل ما من شأنه إفساد العقيدة والأخلاق والأفكار والهمم؛ فنحن أمة ذات رسالة عظيمة خالدة ينبغي للناشئة أن يدركوا رسالة أمتهم وأنها خير أمة أخرجت للناس؛ لتنقذهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

أيها المربون من آباء ومعلمين: إن الله سبحانه سائلكم عما استرعاكم فأعدوا للسؤال جواباً ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وتذكروا أثر العمل الطيب والسنة الحسنة حين تسري في الأمة وينتشر الخير بسببها وتنالون أجر ذلك من كل من تأثر به، والعكس من ذلك والعياذ بالله، تذكروا أثر العمل السيئ والسنة السيئة حين تسري في أبناء الأمة ويتربون عليها فتنالون وزر ذلك ووزر من تأثر به نعيذكم بالله من هذا المآل. وهذا مصداق قوله ﷺ: « **من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن سنة سيئة كان**

عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[١] .

* ومن لوازم الصدق في التربية: أن يُربط الأبناء والطلاب في حياتهم بالأهداف العالية النبيلة ولا يربطون بالتوافه من الأمور والأهداف الهابطة؛ لأن النظرة السائدة اليوم في أكثر بيوت المسلمين ومدارسهم أن طلب العلم قد ربط بالمصلحة الدنيوية وأنه وسيلة للعيش، ولا يوجد في جو المنزل أو جو المدرسة ـ إلا من رحم الله ـ من يقول للمتربي: إن لك أمة تنتظرك، وإن لك دوراً ينتظرك في الدعوة إلى التوحيد وهداية الناس بإذن الله تعالى والجهاد في سبيله عزوجل والذود عن حمى الأمة وعقيدتها.

إن هذا النوع من التربية قليل، فعلى المربين الصادقين مع ربهم سبحانه أن يحيوا هذه المعاني عند إخوانهم المربين، ويصبغوا بها المناهج المعدة لذلك، وينشروها في صفوف أبنائهم وطلابهم حتى يخرج جيل قوي متماسك يشعر بانتمائه لهذا الدين ويشعر بمسؤوليته؛ ليتولى هو بدوره إكمال الطريق وتربية الأجيال التي تأتي بعد ذلك.

* وبقيت كلمة أخيرة أوصي بها نفسي وإخواني الآباء، ألا وهي الصدق مع الله سبحانه في جعل البيت محضناً من محاضن التربية الكريمة للأبناء والبنات والإخوان والأخوات والزوجات؛ وذلك بعمارته بذكر الله عزوجل ووجود القدوات الصالحة وتطهيره من أسباب الرجس والفساد فـ «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**».

إن العجب كل العجب من أناس أنعم الله عليهم بنعمة الأموال والأولاد،

---

(١) مسلم ك الزكاة (١٠١٧)/ (٢/ ٧٠٥).

ثم هم يخربون بيوتهم بأيديهم ويلقون بأنفسهم وأهليهم إلى النار، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

إن أحدنا لو رأى ابنه أو بنته أو أخاه أو أخته أو زوجته يتعرض أحدهم لهلاك في الدنيا بحريق أو غرق أو سقوط من علٍ لهبَّ مسرعاً لإنقاذه، وإن لم يكن قريباً منه صاح به محذراً من السقوط في المهلكة.

وإن الله سبحانه يحذرنا من نار تلظى لا تأتي نار الدنيا عندها إلا جزءاً من سبعين جزءاً منها، ومع ذلك لا يتحرك الكثير منا في إنقاذ نفسه وأهله منها ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]، والأعجب من ذلك أن ترى بعض الظالمين لأنفسهم وأهليهم يجلب النار بنفسه ليحرق بها بيته وأهله؛ فامتلأت أكثر بيوت المسلمين بأجهزة الفساد من أغانٍ هابطة وأفلام ماجنة ومجلات عارية وقصص سافلة.

فهذه والله هي الخيانة وتضييع الأمانة، وهذا والله مما ينافي الصدق مع الله سبحانه في أداء الأمانة ورعاية العهود. وما يدري المسكين أنه لو مات على هذه الحالة فإنه يموت غاشاً لمن استرعاه الله من رعيته؛ لأنه بهذه الحالة يصدق عليه قول الرسول ﷺ: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة**»[1].

ثم ألا يشعر هذا الظالم لنفسه ولرعيته أن وزر ما جلبه لبيته من آلات اللهو والفساد يبقى يتابعه ويحمله على ظهره في قبره ويوم القيام لرب

(١) البخاري ك الأحكام (٧١٥١)/ فتح (١٣/ ١٣٦) بلفظ مقارب، ومسلم ك الإيمان (١٤٢)/ (١/ ١٢٥) واللفظ له.

العالمين، وذلك بقدر ما أفسدت هذه الأمور في نفوس أبنائه وأهله من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً. ألا فلنع خطورة هذا الأمر وأنه جد عظيم، وأنه خيانة لله ولرسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

أسأل الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن يجعلنا من الصادقين الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد.

٤ - إلى الإعلاميين في هذه الأمة:

أوصي نفسي وإياكم بما أوصى الله سبحانه به عباده المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

أيها المؤمنون من إعلاميي هذه الأمة: إني أخاطب فيكم عقيدتكم الإسلامية التي تحملونها بين جوانحكم والتي تحدد هويتكم بين بني البشر وترفع رؤوسكم بين بني الإنسان، أخاطب فيكم غيرتكم الإسلامية ومروءاتكم العربية وأخلاقكم العريقة التي تميز المسلم عن غيره، أخاطب فيكم الأمانة العظيمة التي حملكم الله إياها من خلال مسؤولياتكم الخطيرة التي أنتم فيها، أخاطب فيكم المسؤولية التي أناطتها الأمة بكم لتربوا أبناءها على الإيمان الصادق والعفة والطهارة والعزة والكرامة.

أيها الإعلاميون المؤتمنون على عقيدة الأمة وأخلاقها: اصدقوا مع ربكم سبحانه في الوفاء له بما عهد إليكم ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ

مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٤]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧]، ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١].

واصدقوا مع أمتكم المسلمة التي أمنتكم على دينها وأعراضها وعقولها وأفكارها؛ فلا تخونوا أمتكم وكونوا عند حسن ظنها بكم.

إن إعلام أية أمة يعبر عن عقيدتها وهويتها، وإذا أردنا أخذ صورة سريعة عن أي أمة أو مجتمع فلننظر إلى إذاعتها وتلفازها وصحفها وما ينشر فيها؛ فإن ذلك يدلنا على ما يقوم عليه هذا المجتمع من عقيدة وأخلاق.

إن لكل أمة هوية، فأين هويتنا الإسلامية في إعلامنا؟! إن الإسلام ليس كلمة فحسب، وليس عقيدة مستترة في القلب فحسب، بل الإسلام هو الاستسلام لله عزوجل وحده في جميع شئون الحياة. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

هذا هو الإسلام الذي جاء من عند الله عزوجل، وإن الناظر في إعلام المجتمعات المسلمة اليوم ليأخذه الدوار والعجب وهو يرى التناقض الخطير والفصام النكد بين الهوية الإسلامية للقائمين عليه وبين ما يفرزه للمجتمع ويربي عليه الأمة من قلب للحقائق، وترويض للنفوس على النفاق والكذب

وتشرب الفساد والرذائل، وقتل لمعاني العقيدة الشاملة المستلزمة للإذعان التام لله سبحانه في كافة أحوال العبد وكافة شئون المجتمع.

فماذا يعني هذا التناقض وهذه الازدواجية؟ إنه يعني أحد أمرين:

١ - إما أن يكون هناك جهل بحقيقة هذا الدين ويظن أنه بالإمكان أن يكون المرء مسلماً بقلبه ولسانه فقط ثم يفعل بعد ذلك ما يشاء ويعمل ما يحلو له أن يعمل مادام أنه ينطق الشهادتين والهوية التي يحملها هي الإسلام!! وهذه عقيدة المرجئة التي أفسدت في الأرض ودخل من خلالها العلمانيون الذين يفصلون الدين عن الحياة ويجعلونه عقيدة مستكنة في الضمير وبين جدران المساجد فحسب!!

٢ - أو أن حقيقة الدين ومفهومه الواسع واضحة في أذهان القوم ولكنهم آثروا الحياة الدنيا ومناصبها وزخرفها على مرضاة الله سبحانه والدار الآخرة؛ فاشتروا الحياة الدنيا الخسيسة الفانية بالدار الآخرة الباقية، فما أشد خسارتهم وأكسد تجارتهم. ألا ذلك هو الخسران المبين.

وسواء كان الأمر الأول أو الثاني فإني أناشد كل إعلامي ينتسب إلى هذه الأمة المسلمة وقد ابتلاه الله عزوجل بمسؤولية ما في هذا المضمار؛ أناشده بأن يصدق مع ربه سبحانه وأن يعد للموقف الرهيب بين يدي الله عزوجل عدته؛ فإن الله سائله عن هذه الأمانة. نعم إن الله سيسأله عن أديان الناس وأنفسهم وعقولهم وأعراضهم ماذا فعل بها من خلال مسؤوليته. .

نعم ليتذكر هذا الموقف العصيب الذي سيقف فيه عارياً من كل شيء، عاري الجسد وعاري الضمير وعاري التاريخ سيقف فرداً ليس معه رئيسه ولا

مرءوسه ولا والده ولا ولده ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

فماذا سيكون الجواب؟ نعم ماذا سيكون جوابك إذا حاكمتك الأمة بأسرها على ما قدمت لها من كلمة مسموعة أو مرئية أو مقروءة كانت سبباً في إضلال أبنائها؟! أناشدك بما معك من الإيمان بالله واليوم الآخر أن لا تغفل عن هذا اليوم الرهيب، فوالله إنه لقريب ﴿ **وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ** ﴾ [الشورى: ١٧، ١٨].

وبعـــد :

هذا ما يسر الله سبحانه كتابته حول هذا الموضوع عسى الله أن ينفع به كاتبه وقارئه في الدنيا والآخرة، وأطلب من الإخوان الذي يتفضلون بقراءة هذا البحث أن لا ينسوني من نصائحهم وتوجيهاتهم جزى الله الجميع خيراً.

« فيا أيها القارئ والناظر فيه، هذه بضاعة صاحبها المزجاة يسوقها إليك، وهذا فهمه وعقله معروض عليك، لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه، ولك ثمرته وعليه عائدته، فإن عدم منك دعاءً، فلا يعدم منك عذراً، وإن أبيت إلا الملام فبابه مفتوح، وقد:

قد اســتأثــر الله بالثـناء وبالـــ ... الحمـد وولى الملامة الرجـلا »[1]

«وما كان في هذا البحث من حق وصواب فمن الله تعالى هو المان به فإن التوفيق بيده، وما كان فيه من زلل فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه

---

(١) من مقدمة طريق الهجرتين للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى (بتصرف).

براء»[١] .

اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة ؛ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. اللهم اجعل أعمالنا كلها صالحة، واجعلها لوجهك خالصة، ولا تجعل لأحد فيها شيئاً.

اللهم اهدنا صراطك المستقيم؛ صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

* * *

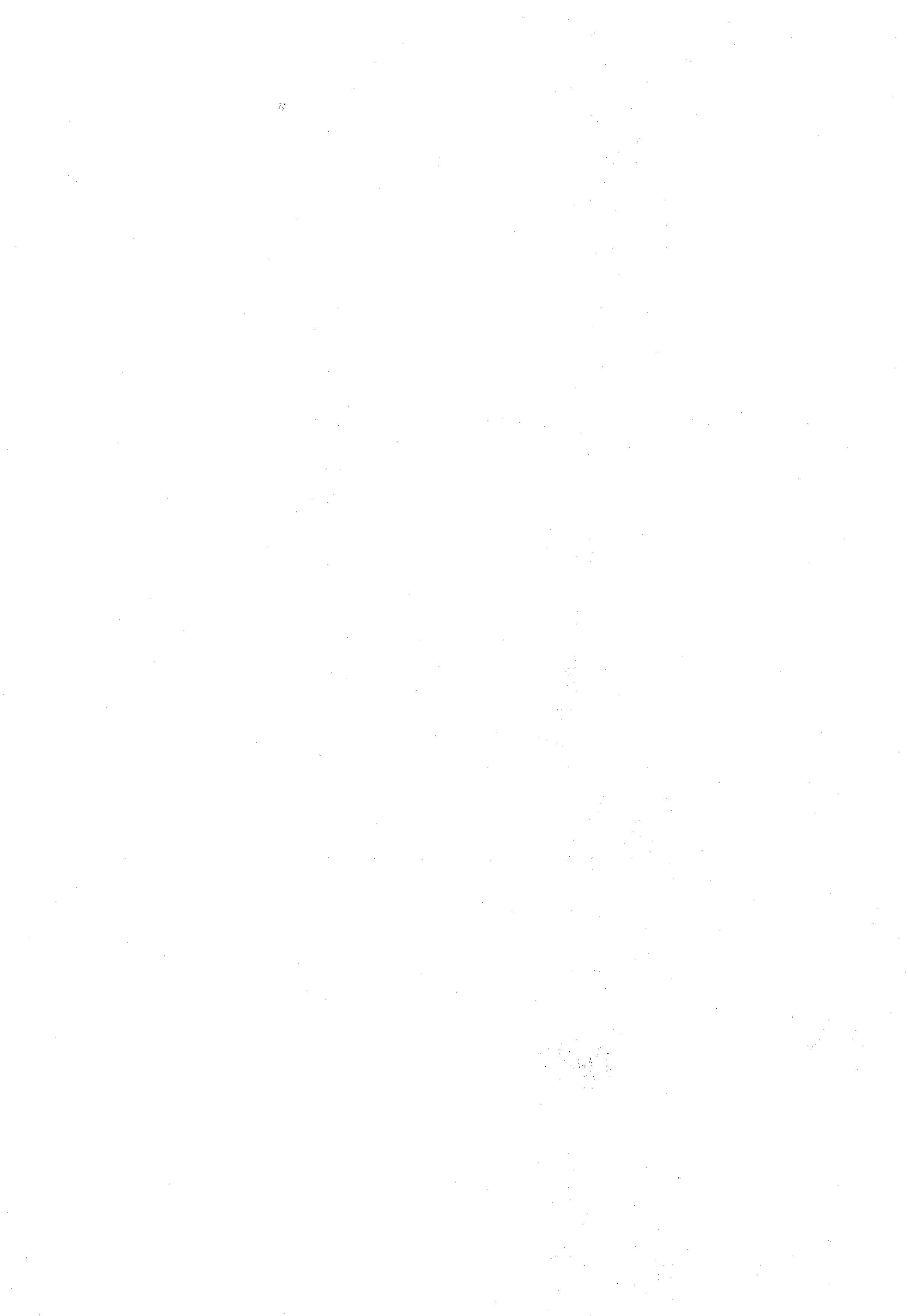
(١) من مقدمة طريق الهجرتين للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى (بتصرف).



الرسالة السابعة

﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾

[البقرة : ٤٢]



مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن الله عز وجل قد خلق الخلق من الجن والإنس لغاية عظيمة شريفة ألا وهي عبادته سبحانه وتوحيده والإخلاص له وحده لا شريك له .

قال تعالى : ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن أجل ذلك أنزل الكتب، وأرسل الرسل، وزود عباده بالعقول التي تميز الخير من الشر، والحق من الباطل ، وتكفل سبحانه بالعون والتوفيق لمن أراد الهدى والحق ، فدله عليه ، ورزقه الانقياد له ، وتخلى عمن أعرض عن الحق فلم يقبل به ، ولم يستسلم ويخضع له ، وكل هذا من الابتلاء الذي خلق الله سبحانه الموت والحياة من أجله ، قال تعالى : ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾ [الملك: ٢] .

وانقسم الناس إثر ذلك إلى مؤمنين موحدين مدركين للغاية التي من أجلها خلقوا ، فصارت دوافعهم كلها في مرضات الله سبحانه ، وسخروا كل ما آتاهم الله من هذه الدنيا لخدمة هذه الغاية الشريفة لنيل مرضات الله

سبحانه وتعالى ، فعملوا للآخرة والفوز برضوان الله والجنة .

ومن الناس من أمضى حياته في اللهو واللعب وإيثار الحياة الدنيا ، وجعل هذه الدنيا همه وغايته واتبع هواه فخسر الدنيا والآخرة ، ألا ذلك هو الخسران المبين .

ثم إن الفئة المؤمنة لم تسلم كذلك من الفتن ، وكيف يكون ذلك وعدوها الشيطان الرجيم متربص بها لا يفتؤ يضلها ويزين لها ويخدعها ؛ يقول الله عز وجل عن إبليس اللعين : ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٦ ، ١٧] .

وقال تعالى عنه : ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [الحجر : ٣٩، ٤٠] .

وإن من أعظم الفتن التي يفتن الشيطان بها العباد، فتنة التزيين ولبس الحق بالباطل واتباع الهوى في ذلك ، ولقد وقع في هذا الشَرَك الخطير كثير من الناس وبخاصة في زماننا هذا ؛ زمان الفتن التي تموج موج البحر ، وزمان الخداع والنفاق والدجل والرياء !

نعم إننا في زمان اشتدت فيه غربة الإسلام ، والتبس فيه الحق بالباطل، وضُلل كثير من الناس ،وتمكن الشيطان من كثير من الناس تمكناً يظنون معه أنهم بمنأى عن عدوهم الشيطان ، وعلى صلة وثيقة بربهم سبحانه، وما ذلك إلا بسبب التباس الحق بالباطل، والعلم بالجهل ، والحبيب بالعدو.

وتعاون شياطين الجن والإنس ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢] ، فتعاونوا في وضع هذا التلبيس في قوالب من الأقوال مزخرفة ، وألفاظ خادعة ، وتسمية للأشياء بغير مسمياتها ؛ فضلّ بسبب ذلك كثير من الناس ، والعاقل منهم وقف حائراً لا يدري أين وجه الحق فيما يسمع ويرى من التناقضات وتبرير المواقف المخالفة للشريعة بسبب استيلاء الهوى على النفوس، واستيلاء الشهوات على القلوب .

ولما كان من غير المستطاع المجاهرة برد الشريعة ورفضها ، فكان لابد لهم من ليِّ أعناق النصوص من الآيات والأحاديث؛ لتبرير تلك المواقف المنحرفة، وهي ليست لها ، ولو أن الذي يقع في الانحراف يعترف بذنبه وخطئه وضعفه في مخالفة الشريعة ؛ لكان الأمر أهون .

وكذلك لو أنه استدل بدليل في غير محله ولما نُبِّه إلى هذا الخطأ في الاستدلال رجع واعترف لكان هذا أيضاً أهون ، ولكن المصيبة أن يصرّ هذا المؤول الذي حرّف الأدلة على باطله ليجد لعمله مخرجاً وشرعية ؛ فيكابر بعد بيان الحق له ، ويغالط نفسه والمسلمين بصنيعه هذا .

وإننا في زماننا هذا لنرى صوراً كثيرة من لبس الحق بالباطل ، وصوراً كثيرة من المغالطات والخداع والحيل المحرمة المفتراة على شرع الله عز وجل ، فكان لزاماً على الدعاة المصلحين أن يحذروا بأنفسهم من الوقوع في هذا المزلق ، وأن يكشفوه للناس إذا وقع من غيرهم ولا يدعوهم لأهل الأهواء يلبسون عليهم دينهم، ويحرّفون الكلم عن مواضعه ، ومعلوم ما ينتج عن ذلك من الفتن والتضليل.

من أجل ذلك جاءت هذه الرسالة الجديدة من رسائل وقفات تربوية في

ضوء القرآن الكريم ؛ لمعالجة هذا الموضوع المهم ، وقد اخترت عنواناً لها قوله تعالى: ﴿ولا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ ، وهي جزء من آيتين كريمتين: وردت إحداهما في سورة البقرة ،آية (٤٢) ، عند قوله تعالى : ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ، والأخرى في سورة آل عمران، آية (٧١) عند قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

وهاتان الآيتان وإن كانتا قد نزلتا في أهل الكتاب ؛ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر عند أهل الأصول ، فكل من كتم الحق وخلطه بالباطل وهو يعلم فهو من أهل هذه الآية .

ولذلك سوف لا أتطرق لمحاولات أهل الكتاب ولا أصحاب الملل الكافرة في لبس الحق بالباطل ومغالطاتهم في ذلك ، وإنما سينصب جلّ البحث على واقعنا المسلم الذي نعيش فيه وندعو إلى الله فيه ، محاولاً كشف بعض الصور التي التبس فيها الحق بالباطل ، والتي يقع فيها بعض المنتسبين لهذا الدين من المنافقين وضعاف الإيمان لتبرير الانحراف أو التهوين منه والرضا به وإقراره ، بل إن بعض الطيبين من دعاة وطلاب علم قد تأثروا بأولئك الملبسين ؛ فصاروا يرددون بعض ما يقولون بعلم أو بغير علم .

وقد قسمت الموضوع إلى المباحث التالية :

١ ـ أهمية الموضوع.

٢ ـ تعريفات .

٣ ـ أسباب التباس الحق بالباطل.

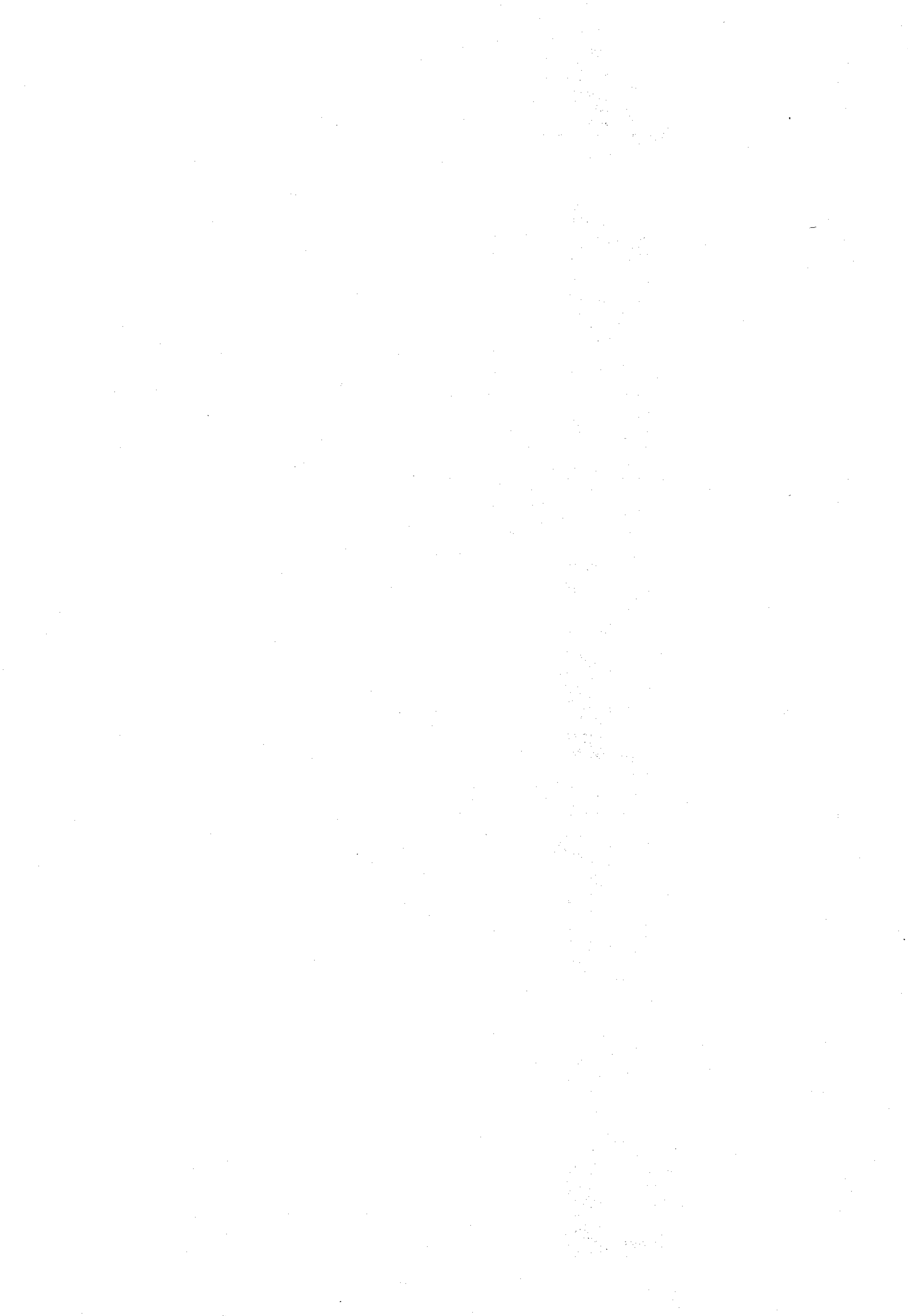
٤ ـ صور من لبس الحق بالباطل .

٥ ـ الأسباب الواقية من لبس الحق بالباطل .

٦ ـ خاتمة .

أسأل الله عز وجل أن ينفع به ويحسن القصد فيه ، إنه سميع مجيب .

* * *



المبحث الأول
أهمية الموضوع

إن لدراسة موضوع التباس الحق بالباطل أهمية كبيرة؛ لما ينتج عن هذا التلبيس من خلط وضلال وفتنة، يكون لها الأثر السيئ والضرر البالغ في تضليل الأمة، وتحريف الحقائق، وتزوير الأحداث .

وإن أهمية هذا الموضوع تكمن في أمور منها :

١ - من المعلوم أن القيام بالعبودية الحقة لله عز وجل لا تتم إلا بالإخلاص له سبحانه في عبادته ، وأن تكون العبادة على بصيرة واتباع لما جاء به الرسول ﷺ ، وإن البصيرة في الدين لا تتحقق ما دام الباطل ملتبساً بالحق، وبمعنى آخر ؛ فإن البصيرة في الدين لا تحصل إلا بوضوح الحق وتنقيته من الباطل الملتبس به ، قال تعالى : ﴿ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، وقال سبحانه : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ ﴾ [يونس: ٣٢] .

لذا كان لزاماً على العبد أن يعرف الحق بدليله ما أمكن، وأن يزيل عنه الباطل الذي علق به ، وذلك حتى يأتي بالعبادة على وجهها المقبول عند الله عز وجل .

٢ - كثرة اللبس والتضليل في عصرنا الحاضر ؛ حيث ظهرت وسائل ماكرة ومضللة لبَّست على الناس دينهم وخلطت الحق بالباطل ، بل وصل الأمر لدرجة قلب الحقائق، وإظهار الحق في صورة الباطل ، والباطل في

صورة الحق ، وبالذات ما تقوم به وسائل الإعلام المختلفة في ديار المسلمين من إذاعة وتلفاز وكتاب ومجلة . . . إلخ ، وما تمكر به في الليل والنهار في محاولة لطمس الحق وتشويهه ، وتشويه حملته والداعين إليه ، فكان لابد من إزالة هذا اللبس الذي خيّم على الأمة ، وكان لابد من إحقاق الحق وإبطال الباطل بقدر الجهد المستطاع ، والاستعانة بالله عز وجل في ذلك ﴿ **لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ [الأنفال : ٨] .

٣ ـ وفي مقابل هذه الكثرة الكاثرة من تلبيس الحقائق وخلطها بالباطل ، كان هناك سكوت مزعج من كثير من العلماء وطلبة العلم في ديار المسلمين أمام كثير من المستجدات والنوازل التي تبحث الأمة عن الموقف الشرعي إزاءها ، وعن وجه الحق فيها ، ووقفت حائرة تنتظر كلام أهل العلم فيها ، فلم تسمع لهم حساً ، وتلقفها أصحاب القلوب المريضة في غيبة العلماء فلبسوا عليها أمرها ، وتكلمت الرويبضات في أمر العامة ، فلبسوا الحق بالباطل ، فإلى الله المشتكى مما حل بأمتنا ، وعلماؤها يعيشون بين ظهرانيها .

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

وياليت الأمر وقف عند حد السكوت ، بل قد وجدنا من بعض المنتسبين للعلم مَنْ يسهم في هذا التلبيس بنفسه ، والله أعلم بقصده وبنيته ، فتراه يسمي الأمور بغير مسمياتها ، وينزل النوازل في غير مناطاتها ، بل قد يثني على المبطلين المضللين مما يظهرهم في أعين الناس والعامة أهل حق وإصلاح .

وفي نفس الوقت يوجه سهامه وعداوته للصالحين المصلحين المجاهدين من أبناء هذه الأمة الذين أقلقهم حال أمتهم الذي يرثى له ، وأقض

مضاجعهم ضياع الحق بين جهل العامة وعجز العلماء ، فرأوا أن الأمر أصبح فرض عين ولا خيار فيه ، فقالوا كلمة الحق وأخذوا في تعرية الباطل وتمييزه من الحق ﴿ **لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣٧] .

ولأن الصراع بين الحق والباطل قائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ فإن الشيطان أجلب عليهم بخيله ورجله ، بل قد أوقع بعض الطيبين في شركه ؛ فأغراهم بهؤلاء المصلحين وصورهم في أعين الناس أنهم دعاة فتنة وبلبلة وإرهاب ، وهذه سنة الله عز وجل في أنبيائه ودعاته المصلحين ، نسأل الله عز وجل الهداية للملبسين المخذلين ، كما نسأله سبحانه الثبات للمصلحين المجاهدين .

٤ ـ لابد من تعرية الباطل وأهله ، وما دام أن الحق مختلط بالباطل وسبيل المجرمين لم يتميز عن سبيل المؤمنين ؛ فإن أمر هذا الدين سيبقى مشوهاً عند الناس ، وسيبقى الالتباس فيه قائماً ، مما يؤدي إلى ظهور الحق في صورة الباطل ، والباطل في صورة الحق ؛ عياذاً بالله من ذلك .

كما أن استبانة سبيل المجرمين ومناهجهم تساعد في تميز الصف المؤمن وتنقيته من شوائب النفاق والمنافقين ، وهذا أمر مهم وعامل أساس لإظهار الحق وإزهاق الباطل : ﴿ **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ** ﴾ [الأنفال: ٤٢] ، والناس في معرفة الحق والباطل واستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين يتفاوتون تفاوتاً كبيراً يوضح هذا التفاوت الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ [الأنعام: ٥٥] ، حيث يقول :

« والناس في هذا الموضع أربع فرق :

الأولى : من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علماً وعملاً ؛ وهؤلاء أعلم الخلق .

الفرقة الثانية : من عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام، وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر ولها أسلك .

الفرقة الثالثة : من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها ؛ فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة ، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل ، وإن لم يتصوره على التفصيل ، بل إذا سمع شيئاً مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه ، ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه ، وهو بمنزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات ، فلم تخطر بقلبه ولم تدعه إليها نفسه، بخلاف الفرقة الأولى فإنهم يعرفونها ، وتميل إليها نفوسهم ويجاهدونها على تركها لله . . . إلى أن قال رحمه الله تعالى :

الفرقة الرابعة : فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة وسبيل المؤمنين مجملة ، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع؛ فعرفها على التفصيل ، ولم يعرف ما جاء به الرسول كذلك ، بل عرفه معرفة مجملة ، وإن تفصلت له في بعض الأشياء ، ومن تأمل كتبهم رأى ذلك عياناً ، وكذلك من كان عارفاً بطرق الشر والظلم والفساد على التفصيل سالكاً لها إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار ، يكون علمه بها مجملاً غير عارف بها على التفصيل معرفة من أفنى عمره في تعرفها وسلوكها.

والمقصود أن الله سبحانه يحب أن تعرف سبيل أعدائه لتجتنب وتبغض، كما يحب أن تعرف سبيل أوليائه لتحب وتسلك، وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه إلا الله؛ من معرفة عموم ربوبيته سبحانه وحكمته، وكمال أسمائه وصفاته وتعلقها بمتعلقاتها واقتضائها لآثارها وموجباتها، وذلك من أعظم الدلالة على ربوبيته وملكه وإلهيته وحبه وبغضه وثوابه وعقابه، والله أعلم»[1].

٥ ـ تترس الطواغيت ودعاة العلمنة والتحرر من الدين في بلدان المسلمين ببعض الشبه الشرعية، والتي يلبسون بها على الناس في تبرير فسادهم وإضفاء الشرعية على ظلمهم: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ** ﴾. [البقرة: ١١، ١٢]

وكذلك بما يقومون به من تشويه لصورة المصلحين في هذه الأمة، وأنهم دعاة فتنة وأغراض شخصية ودعاة إرهاب وقلاقل، كل ذلك من لبس الحق بالباطل الذي ينبغي كشفه وتعريته، وسيأتي تفصيل ذلك في مبحث قادم إن شاء الله تعالى.

٦ ـ ظهور بعض المغالطات عند كثير منا واستخدامها في تبرير المواقف الخاطئة، والمخالفات الشرعية ـ سواء كانت فردية أم جماعية ـ ينبثق عنها مواقف وممارسات خاطئة تلبس على الناس أمرهم ويحسبون أنها الحق؛ لأنها تصدر من أناس طيبين ودعاة صالحين.

---

(١) الفوائد ١٠٩ـ١١١.

ومنشـؤ هذه المغـالطات في الـغـالب شـهـوة مُزجت بشبهـة فتـولد عـنهـا مغالطة، وسيأتي تفصيل ذلك في مبحث قادم إن شاء الله تعالى .

* * *

المبحث الثاني
تعريفات

يحسن بنا قبل الدخول في ثنايا الموضوع أن نلم بتعريفات عامة لبعض المصطلحات التي ينطلق منها هذا البحث ، والتي سيكثر إيرادها في صلب الموضوع ، وأهمها ما يلي :

١ ـ اللبس والتلبيس .

٢ ـ الأغاليط (المغالطات) .

أولاً : **تعريف اللبس والتلبيس :**

قال في لسان العرب : اللَّبْس والتلبيس : اختلاط الأمر. لبس عليه الأمر يلبسه لبْساً فالتبس ، إذا خلطه عليه حتى لا يعرف جهته. والتبس عليه الأمر أي اختلط واشتبه .

والتلبيس : كالتدليس والتخليط ؛ شدد للمبالغة ، وربما شدد للتكثير .

يقال : لَبستُ الأمر على القوم ألْبِسُه لبساً، إذا شبهته عليهم وجعلته مشكلاً » اهـ . باختصار .

وقال ابن الجوزي رحمه الله : « التلبيس: إظهار الباطل في صورة الحق»[1] اهـ.

---

(١) تلبيس إبليس ص٣٦ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عند هذه الآية : « فإنه من لبس الحق بالباطل فغطاه به فغلط به، لزم أن يكتم الحق الذي يبين أنه باطل ؛ إذ لو بينه زال الباطل الذي لبس به الحق»[1] اهـ .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند هذه الآية أيضاً :

« نهى عن لبس الحق بالباطل وكتمانه . ولبسه به خلطه به حتى يلتبس أحدهما بالآخر، ومنه التلبيس ، وهو التدليس والغش الذي يكون باطنه خلاف ظاهره ؛ فكذلك الحق إذا لُبس بالباطل يكون فاعله قد أظهر الباطل في صورة الحق ، وتكلم بلفظ له معنيان : معنى صحيح ، ومعنى باطل ، فيتوهم السامع أنه أراد المعنى الصحيح ، ومراده الباطل ، فهذا من الإجمال في اللفظ »[2] اهـ .

وقال الرازي في قوله تعالى : ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ :

« أمر بترك الإغواء والإضلال . واعلم أن إضلال الغير لا يحصل إلا بطريقتين ؛ وذلك لأن ذلك الغير إن كان قد سمع دلائل الحق فإضلاله لا يمكن إلا بتشويش تلك الدلائل عليه ، وإن كان ما سمعها فإضلاله إنما يمكن بإخفاء تلك الدلائل عنه ومنعه من الوصول إليها، فقوله : ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ إشارة إلى القسم الأول وهو تشويش الدلائل عليه ، وقوله:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٩٤).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٩٢٦).

﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ إشارة إلى القسم الثاني وهو منعه من الوصول إلى الدلائل . واعلم أن الأظهر في الباء التي في قوله : ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ أنها باء الاستعانة كالتي في قولك : كتبت بالقلم .

والمعنى : ولا تلبسوا الحق بسبب الشبهات التي توردونها على السامعين ؛ وذلك لأن النصوص الواردة في التوراة والإنجيل في أمر محمد عليكم كانت نصوصاً خفية يحتاج في معرفتها إلى الاستدلال ، ثم بأنهم كانوا يجادلون فيها ويشوشون وجه الدلالة على المتأملين فيها بسبب إلقاء الشبهات ؛ فهذا هو المراد بقوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ وهو المذكور في قوله : ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر : ٥] .

أما قوله : ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي تعلمون ما في إضلال الخلق من الضرر العظيم العائد عليكم يوم القيامة ؛ وذلك لأن ذلك التلبيس صار صارفاً للخلق عن قبول الحق إلى يوم القيامة ، وداعياً لهم إلى الاستمرار على الباطل إلى يوم القيامة ، ولا شك في أن موقعه عظيم ، وهذا الخطاب وإن ورد فيهم فهو تنبيه لسائر الخلق وتحذير من مثله ، فصار الخطاب وإن كان خاصاً في الصورة لكنه عام في المعنى»[1] اهـ.

ثانياً : تعريف الأغاليط «المغالطات» :

قال في لسان العرب : « المَغْلَطَة والأغلوطة : ما يغالط به من المسائل ، والجمع : الأغاليط ، وفي الحديث أنه ﷺ نهى عن الأغلوطات. قال الهروي : وأراد بها المسائل التي يُغالَط بها العلماءُ ليزلوا فيهيج بذلك شر

---

(١) التفسير الكبير (٣/ ٤٠ ، ٤١) .

وفتنة ، وإنما نهى عنها لأنها غير نافعة في الدين ، ولا تكاد تكون إلا فيما لا يقع . ومثله قول ابن مسعود رضي الله عنه : « أنذرتكم صعاب المنطق » يريد المسائل الدقيقة الغامضة »اهـ.

وقد أخرج أبو داود رحمه الله في سننه عن معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى عن الأغلوطات[١] .

وقد ضعف الألباني الحديث ، وقال في شرح الأغلوطات : بأنها المسائل التي يغالط بها العلماء ليزلوا فيها فتهيج بذلك الشر والفتنة[٢] .

وروى الإمامان : البخاري ومسلم حديث حذيفة المشهور في الفتن ، وفيه قول حذيفة : « إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط »[٣] .

قال في الشرح : الأغاليط : جمع أغلوطة ، وهي المسائل التي يغلط فيها ، والأحاديث التي تذكر للتكذيب .

ونقل الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في جامع العلوم والحكم عند شرحه للحديث التاسع من أحاديث الأربعين النووية قوله :

« وقال الحسن البصري : شر عباد الله الذين يتبعون شرار المسائل يعمون بها عباد الله .

---

(١) أخرجه أبو داود ـ كتاب العلم (٨) ، باب التوقي في الفتيا (٣٦٥٦) (٤/ ٦٥) ، وأحمد في المسند (٥/ ٤٣٥) .

(٢) انظر تمام المنة ص٤٥ ، وضعيف أبي داود رقم ٧٩١ ، ص٣٦٣ ، ٣٦٤ .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخاري ـ كتاب المواقيت (٤) ، باب : الصبر كفارة (ح٥٢٥) [فتح الباري : ٢/ ١١] ، وأخرجه مسلم ـ كتاب الإيمان (٦٥) ، باب : بيان أن الإسلام بدأ غريباً . . . (ح١٤٤) (١/ ١٢٨).

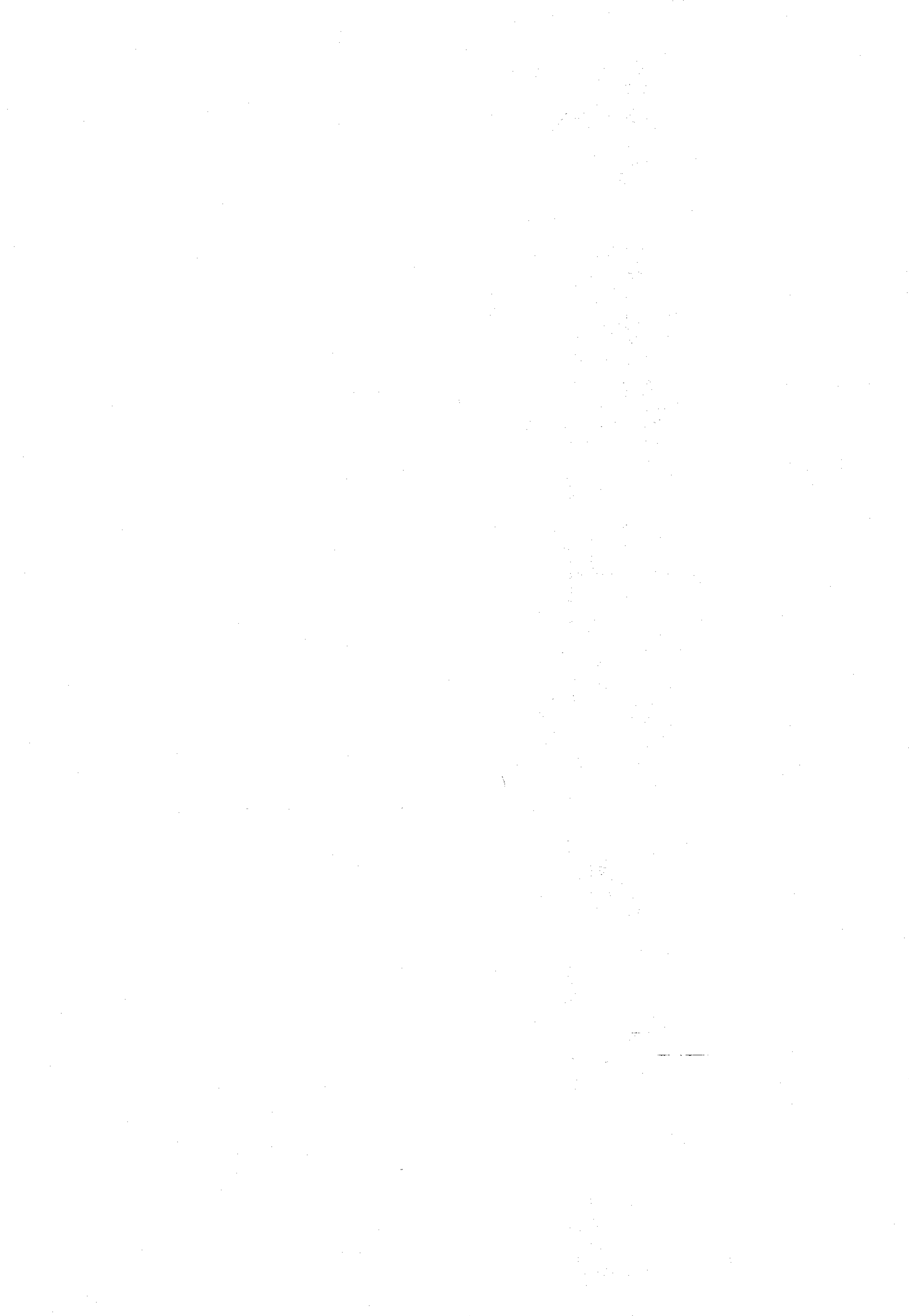
وقال الأوزاعي : إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط ، فلقد رأيتهم أقل الناس علماً .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ، ويهرم فيها الكبير ، وتتخذ سنة فإن غُيِّرت يوماً قيل : هذا منكر ، قالوا : ومتى ذلك ، قال : إذا قلّت أمناؤكم ، وكثرت أمراؤكم ، وقلت فقهاؤكم ، وكثرت قراؤكم ، وتُفقه لغير الدين ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة »[1] اهـ .

والحاصل مما ذكر أن المغاليط أو المغالطات هي التي يثيرها المغالطون من صعاب المسائل ، أو المسائل التي لم تقع ولا يترتب عليها عمل ؛ وذلك ليغالطوا بها العلماء ليزلوا فيعموا بها العباد ، ويهيج من ذلك شر وفتنة وتلبيس على الناس .

❋ ❋ ❋

(١) جامع العلوم والحكم ص١٤٢ .



المبحث الثالث
أسباب ووسائل لبس الحق بالباطل

إن الانحراف عن الحق والوقوع فيما يضاده لا تعدو أسبابه الفتن التالية :

١ ـ فتنة الشبهات .

٢ ـ فتنة الشهوات .

٣ ـ فتنة الجمع بين الشبهة والشهوة « لبس الحق بالباطل » .

وكل انحراف أو ضلال أو خطأ ـ صغيراً كان أو كبيراً ـ لا يخرج في دوافعه عن الأسباب السابقة ؛ فإذا وقع العبد في مخالفة شرعية ، فإما أن يكون السبب في هذه المخالفة هو الجهل بها ، وعدم العلم بحرمتها أو اشتبه الأمر عليه فحسبها مكروهة فقط ؛ فهذا الخطأ سببه الشبهة الناتجة عن قلة العلم ، وضعف البصيرة .

وأما إذا كان لدى العبد الواقع في المخالفة علم وبصيرة من دين الله أنها محرمة ومخالفة للشرع ، ومع ذلك وقع فيها عمداً ، فإن السبب الدافع لهذه المخالفة إنما هو الشهوة وضعف النفس ، ومثل هذا يقرّ ويعترف بمخالفته ومجانبته للصواب كما يعترف بذنبه وتقصيره .

وهناك شخص آخر قد لا يعترف بذنبه وتقصيره وإنما نراه وقد راح يبحث عن شبهة في دليل وتفسير خاطئ ، أو تأويل متعسف للأدلة ليبرر بها

خطأه، ويمرر بها ضعفه وشهوته مع علمه بخطأ تصرفه هذا في قرارة نفسه ، فهذا هو الهوى ، وهذه هي المغالطة ، وهذا هو لبس الحق بالباطل ، وهو أشنع أنواع الانحراف؛ لأنه مكر وتحايل على شرع الله وخداع للناس.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والفتنة نوعان : النوع الأول فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين ، وفتنة الشهوات . وقد يجتمعان للعبد ، وقد ينفرد بإحداهما .

ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة ، وقلة العلم ، ولاسيما إذا اقترَن بذلك فسادُ القصد ، وحصولُ الهوَى ، فهنالك الفتنة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، فقل ما شئت في ضلال سَيئ القصد، الحاكم عليه الهوى لا الهدى، مع ضعف بصيرته ، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله ﷺ ، فهو من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿**إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُس**﴾ .

[النجم : ٢٣]

وقد أخبر الله سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله ، فقال : ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾ [ص: ٢٦] .

وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق ، وهي فتنة المنافقين وفتنة أهل البدع، على حسب مراتب بدعهم ، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل ، والهدى بالضلال .

وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد ، وتارة من نقل كاذب ، وتارة من

حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به ، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع ، فهي من عمى في البصيرة وفساد في الإرادة .

وأما النوع الثاني من الفتنة : ففتنة الشهوات :

وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله : ﴿ **كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ** ﴾ [التوبة : ٦٩]، أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها . والخلاقُ هو النَّصيبُ المقدر ، ثم قال : ﴿ **وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا** ﴾ فهذا الخوض بالباطل ، وهو الشبهات .

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان ، من الاستمتاع بالخلاق والخوض بالباطل ؛ لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به ، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح .

فالأول : هو البدع وما والاها ، والثاني : فسق الأعمال .

فالأول فساد من جهة الشبهات ، والثاني : من جهة الشهوات ، ولهذا كان السلف يقولون : احذروا من الناس صنفين : صاحب هوى قد فتنه هواه ، وصاحب دنيا أعمته دنياه[1] .

وإن أشد وأشر هذه الفتن من جمع بين الشبهة والشهوة ، وتحايل على شرع الله بأن غطى مخالفته وانحرافه بتأويل غير سائغ أو بشبهة دليل ، وهو يعلم أنه متحايل ومخادع .

ومثل هؤلاء الملبسين عقوبتهم عند الله عز وجل أشد من الذين يقعون في

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٥ ـ ١٦٦).

المخالفات الشرعية ، ولكنهم يعترفون بتقصيرهم وذنوبهم ولا يكابرون ويبررون ، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كلامه عن تحريم الحيل ، وكيف أن اليهود تحايلوا على الصيد يوم السبت ، فقال :

« قال شيخنا[١] : وهؤلاء لم يكفروا بالتوراة وبموسى ، وإنما فعلوا ذلك تأويلاً واحتيالاً ظاهره ظاهر الاتقاء ، وحقيقته حقيقة الاعتداء ، ولهذا ـ والله أعلم ـ مسخوا قردة ؛ لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان ، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه ، وهو مخالف له في الحد والحقيقة .

فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته ؛ مسخهم الله قردة تشبه الإنسان في بعض ظاهره دون الحقيقة ، جزاءً وفاقاً .

ويقوي ذلك أن بني إسرائيل أكلوا الربا وأموال الناس بالباطل ، وهو أعظم من أكل الصيد في يوم بعينه ، ولم يعاقب أولئك بالمسخ كما عوقب به من استحل الحرام بالحيلة ؛ لأن هؤلاء لما كانوا أعظم جرماً كانت عقوبتهم أعظم ، فإنهم بمنزلة المنافقين ؛ يفعلون ما يفعلون ولا يعترفون بالذنب ، بل قد فسدت عقيدتهم وأعمالهم ، بخلاف من أكل الربا وأموال الناس بالباطل والصيد المحرم عالماً بتحريمه ، فإنه يقترن بمعصيته اعترافُه بالتحريم ، وخشيته لله ، واستغفاره وتوبته يوماً ما ، واعترافه بأنه مذنب عاص ، وانكسار قلبه من ذل المعصية ، وازدراؤه على نفسه ، ورجاؤه لمغفرة ربه له ، وعد نفسه من المذنبين الخاطئين ، وهذا كله إيمان يفضي بصاحبه إلى خير ، بخلاف الماكر المخادع المحتال على قلب دين الله .

(١) يقصد شيخ الإسلام رحمه الله تعالى .

ولهذا حذر النبي ﷺ أمته من ارتكاب الحيل ، فقال : « **لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل** »[١] ، وقد أخبر الله تعالى أنه جعل هذه القرية ـ أو هذه الفعلة التي فعلها بأهلها ـ نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين »[٢]اهـ .

وهذا هو حقيقة لبس الحق بالباطل وحقيقة المغالطة ؛ إذ إن الدافع الحقيقي للانحراف هو الهوى والشهوة وحب الدنيا ، ولكن بدلاً من أن يعترف بضعفه هذا وشهوته ويقر بذنبه في مخالفته للشريعة ، فإنه يستدل لشهوته هذه بشبهة أدلة شرعية يعلم هو في قرارة نفسه أنها غير صالحة للاستدلال، لكن هواه يوحي إليه أنه لابد من غطاء يغطي به هذا الضعف والهوى .

* * *

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير ، وجود إسناده (٣/ ٤٩٢) طبعة دار الشعب .

(٢) أعلام الموقعين (٣/ ١٦٣) .

وسائل لبس الحق بالباطل

وإذا ذهبنا نتعرف على وسائل التلبيس والطرق التي يمارس بها لوجدناها لا تخرج في الغالب عن الأمور التالية :

١ ـ التأويل الفاسد واتباع المتشابه .

٢ ـ كتمان الحق وإخفاؤه .

٣ ـ تحريف الأدلة عن مواضعها ، وعدم إنزالها في مناطاتها .

وتفصيل ذلك فيما يلي :

١ـ التأويل الفاسد واتباع المتشابه :

ويقصد بالتأويل هنا التأويل الفاسد الذي لم يدل عليه دليل يصرفه عن المعنى الظاهر، والذي هو أشبه بتحريف الكلم ، والغالب أن الذي يدفع إليه الجهل والهوى .

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« فأصل خراب الدين والدنيا إنما هو التأويل الذي لم يُرِدْه الله ورسوله بكلامه ولا دل عليه أنه مراده ، وهل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل ؟ وهل وقعت في الأمة فتنة كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل ؟ فمن بابه دخل إليها ، وهل أريقت دماء المسلمين في الفتن إلا بالتأويل ؟

والمتأولون أصناف عديدة بحسب الباعث لهم على التأويل ، وبحسب

قصور أفهامهم ووفورها ، وأعظمهم توغلاً في التأويل الباطل من فسد قصده وفهمه ؛ فكلما ساء قصده وفهمه ؛ كان تأويله أشد انحرافاً .

فمنهم من يكون تأويله لنوع هوى من غير شبهة ، بل يكون على بصيرة من الحق ، ومنهم من يكون تأويله لنوع شبهة عرضت له أخفت عليه الحق ، ومنهم من يجتمع له الأمران : الهوى في القصد، والشبهة في العلم . . .

إلى أن قال رحمه الله تعالى : قال أبو الوليد بن رشد المالكي في كتابه المسمى بـ (الكشف عن مناهج الأدلة) ـ وقد ذكر التأويل وجنايته على الشريعة ـ فقال : ومثال من أوَّل شيئاً من الشرع وزعم أن ما أوله هو الذي قصده الشرع ـ مثال من أتى إلى دواء قد ركبه طبيب ماهر ليحفظ صحة جميع الناس أو أكثرهم ، فجاء رجل فلم يلائمه ذلك الدواء الأعظم لرداءة مزاج كان به ، ليس يعرض إلا للأقل من الناس ، فزعم أن بعض تلك الأدوية التي صرح باسمها الطبيب الأول في ذلك الدواء العام المنفعة لم يرد به ذلك الدواء العام، الذي جرت العادة في اللسان أن يُدَلَّ بذلك الاسم عليه، وإنما أراد به دواء آخر مما يمكن أن يدل عليه بذلك باستعارة بعيدة، فأزال ذلك الدواء الأول من ذلك المركب الأعظم، وجعل فيه بدله الدواء الذي ظن أنه قصده الطبيب ، وقال للناس : هذا هو الذي قصده الطبيب الأول ، فاستعمل الناس ذلك الدواء المركب على الوجه الذي تأوله عليه هذا المتأول، ففسدت أمزجة كثير من الناس .

فجاء آخرون فشعروا بفساد أمزجة الناس من ذلك الدواء المركب؛ فراموا إصلاحه بأن بدلوا بعض أدويته بدواء آخر غير الدواء الأول ؛ فعرض من ذلك للناس نوع من المرض غير النوع الأول ، فجاء ثالث فتأول في

أدوية ذلك المركب غير التأويل الأول والثاني ، فعرض للناس من ذلك نوع ثالث من المرض غير النوعين المتقدمين ، فجاء متأول رابع فتأول دواء آخر غير الأدوية المتقدمة ؛ فعرض منه للناس نوع رابع من المرض غير الأمراض المتقدمة ، فلما طال الزمان بهذا الدواء المركب الأعظم ، وسلط الناسُ التأويلَ على أدويته ، وغيروها وبدلوها عرض منه للناس أمراض شتى ، حتى فسدت المنفعة المقصودة بذلك الدواء المركب في حق أكثر الناس ، وهذه هي حالة الفرق الحادثة في هذه الشريعة مع الشريعة »[1] اهـ .

ويقول الإمام ابن القيم أيضاً :

« كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها ، فلابد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه ، وفي خبره وإلزامه ؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات ، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً ، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات ، لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق ، ولا سيما إذا قامت له شبهة ، فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى فيخفى الصواب ، وينطمس وجه الحق»[2] اهـ.

وعن اتباع المتشابه يقول الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** ﴾ [آل عمران : ٧] :

« وذلك أن هذه الآية شملت قسمين ، هما أصل المشي على طريق

(١) أعلام الموقعين (٤/ ٣٥٣) .

(٢) الفوائد ص ١١٠ .

الصواب ، أو على طريق الخطأ :

أحدهما : الراسخون في العلم ، وهم الثابتو الأقدام في علم الشريعة ، ولما كان ذلك متعذراً إلا على مَن حَصَّل الأمرين المتقدمين[1] ؛ لم يكن بد من المعرفة بهما معاً على حسب ما تعطيه المُنَّة الإنسانية ، وإذ ذاك يطلق عليه أنه راسخ في العلم ، ومقتضى الآية مدحه ، فهو إذاً أهل للهداية والاستنباط .

وحين خصَّ أهل الزيغ باتباع المتشابه ، دل التخصيص على أن الراسخين لا يتَّبعونه ، فإذاً لا يتبعون إلا المحكم ، وهو أم الكتاب ومعظمه .

فكلُّ دليل خاص أو عام شهد له معظم الشريعة ، فهو الدليل الصحيح وما سواه فاسد ؛ إذ ليس بين الصحيح والفاسد واسطة في الأدلة يستند إليها ، إذ لو كان ثم ثالث ؛ لنصت عليه الآية .

ثم لما خُص الزائغون بكونهم يتبعون المتشابه أيضاً ، علم أن الراسخين لا يتَّبعونه ، فإن تأولوه ؛ فبالرد إلى المحكم ، بأن أمكن حمله على المحكم بمقتضى القواعد ، فهذا المتشابه الإضافي لا الحقيقي ، وليس في الآية نص على حكمه بالنسبة إلى الراسخين ، فليرجع عندهم إلى المحكم الذي هو أم الكتاب .

وإن لم يتأولوه ؛ فبناء على أنه متشابه حقيقي ، فيقابلونه بالتسليم ، وقولهم : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] ، وهؤلاء هم أولو الألباب .

---

(١) وهما الرسوخ في معرفة كلام العرب والعلم بمقاصدها ، والرسوخ في العلم بقواعد الأصول التي من جهتها تستنبط الأحكام .

وكذلك ذكر في أهل الزيغ أنهم يتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة ، فهم يطلبون به أهواءهم لحصول الفتنة ، فليس نظرهم إذاً في الدليل نظر المستبصر حتى يكون هواه تحت حكمه ، بل نظر من حكّم الهوى ثم أتى بالدليل كالشاهد له ، ولم يذكر مثل ذلك في الراسخين ، فهم إذن بضد هؤلاء حيث وقفوا في المتشابه فلم يحكموا فيه ولا عليه سوى التسليم ، وهذا المعنى خاص بمن طلب الحق من الأدلة ، لا يدخل فيه من طلب في الأدلة ما يصحح هواه السابق .

والقسم الثاني : من ليس براسخ في العلم ، وهو الزائغ ، فحصل له من الآية وصفان :

أحدهما : بالنص وهو الزيغ ؛ لقوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ** ﴾ [آل عمران: ٧] ، والزيغ : هو الميل عن الصراط المستقيم ، وهو ذم لهم .

والثاني : بالمعنى الذي أعطاه التقسيم ، وهو عدم الرسوخ في العلم ، وكل منفي عنه الرسوخ فإلى الجهل هو مائل ، ومن جهة الجهل حصل له الزيغ ؛ لأن من نعي عليه في طريق الاستنباط واتباع الأدلة لبعض الجهالات ؛ لم يحل له أن يتبع الأدلة المحكمة ولا المتشابهة .

فلو فرضنا أنه يتبع المحكم ؛ لم يكن اتباعه مفيداً لحكمه ؛ لإمكان أن يتبعه على وجه واضح البطلان أو متشابه ، فما ظنك به إذا اتبع نفس المتشابه؟!

ثم اتباعه للمتشابه ـ لو كان من جهة الاسترشاد به لا للفتنة به ـ ؛ لم

يحصل به مقصود على حال ، فما ظنك به إذا اتبع ابتغاء الفتنة ؟!

وهكذا المحكم إذا اتبعه ابتغاء الفتنة به ، فكثيراً ما ترى الجهال يحتجون لأنفسهم بأدلة فاسدة وبأدلة صحيحة؛ اقتصاراً بالنظر على دليل ما ، واطراحاً للنظر في غيره من الأدلة الأصولية والفروعية العاضدة لنظره أو المعارضة له .

وكثير ممن يدعي العلم يتخذ هذا الطريق مسلكاً ، وربما أفتى بمقتضاه وعمل على وفقه إذا كان له فيه غرض . . . ، وكذلك الأمر أبداً في كل مسألة يتبع فيها الهوى أولاً ، ثم يطلب لها المخرج من كلام العلماء أو من أدلة الشرع وكلام العرب أبداً ، لاتساعه وتصرفه ، ويحتمل [أنها][1] كثيرة ، لكن يعلم الراسخون المراد منه ؛ من أوله وآخره ، أو فحواه ، أو بساط حاله أو قرائنه ، فمن لا يعتبره من أوله إلى آخره ويعتبر ما ابتنى عليه ؛ زلَّ في فهمه، وهو شأن من يأخذ الأدلة من أطراف العبارة الشرعية ، ولا ينظر بعضها ببعض ، فيوشك أن يزل،وليس هذا من شأن الراسخين ، وإنما هو من شأن من استعجل؛ طلباً للمخرج في دعواه .

فقد حصل من الآية المذكورة أن الزيغ لا يجري على طريق الراسخ بغير حكم الاتفاق ، وأن الراسخ لا زيغ معه بالقصد ألبتة »[2] اهـ.

وحول هذا المعنى يقول الله عز وجل في اليهود : ﴿ **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ**

---

(١) كذا في الاعتصام ، تحقيق : سليم الهلالي . وفي نسخة رشيد رضا : (واحتمالاتها كثيرة) . ولعل الصواب هو : (ويحتمل أوجهاً كثيرة) فهو أشبه بالسياق ، والله أعلم .

(٢) الاعتصام (١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٥) طبعة تحقيق سليم الهلالي .

مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

[آل عمران : ٧٨]

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية :

« وآفة رجال الدين حين يفسدون أن يصبحوا أداة طيعة لتزييف الحقائق باسم أنهم رجال الدين ، وهذه الحال التي يذكرها القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب نعرفها نحن جيداً في زماننا هذا ، فهم كانوا يؤولون نصوص كتابهم ويلوونها لياً ؛ ليصلوا منها إلى مقررات معينة يزعمون أنها مدلول هذه النصوص ، وأنها تمثل ما أراده الله منها ، بينما هذه المقررات تصادم حقيقة دين الله في أساسها . معتمدين على أن كثرة السامعين لا تستطيع التفرقة بين حقيقة الدين ومدلولات هذه النصوص الحقيقية ، وبين تلك المقررات المفتعلة المكذوبة التي يُلجئون إليها النصوص إلجاء .

ونحن اليوم نعرف هذا النموذج جيداً في بعض الرجال الذين ينسبون إلى الدين ظلماً ! الذين يحترفون الدين ويسخرونه في تلبية الأهواء كلها ، ويحملون النصوص ويجرون بها وراء هذه الأهواء حيثما لاح لهم أن هناك مصلحة تتحقق ، وأن هناك عرضاً من أعراض هذه الحياة الدنيا يحصل ! يحملون هذه النصوص ويلهثون بها وراء تلك الأهواء ويلوون أعناق هذه النصوص لياً لتوافق هذه الأهواء السائدة ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ليوافقوا بينه وبين اتجاهات تصادم هذا الدين وحقائقه الأساسية ، ويبذلون جهداً لاهثاً في التمحل وتصيد أدنى ملابسة لفظية ليوافقوا بين مدلول آية قرآنية وهوى من الأهواء السائدة التي يهمهم تمليقها ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ

اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٨].

كما يحكي القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب سواء، فهي آفة لا يختص بها أهل الكتاب وحدهم، إنما تبتلى بها كل أمة يرخص دين الله فيها على من ينتسبون إليه حتى ما يساوي إرضاء هوى من الأهواء التي يعود تمليقها بعرض من أعراض هذه الأرض!، وتفسد الذمة حتى ما يتحرج القلب من الكذب على الله، وتحريف كلماته عن مواضعها لتمليق عبيد الله، ومجاراة أهوائهم المنحرفة، التي تصادم دين الله..، وكأنما كان الله سبحانه يحذر الجماعة المسلمة من هذا المزلق الوبيء، الذي انتهى بنزع أمانة القيادة من بني إسرائيل»[1] اهـ.

٢ـ كتمان الحق وإخفاؤه:

وهذه هي الطريقة الثانية من طرق لبس الحق بالباطل، والذي يؤدي إلى تحريف الأدلة عن مواضعها، وتغطية الحق به. يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عند قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢]: « هما متلازمان، فإن من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوساً به خفي من الحق بقدر ما ظهر من الباطل، فصار ملبوساً. ومن كتم الحق احتاج أن يقيم موضعه باطلاً فيلبس الحق بالباطل، ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله، فلابد أن يظهر باطلاً »[2] اهـ.

وسبق لنا أيضاً من كلام الرازي عند نفس الآية قوله: « اعلم أن إضلال

(١) في ظلال القرآن (١/ ٤١٨، ٤١٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٧٢).

الغير لا يحصل إلا بطريقين ؛ وذلك لأن ذلك الغير إن كان قد سمع دلائل الحق فإضلاله لا يمكن إلا بتشويش تلك الدلائل عليه ، وإن كان ما سمعها فإضلاله إنما يمكن بإخفاء تلك الدلائل عنه ومنعه من الوصول إليها»(١) .

وقد ورد في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ من النصوص المحذرة من كتمان الحق وإخفائه، والمتوعدة لفاعليه بالوعيد الشديد ما يلي :

قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٩] ، وقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ١٧٤].

يقول الشيخ رشيد رضا في تفسيرها :

« هذه الآية جارية على الرؤساء الذين يحرمون على الناس ما لم يحرمه الله ، ويشرعون لهم ما لم يشرعه من حيث يكتمون ما شرعه بالتأويل أو الترك فيدخل فيه اليهود والنصارى ، ومن حذا حذوهم في شرع ما لم يأذن به الله وإظهار خلافه ؛ سواء كان ذلك في أمر العقائد ككتمان اليهود أوصاف النبي ﷺ ، أو الأكل والتقشف وغير ذلك من الأحكام التي كانوا يكتمونها إذا كان لهم منفعة في ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا** ﴾ [الأنعام: ٩١] .

وفي حكمهم كل من يبدي بعض العلم ويكتم بعضاً لمنفعة لا لإظهار

---

(١) التفسير الكبير (٣/ ٤٠).

الحق وتأييده »[(١)] اهـ.

ومثله قوله تعالى في اليهود ومن حذا حذوهم : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

يقول القرطبي رحمه الله: «قال المفسرون : هم اليهود ، ورثوا كتاب الله فقرءوه وعلموه وخالفوا حكمه ، وأتوا محارمه مع دراستهم له ، فكان هذا توبيخاً لهم وتقريعاً ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ ﴾ ثم أخبر عنهم أنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم ونهمهم ، ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ وهم لا يتوبون .

ودل على أنهم لا يتوبون قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ والعرض : متاع الدنيا ؛ بفتح الراء. وإسكانها ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير . والإشارة في هذه الآية إلى الرشا والمكاسب الخبيثة ، ثم ذمهم باغترارهم في قولهم : ﴿ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ، وأنهم بحال إذا أمكنتهم ثانية ارتكبوها ، فقطعوا باغترارهم بالمغفرة وهم مصرون ، وإنما يقول : سيغفر لنا من أقلع وندم .

قلت : وهذا الوصف الذي ذم الله تعالى به هؤلاء موجود فينا . أسند الدارمي أبو محمد : حدثنا محمد بن المبارك حدثنا صدقة بن خالد عن ابن جابر عن شيخ يكنى أبا عمرو عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال : سَيَبْلَى القرآنُ في صدور أقوام كما يَبْلَى الثّوب فيتهافت ، يقرأونه لا يجدون له

(١) تفسير المنار (٢/ ١٠١).

شهوة ولا لذة ، يَلْبَسون جلود الضأن على قلوب الذئاب ، أعمالهُم طمع لا يخالطه خوف ، إن قصروا قالوا : سنبلغ ، وإن أساءوا قالوا : سيغفر لنا إنا لا نشرك بالله شيئاً[(١)] .

وقيل : إن الضمير في « يأتهم » ليهود المدينة ؛ أي وإن يأت يهودَ يَثْرِبَ الذين كانوا على عهد النبي ﷺ عَرَض مِثْلُه يأخذوه كما أخذه أسلافهم .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٩] ، فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ ﴾ يريد التوراة ، وهذا تشديد في لزوم قول الحق في الشرع والأحكام ، وألا يميل الحكام بالرُّشَا إلى الباطل .

قلت : وهذا الذي لزم هؤلاء وأخذ عليهم به الميثاق في قول الحق لازم لنا على لسان نبينا »[(٢)] اهـ.

وبقيت كلمة أخيرة في موضوع كتمان الحق ، ألا وهي أن بعض الطيبين قد يقول : ألا يجوز كتمان العلم بل يجب أحياناً عند خوف الفتنة من الجهر به سواء على النفس أو على الناس ؟ والجواب فيه تفصيل كما يلي :

---

(١) سنن الدارمي : كتاب فضائل القرآن (٤) باب : في تعاهد القرآن (ح٣٢٢٥) : (٢/ ٨٩٦).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٣١١).

بادئ ذي بدء فإن حديثنا ليس عن كتمان العلم ، وإنما هو عن كتمان الحق الذي يجب أن يقال . وفي نظري - والله أعلم - أن بينهما اختلافاً ، وذلك أن العلم أنواع ، فمنه ما هو واجب القول به ، وتعليمه للناس كفروض العين ونحوها ، ومنه ما هو مستحب ، ومنه ما يجوز قوله لأناس دون أناس حسب عقولهم وأفهامهم .

أما قول الحق الواجب فأرى أنه من العلم الواجب إيصاله للناس ولا يجوز كتمه ؛ لأن في كتمه مفسدة تخالف مقاصد الشرع أو بعضها ، وفي إخفائه فتنة للناس وليس العكس ، فإذا جاز كتمان العلم أو وجب في ضوء قواعد الشريعة المعتبرة ، فإنا والحالة هذه نقول : إن الحق في هذا هو كتمان العلم وإن الجهر بالعلم مع معرفتنا بالمفسدة المترتبة عليه هو الباطل والفتنة .

هذا - والله أعلم - هو الذي عناه الشاطبي رحمه الله تعالى في الموافقات حيث قال : « ومن هذا يعلم أنه ليس كل ما يعلم مما هو حق يطلب نشره ، وإن كان من علم الشريعة ، ومما يفيد علماً بالأحكام ، بل ذلك ينقسم ؛ فمنه ما هو مطلوب النشر وهو غالب علم الشريعة ، ومنه ما لا يطلب نشره بإطلاق، أو لا يطلب نشره بالنسبة إلى حال أو وقت أو شخص ، ومن ذلك تعيين هذه الفرقة ، فإنه وإن كان حقاً فقد يثير فتنة كما تبين تقريره ، فيكون من تلك الجهة ممنوعاً بثه . من ذلك علم المتشابهات والكلام فيها ، فإن الله ذم من اتبعها ، فإذا ذكرت وعرضت للكلام فيها فربما أدى ذلك إلى ما هو مستغنى عنه .

وقد جاء في الحديث عن علي : « **حدثوا الناس بما يفهمون** ، أتريدون

أن يكذب الله ورسوله»[1] وفي الصحيح عن معاذ أنه عليه الصلاة والسلام قال : « **يا معاذ، تدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله...** الحديث» إلى أن قال : قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس، قال : « **لا تبشرهم فيتكلوا**»[2] ، وفي حديث آخر عن معاذ في مثله قال : يا رسول الله، أفلا أخبر بها فيستبشروا ، فقال : « **إذاً يتكلوا** » ، قال أنس ، فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً[3] .

ونحو من هذا عن عمر بن الخطاب مع أبي هريرة انظره في كتاب مسلم والبخاري . فإنه قال فيه عمر : « يا رسول الله، بأبي أنت وأمي ، أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً به قلبه بشره بالجنة ؟ قال: نعم ، قال : فلا تفعل ، فإني أخشى أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون ، فقال رسول الله ﷺ : « **فخلهم**»[4] .

وحديث ابن عباس عن عبد الرحمن بن عوف قال : لو شهدت أمير

---

(١) أخرجه البخاري : كتاب العلم (٤٩)ـ باب : من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا (ح١٢٧) [فتح الباري (١/ ٢٧٢)] .

(٢) متفق عليه : أخرجه البخاري ـ كتاب الجهاد (٤٧٦) ، باب : اسم الفرس والحمار (ح٢٨٥٦) [فتح الباري (٦/ ٦٩)] ، وفي مواضع أخرى.
وأخرجه مسلم ـ كتاب الإيمان (١٠) باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (تحت ٣٠) (١/ ٥٨ ، ٥٩) .

(٣) متفق عليه : أخرجه البخاري ـ كتاب العلم (٤٩) ، باب : من خص بالعلم قوماً دون قوم.. (ح١٢٨) [فتح (١/ ٢٧٢)] ، ومسلم : كتاب الإيمان ـ (١٠) باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (ح٣٢) (١/ ٦١) .

(٤) أخرجه مسلم ـ كتاب الإيمان باب (١٠)ـ (ح٣١) (١/ ٥٩ ، ٦٠) ، وهو غير مخرج في البخاري .

المؤمنين أتاه رجل ، فقال : إن فلاناً يقول : لو مات أمير المؤمنين لبايعنا فلاناً ، فقال عمر : لأقومن العشية ، فأحذر هؤلاء الرهط الذين يريدون يغصبونهم ، قلت : لا تفعل ، فإن الموسم يجمع رعاع الناس ويغلبون على مجلسك ، فأخاف أن لا ينزلوها على وجهها ، فيطيروا بها كل مطير ، وأمهل حتى تقدم المدينة دار الهجرة ودار السنة؛ فتخلص بأصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ويحفظوا مقالتك وينزلوها على وجهها ، فقال: والله لأقومن في أول مقام أقومه بالمدينة . . . الحديث[(١)]

. . . إلى أن قال رحمه الله تعالى : ومنه ألا يذكر للمبتدي من العلم ما هو حظ المنتهي ، بل يربى بصغار العلم قبل كباره . . . إلى أن قال : وقد أخبر مالك عن نفسه أن عنده أحاديث وعلماً ما تكلم فيها ولا حدث بها . وكان يكره الكلام فيما ليس تحته عمل ، وأخبر عمن تقدمه أنهم كانوا يكرهون ذلك .

فتنبه لهذا المعنى ، وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة ، فإن صحت في ميزانها ، فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله ، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة فاعرضها في ذهنك على العقول فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها على العموم ، إن كانت مما تقبلها العقول على العموم . وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم ، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ ، فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية»[(٢)] اهـ.

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه - كتاب الحدود (٣١) باب : رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت (٦٨٣٠) [فتح (١٢/ ١٤٨ ، ١٤٩)].

(٢) الموافقات (٤/ ١٠٩) . (باختصار) .

٣ـ تحريف الأدلة عن مواضعها :

وهذه الطريقة من طرق التلبيس هي ثمرة من ثمرات الطريقين السابق تفصيلهما ؛ إذ لابد لمحرف الأدلة من كتمان الحق ، ولابد لمتبع المتشابه من تأويل كلام الله سبحانه وكلام رسوله ﷺ التأويل الفاسد الذي يؤدي إلى حرف الأدلة عما أراد الله بها وأراده رسوله ﷺ ، ومن ثم وضعها في غير موضعها ، وهذا هو نوع من أنواع التحريف للأدلة عن مواضعها ؛ إذ لا يلزم من التحريف أن يكون لفظياً كما فعلت اليهود في التوراة بل إن تحريف المعنى المراد إلى غير المراد هو تحريف للنصوص عن مواضعها أيضاً .

وفي هذا يقول الشاطبي رحمه الله تعالى وهو يستعرض مآخذ أهل البدع في الاستدلال : « ومنها تحريف الأدلة عن مواضعها بأن يرد الدليل على مناط ، فيُصرف عن ذلك المناط إلى أمر آخر ؛ موهماً أن المناطين واحد ، وهو من خفيَّات تحريف الكلم عن مواضعه والعياذ بالله .

ويغلب علي الظنِّ أن من أقرَّ بالإسلام ويذم تحريف الكلم عن مواضعه ، لا يلجأ إليه صراحاً ، إلا من اشتباه يعرض له ، أوجهل يصده عن الحق مع هوى يعميه عن أخذ الدليل مأخذه . . . وبيان ذلك أن الدليل الشرعي إذا اقتضى أمراً في الجملة مما يتعلق بالعبادات مثلاً فأتى به المكلف في الجملة أيضاً، كذكر الله والدعاء والنوافل والمستحبات وما أشبهها مما يعلم من الشارع فيها التوسعة ـ كان الدليل عاضداً [لعمله][1] من جهتين : من جهة معناه ، ومن جهة عمل السلف ، فإن أتى المكلف في ذلك الأمر بكيفية مخصوصة أو زمان مخصوص ، أو مكان مخصوص أو مقارناً لعبادة

---

(١) في الأصل : لعلمه ، والصواب ما أثبته إن شاء الله تعالى .

مخصوصة ، والتزم ذلك بحيث صار متخيلاً أن الكيفية أو الزمان أو المكان مقصود شرعاً من غير أن يدل الدليل عليه ؛ كان الدليل بمعزل عن ذلك المعنى المستدل عليه »[1] اهـ.

ويوضح الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى هذه القاعدة المهمة : (قاعدة تحقيق المناط) توضيحاً أكثر في كتابه العظيم (الموافقات) ، فيقول :

« كل دليل شرعي فمبني على **مقدمتين** : إحداهما : راجعة إلى تحقيق مناط[2] الحكم . والأخرى : ترجع إلى نفس الحكم الشرعي .

فالأولى نظرية: وأعني بالنظرية هنا ما سوى النقلية سواء علينا أَثْبَتَتْ بالضرورة أم بالفكر والتدبر ، ولا أعني بالنظرية مقابل الضرورية . **والثانية نقلية** .

وبيان ذلك ظاهر في كل مطلب شرعي بل هذا جار في كل مطلب عقلي أو نقلي فيصح أن نقول الأولى راجعة إلى تحقيق المناط ، والثانية راجعة إلى الحكم ، ولكن المقصود هنا بيان المطالب الشرعية .

فإذا قلت : إن كل مسكر حرام ، فلا يتم القضاء عليه حتى يكون بحيث يشار إلى المقصود منه ليستعمل أو لا يستعمل ؛ لأن الشرائع إنما جاءت لتحكم على الفاعلين من جهة ما هم فاعلون ، فإن شرع المكلف في تناول خمر مثلاً ، قيل له : أهذا خمر أم لا ؟ فلابد من النظر في كونه خمراً أو غير خمر ، وهو معنى تحقيق المناط . فإذا وجد فيه أمارة الخمر أو حقيقتها بنظر معتبر ، قال : نعم هذا خمر ، فيقال له : كل خمر حرام الاستعمال ؛ فيجتنبه .

---

(١) الاعتصام (١/ ٣١٧ ، ٣١٨) .

(٢) المناط : هو الوصف المناسب الذي يناط به الحكم .

وكـذلك إذا أراد أن يتـوضـأ بماء فـلابد من النظر إليـه هل هو مطلق أم لا ، وذلك برؤية اللون وبذوق الطعم وشم الرائحـة . فـإذا تبين أنه على أصل خلقته ، فقد تحقق مناطه عنده ، وأنه مطلق ، وهي المقدمة النظرية ثم يضيف إلى هذه المقـدمـة ثانيـة نقلية ، وهي أن كل ماء مطلق ، فالوضـوء به جائز . وكذلك إذا نظر هل هو مخاطب بالوضوء أم لا فينظر هل هـو محدث أم لا . فـإن تحـقق الحـدث فـقـد حـقق مناط الحكم ، فـيـرد عليـه أنه غيـر مطلوب بالوضوء، وإن تحقق فقده ، فكذلك فيرد عليه أنه غير مطلوب الوضوء وهي المقدمة النقلية .

فالحاصل أن الشارع حكم على أفعال المكلفين مطلقة ومقيدة ، وذلك مقتضى إحدى المقدمتين وهي النقلية، ولا ينزل الحكم بها إلا على التحقق أنه مناط ذلك الحكم على الإطلاق أو على التقييد وهو مقتضى المقدمة النظرية ، والمسألة ظاهرة في الشرعيات نعم، وفي اللغويات والعقليات ؛ فإنا إذا قلنا ضرب زيد عمراً، وأردنا أن نعرف الذي يرفع من الاسمين وما الذي ينصب، فلابد من معرفة الفاعل من المفعول . فإذا حققنا الفاعل وميزناه حكمنا عليه بمقتضى المقدمة النقلية ، وهي أن كل فاعل مرفوع، ونصبنا المفعول كذلك؛ لأن كل مفعول منصوب .

وإذا أردنا أن نصغر (عقرباً) تحققنا أنه رباعي يستحق من أبنية التصغير بنية (فعيعيل) ؛ لأن كل رباعي على هذه الشاكلة تصغيره على هذه البنيـة ، وهكذا في سائر علوم اللغة ، وأما العقليات فكما إذا نظرنا في العالم هل هو حادث أم لا ؟ فلابد من تحقيق مناط الحكم ـ وهو العالم ـ فنجده متغيـراً ، وهي المقـدمة الأولى، ثم نـأتي بمقـدمة مسلمـة ، وهو قـولنا : كل متـغيـر

حادث»[١] اهـ.

مما سبق بيانه في كلام الشاطبي رحمه الله تعالى يتضح لنا أهمية الانتباه إلى قاعدة تحقيق المناط ، وأن إغفالها وعدم تحقيقها هو الذي يوقع غالباً في اللبس ، وينشأ من التفريط فيها تحريف الأدلة عن مواضعها، وإنزال أحكام الشريعة في غير مراد الله سبحانه ، وغير مراد رسوله ﷺ منها .

ولكي تتضح هذه القاعدة بشكل أكثر وضوحاً ؛أسوق المثال التالي من واقعنا المعاصر، ألا وهو تحديد مفهوم الفتنة وأهلها ، فلو طبقنا المقدمتين اللتين ذكرهما الشاطبي فيما سبق على موضوع الفتنة وحقيقتها ، ومتى تسمى فتنة ، ومتى يسمى الداعون إلى أمرٍ ما بأنهم دعاة فتنة؟

لو طبقنا هاتين المقدمتين لاتضح الأمر وبان، فحكم الله عز وجل في الفتنة أنها محرمة ومرفوضة ، وبالتالي فإن الداعين إليها هم دعاة فتنة ، فيجب منعهم والحذر من شرهم ، هذا حكم الله سبحانه وهو **المقدمة النقلية**، ولكن يبقى تحقيق المناط في أي أمر يجد وهو **المقدمة النظرية**. وهو هنا البحث في حاله وحال أهله، هل هم دعاة فتنة وشر وخراب للمجتمع ، أم هم دعاة إصلاح ونصح وغيرة على محارم الله عز وجل؟

إن المنصف القائم لله سبحانه ليعلم أن الدعاة إلى الخير والإصلاح والنصح ليسوا دعاة فتنة وشر ، وبالتالي لا يجوز إنزال المناط في غير حكمه ومحله. وهذا لا يكون إلا عند صاحب هوى قد أسكره هواه،أو جاهل لم يكلف نفسه بالبحث والتحقيق . أما من أدى به اجتهاده من أهل الاجتهاد إلى أن : مفسدة قول الحق أكبر من مصلحته وتؤدي إلى فتنة ، وكان متجرداً فهو مأجور إن شاء الله ، أصاب أم أخطأ .

---

(١) الموافقات (٣/ ٢٤).

وقبل الانتهاء من مبحث أسباب التلبيس أنقل كلاماً مفيداً للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يبين فيه أثر استيلاء النفس الأمارة بالسوء في التباس الحق بالباطل ، وأن هناك صراعاً بين النفس الأمارة والمطمئنة . يقول رحمه الله تعالى :

« وقد انتصبت الأمارة في مقابلة المطمئنة ، فكلما جاءت به تلك من خير ضاهتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تفسده عليها ، فإذا جاءت بالإيمان والتوحيد جاءت هذه بما يقدح في الإيمان من الشك والنفاق ، وما يقدح في التوحيد من الشرك ومحبة غير الله وخوفه ورجائه ، ولا ترضى حتى تقدم محبة غيره وخوفه ورجاءه على محبته سبحانه وخوفه ورجائه ، فيكون ماله عندها هو المؤخر وما للخلق هو المقدم ، وهذا حال أكثر الخلق .

وإذا جاءت تلك بتجريد المتابعة للرسول جاءت هذه بتحكيم آراء الرجال وأقوالهم على الوحي ، وأتت من الشبه المضلة بما يمنعها من كمال المتابعة ، وتحكيم السنة وعدم الالتفات إلى آراء الرجال . فتقوم الحرب بين هاتين النفسين ، والمنصور من نصره الله .

وإذا جاءت تلك بالإخلاص والصدق والتوكل والإنابة والمراقبة جاءت هذه بأضدادها وأخرجتها في عدة قوالب ، وتقسم بالله ما مرادها إلا الإحسان والتوفيق ، والله يعلم أنها كاذبة وما هو مرادها إلا مجرد حظها واتباع هواها والتفلت من سجن المتابعة والتحكيم المحض للسنة إلى فضاء إرادتها وشهوتها وحظوظها .

ولعمر الله ما تخلصت إلا من فضاء المتابعة والتسليم إلى سجن الهوى والإرادة وضيقه وظلمته ووحشته فهي مسجونة في هذا العالم ، وفي البرزخ في أضيق منه ، ويوم الميعاد الثاني في أضيق منهما .

ومن أعجب أمرها أنها تسحر العقل والقلب ، فتأتي إلى أشرف الأشياء وأفضلها وأجلها فتخرجه في صورة مذمومة ، وأكثر الخلق: صبيان العقول أطفال الأحلام ، ولم يصلوا إلى حد الفطام الأول عن العوائد والمألوفات فضلاً عن البلوغ الذي يميز به العاقل البالغ بين خير الخيرين فيؤثره، وشر الشرين فيجتنبه ، فتريه صورة تجريد التوحيد التي هي أبهى من صورة الشمس والقمر، صورة التنقيص المذموم ، وهضم العظماء منازلهم ، وحطهم منها إلى مرتبة العبودية المحضة والمسكنة والذل والفقر المحض الذي لا ملكة لهم معه ولا إرادة ولا شفاعة إلا من بعد إذن الله.

فتريهم النفس السحارة هذا القدر غاية تنقيصهم وهضمهم ونزول أقدارهم ، وعدم تمييزهم عن المساكين الفقراء ؛ فتنفر نفوسهم من تجريد التوحيد أشد النفار ويقولون : ﴿**أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾ [ص: ٥] .

وتريهم تجريد المتابعة للرسول وما جاء به وتقديمه على آراء الرجال في صورة تنقيص العلماء والرغبة عن أقوالهم وما فهموه عن الله ورسوله ، وأن هذا إساءة أدب عليهم وتقدم بين أيديهم، وهو مفض إلى إساءة الظن بهم ، وأنهم قد فاتهم الصواب . وكيف لنا قوة أن نرد عليهم ونفوز ونحظى بالصواب دونهم ، فتنفر من ذلك أشد النفار ، وتجعل كلامهم هو المحكم الواجب الاتباع ، وكلام الرسول هو المتشابه الذي يعرض على أقوالهم ، فما وافقها قبلناه ، وما خالفها رددناه ، أوأولناه أو فوضناه ، وتقسم النفس السحارة بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً . أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم . . .

وأعجب من ذلك أنها تضاهي ما يحبه الله ورسوله من الصفات والأخلاق والأفعال بما يبغضه منها ، وتلبس على العبد أحد الأمرين بالآخر ، ولا يخلص من هذا إلا أرباب البصائر ، فإن الأفعال تصدر عن الإرادات وتظهر على الأركان من النفسين الأمارة والمطمئنة ، فيتباين الفعلان في الباطن ، ويشتبهان في الظاهر.

ولذلك أمثلة كثيرة منها : المداراة والمداهنة : فالأول من المطمئنة ، والثاني من الأمارة ، وخشوع الإيمان وخشوع النفاق ، وشرف النفس والتيه ، والحمية والجفاء ، والتواضع والمهانة ، والقوة في أمر الله والعلو في الأرض ، والحمية لله والغضب له ، والحمية للنفس والغضب لها ، والجود والسرف ، والمهابة والكبر ، والصيانة والتكبر ، والشجاعة والجرأة ، والحزم والجبن ، والاقتصاد والشح ، والاحتراز وسوء الظن ، والفراسة والظن ، والنصيحة والغيبة ، والهدية والرشوة ، والصبر والقسوة ، والعفو والذل ، وسلامة القلب والبله والغفلة ، والثقة والغرة ، والرجاء والتمني . والتحدث بنعم الله والفخر بها ، وفرح القلب وفرح النفس ، ورقة القلب والجزع ، والموجدة والحقد ، والمنافسة والحسد ، وحب الرياسة وحب الإمامة والدعوة إلى الله ، والحب لله والحب مع الله ، والتوكل والعجز ، والاحتياط والوسوسة ، وإلهام الملك وإلهام الشيطان ، والأناة والتسويف ، والاقتصاد والتقصير ، والاجتهاد والغلو ، والنصيحة والتأنيب ، والمبادرة والعجلة ، و الإخبار بالحال عند الحاجة والشكوى .

فالشيء الواحد تكون صورته واحدة ، وهو منقسم إلى محمود ومذموم»[1] .

❁ ❁ ❁

(١) الروح ص (٢٣٠) . (باختصار) .

المبحث الرابع
صور من لبس الحق بالباطل

بعد بيان الأسباب التي تؤدي إلى لبس الحق بالباطل، والمؤدية بدورها إلى الضلال والإضلال، وبعد بيان معنى اللبس والتلبيس، وأنه إلباس الهوى والشهوة لبوساً شرعياً بتحريف الأدلة أوكتمانها . نذكر هنا بعضاً من صور اللبس والتضليل ؛ وذلك لنحذر من الوقوع فيها بأنفسنا ، ونحذر إخواننا المسلمين من الوقوع فيها والانخداع بها ، ولم أراع في ترتيبها الأهمية لكن حسب ما عنَّ في الخاطر . أسأله سبحانه التوفيق والسداد في القول والعمل. فمن هذه الصور ما يلي :

١ـ الاحتجاج على شرعية الأنظمة المبدلة لشرع الله والمستحلة لما حرم الله بآثار عن السلف أنه «كفر دون كفر» :

وهذا والله تحريف للأدلة عن مواضعها، وإنزال الحكم في غير محله، وافتراء وتجن على حبر الأمة وترجمان القرآن، وعلى خير القرون في هذه الأمة ؛ فما كانوا عن عصرنا يتحدثون ،ولا أنظمته المبدلة لشرع الله يقصدون. فالله المستعان وعليه التكلان.

ومن أحسن ما رأيت من الردود على هذا التلبيس ما كتبه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى ؛ أنقله بطوله لأهميته :

قال الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير : « وهذه الآثار ـ عن ابن عباس

وغيره - مما يلعب به المضللون في عصرنا هذا ، من المنتسبين للعلم ، ومن غيرهم من الجرءاء على الدين ؛ يجعلونها عذراً أو إباحة للقوانين الوثنية الموضوعة ، التي ضربت على بلاد الإسلام .

وهناك أثر عن أبي مجلز في جدال الإباضية الخوارج إياه، فيما كان يصنع بعض الأمراء من الجور ، فيحكمون في بعض قضائهم بما يخالف الشريعة ، عمداً إلى الهوى ، أو جهلاً بالحكم . والخوارج من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة كافر ، فهم يجادلون يريدون من أبي مجلز أن يوافقهم على ما يرون من كفر هؤلاء الأمراء ؛ ليكون ذلك عذراً لهم فيما يرون من الخروج عليهم بالسيف .

وهذان الأثران رواهما الطبري : ١٢٠٢٥ ، ١٢٠٢٦ . وكتب عليهما أخي السيد محمود محمد شاكر تعليقاً نفيساً جداً ، قوياً صريحاً ، فرأيت أن أثبت هنا نص أُولى روايتي الطبري ، ثم تعليق أخي على الروايتين .

فروى الطبري(١٢٠٢٥) عن عمران بن حدير ، قال : « أتى أبا مجلَز ناس من بني عمرو بن سدوس ، فقالوا : يا أبا مجلز ، أرأيت قول الله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] ، أحق هو؟ قال : نعم، قالوا : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥] أحق هو ؟ قال : نعم ، قالوا : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧] أحق هو ؟ قال : نعم .

قال : فقالوا : يا أبا مجلز ، فيحكم هؤلاء بما أنزل الله ؟ قال : هو دينهم الذي يدينون به ، وبه يقولون ، وإليه يدعون. فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا بأنهم أصابوا ذنباً ، فقالوا : لا والله، ولكنك تفرق ! قال : أنتم أولى بهذا مني ! لا أرى وإنكم ترون هذا ولا تحرجون! ولكنها أنزلت في اليهود والنصارى

وأهل الشرك ، أو نحو من هذا » .

ثم روى الطبري (١٢٠٢٦) نحو معناه ، وإسناداه صحيحان .

فكتب أخي السيد محمود ، بمناسبة هذين الأثرين ما نصه : « اللهم إني أبرأ إليك من الضلالة . وبعد ، فإن أهل الريب والفتن ممن تصدروا للكلام في زماننا هذا قد تلمس المعذرة لأهل السلطان في ترك الحكم بما أنزل الله ، وفي القضاء في الدماء والأعراض والأموال بغير شريعة الله التي أنزلها في كتابه وفي اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة في بلاد الإسلام فلما وقف على هذين الخبرين ، اتخذهما رأياً يرى به صواب القضاء في الأموال والأعراض والدماء بغير ما أنزل الله ، وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تكفر الراضي بها ، والعامل عليها .

والناظر في هذين الخبرين لا محيص له عن معرفة السائل والمسؤول ، فأبو مجلز (لاحق بن حميد الشيباني السدوسي) تابعي ثقة ، وكان يحب عليًا رضي الله عنه ، وكان قوم أبي مجلز وهم بنو شيبان ، من شيعة علي يوم الجمل وصفين ، فلما كان أمر الحكمين يوم صفين واعتزلت الخوارج ، كان فيمن خرج على علي رضي الله عنه طائفة من بني شيبان ، ومن بني سدوس بن شيبان بن ذهل .

وهؤلاء الذين سألوا أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس (كما في الأثر ١٢٠٢٥) ، وهم نفر من الإباضية (كما في الأثر ١٢٠٢٦) ، والإباضية من جماعة الخوارج الحرورية ، هم أصحاب عبد الله بن إباض التميمي ، وهم يقولون بمقالة سائر الخوارج في التحكيم ، وفي تكفير علي رضي الله عنه إذ حكَّم الحكمين ، وأن علياً لم يحكم بما أنزل الله في أمر التحكيم .

ثم إن عبد الله بن إباض قال : إن من خالف الخوارج كافر ليس بمشرك ، فخالف أصحابه ، وأقام الخوارج على أن أحكام المشركين تجري على من خالفهم .

ثم افترقت الإباضية بعد عبد الله بن إباض الإمام افتراقاً لا ندري معه - في أمر هذين الخبرين - من أي الفرق كان هؤلاء السائلون ، بيد أن الإباضية كلها تقول : إن دور مخالفيهم دور توحيد ، إلا معسكر السلطان ؛ فإنه دار كفر عندهم . ثم قالوا أيضاً : إن جميع ما افترض الله سبحانه على خلقه إيمان ، وأن كل كبيرة فهي كفر نعمة ، لا كفر شرك ، وأن مرتكبي الكبائر في النار خالدون مخلدون فيها .

ومن البين أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية ، إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء لأنهم في معسكر السلطان، ولأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه . ولذلك قال لهم في الخبر الأول (رقم ١٢٠٢٥) : فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً ، وقال لهم في الخبر الثاني : إنهم يعملون بما يعملون ويعلمون أنه ذنب .

وإذن ، فلم يكن سؤالهم عمّا احتج به مبتدعة زماننا ، من القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام ، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام بالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ ، فهذا الفعل إعراض عن حكم الله ، ورغبة عن دينه ، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى ، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه .

والذي نحن فيه اليوم ، هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء ، وإيثار أحكام غير حكمه في كتابه وسنة نبيه ، وتعطيل لكل ما في شريعة الله ، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة ، وادعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا ، ولعلل وأسباب انقضت فسقطت الأحكام كلها بانقضائها ، فأين هذا مما بيناه من حديث أبي مجلز والنفر من الإباضية من بني عمرو بن سدوس!!

ولو كان الأمر على ما ظنوا في خبر أبي مجلز ، أنهم أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة ، فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سن حاكم حكماً وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها ، هذه واحدة . وأخرى ، أن الحاكم الذي حكم في قضية بعينها بغير حكم الله فيها فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل ؛ فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة . وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية ، فهذا ذنب تناله التوبة ، وتلحقه المغفرة . وإما أن يكون حكم بها متأولاً حكماً خالف به سائر العلماء ، فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب وسنة رسول الله ﷺ .

وإما أن يكون كان في زمن أبي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء في أمر ، جاحداً لحكم من أحكام الشريعة ، أو مؤثراً لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام ، فذلك لم يكن قط . فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه ، فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما في غير بابهما ، وصرفهما إلى غير معناهما رغبة في نصرة سلطان أو احتيالاً على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله وفرض على عباده ؛ فحكمه في الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله : أن يستتاب ، فإن أصر وكابر وجحد حكم

الله، ورضي بتبديل الأحكام ـ فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين . وكتبه محمود محمد شاكر»[1] اهـ.

بعد هذا النقل الذي لا يحتاج إلى مزيد هل لقائل أن يقول: إن ابن عباس رضي الله عنهما أو إن أبا مجلز كانا يقصدان بقوليهما أهل زماننا الذين بدلوا شرع الله وأعرضوا عن الحكم به والتحاكم إليه لعدم صلاحيته لزمانهم هذا ـ زعموا ـ ؟!

اللهم إنا نبرأ من هذا اللبس ونبرئ صحابة رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان من هذا التلبيس وهذه المغالطات ، وأنه لا أحد ينزل قول ابن عباس رضي الله عنهما أو قول أبي مجلز على المبدلين لشرع الله في زماننا هذا إلا رجل يسيطر عليه الجهل بالواقع فلا يعلم ما يدور من حوله ، أو رجل منافق ملبس يعلم واقعه وعدم مشابهته للواقع الذي كان يتحدث عنه السلف رضي الله عنهم ، ولكنه يغالط ويخلط الحق بالباطل اتباعاً للهوى ، أو طمعاً في دنيا يصيبها.

٢ـ الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي والرضا بالذل والمهانة:

وهذه الصورة من صور اللبس والمغالطة ليس القصد من إيرادها هنا الرد على المحتجين بالقدر على ضلالهم ومعاصيهم ، وإنما المقصود التنبيه على أن من يحتج بالقضاء والقدر ليبرر به انحرافه وكسله وضعفه إنما هو مغالط وملبس ومدلس ، وهو يعلم في قرارة نفسه أن لا حجة له في ذلك ، وإنما أراد أن يخلط باطله وضعفه وانحرافه بقضاء الله وقدره النافذ ، والذي

---

(١) عمدة التفسير (٤/١٥٦ـ١٥٨) ، وتفسير الطبري (١٠/٣٤٨ ، ٣٤٩).

هو حق لكن أراد منه باطلاً ، وأنزل الحق في غير ما أنزل له، وحرف الكلم عن مواضعه بأن وضع الدليل في غير موضعه الذي أراده الله سبحانه منه .

وموضوع الرد على المحتجين بالقدر موجود في مظانه من كتب العقيدة الصحيحة (معتقد أهل السنة والجماعة) من مثل العقيدة الواسطية ، ومعارج القبول ، وشرح العقيدة الطحاوية . . . إلخ .

والمراد هنا كشف اللبس الحاصل بين الحق والباطل في هذه المسألة ؛ حيث إن المحتج بالقدر على فعل المعاصي والإصرار عليها قد وقع في لبس عظيم ، ويعلم هو بنفسه أن احتجاجه ليس في محله ، وإنما أورده لتبرير شهوته وضعفه ؛ بدليل أنه في أمور الدنيا وكسبها لانجده يقعد محتجاً بالقدر، وأن الله سبحانه كتب عليه الفقر أو الجوع أو عدم الزواج ، بل إنا نجده يسعى ويفعل الأسباب الممكنة لدفع الفقر أو الجوع أو المرض ، أو يجمع المهر للزواج . . . إلخ .

فلماذا لايكون هذا في أمر الدين وأمور الآخرة ، فيسعى للآخرة سعيها ، ويأخذ بأسباب الهداية وأسباب النجاة من النار ، وهي ميسرة لمن أرادها ؟ لماذا هو جبري في أمورالدين والآخرة، وقدري في أمور الدنيا ؟!

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

« وهؤلاء من أعظم أهل الأرض تناقضاً، بل كل من احتج بالقدر فإنه متناقض ؛ فإنه لا يمكن أن يقر كل آدمي على ما يفعل ؛ فلابد إذا ظلمه ظالم، أو ظلم الناس ظالم وسعى في الأرض بالفساد وأخذ يسفك دماء الناس ويستحل الفروج، ويهلك الحرث والنسل ونحو ذلك من أنواع

الضرر التي لا قوام للناس بها : أن يدفع هذا القدر ، وأن يعاقب الظالم بما يكف عدوانه وعدوان أمثاله . فيقال له : إن كان القدر حجة ؛ فدع كل أحد يفعل ما يشاء بك وبغيرك . وإن لم يكن حجة ؛ بطل أصل قولك : إن القدر حجة»[١] اهـ .

ثم إن هذا الملبس والمغالط لو أنه احتج بالقدر على الذنب بعد وقوعه كمصيبة من المصائب التي قدرها الله عز وجل عليه لكان لذلك وجه حتى لا ييأس من التوبة ؛ فالله سبحانه قد قدر عليه الذنب بقضائه الكوني القدري لحكمة يعلمها سبحانه ، وتم ما أراده الله عز وجل ، فعندئذ نقول: قدر الله وما شاء فعل ، فلا تيأس من رحمة الله بعد وقوعك في الذنب ، ولا تهن وتضعف من تسلط الأعداء ؛ فإن الله سبحانه الذي أراد هذا كوناً وقدراً قد أراد مدافعته ديناً وشرعاً بالتوبة النصوح وجهاد الأعداء، وبهذا ندفع أقدار الله سبحانه بأقداره عز وجل .

ومن هنا نفهم معنى قول من قال من السلف: « إنه يحتج بالقدر على المصائب لا على المعائب» ؛ أي إن القدر لايجوز الاحتجاج به على فعل العيب أو قوله من الذنوب والمعاصي وترك الجهاد . . . إلخ لكن يحتج به على المصائب الناشئة عن هذه الذنوب حتى لا يدخل اليأس إلى النفوس ، وحتى ينهض العاصي من عثرته ليزيل آثار الذنوب والتوبة والإنابة والندم. أما أن يفعل الذنوب أو أن يقدم ويتجرأ على فعلها محتجاً بالقدر فلا شك ولا ريب أن كل عاقل - فضلاً عن كل مسلم - يعلم أن هذا لبس للحق بالباطل، ومغالطة أي مغالطة ، وفاعل ذلك يعلم من نفسه أنه ليس على حق

---

(١) العبوديةص(٢١).

في صنيعه هذا لكنها الشهوة والضعف والهوى .

وأختم هذه الصور بكلام نفيس للإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى حول هذه المسألة فيقول :

«وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « **احتج آدم وموسى ، فقال موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلَّمك أسماء كل شيء ، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ قال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، فهل وجدت ذلك مكتوباً عليَّ قبل أن أخلق ؟! قال : نعم . قال : فحج آدم موسى**»[1] .

وآدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ، ظناً أن المذنب يحتج بالقدر ، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل ، ولو كان هذا عذراً لكان عذراً لإبليس، وقوم نوح ، وقوم هود ، وكل كافر ،ولا موسى لام آدم أيضاً لأجل الذنب ، فإن آدم قد تاب إلى ربه فاجتباه وهدى ، ولكن لامه لأجل المصيبة التي لحقتهم بالخطيئة ، ولهذا قال : فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فأجابه آدم : إن هذا كان مكتوباً عليَّ قبل أن أخلق . فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدراً ، وما قدر من المصائب يجب الاستسلام له ، فإنه من تمام الرضا بالله رباً .

وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب ، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب من المعايب ، ويصبر على المصائب . قال تعالى : ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ** ﴾ [غافر : ٥٥] .

---

(١) متفق عليه : أخرجه البخاري بنحوه ـ كتاب التفسير ـ (٤٧٣٦) ومسلم في القدر (٢٦٥٢) .

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾[آل عمران: ١٢٠].

وقال: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقال يوسف: ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

[يوسف: ٩٠]

وكذلك ذنوب العباد، يجب على العبد فيها أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته، ويجاهد في سبيل الله الكفار والمنافقين ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، ويحب في الله ويبغض في الله، كما قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ١ - ٤] »[1] اهـ.

وقريباً من الذين يحتجون بالقدر على فعل المعاصي والرضا بالواقع أولئك الذين يتجرأون على فعل المعاصي اعتماداً على رحمة الله سبحانه؛ نعم إن الله غفور رحيم، ولكن هذه الرحمة لا يقصد بها أن يتجرأ هذا الملبس

(١) العبودية ص(١٧).

على المعصية ، وإنما المقصود منها فتح باب التوبة والرحمة لمن وقع فيها وانتهى وندم، فيقال له: لا تيأس ؛ فإن الله غفور رحيم.

٣ـ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله خشية الابتلاء وتعريض النفس للفتن:

ليس المقصود من إيراد هذه الصورة هو الحديث والاستفاضة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراتبه وشروطه وضوابطه ، فكل هذا ليس المقصود في هذه المسألة ، فتفصيل الأمر والنهي وشروطهما موجود في مظانه من كتب أهل العلم وبخاصة رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإنما المقصود من إيراد هذا العنوان هو التحذير من خلط الأمور في هذه الشعيرة العظيمة ، والانتباه إلى أن هناك من يترك الأمر والنهي عجزاً وكسلاً وجبناً وبخلاً ، فبدلاً من الاعتراف بذلك والسعي للتخلص منه فإنه يحاول جاهداً تغطية ضعفه هذا بمبررات شرعية منها: الخوف من الفتن، واعتزال كل ما يعرض النفس للابتلاء والفتنة والهلكة ، ودرء المفاسد ، معتمداً على قاعدة تعارض المصالح والمفاسد والضوابط الشرعية في ذلك .

وكما أسلفت فإن موضوع هذه الصورة ليس الحديث عن القواعد والضوابط الشرعية في ذلك ؛ فهي لا شك معتبرة ، وهي الأصل في الأمر والنهي ، وإنما موضوعنا هو كشف اللبس والتدليس والمغالطة على النفس وعلى الناس في أن النكول عن الأمر والنهي قد تم من منطلق شرعي وضوابط شرعية ، والأمر في حقيقته ليس كذلك ، وإنما هو الخوف والجبن وإيثار السلامة وعدم تحمل أي أذى ومكروه في سبيل الله عز وجل . وإلا لو

كان المنطلق شرعياً وفق الضوابط الشرعية وفي حالة معينة أدى الاجتهاد فيها إلى أن المفسدة أكبر والمصلحة أقل ؛ فهذا معتبر شرعاً : أصاب المجتهد فيها أم أخطأ .

لكن الحديث ليس عن هذا المجتهد الباحث عن الحق ، بل هو كما سبق ذكره متوجه إلى ذلك المغالط الذي يغطي ضعفه وهواه بلبوس شرعي ؛ يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« ولما كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يعرض به المرء للفتنة ؛ صار في الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة ، كما قال عن المنافقين : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ [التوبة: ٤٩].

وقد ذكر في التفسير أنها نزلت في الجد بن قيس لما أمره النبي ﷺ بالتجهز لغزو الروم، وأظنه قال : « هل لك في نساء بني الأصفر؟ » ، فقال: يا رسول الله ، إني رجل لا أصبر عن النساء؛ وإني أخاف الفتنة بنساء بني الأصفر ، فائذن لي ولا تفتني[١] .

وهذا الجد هو الذي تخلف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة ، واستتر بجمل أحمر ، وجاء فيه الحديث : « **إن كلهم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر** »[٢] فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا** ﴾ .

يقول : إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء ، فلا يفتتن بهن ، فيحتاج

(١) انظر تفسير الطبري ، الآثار (١٦٧٨٥ ـ ١٦٧٨٩) (١٤/ ٢٨٨) الطبعة المحققة .

(٢) أخرجه مسلم ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (ح٢٧٨٠) (٤/ ٢١٤٤ ـ ٢١٤٥).

إلى الاحتراز من المحظور، ومجاهدة نفسه عنه فيتعذب بذلك أو يواقعه فيأثم فإن من رأى الصور الجميلة وأحبها فإن لم يتمكن منها إما لتحريم الشارع، وإما للعجز عنها يعذب قلبه، وإن قدر عليها وفعل المحظور هلك. وفي الحلال من ذلك من معالجة النساء ما فيه بلاء.

فهذا وجه قوله: ﴿لا تَفْتِنِّي﴾ قال الله تعالى: ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾، يقول: نفس إعراضه عن الجهاد الواجب ونكوله عنه وضعف إيمانه ومرض قلبه الذي زين له ترك الجهاد: فتنة عظيمة قد سقط فيها، فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته؟ والله يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فمن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنة؛ فهو في الفتنة ساقط بما وقع فيه من ريب قلبه ومرض فؤاده، وتركه ما أمر الله به من الجهاد.

فتدبر هذا؛ فإن هذا مقام خطر؛ فإن الناس هنا ثلاثة أقسام: قسم يأمرون وينهون ويقاتلون؛ طلباً لإزالة الفتنة التي زعموا، ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة؛ كالمقتتلين في الفتنة الواقعة بين الأمة.

وأقوام ينكلون عن الأمر والنهي والقتال الذي يكون به الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا؛ لئلا يفتنوا بجنس الشهوات، وهم قد سقطوا في الفتنة، وهذه الفتنة المذكورة في «سورة براءة» دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة؛ فإنها سبب نزول الآية.

وهذه حال كثير من المتدينين؛ يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهي وجهاد يكون به الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا؛ لئلا يفتنوا

بجنس الشهوات؛ وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنهم فروا منه، وإنما الواجب عليهم القيام بالواجب وترك المحظور، وهما متلازمان؛ وإنما تركوا ذلك لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا على فعلهما جميعاً أو تركهما جميعًا، مثل كثير ممن يحب الرئاسة أو المال وشهوات الغي؛ فإنه إذا فعل ما وجب عليه من أمر ونهي وجهاد وإمارة ونحو ذلك فلابد أن يفعل شيئاً من المحظورات.

فالواجب عليه أن ينظر أغلب الأمرين ؛ فإن كان المأمور أعظم أجراً من ترك ذلك المحظور لم يترك ذلك لما يخاف أن يقترن به ما هو دونه من المفسدة ، وإن كان ترك المحظور أعظم أجراً لم يفوت ذلك برجاء ثواب بفعل واجب يكون دون ذلك ؛ فذلك يكون بما يجتمع له من الأمرين من الحسنات والسيئات ، فهذا هذا. وتفصيل ذلك يطول .

وكل بشر على وجه الأرض لابد له من أمر ونهي، ولابد أن يأمر وينهى حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها ، إما بمعروف وإما بمنكر ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣] ، فإن الأمر هو طلب الفعل وإرادته، والنهي طلب الترك وإرادته ، ولابد لكل حي من إرادة وطلب في نفسه يقتضي بهما فعل نفسه ، ويقتضي بهما فعل غيره إذا أمكن ذلك ؛ فإن الإنسان حي يتحرك بإرادته ، وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض ، وإذا اجتمع اثنان فصاعداً فلابد أن يكون بينهم ائتمار بأمر وتناه عن أمر »[1] اهـ .

بعد هذا الكلام النفيس لشيخ الإسلام ؛ هل لقائل أن يقول: إنه يجب

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٦٦ ـ ١٦٨).

الابتعاد في الدعوة إلى الله سبحانه عن كل ما من شأنه أن يجر على الداعية الأذى والمحن ؟!

إن صاحب هذا القول قد نسي أو تناسى سنة الله عز وجل في الصراع بين الحق والباطل ، وسنته سبحانه في الابتلاء والتمحيص . قال تعالى : ﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : ١ - ٣] ، وقال سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ .
[العنكبوت : ١٠ ، ١١]

نعم إن من بيننا من يريد المغنم من الدعوة ولا يريد المغرم ؛ بدليل عدم الإعداد والاستعداد لأي أذى يعترض في الطريق ولو كان قليلاً، فما دام الأمن وما دامت السلامة والراحة فهو نشيط ومتحرك ، فإذا ظهرت المحن وبدايات الابتلاء والتمحيص آثر السلامة والراحة ، وعلل ذلك بالابتعاد عن الفتن ودرء المفاسد .

ولا يعني ما سبق من الكلام أن يبحث الداعية عن الأذى والابتلاء ؛ كلا ، فالمطلوب سؤال العافية وعدم تمني البلاء ، كما لا يفهم منه أيضاً الدعوة إلى التهور والطيش ؛ معاذ الله ، فلا بد من المنطلقات الشرعية في كل التصرفات ، لكن المراد ألا نغفل عن سنة الله سبحانه في ابتلاء المؤمنين، وأن نوطن أنفسنا على هذه الأمور؛ لأنه لابد منها لكل من ادعى الإيمان ، وتصدر الدعوة والجهاد ، ولابد منها لتمييز الخبيث من الطيب ، ولابد منها

لتمحيص القلوب والصفوف .

ولو قلّبنا تاريخ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وتاريخ الدعاة والمصلحين لرأينا ذلك المعلَم ظاهراً وقاسماً مشتركاً عندهم جميعاً ؛ حيث لم تخل حياة رسول ولا مصلح مجدد من الأذى والمحن والابتلاء ، بل لم يحصل التمكين لهم ، وإقامة دين الله سبحانه في الأرض على أيديهم إلا بعدالصبر والمصابرة على صنوف الأذى والمحن في سبيل الله سبحانه ؛ قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

وما أظن أحداً يجهل حادثة أصحاب الأخدود ، ولا قول الرسول ﷺ لخباب بن الأرت رضي الله عنه : « **قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه . . .الحديث** »[١] .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن النفس الأمارة مع الإنسان أنها : « تريه صورة الصدق مع الله وجهاد من خرج عن دينه وأمره في قالب الانتصاب لعداوة الخلق وأذاهم وحربهم ، وأنه يعرض نفسه من البلاء لما لا يطيق ، وأنه يصير غرضاً لسهام الطاعنين وأمثال ذلك من الشبه التي تقيمها النفس السحارة والخيالات التي تخيلها »[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري ـ كتاب الإكراه ـ باب : من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر (ح٦٩٤٣) [فتح (١٢/ ٣٣٠)] .

(٢) الروح ص(٢٣٠).

وقد وقفت على كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يفسر فيه سورة الأحزاب، وخاصة ما يتعلق بغزوة الخندق، ويقارن بين حال المسلمين في تلك الغزوة وما أصابهم من الزلازل والمحن فيها، وبين غزو التتار لبلاد الشام ذاكراً أوجه التشابه بين الغزوتين، أنقل منها المناسب للمقام.

يقول رحمه الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]:

«كان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون - والناس مع النبي ﷺ عند سلع داخل الخندق، والنساء والصبيان في آطام المدينة - : يا رسول الله، إن بيوتنا عورة؛ أي مكشوفة، فليس بينها وبين العدو حائل! قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ لأن الله يحفظها ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ فهم يقصدون الفرار من الجهاد ويحتجون بحجة العائلة.

وهكذا أصاب كثيراً من الناس في هذه الغزاة - غزو التتار - صاروا يفرون من الثغر إلى المعاقل والحصون والأماكن البعيدة كمصر، ويقولون: ما مقصودنا إلا حفظ العيال وما يمكن إرسالهم مع غيرنا! وهم يكذبون في ذلك، فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لو دنا العدو كما فعل المسلمون على عهد الرسول ﷺ، وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد فكيف بمن فر بعد إرسال عياله؟»[1].

وقال في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١]:

(١) الفتاوى (٢٨/ ٤٥٢).

« فأخبر سبحانه أن الذين يبتلون بالعدو كما ابتلي رسول الله ﷺ فلهم فيه أسوة حسنة ؛ حيث أصابهم مثل ما أصابه فليتأسوا به في التوكل والصبر ، ولا يظنون أن هذه نقم لصاحبها وإهانة له ، فإنه لو كان كذلك ما ابتلي بها رسول الله ﷺ ، بل بها ينال الدرجات العالية ، وبها يكفر الله الخطايا لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً ، وإلا فقد يبتلى بذلك من ليس كذلك ، فيكون في حقه عذاباً كالكفار والمنافقين»[1] اهـ.

نسأل الله عز وجل أن يعصمنا من الفتن ويبصرنا بمواطن الضعف في نفوسنا ، وأن يعيذنا من النفاق وأن يعيننا على قول الحق والاعتراف بالحق حتى لا نغالط أنفسنا ونلبس على غيرنا ، فنظهر ضعفنا وجبننا في صورة درء المفاسد واعتزال الفتن!!.

وقريب من هؤلاء أولئك الذين يبررون كسلهم وحبهم للراحة وضعف همتهم بالتواضع البارد والزهد في المسئولية ؛ لأنه يعرف أن الدعوة إلى الله سبحانه لايعرف صاحبها الراحة وتحتاج إلى همة عالية ، لكنه عوضاً من أن يعترف بضعفه هذا ويسعى إلى ترقيعه فإنه يغالط نفسه وغيره بإلقاء هذا الضعف على الخوف من المسئولية واحتقار النفس ، وأن هناك من هو أولى وأتقى وأفضل . . . إلخ .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعي في حظها ؛ فإن الناصح لله

(١) الفتاوى (٢٨/ ٤٥٩) .

المعظم له المحب له يحب أن يطاع ربه فلا يعصى ، وأن تكون كلمته هي العليا ، وأن يكون الدين كله لله ، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه ، فقد ناصح الله في عبوديته ، وناصح خلقه في الدعوة إلى الله ، فهو يحب الإمامة في الدين ، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إماماً يقتدي به المتقون كما اقتدى هو بالمتقين .

فإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلاً ، وفي قلوبهم مهيباً وإليهم حبيباً ، وأن يكون فيهم مطاعاً لكي يأتموا به ، ويقتفوا أثر الرسول على يده ، لم يضره ذلك ، بل يحمد عليه ، لأنه داع إلى الله يحب أن يطاع ويعبد ويوحد ، فهو يحب ما يكون عوناً على ذلك موصلاً إليه ، ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه وأثنى عليهم في تنزيله وأحسن جزاءهم يوم لقائه فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ، ثم قال : ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾ [الفرقان: ٧٤].

فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة ، فإنما سألوه ما يعينون به المتقين على مرضاته وطاعته وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين التي أساسها الصبر واليقين ، كما قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٤] ، وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمن عليهم بالعلوم النافعة، والأعمال الصالحة ظاهراً وباطناً التي لا تتم الإمامة إلا بها ، وتأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسمه الرحمن

جل جلاله ؛ ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته ، وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغرف وهي المنازل العالية في الجنة ؛ لما كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية بل من أعلى مرتبة يعطاها العبد في الدين ؛ كان جزاؤه عليها الغرفة العالية في الجنة .

وهذا بخلاف طلب الرياسة ؛ فإن طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض وتعبد القلوب لهُم وميلها إليهم ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم ، فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغي والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحمية للنفس دون حق الله وتعظيم من حقره الله واحتقار من أكرمه الله ، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك ولا تنال إلا به وبأضعافه من المفاسد .

والرؤساء في عمى عن هذا ، فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه ، ولا سيما إذا حشروا في صورالذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم وتحقيراً وتصغيراً كما صغروا أمر الله وحقروا عباده »[1] اهـ .

ومثل هؤلاء الذين يبررون ضعفهم وتنصلهم بمبرر شرعي هو اعتزال الفتن أو الخوف من المسؤولية ؛ مثلهم أولئك الذين يبررون خوفهم وترددهم بالحزم والتأني والخوف من الله سبحانه في أن يقدموا على أمر لم يتثبتوا فيه ، ولم يدرسوه الدراسة الشرعية المتأنية ، وهذا حق لا شك فيه ؛ فلا ينبغي القدوم على أمر حتى يتم التثبت منه ، وأنه الأرضى لله عز وجل ، لكن المشكلة والمغالطة هنا هي في استخدام هذه الشبهة الشرعية في تغطية الجبن والخور اللذين يسيطران على النفس ، وعلامة ذلك أن هذا التثبت وهذه

---

(١) الروح (٢٥٣) .

الدراسة لا تنتهي ولا تحسم بل قد تستمر إلى الموت مع الحاجة الماسة للدين وأهله لحسم الأمر وانتهاء الدراسة ، فماذا يعني هذا ؟!

ولذلك جاء في دعاء الرسول ﷺ : « **اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد** »[١] .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في شرح هذا الدعاء العظيم : « وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح ، وما أُتي العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما ، فما أتي أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداآت له ، أو من باب التهاون والتماوت وتضييع الفرصة بعد موافاتها ، فإذا حصل الثبات أولاً ، والعزيمة ثانياً أفلح كل الفلاح ، والله ولي التوفيق »[٢] .

ويقول في موضع آخر :

« وأما الفرق بين الحزم والجبن ، فالحازم هو الذي قد جمع عليه همه وإرادته وعقله ووزن الأمور بعضها ببعض . فأعد لكل منها قرنه ، ولفظة الحزم تدل على القوة والإجماع ؛ ومنه حزمة الحطب ، فحازم الرأي هو الذي اجتمعت له شئون رأيه وعرف منها خير الخيرين وشر الشرين ، فأحجم في موضع الإحجام رأياً وعقلاً لا جبناً ولا ضعفاً :

العاجز الرأي مضياع لفرصته ... حتى إذا فات أمر عاتب القدرا »[٣]

وقال أيضاً : « والفرق بين المبادرة والعجلة ، أن المبادرة انتهاز الفرصة في

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٢٣ ، ١٢٥) ، والترمذي في الدعوات (٢٣) باب : سؤال الثبات في الأمر (ح٣٤٠٤) (٩/ ١١١) ، والنسائي (٣/ ٥٤) .

(٢) مفتاح دار السعادة (١٥٤) .

(٣) الروح (٢٣٧) .

وقتها ولا يتركها حتى إذا فاتت طلبها ، فهو لا يطلب الأمور في أدبارها ولا قبل وقتها، بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته ، فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة وقت كمال نضجها وإدراكها.

والعجلة طلب أخذ الشيء قبل وقته ؛ فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها.

فالمبادرة وسط بين خلقين مذمومين : أحدهما: التفريط والإضاعة ، والثاني : الاستعجال قبل الوقت. ولهذا كانت العجلة من الشيطان ؛ فإنه خفة وطيش وحدة في العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم، وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها ، وتجلب عليه أنواعاً من الشرور، وتمنعه أنواعاً من الخير، وهي قرين الندامة، فقلّ من استعجل إلا ندم، كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة »[1] اهـ.

ومما يتعلق بهذه الصورة أيضاً ولو من بعيد ما تُزيّنه النفس والشيطان لبعض الطيبين من تشبيطه عن الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحجة الانشغال بطلب العلم وتربية النفس ، فإن كان الدافع إلى هذه المغالطة هو الشبهة ، فإن الأمر هين، وعلاجه بأن يقال لمن هذا تفكيره: إن طلب العلم والتفقه في دين الله عز وجل أمر مطلوب ، والتساهل فيه لا يجوز بحال؛ لأنه العاصم بإذن الله من الانحراف ، ولكن ألم تعلم أن اقتضاء العلم العمل، وأنه لا قيمة للعمل الذي لا يعمل به صاحبه ويدعو إليه ؟ وكذلك ألم تقرأ سورة العصر ، وما جاء فيها من صفات الناجين من الخسران ، وأنهم الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح والدعوة إلى الحق والصبر على الأذى فيه؟

---

(١) الروح (٢٥٨).

أما إذا كان الدافع إلى هذا اللبس والتزيين هو الشهوة والكسل وإيثار الراحة والسلامة؛ فإن الأمر أشد وعلاجه أصعب؛ لأن هذا المغالط يعرف من نفسه الضعف والركون إلى الراحة، لكن بدلاً من أن يعترف بهذا الضعف ويسعى لرتقه وإصلاحه، فإنه يعزي نفسه ويظهر لغيره أن طلب العلم والانشغال بالنفس مقدم على دعوة الغير، وهذا حق أريد به باطل. نسأل الله عز وجل أن يعيذنا من شرور أنفسنا وشر الشيطان وشركه.

٤ـ المداهنة وضعف الولاء والبراء بحجة المداراة والتسامح:

إن الخلط بين المداراة والمداهنة والتساهل في الولاء والبراء بحجة التسامح؛ إن كل ذلك تنتج عنه آثار خطيرة على الدين وأهله، وذلك بما يفرزه هذا الخلط واللبس من المغالطة والتضليل على الأمة في أن ما يقع من الملبسين من مداهنة وموالاة لأعداء هذا الدين إنما هو مداراة ويقصد منه مصلحة الأمة، وكذلك إظهار محاسن هذا الدين، وما فيه من التسامح وحبه للصلح والسلام ونبذه للعنف والشدة، وغير هذا من المبررات والمغالطات التي يغطي بها الملبس عواره من المداهنة والموالاة لأعداء الله.

وإيضاحاً لهذا الأمر أنقل كلاماً لبعض أهل العلم يزيل اللبس في مسألة المداراة والمداهنة، ومسألة الولاء والتسامح.

قال البخاري رحمه الله تعالى في باب المداراة مع الناس: «ويذكر عن أبي الدرداء: إنا نكشر في وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم. وعن عائشة رضي الله عنها أنه استأذن على النبي ﷺ رجل، فقال: « **ائذنوا له فبئس ابن العشيرة** » أو« **بئس أخو العشيرة** »، فلما دخل ألان له الكلام، فقلت له: يا رسول الله، قلت ما قلت، ثم ألنت له في القول، فقال: « **أي عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله من تركه ـ أو ودعه ـ الناس اتقاء فحشه** »[1] اهـ.

ويعلق ابن حجر رحمه الله تعالى على حديث عائشة بقوله: قال ابن بطال: «المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة».

وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط؛ لأن المداراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة، والفرق أن المداهنة من الدهان، وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه. وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه. والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم وبالفاسق في النهي عن فعله وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل لا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك»[٢] اهـ.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في الفرق بين المداراة والمداهنة وخطورة الخلط بينهما:

« وكذلك المداراة صفة مدح، والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما: أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق، أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على الباطل ويتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق، وقد ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة قد آلمته فجاءه الطبيب المداوي الرفيق فتعرف عليها، ثم أخذ في تليينها حتى إذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها، ثم وضع على مكانها من الدواء والمراهم ما يمنع فساده ويقطع مادته، ثم تابع عليها

---

(١) أخرجه البخاري ـ كتاب الأدب (٨٢) باب: المداراة مع الناس (ح٦١٣١) [فتح (١٠/٥٤٤)].

(٢) الفتح (١٠/٥٤٥).

بالمراهم التي تنبت اللحم ، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها ، ثم يشد عليها الرباط ، ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت .

والمداهن قال لصاحبها : لا بأس عليك منها ، وهذه لا شيء فاسترها عن العيوب[1] بخرقة ، ثم أُله عنها ، فلا تزال مادتها تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها .

وهذا المثل أيضاً مطابق كل المطابقة لحال النفس الأمارة مع المطمئنة فتأمله ، فإذا كانت هذه حال قرحة بقدر الحمصة ، فكيف بسقم هاج من نفس أمارة بالسوء هي معدن الشهوات ومأوى كل فسق ، وقد قارنها شيطان في غاية المكر والخداع يعدها ويمنيها ويسحرها بجميع أنواع السحر حتى يخيل إليها النافع ضاراً والضار نافعاً ، والحسن قبيحاً والقبيح جميلاً ، وهذا لعمر الله من أعظم أنواع السحر .

ولهذا يقول سبحانه : ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٩] ، والذي نسبوا إليه الرسل من كونهم مسحورين هو الذي أصابهم بعينه ، وهم أهله لا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، كما أنهم نسبوهم إلى الضلال والفساد في الأرض والجنون والسفه ، وما استعاذت الأنبياء والرسل وأمراء الأمم من شر النفس الأمارة وصاحبها وقرينها الشيطان إلا لأنهما أصل كل شر وقاعدته ومنبعه ، وهما متساعدان عليه متعاونان»[2] اهـ .

من هذا البيان الشافي تبين حقيقة المداراة والمداهنة ، وأنهما ضدان لا يجتمعان ؛ إذ إن المداراة صفة مدح ، وهي لأهل الإيمان ، بينما المداهنة صفة ذم ، وهي لأهل النفاق .

---

(١) (العيوب) كذا في الأصل ، ولعل الصواب هو : (العيون) .

(٢) الروح ص٢٣١ .

فهل بقي بعد هذا البيان مجال للالتباس في هذا الأمر ؟ اللّهم لا إلا عند مغالط مكابر يريد أن يستر نفاقه وضعفه بلَبوس الشرع ، والشرع من ذلك بريء ، ويعلم المغالط نفسه أنه ملبس ومكابر وليس على حق في استدلاله .
ثم إن مكمن الخطر في هذا الخلط ليس في مداهنة الفساق وأهل المعاصي من المسلمين فحسب ، وإنما الأخطر من ذلك هو مداهنة الكفار بمشاربهم المختلفة تحت غطاء المداراة ومصلحة الأمة حتى اهتز جانب الولاء والبراء ، والذي هو الركن الركين في عقيدة التوحيد ، وبدأ حاجز البغض للكفر وأهله يضعف ، بل انهدم عند البعض ؛ والسبب في ذلك الجهل بحقيقة المداراة والمداهنة والمغالطة فيهما عن علم وهوىً .

والحديث عن هذا الموضوع يجرنا إلى موضوع التسامح الديني واستخدامه مبرراً للتقريب بين الأديان ، ومداهنة الكفار والسكوت عن باطلهم ، أو تحسين مناهجهم والتحالف معهم . وبخاصة مع الكفار من أهل الكتاب بحجة تناصر أهل الأديان السماوية في محاربة الإلحاد ، ومعلوم ما في هذا التلبيس والمغالطة من الخطر العظيم الذي يهدد العقيدة فضلاً عن الأخلاق والقيم .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى محذراً من هذا التميع والتلبيس :

«وسذاجة أية سذاجة ، وغفلة أية غفلة أن نظن أن لنا وأهل الكتاب طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين أمام الكفار والملحدين ، فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة مع المسلمين .

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان ، وفي كل زمان حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في

الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد بوصفنا جميعاً أهل دين ، ناسين تعاليم القرآن كله ، وناسين تعليم التاريخ كله ، فأهل الكتاب هؤلاء هُم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين : ﴿ هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾ [النساء : ٥١].

وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة، وكانوا لهم درعاً وردءًا ،وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام . وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذين شردوا المسلمين في فلسطين، وأحلّوا اليهود محلهم متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية ، وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يُشَرِّدون المسلمين في كل مكان. . . في الحبشة والصومال وأريترية ، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية في يوغسلافية والصين والتركستان والهند ، وفي كل مكان .

ثم يظهر بيننا من يظن أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر ندفع به المادية الإلحادية عن الدين . إن هؤلاء لا يقرأون القرآن، وإذا قَرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام ، فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن . . إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم ، كما وقفت له بالأمس الموقف الذي لا يمكن تبديله ؛ لأنه الموقف الطبيعي الوحيد .

إن نداء الله موجه إلى كل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة، موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة ﴿ الَّذِينَ

آمَنُوا﴾ ، لقد نزل القرآن ليبث الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته ، ولينشئ تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ، ولا يقف تحت رايتها ، المفاصلة التي لا تنهي السماحة الخلقية ، فهذه صفة المسلم دائماً ، ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا إلى الله ورسوله والذين آمنوا . . الوعي والمفاصلة اللذان لابُدَّ منهما للمسلم في كل أرض ، وفي كل جيل ، فهذا مفرق الطريق ، وما يمكن أن يتميع حس المسلم في المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من ينهج غير منهج الإسلام ، وبينه وبين كل من لا يرفع راية الإسلام ، ثم يكون في وسعه بعد ذلك أن يعمل عملاً ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف أول ما تستهدف إقامة نظام واقعي في الأرض فريد ، يختلف عن كل الأنظمة الأخرى ويعتمد على تصور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى . .

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية يخطئون في فهم معنى الأديان ، كما يخطئون في فهم معنى التسامح ، فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله ، والتسامح يكون في المعاملات الشخصية ، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي .

إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل ديناً إلا الإسلام ، وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ، ولا يقبل دونه بديلاً ، ولا يقبل فيه تعديلاً - ولو طفيفاً - هذا اليقين الذي يُنشئه القرآن الكريم وهو يقرر ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾ [آل عمران: ٨٥] ، ﴿ **وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ**

مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩] ، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ [المائدة: ٥١].

وفي القرآن كلمة الفصل . . ولا على المسلم من تميّع المتميعين وتمييعهم لهذا اليقين»[1] اهـ .

وقبل إنهاء الحديث عن هذه الصورة من صور التلبيس تجدر الإشارة إلى جانب آخر من جوانب الخلط والتضليل له علاقة شديدة بصورتنا هذه ؛ ألا وهو المغالطة باسم التسامح والعفو وحب السلام ، واستخدام هذه الصفات في تمرير الذل والمهانة والسلام الدائم مع الكفار ، والتعايش السلمي وترك الجهاد .

والعجيب الغريب ، والمضحك المبكي في هذا الأمر أن الذين يبحثون في الشرع عما يغطون به خنوعهم واستسلامهم هم الذين أعرضوا عن الشرع والحكم به والتحاكم إليه، ونبذوه وراءهم ظهرياً فما حاجتهم إلى الشرع هذه المرة لولا التلبيس والتضليل ؛ قال الله سبحانه : ﴿ **وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠].

وإن العجب ليبلغ ذروته عند سماع من يقول: إن السلام والتعايش السلمي مع الكفار ينطلق من خلق العفو والسماح وحب السلام !!

إنه لعجيب أن يبرر المرء ذلته ومهانته بمبرر العفو والتسامح .

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن : أحمد فائز ٦٢ ـ ٦٤ .

إن العفو والتسامح يكون في الحقوق الخاصة عند القدرة على الانتقام ، أما أن يكون على حساب دين الأمة وعقيدتها وقضاياها فلا يكون ذلك أبداً. ثم إن الاعتراف بالعجز والمهانة وبذل الجهد في التخلص منهما خير من تغطيتهما بغطاء العفو والتسامح ، ولكنها المغالطة والتلبيس .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والفرق بين العفو والذل أن العفو إسقاط حقك جوداً وكرماً وإحساناً مع قدرتك على الانتقام ، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق ، بخلاف الذل فإن صاحبه يترك الانتقام عجزاً وخوفاً ومهانة نفس؛ فهذا مذموم غير محمود ، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالاً منه ؛ قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ** ﴾ [الشورى: ٣٩] .

فمدحهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليهم؛ ندبهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح ، فقال : ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الشورى: ٤٠] »[١] .

٥ـ الانفتاح على الدنيا والركون إليها بحجة التعفف عن الناس وإنفاق المال في وجوه الخير :

وفي هذه الصورة مدخل خفي للشيطان يتسرب منه إلى نفس الإنسان، ويبلغ اللبس في هذا الأمر من الخفاء بحيث لا يتفطن إليه إلا المجاهد لنفسه، المفتش لقلبه الحذر الخائف من الدنيا وغرورها .

---

(١) الروح (٢٤٢).

ومكمن اللبس هنا في أن التعفف عن الناس أمر مطلوب ويحثّ عليه الشرع في أكثر من آية وحديث، وكذلك الإنفاق في سبيل الله وبذل المال في أوجه البر المختلفة، كل هذا حق لا ريب فيه ، لكن الشيطان لا يألو جهداً في إغواء بني آدم ، وجرهم إلى حزبه خطوة خطوة.

ولهذا فهو يبدأ مع الإنسان ليجره إلى الدنيا وغرورها من باب التعفف عن الناس ومساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف. . . إلخ، ثم بعد ذلك وبعد انشغاله بالمال وطرق جمعه ومشاكله وشبهاته نبحث عن صاحبنا الذي كنا نراه في لقاءات الخير والدعوة إلى الله سبحانه فلا نراه إلا قليلاً .

وهكذا حتى ينفتح على الدنيا ويركن إليها ، ويضع له الشيطان في كل واد من أوديتها شغلاً وهماً ، فيتشعب فيها الفكر ، ويتشتت فيها الذهن ، ويتحول المال المكتسب إلى استثمارات جديدة وتوسع في المباحات وإسراف في المآكل والمراكب والمساكن، وقد كان الهدف في البداية هو التعفف والإسهام في وجوه الخير والبر .

والغريب في الأمر أن هذا المسكين عندما يُذكر بالآيات التي تحذر من الدنيا وسرعة زوالها وخطر الركون إليها، فإنه بدلاً من أن يشعر بالخطر ويسعى لتدارك الأمر؛ يصر على المغالطة واللبس ، ويقول: إن التعفف عن الناس مطلوب ولابد للداعية أن يكون له مصدر يستغني به عن الناس وينفع به دعوته ويساهم به في الخير، وهو يعلم أن قصده ليس هذا ، وإنما أراد تغطية حبه للدنيا والركون إليها بهذا الغطاء الشرعي الذي لم يراع الضوابط الشرعية فيه.

وقد يقول قائل: إذن ما العمل في مثل هذه الحالة وبخاصة لمن أراد صادقاً أن يتعفف عن الناس وأن ينفع دعوته بالمال؟

والجواب لا أملكه؛ لأنها معادلة صعبة يختلف حلها من شخص لآخر؛ ويكفي في حلها أن يعلم الله سبحانه من أنفسنا أننا نريد التعفف والبذل بصدق في سبيل الله سبحانه فعندئذ يعصمنا برحمته من فتنة الدنيا وزخرفها، ويخرجها من قلوبنا لتبقى في أيدينا.

وكل إنسان على نفسه بصيرة، وهو أدرى بنيته وقصده، إن كان حقاً يريد التعفف ويخاف من الركون إلى الدنيا وأخطارها، أو كان مغالطاً كاذباً في ادعائه هذا. وإنما يظهر ذلك لتغطية حبه للدنيا وزينتها ومتعها واللهث وراء جمعها. اللَّهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

وأختم الحديث حول هذه الصورة ببعض الآيات والأحاديث التي تحذر من الركون إلى الدنيا وزينتها.

قال الله تعالى: ﴿ **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ** ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿ **وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ** ﴾ [فاطر: ٥].

وقال ﷺ: « **فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما**

تنافسوها وتلهيكم كما ألهتهم »[١] .

وهذا التحذير قاله الرسول ﷺ للصحابة رضي الله عنهم ، وهم أزهد الناس ، وفي زمان يغلب عليه الطهر والخير والكسب الحلال ، فماذا يقال لنا يا من نعيش في هذا العصر الذي يغلب عليه الفساد والكسب الحرام والشبهات الكثيرة المعقدة ؟!

وأخيراً أرجو ألا يفهم من هذا الكلام ترك الدنيا لأهل الفساد ودعاة الشر يعبثون فيها ويسخرونها لفسادهم وأهوائهم ؛ كلا ، فلابد لدعاة الخير والإصلاح أن يتعاونوا في تنمية المشاريع الخيرية والاستثمارات الخالية من الشبهات ، ويوجهونها لدعم الخير وأهله ، إن هذا أمر لا يجادل فيه أحد من المصلحين ، ولا يتعارض هذا الفهم مع ما سبق من التحذير من الدنيا ؛ لأن الكلام الذي قيل هناك كان متوجهاً إلى من يعمل في هذه الدنيا لنفسه ، ويغري نفسه ويغالطها بالبذل في سبيل الله عز وجل والجهاد في سبيله سبحانه ، والأمر ليس كما يقول وقريب من هذا الصنف من يذم الدنيا لا زهداً فيها ورغبة في الآخرة ، وإنما لأنه لم يحصل عليها .

٦ـ الاحتجاج بيسر الشريعة وضغط الواقع لركوب الحيل المحرمة والأخذ بالرخص الشاذة للمذاهب :

إن من رحمة الله عز وجل علينا أن هدانا لهذا الدين القويم ؛ دين الإسلام الذي لا يقبل الله سبحانه من أحد ديناً غيره ، وجاءت شريعته الكاملة المطهرة لتحقق مصالح العباد وتحفظها ، وتدرأ عنهم المفاسد وتحميهم منها في الدنيا

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق (٧) ، باب : ما يحذر من زهرة الدنيا . . . (٦٤٢٥)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦١).

والآخرة .

ولقد قامت هذه الشريعة الربانية على رفع الحرج والمشقة ، وعلى اليسر في أمورها كلها ، ولو تتبعنا أحكام هذه الشريعة لرأيناها قائمة على ذلك ، ولا مكان هنا للتفصيل ؛ إذ ليس الغرض الحديث عن القواعد الشرعية ومقاصد الشرع ؛ فهذا تفصيله يوجد في مظانه من كتب أهل العلم ؛ كالقواعد لابن رجب ، والموافقات للشاطبي وغيرهما .

وإنما المراد من إيراد هذه المقدمة في هذه الصورة الإشارة إلى أن القول بيسر الشريعة وسماحتها حق لا شك فيه ، ولكن الاحتجاج بهذا التيسير على التحلل من أحكام الشريعة والتحايل عليها واتباع الهوى في الأخذ بالرخص والغرائب الفقهية الشاذة ، التي لا تستند إلى دليل صحيح ؛ كل هذا باطل وتلبيس وتضليل يرفعه أهل الأهواء الذين يتبعون الشهوات ، ويلوحون به لتمرير فسادهم وشهواتهم ؛ يريدون بذلك تحلل المجتمع المسلم من أحكام الشريعة باسم التيسير وترك التشديد ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾ [النساء: ٢٧] .

ومن رحمة الله عز وجل أنه لم يكل مصالح العباد إلى أهواء البشر وشهواتهم ؛ بل وضع سبحانه شريعة كاملة مبرأة من الجهل والهوى ، ومبرأة من النقص والقصور؛ لأنها منه سبحانه اللطيف الخبير الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، ولو أن تقرير مصالح العباد كان في أيدي البشر لحصل من ذلك شر وفساد كبير ؛ وذلك لما عليه البشر من الجهل والنقص والهوى والشهوة ، وهذا مشاهد في الواقع ؛ فالمجتمعات التي لا يحكمها شرع الله سبحانه وإنما تحكمها أنظمة البشر وقوانينهم نرى كم فيها

من الفساد والشر والظلم والاستعباد والضنك والضيق الذي تعج به الأرض والسماوات ، وتبرأ منه الوحوش في البريات ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

يقول الشاطبي رحمه الله تعالى :

« المقصد الشرعي في وضع الشريعة: إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً. والدليل على ذلك أمور:

أحدها : النص الصريح الدال على أن العباد خلقوا للتعبد لله والدخول تحت أمره ونهيه؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ [طه: ١٣٢]، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

ثم شرح هذه العبادة في تفاصيل السورة كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ .. إلى قوله: وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، وهكذا إلى تمام ما ذكر في السورة من الأحكام .

وقوله: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات الآمرة بالعبادة على الإطلاق وبتفاصيلها على العموم ، فذلك كله

راجع إلى الرجوع إلى الله في جميع الأحوال والانقياد إلى أحكامه على كل حال وهو معنى التعبد الله .

والثاني: ما دل على مخالفة هذا القصد من النهي أولاً عن مخالفة أمر الله، وذم من أعرض عن الله وإيعادهم بالعذاب العاجل من العقوبات الخاصة بكل صنف من أصناف المخالفات والعذاب الآجل في الدار الآخرة، وأصل ذلك اتباع الهوى والانقياد إلى طاعة الأغراض العاجلة والشهوات الزائلة؛ فقد جعل الله اتباع الهوى مضاداً للحق وعده قسيماً له كما في قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وقال في قسيمه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

فقد حصر الأمر في شيئين: الوحي؛ وهو الشريعة، والهوى؛ فلا ثالث لهما، وإذا كان كذلك فهما متضادان، وحين تعين الحق في الوحي توجه للهوى ضده، فاتباع الهوى مضاد للحق .

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]

وقال: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]

وقال : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾

[محمد: ١٦]

وقال : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ [محمد: ١٤] .

وتأمل، فكل موضع ذكر الله تعالى فيه الهوى فإنما جاء به في معرض الذم له ولمتبعيه . وقد روي هذا المعنى عن ابن عباس أنه قال : ما ذكر الله الهوى في كتابه إلا ذمه ، فهذا كله واضح في أن قصد الشارع الخروج عن اتباع الهوى والدخول تحت التعبد للمولى .

والثالث : ما علم بالتجارب والمعتقدات من أن المصالح الدينية والدنيوية لا تحصل مع الاسترسال في اتباع الهوى والمشي مع الأغراض لما يلزم في ذلك من التهارج والتقاتل والهلاك الذي هو مضاد لتلك المصالح.

وهذا معروف عندهم بالتجارب والعادات المستمرة ؛ ولذلك اتفقوا على ذم من اتبع شهواته وسار حيث سارت به حتى إن من تقدم ممن لا شريعة له يتبعها، أو كان له شريعة درست كانوا يقتضون المصالح الدنيوية بكف كل من اتبع هواه في النظر العقلي ، وما اتفقوا عليه إلا لصحته عندهم واضطراد العوائد باقتضائه ما أرادوا من إقامة صلاح الدنيا وهي التي يسمونها السياسة المدنية .

فهذا أمر قد توارد النقل والعقل على صحته في الجملة وهو أظهر من أن يستدل عليه .

وإذا كان كذلك لم يصح لأحد أن يدعي على الشريعة أنها وضعت على

مقتضى تشهي العباد وأغراضهم ؛ إذ لا تخلو أحكام الشرع من الخمسة : أما الوجوب والتحريم فظاهر مصادمتها لمقتضى الاسترسال الداخل تحت الاختيار، إذ يقال له: افعل كذا كان لك فيه غرض أم لا ، ولا تفعل كذا كان لك فيه غرض أم لا . فإن اتفق للمكلف فيه غرض موافق وهوى باعث على مقتضى الأمر أو النهي فبالعرض لا بالأصل .

وأما سائر الأقسام وإن كان ظاهرها الدخول تحت خيرة المكلف فإنما دخلت بإدخال الشارع لها تحت اختياره ، فهي راجعة إلى إخراجها عن اختياره . ألا ترى أن المباح قد يكون له فيه اختيار وغرض ، وقد لا يكون ، فعلى تقدير أن ليس له فيه اختيار بل في رفعه مثلاً كيف يقال إنه داخل تحت اختياره ؛ فكم من صاحب هوى يود لو كان المباح الفلاني ممنوعاً ؛ حتى إنه لو وكل إليه مثلاً تشريعه لحرمه كما يطرأ للمتنازعين في حق . وعلى تقدير أن اختياره وهواه في تحصيله يود لو كان مطلوب الحصول، حتى لو فرض جعل ذلك إليه لأوجبه .

ثم قد يصير الأمر في ذلك المباح بعينه على العكس، فيحب الآن ما يكره غداً وبالعكس ، فلا يستتب في قضية حكم على الإطلاق ، وعند ذلك تتوارد الأغراض على الشيء الواحد فينخرم النظام بسبب فرض اتباع الأغراض والهوى ؛ فسبحان الذي أنزل في كتابه ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١] اهـ»[1] .

إن الذين يتشدقون بالتيسير ويغالطون به بغير علم ولا هدى من الله سبحانه لو كان الأمر بأيديهم لعطلوا بأهوائهم كثيراً من أحكام الشريعة التي

(١) الموافقات :(٢/١١٦).

ينال المكلف فيها المشقة والضيق ، مع أن مآلها اليسر والسعادة في الدارين؛ فحمداً لله عز وجل أنه لم يكل أمر تقرير المشقة والحرج والعسر واليسر إلى أهواء البشر ، إذن لفسدت الأرض ومن عليها، ولعم الهلاك والظلم والشر كما هو الحال فيمن لا يحكمهم شرع الله.

لكن الله سبحانه الرحيم بعباده هو الذي يعلم ما يُصلح شئونهم، وييسر أمورهم ، ويعلم ما يشق عليهم وما لا يشق . إنه حكيم عليم ، ولنضرب على ذلك مثلاً ، قال تعالى : ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج: ٧٨] .

فمن دقائق التفسير في هذه الآية ما ذكره الشوكاني رحمه الله تعالى في فتح القدير تعليقاً على هذه الآية ؛ إذ يقول : « ثم لما كان في التكليف مشقة على النفس في بعض الحالات قال : ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ أي ضيق وشدة » اهـ .

من هذا التعليق ندرك أن الجهاد وإن كان فيه تكليف ومشقة على النفس لكن الله سبحانه شرعه تيسيراً للعباد ورفعاً للحرج عنهم ، نعم في الجهاد مشقة وضيق على المجاهدين ، لكن بالقياس إلى غاية الجهاد وهي أن يكون الدين كله لله سبحانه ، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

إذا قيست هذه الغاية وهذه التيسيرات ورفع المشقات الكبيرة والحرج الشديد عنهم والتي لا تتحقق إلا بالجهاد ؛ فإن الحرج القليل لا يساوي شيئاً ما دام أن الحرج العظيم والعنت الشديد الذي تعانيه البشرية في ظل عبودية البشر سيزول بالجهاد في سبيل الله ؛ الجهاد الذي لا يكون الدين كله لله إلا

به ، فماذا تساوي المعاناة عندئذ ، وماذا تساوي التضحيات ؟ إنها لا تساوي شيئاً إذا قيست بإسعاد الملايين من البشر في ظل الإسلام ، وبالفوز برضوان الله سبحانه في جنات النعيم .

إذن من خلال المثال السابق يتبين لنا كيف أن الله سبحانه شرع الجهاد لرفع الحرج ، بينما أهل الأهواء والشهوات يرون فيه حرجاً ومشقة ، ولا يذهبون إلى ما وراء هذا الحرج الظاهري .

والأمثلة في ذلك - غير الجهاد في سبيل الله - كثيرة ، وكلها تدل على أن الوسيلة التي يحكم بها على أن في هذا الأمر مشقة أو تيسيراً هي ما جاء عن الله سبحانه أو رسوله ﷺ ، ولا دخل لعقول البشر وأهوائهم في تحديد ذلك إلا ما كان منضبطاً في إطار مقاصد الشرع وقواعده .

يقول الشاطبي رحمه الله تعالى :

« وذلك أن مخالفة ما تهوى الأنفس شاق عليها ، وصعب خروجها عنه، ولذلك بلغ أهل الهوى في مساعدته مبالغ لا يبلغها غيرهم ، وكفى شاهداً على ذلك حال المحبين ، وحال من بعث إليهم رسول الله ﷺ من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم ممن صمم على ما هو عليه حتى رضوا بإهلاك النفوس والأموال ، ولم يرضوا بمخالفة الهوى، حتى قال تعالى : ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ** ﴾ [الجاثية: ٢٣] ، وقال : ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ** ﴾ [النجم: ٢٣] ، وقال : ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ [محمد: ١٤] وما أشبه ذلك .

ولكن الشارع إنما قصد بوضع الشريعة إخراج المكلف عن اتباع هواه حتى يكون عبداً لله . فإذاً مخالفة الهوى ليست من المشقات المعتبرة في التكليف ، وإن كانت شاقة في مجاري العادات إذ لو كانت معتبرة حتى يشرع التخفيف لأجل ذلك لكان ذلك نقضاً لما وضعت الشريعة له ، وذلك باطل ، فما أدى إليه مثله . وبيان هذا المعنى مذكور بعد إن شاء الله»[1] .

بعد هذه النقول المتفرقة من كتاب الموافقات للشاطبي نعود إلى أولئك الذين يحتجون بيسر الشريعة وترك التشديد لتبرير أخذهم بالرخص من كل مذهب ؛ فنسأل هؤلاء القوم : ماذا تقصدون بالتيسير والتشديد؟

فإن كانوا يقصدون التحلل من كل ما تقترن به المشقة من الأحكام ولو جاء الدليل على مشروعيتها، فإن هذا هو التلبيس والتضليل ؛ حيث لم يكن رائدهم في ذلك هو الدليل ، وإنما هو الهوى والشهوة، لكنهم لا يريدون الاعتراف بذلك ، وإنما يغطون أهواءهم وشهواتهم بشبهة التيسير ورفع الحرج، أو أن في المسألة قولاً ما لأحد العلماء .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى :

« وروى البيهقي عن الحاكم عن حسان بن محمد عن ابن سريج عن القاضي إسماعيل بن إسحاق قال : « دخلت يوماً على المعتضد فدفع إلي كتاباً فقرأته فإذا فيه الرخص من زلل العلماء - قد جمعها له بعض الناس - فقلت : يا أمير المؤمنين، إنما جمع هذا زنديق ، فقال : كيف ؟ قلت : إن من أباح المتعة لم يبح الغناء ، ومن أباح الغناء لم يبح إضافته إلى آلات اللهو ، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه، فأمر بتحريق ذلك

---

(١) الموافقات (٢/ ١٠٣).

الكتاب»[١].

ويرد الشاطبي رحمه الله تعالى في الموافقات على من يحتج بوجود الخلاف في مسألة ما على إباحتها دون النظر إلى الدليل فيقول :

« (فصل) وقد زاد هذا الأمر على قدر الكفاية حتى صار الخلاف في المسائل معدوداً في حجج الإباحة . ووقع فيما تقدم وتأخر في الزمان الاعتماد في جواز الفعل على كونه مختلفاً فيه بين أهل العلم، لا بمعنى مراعاة الخلاف فإن له نظراً آخر ، بل في غير ذلك . فربما وقع الإفتاء في المسألة بالمنع ، فقال : لم تمنع والمسألة مختلف فيها ؟ فيجعل الخلاف حجة في الجواز لمجرد كونها مختلفاً فيها لا لدليل يدل على صحة مذهب الجواز ولا لتقليد من هو أولى بالتقليد من القائل بالمنع. وهو عين الخطأ على الشريعة حيث جعل ما ليس بمعتمد معتمداً وما ليس بحجة حجة .

حكى الخطابي في مسألة البتع[٢] المذكور في الحديث عن بعض الناس أنه قال: إن الناس لما اختلفوا في الأشربة وأجمعوا على تحريم خمر العنب، واختلفوا فيما سواه حرمنا ما اجتمعوا على تحريمه وأبحنا ما سواه .

قال : وهذا خطأ فاحش ، وقد أمر الله تعالى المتنازعين أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول . قال : ولو لزم ما ذهب إليه هذا القائل للزم مثله في الربا والصرف ونكاح المتعة ؛ لأن الأمة قد اختلفت فيها . قال : وليس الاختلاف حجة ، وبيان السنة حجة على المختلفين من الأولين

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٨٧) .

(٢) بكسر فسكون: نبيذ يتخذ من عسل كأنه الخمر صلابة، وفي الحديث : سئل عن البتع ، فقال: « **كل مسكر حرام**».

والآخرين . هذا مختصر ما قال .

والقائل بهذا راجع إلى أن يتبع ما يشتهيه ويجعل القول الموافق حجة له ويدرأ بها عن نفسه ؛ فهو قد أخذ القول وسيلة إلى اتباع هواه لا وسيلة إلى تقواه، وذلك أبعد له من أن يكون ممتثلاً لأمر الشارع وأقرب إلى أن يكون ممن اتخذ إلهه هواه .

ومن هذا أيضاً: جعل بعض الناس الاختلاف رحمة للتوسع في الأقوال وعدم التحجير على رأي واحد، ويحتج في ذلك بما روي عن القاسم بن محمد وعمر بن عبد العزيز وغيرهما مما تقدم ذكره[1] ، ويقول : إن الاختلاف رحمة ، وربما صرح صاحب هذا القول بالتشنيع على من لازم القول المشهور أو الموافق للدليل أو الراجح عند أهل النظر والذي عليه أكثر المسلمين ، ويقول له: لقد حجرت واسعاً ، وملت بالناس إلى الحرج ، وما في الدين من حرج ، وما أشبه ذلك ، وهذا القول خطأ كله وجهل بما وضعت له الشريعة . والتوفيق بيد الله » اهـ[2] .

وقبل الانتقال من هذه الصورة من صور التلبيس تجدر الإشارة إلى أمر مهم يتعلق بها، ألا وهو الاحتجاج بضغط الواقع وتغيره للتحلل من بعض الأحكام الشرعية؛ مرة بتأويل الأدلة وتحريفها عن مواضعها ، ومرة بحجة الضرورات ، ومرة بالاستناد على قاعدة: تغير الفتوى بتغير الحال والزمان والمكان والعوائد . وهذا كله من التلبيس والتضليل للتفلت من الشرع المطهر خطوة خطوة .

---

(١) راجع الموافقات (٤/ ٦٦).

(٢) الموافقات (٤/ ٧٨، ٧٩) .

ولو أن الذين يطرحون قاعدة الضرورات وتغيّر الفتوى كانوا من العلماء الأتقياء المشهود لهم بالصلاح ، والذين يعرفون ضوابط الضرورة وحدودها ، ويعرفون معنى تغير الفتوى بتغير الأحوال ، لكان لهذا الطرح وجه واعتبار . وسواء أخطأ المجتهد في ذلك أم أصاب ؛ لأن قاعدة الضرورات وقاعدة تغير الفتوى بتغير الحال قاعدتان معتبرتان شرعاً بضوابطهما الشرعية .

وإن المتناول لهذه القواعد مع ما يستجد من مستجدات في الواقع إذا كان من أهل العلم وكان متجرداً لله عز وجل ، وطالباً للحق فإنه يوفق في الغالب إلى الحق والصواب ، ولو أخطأ فهو مأجور إن شاء الله تعالى على اجتهاده .

أما أن يأتي ملبس مضلل لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه ، بلا علم ولا تقوى من الله سبحانه ، ويريد أن يحتج بهذه القواعد للتحلل من الشرع ومسايرة الواقع ، فهذا مما يرفضه الشرع ويأباه ؛ لأن نهايته السير بأحكام الله عز وجل حسب أهواء الناس وشهواتهم ، وما ألفوه في واقعهم .

وما جاء هذا الدين إلا ليخرج الناس من ظلمات الشرك والأخلاق السيئة وما ألفوه في بيئاتهم وتوارثوه عن آبائهم ، إلى نور التوحيد والأخلاق الكريمة ، وهذا يحتاج بلا شك إلى جهد وصبر على مواجهة أعراف الناس وتقاليدهم وعدم اليأس من تغييرها ، ولو تُرك الناس وما ألفوه واعتادوه من أعراف جاهلية ، وما استجد في مجتمعاتهم من أخلاق هابطة لكن في ذلك من العنت والشقاء في حياتهم ما لا يعلمه إلا الله سبحانه

هذا في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في معنى : ﴿ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ من قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٧] :

« ليهلكوهم وليجعلوا دينهم عليهم ملبساً غامضاً لا يقفون منه على تصور واضح ، فأما الهلاك فيتمثل ابتداءً في قتلهم لأولادهم ؛ ويتمثل أخيراً في فساد الحياة الاجتماعية بجملتها وصيرورة الناس ماشية ضالة يوجهها رعاتها المفسدون حيثما شاءوا ، وفق أهوائهم ومصالحهم! حتى ليتحكمون في أنفسهم وأولادهم وأموالهم بالقتل والهلاك ، فلا تجد هذه الغنم الضالة لها مفراً من الخضوع ؛ لأن التصورات المتلبسة بالدين والعقيدة - وما هي منها - بكل ثقلها وعمقها ، تتعاون مع العرف الاجتماعي المنبثق منها ، وتنشئ ثقلاً ساحقاً لا تقف له جماهير الناس ، ما لم تعتصم منه بدين واضح ، وما لم ترجع في أمرها كله إلى ميزان ثابت .

وهذه التصورات المبهمة الغامضة، وهذا العرف الاجتماعي الذي ينبثق منها ، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق . . لا ينحصر في تلك الصور التي عرفتها الجاهليات القديمة ، فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح في الجاهليات الحديثة . . هذه العادات أو التقاليد التي تكلف الناس العنت الشديد في حياتهم، ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفراً ، هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها على الناس فرضاً ، وتكلفهم أحياناً ما لا يطيقون من النفقة، وتأكل حياتهم واهتماماتهم ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم.

ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها . . أزياء الصباح وأزياء بعد الظهر، وأزياء المساء . . والأزياء القصيرة ، والأزياء الضيقة ، والأزياء المضحكة ! وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف . . . إلى آخر هذا الاسترقاق المذلّ ؛ من الذي يصنعه ، ومن الذي يقف وراءه ؟ تقف وراءه بيوت الأزياء ، وتقف وراءه شركات الإنتاج ، ويقف وراءه المرابون في بيوت المال والبنوك من الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدها!

ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها ! ، ولكنهم لا يقفون بالسلاح الظاهر والجند المكشوف ، إنما يقفون بالتصورات والقيم التي ينشئونها ، ويؤصلونها بنظريات وثقافات، ويطلقونها تضغط على الناس في صورة (عرف اجتماعي) ، فهم يعلمون أن النظريات وحدها لا تكفي ما لم تتمثل في أنظمة حكم ، وأوضاع مجتمع ، وفي عرف اجتماعي غامض لا يناقشه الناس ؛ لأنه ملتبس عليهم ، متشابكة جذوره وفروعه ! إنه فعل الشياطين ؛ شياطين الإنس والجن ، وإنها الجاهلية تختلف أشكالها وصورها ، وتتحد جذورها ومنابعها ،وتتماثل قوائمها وقواعدها.

وإننا لنبخس القرآن قدره ، إذا نحن قرأناه وفهمناه على أنه حديث عن جاهليات كانت ! إنما هو حديث عن شتى الجاهليات في كل أعصار الحياة ، ومواجهة للواقع المنحرف دائماً ورده إلى صراط الله المستقيم »[1] .

٧ـ التشهير بالدعاة والمصلحين واغتيابهم بحجة النصيحة والتحذير من الأخطاء :

عن أبي برزة الأسلمي والبراء بن عازب رضي الله عنهما قالا : قال

---

(١) الظلال (٣/ ١٢١٩).

رسول الله ﷺ : « **يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ! لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عوراتهم ، يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته** »[١] .

إن التنبيه على الأخطاء والمخالفات الشرعية أمر مطلوب إذا روعي في ذلك التجرد والانضباط بالشرع في معالجة الأخطاء .

وليس المقصود في هذه الصورة الحديث عن الغيبة وحرمتها ودورها في إثارة الشحناء والبغضاء ؛ فهذا كله معروف وموجود في مظانه من كتب أهل العلم ، وإنما المقصود من هذه الصورة هو الحذر من تزيين الشيطان وتلبيسه في إظهار الغيبة أو النميمة أو التشهير في قالب النصيحة والتحذير من الأخطاء والغيرة على دين الله وتعظيم حرمات الله عز وجل ؛ إن هذا هو الخطير في الأمر ؛ إذ لو أن الواقع في الغيبة أو النميمة أقر بذنبه واعترف بتقصيره واستغفر لذنبه لكان الأمر أهون، أما أن يكابر ويلبس على نفسه وعلى الناس بأن قصده النصيحة للأمة وتحذيرها من الأخطاء وهو يعلم من نفسه غير ذلك من التشفي أو الحسد، أو التهوين من شأن من وقع منه الخطأ وتنفير الناس عنه؛ فكل ذلك من المغالطة وتلبيس الشيطان وتزيينه .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والفرق بين النصيحة والغيبة، أن النصيحة يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع أو فتّان أو غاش أو مفسد، فتذكر ما فيه إذا استشارك في

---

(١) أخرجه أبو داود بنحوه - كتاب الأدب ٤٠، باب : في الغيبة (ح٤٨٨٠) (٥/ ١٩٤) ، وأحمد في المسند واللفظ له : (٤/ ٤٢٠)، وقال الألباني : حسن صحيح [صحيح أبي داود (٤٠٨٣) (٣/ ٩٢٣)].

صحبته ومعاملته والتعلق به ، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس وقد استشارته في نكاح معاوية وأبي جهم ، فقال : «**أما معاوية فصعلوك** ، **وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**»[١] ، وقال لبعض أصحابه لمن سافر معه : إذا هبطت عن بلد قومه فاحذره .

فإذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين فهي قربة إلى الله من جملة الحسنات ، وإذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتفكه بلحمه والغض منه لتضع منزلته من قلوب الناس فهي الداء العضال ونار الحسنات التي تأكلها كما تأكل النار الحطب »[٢] .

وقال أيضاً :

« والفرق بين النصيحة والتأنيب ، أن النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعليه ؛ فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة ، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه ، فيتلطف في بذلها غاية التلطف ، ويحتمل أذى المنصوح ولائمته ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق للمريض المشبع مرضاً ، وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته ، ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن ، فهذا شأن الناصح .

وأما المؤنب فهو رجل قصده التعيير والإهانة وذم من أنبه وشتمه في

---

(١) أخرجه مسلم ـ كتاب الطلاق (٦) باب : المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها (١٤٨٠) : (٢/ ١١١٤)، ومالك في الموطأ ـ كتاب الطلاق (٢٣) ، باب : ما جاء في نفقة المطلقة (٦٧) (٢/ ٥٨٠).

(٢) الروح (٢٤٠).

صورة النصح ، فهو يقول له : يا فاعل كذا وكذا ، يا مستحقاً الذم والإهانة ، في صورة ناصح مشفق ، وعلامة هذا أنه لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شر منه لم يعرض له ولم يقل له شيئاً ، ويطلب له وجوه المعاذير ؛ فإن غلب قال : ومن ضمنت له العصمة ، والإنسان عرضة للخطأ ، ومحاسنه أكثر من مساوئه ، والله غفور رحيم ، ونحو ذلك .

فيا عجباً ! كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه ، وكيف كان حظ ذلك منك التأنيب في صورة النصح ، وحظ هذا منك رجاء العفو والمغفرة وطلب وجوه المعاذير .

ومن الفروق بين الناصح والمؤنب ، أن الناصح لا يعاديك إذا لم تقبل نصيحته ، ويقول : قد وقع أجري على الله قبلت أو لم تقبل ، ويدعو لك بظهر الغيب ، ولا يذيع عيوبك ولا يبينها في الناس ، والمؤنب ضد ذلك »[1] اهـ .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« ومنهم من يخرج الغيبة في قوالب شتى ؛ تارة في قالب ديانة وصلاح ؛ فيقول : ليس لي عادة أن أذكر أحداً إلا بخير ، ولا أحب الغيبة ولا الكذب ، وإنما أخبركم بأحواله ، ويقول : والله إنه مسكين ، أو رجل جيد ، ولكن فيه كيت وكيت ، وربما يقول : دعونا منه ، الله يغفر لنا وله ، وإنما قصده استنقاصه وهضم لجنابه .

ويخرجون الغيبة في قوالب صلاح وديانة ؛ يخادعون الله بذلك كما

---

(١) الروح (٢٥٨).

يخادعون مخلوقاً ، وقد رأينا فيهم ألواناً كثيرة من هذا وأشباهه . . . إلى أن قال : وربما يذكره عند أعدائه ليتشفوا به ، وهذا وغيره من أعظم أمراض القلوب والمخادعات لله ولخلقه ، ومنهم من يظهر الغيبة في قالب غضب وإنكار منكر ؛ فيظهر في هذا الباب أشياء من زخارف القول، وقصده غير ما أظهر . والله المستعان »[1] اهـ.

ويتحدث ابن القيم رحمه الله تعالى عن الفرق بين من كان غضبه لله عز وجل في تعظيمه لحرمات الله ، وبين من يريد تعظيم نفسه ونفاذ كلمته فيقول :

« وكذلك القوة في أمر الله هي من تعظيمه وتعظيم أوامره وحقوقه حتى يقيمها الله ، والعلو في الأرض هو من تعظيم نفسه ، وطلب تفردها بالرياسة ونفاذ الكلمة سواء عز أمر الله أو هان ، بل إذا عارضه أمر الله وحقوقه ومرضاته في طلب علوه لم يلتفت إلى ذلك وأهدره وأماته في تحصيل علوه.

وكذلك الحمية لله والحمية للنفس؛ فالأولى يثيرها تعظيم الأمر والآمر، والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها ؛ فالحمية لله أن يحمي قلبه له من تعظيم حقوقه ، وهي حال عبد قد أشرق على قلبه نور سلطان الله، فامتلأ قلبه بذلك النور؛ فإذا غضب فإنما يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذي ألقي على قلبه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا غضب احمرت وجنتاه ، وبدا بين عينيه عرق يدره الغضب ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله .

وروى زيد بن أسلم عن أبيه أن موسى بن عمران صلى الله عليه وآله

---

(١) الفتاوى (٢٨/ ٢٣٧).

وسلم كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته ناراً[١] ؛ هذا بخلاف الحمية للنفس ؛ فإنها حرارة تهيج من نفسه لفوات حظها أو طلبه ؛ فإن الفتنة في النفس والفتنة هي الحريق والنفس متلظية بنار الشهوة والغضب ؛ فإنما هما حرارتان تظهران على الأركان : حرارة من قبل النفس المطمئنة ، أثارها تعظيم حق الله ، وحرارة من قبل النفس الأمارة أثارها استشعار فوت الحظ»[٢] اهـ .

وبعد هذه النقولات القيمة لهذين الإمامين الجليلين والتي تنطق بما فيها ؛ لم يبق عذر لمعتذر ، ولا مدخل لملبس ومغالط في إظهار حقده وتشفيه وحميته لنفسه في قالب النصح والديانة .

وكل إنسان أدرى بنفسه وقصده ، ولكن يبقى هناك بعض القرائن التي تكشف هذا اللبس والخداع في نفس المدعي للنصح والديانة منها :

١ ـ التشهير والتعيير بالمنصوح ؛ خاصة إذا كانَ من المصلحين وأهل العلم .

٢ ـ الظلم والتعدي وعدم الإنصاف مع المنصوح ، وبخسه حقه وإخفاء خيره وحسناته .

٣ ـ عدم التثبت والأخذ بالشائعات وتصيد الأخطاء والفرح بها .

٤ ـ تغليب سوء الظن وتفسير المقاصد بدون دليل وبرهان .

٥ ـ أن يكون قد عرف عنه الكذب وقلة الورع .

٦ ـ المداهنة للظالمين والركون إليهم .

(١) هذه الرواية لا يُدرى عمن أخذها أسلم ، وأظنها عن أهل الكتاب ، والله أعلم بصحتها .
(٢) الروح (٢٣٤).

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠] .

٨ـ التلبيس على الناس برفع لافتات إسلامية تخفي وراءها الكيد للدين وأهله :

إن من أخطر ما يهدد الأمة في عقيدتها وأخلاقها أن تعيش في جو من اللبس والتضليل والخداع، فلا ترى الحق بصورته المضيئة ، ولا الباطل بصورته القاتمة المظلمة ، بل قد يصل بها المكر والخداع إلى أن ترى غالبيتها الحق باطلاً والباطل حقاً، ويلتبس سبيل المجرمين بسبيل المؤمنين .

ومن أعظم الالتباس بين السبيلين أن يقوم المجرمون من أعداء المسلمين ـ سواء من الكفار الصرحاء ، أو المنافقين الدخلاء ـ برفع لافتات ظاهرها الإسلام ، ومحبة الدين والدعوة إليه ، وباطنها الكيد والمكر والخداع ، ويحصل من جراء ذلك أن ينخدع كثير من المسلمين بهذه اللافتات فينشغلون بها، ويثنون على أهلها بدلاً من فضحها وكشف عوارها وتعرية باطلها .

وعن خطورة التباس سبيل المجرمين بسبيل المؤمنين ؛ يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما ، كما قال عمر بن الخطاب : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية .

وهذا من كمال علم عمر رضي الله عنه ؛ فإنه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها ـ وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول ﷺ فإنه من الجاهلية ؛ فإنها

منسوبة إلى الجهل . وكل ما خالف الرسول فهو من الجهل ـ فمن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبن له أوشك أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين، كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد والعلم والعمل ؛ هي من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل ، أدخلها من لم يعرف أنها من سبيلهم في سبيل المؤمنين ودعا إليها وكفر من خالفها واستحل منه ما حرمه الله ورسوله »[1] اهـ.

وقد قص الله سبحانه علينا في كتابه الكريم قصة نفر من المنافقين أرادوا خداع الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين برفع لافتة إسلامية على صرح من صروح النفاق ، لكن الله عز وجل فضحهم وفضح لافتتهم ، وعرَّى باطلهم؛ ليكونوا عبرة للمسلمين في وقتهم ، وعبر التاريخ الطويل لمن يأتي بعدهم ممن يرفع لافتة إسلامية يخفي وراءها خبثه ومكره ليكيد بها للإسلام والمسلمين في أي زمان ومكان .

وهذه القصة ذكرها الله سبحانه في سورة التوبة بما يعرف بمسجد الضرار؛ حيث أنزل فيها قرآناً يتلى إلى قيام الساعة، قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي

(١) الفوائد (١٠٩).

بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٧ - ١١٠].

ولإيضاح هذه الصورة يحسن ذكر قصة هذا المسجد كما ذكرها أهل السير، قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى :

« ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذي أوان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله ، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، فقال : « **إني على جناح سفر** ، أوحال **شغل** - أو كما قال ﷺ - **ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم ، فصلينا لكم فيه** » .

فلما نزل بذي أوان ، أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ، أخا بني سالم بن عوف ، ومعن بن عدي ، أو أخاه عاصم بن عدي ، أخا بني العجلان ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه ، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : انظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، فدخل إلى أهله فأخذ سعفاً من النخل ، فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل : ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ... الآيات** ﴾ التوبة : ١٠٧ - ١١٠] »[١] اهـ.

---

(١) السيرة النبوية (٢/ ٥٣٠).

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على ما نزل في خبر هذا المسجد من الآيات ، فيقول :

« هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين ، تتخذ في صورة نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام ، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه ! وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتتترس وراءها وهي ترمي هذا الدين ، وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق ، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق! . . . وتتخذ في صور شتى كثيرة ، ومن أجل مساجد الضرار الكثيرة هذه ، يتحتم كشفها وإنزال اللافتات الخادعة عنها وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها . ولنا أسوة في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله ﷺ بذلك البيان القوي الصريح . . . ـ وذكر الآيات السابقة من سورة التوبة ـ ثم قال :

والتعبير القرآني الفريد يرسم هنا صورة حافلة بالحركة ، تنبئ عن مصير كل مسجد ضرار يقام إلى جوار مسجد التقوى ، ويراد به ما أريد بمسجد الضرار ؛ وكشف عن نهاية كل محاولة خادعة تخفي وراءها نية خبيثة ، وتطمئن العاملين المتطهرين من كل كيد يراد بهم ، مهما لبس أصحابه مسوح المصلحين »[١] .

مما سبق من ذكر القصة والتعليق عليها يتبين لنا أهمية الوعي لمكر الأعداء ولافتاتهم البراقة الخادعة ، وأنه يجب على المسلم أن يكون على

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٧١١) . (باختصار) .

مستوى من الفطنة والحذر لألاعيب المجرمين وخدعهم، وألا تغلب عليه السذاجة والغفلة فينخدع مع المنخدعين ، وبالتالي فإنه قد يساهم بشكل أو بآخر في التضليل والتلبيس شاء أم أبى .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والكمال أن يكون القلب عارفاً بتفاصيل الشر، سليماً من إرادته . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لست بخب ولا يخدعني الخبّ . وكان عمر أعقل من أن يُخدع ، وأورع من أن يَخْدع »[1] اهـ.

والخب هو اللئيم المخادع ، وعمر رضي الله عنه لم يكن لئيماً ، ولكنه كان خبيراً بأخلاق اللئام .

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى :

« إن هذا الدين يغلب دائماً عندما يصل الوعي بحقيقته وحقيقة الجاهلية إلى درجة معينة في نفوس العصبة المؤمنة في أي زمان وفي أي مكان . والخطر الحقيقي على هذا الدين ليس كامناً في أن يكون له أعداء أقوياء وأعوان مدربون ، بقدر ما يمكن أن يكون له أصدقاء سذج مخدوعون ، يتحرجون في غير تحرج ، ويقبلون أن يتترس أعداؤهم بلافتة خادعة من الإسلام ، بينما هم يرمون الإسلام من وراء هذه اللافتة الخادعة .

إن الواجب الأول للدعاة إلى هذا الدين في الأرض ، أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية ، والتي تحمي هذه الأوضاع لسحق جذور هذا الدين في الأرض جميعاً .

وإن نقطة البدء في أية حركة إسلامية هي تعرية الجاهلية من ردائها الزائف، وإظهارها على حقيقتها شركاً وكفراً . . ووصف الناس بالوصف الذي يمثل واقعهم كيما تواجههم الحركة الإسلامية بالطلاقة الكاملة ، بل كيما ينتبه هؤلاء الناس أنفسهم إلى حقيقة ما انتهى إليه حالهم ، عسى أن يوقظهم هذا التنبيه إلى تغيير ما بأنفسهم ؛ ليغير الله ما بهم ، من الشقوة والنكد والعذاب الأليم الذي هم فيه مبلسون .

وكل تحرُّج في غير موضعه، وكل انخداع بالأشكال والظواهر واللافتات؛ هو تعويق لنقطة الانطلاق الأولى لأيّة حركة إسلامية في الأرض جميعاً . وهو تمكين لأعداء هذا الدين من مكرهم الذي أرادوه بالحرص على إقامة تلك اللافتات» اهـ[1] .

واللافتات المرفوعة اليوم كثيرة وماكرة ، أقتصر على بعض الأمثلة :

منها : ما يرفعه الذين بدلوا شرع الله عز وجل ورفضوا التحاكم إليه في بلادهم من لافتات يخدعون بها شعوبهم المسلمة، كأن يعلنوا الاحتفال بمولد الرسول ﷺ أوبالهجرة أو بالإسراء والمعراج ، وهم في حقيقة الأمر أعداء الرسول ﷺ ، وأعداء الهجرة، وأعداء الإسراء والمعراج . ومع ذلك يوجد من مغفلي الأمة من المسلمين من ينخدع بلافتاتهم التي يرفعونها باسم الدين ويثني عليهم بذلك .

ومن ذلك إقامة الذكرى السنوية لإحراق المسجد الأقصى المبارك ، فنرى هؤلاء المجرمين الخائنين لله سبحانه ورسوله ﷺ يخدعون المسلمين

بإحياء ذكرى حرق المسجد الأقصى كأنهم يهتمون بالإسلام وبالمسلمين ومقدساتهم وهم قد خانوا الله سبحانه من قبل بتنحية شريعته واستحلال محرماته ، وخانوا أمتهم وأوطانهم بعد ذلك بالتذلل والخنوع لليهود والنصارى .

ولقد أعجبني جملة قالها الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله تعالى في شريط مسجل حول هذا المعنى ؛ إذ يقول :

« إن إحراق المسجد الأقصى بل إحراق مساجد الدنيا كلها ليس أعظم جرماً من الاعتداء على شرع الله وحكمه وسلطانه في الأرض من قبل الأنظمة التي تتباكى على الأقصى وإحراقه » .

ومن اللافتات التي يخدعون بها الناس : إقامة المؤتمرات الإسلامية والمحافل الإسلامية والتي تأتي هذه الأنظمة المتنكرة لشرع الله عز وجل لترعاها وتدعو الناس إليها ، كل هذا من الخداع والتضليل الذي نربأ بالمسلمين - فضلاً عن الدعاة والمصلحين - أن ينطلي عليهم ، بل يجب التفطن إليه والسعي لكشفه وتعريته ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

* * *

المبحث الخامس
الأسباب الواقية من لبس الحق بالباطل

بعد أن تبين لنا خطورة لبس الحق بالباطل من خلال الصور السابقة في المبحث الماضي ، والتي هي على سبيل المثال لا الحصر ، وبعد ظهور ما ينتج عنها من الضلال والانحراف الذي يورث العواقب الوخيمة في الدنيا والآخرة ، بعد هذا البيان يحق لنا بل يجب علينا أن نسأل : كيف النجاة من هذا الخطر ، وما هي الأسباب الواقية من ذلك ؟

وللإجابة على ذلك نرجع إلى المبحث الثالث ؛ حيث ذكرت هناك أسباب التباس الحق بالباطل ، فمنها ينطلق العلاج ؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها غالباً ، والله أعلم .

وقد مر بنا في مبحث أسباب الالتباس أن الأسباب لا تخرج عن ثلاثة أمور :

١ ـ شبهة تسببت في أخذ الباطل على أنه الحق . وأصل هذه الشبهة هو الجهل .

٢ ـ شهوة تسببت في أخذ الباطل وترك الحق عن ضعف وشهوة، مع اعتراف بالخطأ .

٣ ـ شهوة وشبهة نتج عنهما أخذ الباطل وإظهاره في صورة حق عن هوى ومغالطة ، استناداً على شبهة يعلم صاحبها أنها لا تصلح للاستدلال .

وبعد هذه المقدمة التي لابد منها بين يدي الأسباب الواقية من اللبس والتلبيس، يمكن تفصيل هذه الأسباب فيما يلي :

١ـ علم وبصيرة بدين الله عز وجل وشرعه :

وعلم وبصيرة بما يضاد دين الله عز وجل وشرعه ؛ فإذا تحقق هذان الأمران ؛ فإن الاستبانة لسبيل المؤمنين وسبيل المجرمين قد تحققت ، وبهذا فلا مجال للشبهة هنا أبداً لانتفاء الجهل الذي منه تثور الشبهات المؤدية إلى اللبس والتلبيس .

وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« ففتنة الشبهات تُدفع باليقين، وفتنة الشهوات تُدفع بالصبر ، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين ، فقال : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٤] .

فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين .

وجمع بينهما أيضاً في قوله : ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [العصر: ٣] ، فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات ، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات ، وجمع بينهما في قوله : ﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ** ﴾ [ص: ٤٥] .

فالأيدي : القُوى والعزائم في ذات الله ، والأبصار : البصائر في أمر الله، وعباراتُ السلف تدور على ذلك .

قال ابن عباس: « أولي القوة في طاعة الله ، والمعرفة بالله » .

وقال الكلبي : « أولي القوة في العبادة ، والبصر فيها » .

وقال مجاهد : « الأيدي : القوة في طاعة الله ، والأبصار : البصر في الحق ».

وقال سعيد بن جُبير : « الأيدي : القوة في العمل ، والأبصار : بصرهم بما هم فيه من دينهم » .

وقد جاء في حديث مرسل : « **إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات**»[١] .

فبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة ، والله المستعان»[٢] اهـ.

ويقول أيضاً : « ولا ينجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول ، وتحكيمه في دق الدين وجله ، ظاهره وباطنه ، عقائده وأعماله ، حقائقه وشرائعه ، فيتلقى عنه حقائق الإيمان ، وشرائع الإسلام ، وما يُثْبته لله من الصفات والأفعال والأسماء وما ينفيه عنه ، كما يتلقى عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها، ومقادير نصب الزكاة ومستحقيها، ووجوب الوضوء والغسل»[٣] اهـ .

ويقول رحمه الله تعالى :

« والمقصود أن أرباب البصائر هم أصحاب الفرقان ، فأعظم الناس فرقاناً بين المشتبهات أعظم الناس بصيرة، والتشابه يقع في الأقوال والأعمال

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ، وفيه حفص بن عمر العدني ، ضعفه الجمهور ، وانظر تخريج أحاديث الإحياء (٣٨٥٨) (٦/ ٢٤٣٨).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٧).

(٣) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٥).

والأحوال والأموال والرجال . وإنما أتي أكثر أهل العلم من المتشابهات في ذلك كله، ولا يحصل الفرقان إلا بنور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده يرى في ضوئه حقائق الأمور ويميز بين حقها وباطلها وصحيحها وسقيمها ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]»[1] .

وقد مر قول عمر رضي الله عنه : « سوف تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا ولد في الإسلام من لم يعرف الجاهلية » .

٢ـ الصبر وتقوى الله عز وجل :

فبالصبر وتقوى الله سبحانه تدفع الشهوة وينتصر الإنسان على هواه ؛ لأنه قد يحصل للإنسان العلم بدين الله عز وجل ويتبين له الحق من الباطل، ولكن إذا لم يكن لديه الصبر عن شهوات النفس والتقوى التي تحجزه عن مخالفة الصواب فإنه يضعف ويقع في المخالفة مع علمه بذلك .

أما إذا اجتمع العلم والبصيرة مع التقوى والديانة فإنه إذا بان الحق ولاح لم يكن أمام من هذه صفته إلا الإذعان والتسليم والانقياد ، وذلك لانتفاء الشبهة والشهوة في حقه ، وإلى هذا أشار ابن القيم رحمه الله تعالى في النقل السابق بقوله : « إن فتنة الشبهات تدفع باليقين ، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر» اهـ .

ولكن إذا ضعف الصبر والتقوى، ووجدت الغفلة عن الآخرة والوقوف بين يدي الله عز وجل، وصاحب ذلك شيطان يزين ودنيا تتعرض بفتنتها؛ فالغالب عدم السلامة ، ولكن المخالف للحق هنا إما أن يكون لديه بقية من

---

(١) الروح (٢٦٠).

تقوى وخوف من الله عز وجل فيعترف بذنبه ويستغفر منه ، ويتوب أو يكون ـ عياذاً بالله ـ قد رقّ دينه وسيطر عليه هواه ، فأخذ يلتمس مبرراً لباطله ، ويبحث هنا وهناك عن شبهة يظهر بها باطله ومخالفته في قالب الحق والموافقة لدين الله ؛ وهذا هو الخداع والتلبيس ، ولا علاج له إلا تقوى الله سبحانه ، واليقين بالرجوع إليه تعالى في يوم عصيب : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ [الحج : ٢] ، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٤ - ٣٧] .

نعم إنه لا يمنع من الوقوع في الباطل بعد العلم والبصيرة ، ولا يمنع من تلبيسه على الناس إلا الإيمان باليوم الآخر إيماناً جازماً ويقيناً صادقاً ، وإن لم يتذكر العبد هذا اليوم ويحسب له حسابه فلن يفيده في ذلك العلم الذي اكتسبه ولم يعمل به .

فكم من عالم بالحق تنكب عنه وخالفه ، أما إذا انضم إلى العلم والبصيرة الصبر والتقوى والخوف من الحساب يوم القيامة ، فإن الشهوة ستنقمع والهوى سيُغلب ، وعندها يزول اللبس والتلبيس والخداع والمغالطة في دين الله عز وجل .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في معرض رده على المحتالين على شرع الله بالحيل الباطلة :

« فحقيق بمن اتقى الله وخاف نكاله أن يحذر استحلال محارم الله بأنواع المكر والاحتيال ، وأن يعلم أنه لا يخلصه من الله ما أظهره مكراً وخديعة من

الأقوال والأفعال ، وأن يعلم أن لله يوماً تكع[1] فيه الرجال ، وتنسف فيه الجبال ، وتترادف فيه الأهوال ، وتشهد فيه الجوارح والأوصال ، وتبلى فيه السرائر، وتظهر فيه الضمائر ، ويصير الباطن فيه ظاهراً ، والسر علانية ، والمستور مكشوفاً ،والمجهول معروفاً ، ويحصل ويبدو ما في الصدور ، كما يبعثر ويخرج ما في القبور ، وتجري أحكام الرب تعالى هنالك على القصود والنيات ، كما جرت أحكامه في هذه الدار على ظواهر الأقوال والحركات ، يوم تبيض وجوه بما في قلوب أصحابها من النصيحة لله ورسوله وكتابه وما فيها من البر والصدق والإخلاص للكبير المتعال ، وتسود وجوه بما في قلوب أصحابها من الخديعة والغش والكذب والمكر والاحتيال ، هنالك يعلم المخادعون أنهم لأنفسهم كانوا يخدعون، وبدينهم كانوا يلعبون ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٣][2] ا . هـ.

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى في ظلال قوله تعالى : ﴿ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩] :

« نعم ؛ إنها الدار الآخرة ، إن وزنها في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجح الكفة ، وهو وحده الذي يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا ، نعم إنها هي التي لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها ، ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها . . وإلا فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة الملحة في حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه

---

(١) تكع : أي تضعف وتجبن .

(٢) أعلام الموقعين (٣/ ٢١٤ ، ٢١٥).

الأرض ؟ وما الذي يحجزها عن الطمع ويكفها عن البغي ؟ وما الذي يهدئ فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع؟ وما الذي يطمئنها في صراع الحياة الدنيا على النصيب الذي لا يضيع بفوات الحياة الدنيا ؟ وما الذي يثبتها في المعركة بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وأعراض الأرض تفر من بين يديها وتنأى ؟ والشر يتبجح والباطل يطغى؟

لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى ، إلا اليقين في الآخرة ، وأنها خير للذين يتقون ، ويعفون ويترفعون ، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن ، ويمضون في الطريق لا يتلفتون ، مطمئنين واثقين ، ملء قلوبهم اليقين»[1] اهـ .

وبعد ذكر السببين الرئيسين للوقاية من اللبس والتلبيس ، وهما البصيرة في الدين التي تدفع بها الشبهة ، والصبر والتقوى اللذان تدفع بهما الشهوة نذكر فيما يلي بعض الأسباب المساعدة لتثبيت السببين السابقين ، وهي مندرجة في كلمة (التقوى) ، ولكن لا بأس بالنص عليها للتنبيه على أهميتها والتذكير بها .

٣- محاسبة النفس ومجاهدتها وتحصينها بالذكر والدعاء والعمل الصالح :

حيث لابد للمسلم من محاسبة دائمة للنفس ، ومجاهدة لها لتطويعها لشرع الله عز وجل ، والحذر من مصائد الشيطان الذي لا يفتأ يوسوس

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٣٨٧).

ويزين لها الباطل ، فإن لم يتفقّد كل منا نفسه ويتعاهدها ويسد على الشيطان مداخله المتعددة ؛ فإن النفس تكون على حافة خطر في أن تنساق مع شهواتها وهواها ؛ فيحصل من جزاء ذلك اللبس والتلبيس ، والتضليل والمغالطة إما بعلم أو بجهل .

وإن مما يؤكد أهمية المحاسبة الدائمة واليقظة الشديدة للنفس ومساربها المتشعبة ؛ ما يحصل للكثير منا في يومه أو أسبوعه أو شهره من المغالطات والمعاذير الكاذبة والتبريرات الغامضة ـ سواء مع النفس أو مع الناس ـ ولكنها تكثر وتقل حسب التقوى وقوتها أو ضعفها في القلب . مع أنه يوجد من الدعاة والمصلحين نماذج فريدة في إخلاصها وصدقها وبعدها عن المداهنة والمغالطة والتلبيس ، نسأل الله لهم الثبات ، ونسأله سبحانه لنا جميعاً صدق المقصد في الأقوال والأعمال .

والآن نعرض لنموذج فريد من محاسبة النفس ، يقول ابن الجوزي رحمه الله :

« ما رأيت أعظم فتنة من مقاربة الفتنة ، وقلّ أن يقاربها إلا من يقع فيها ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . قال بعض المعتبرين : قدرت مرة على لذة ظاهرها التحريم وتحتمل الإباحة ، إذ الأمر فيها مردد ، فجاهدت النفس ، فقالت : أنت ما تقدر فلهذا تترك ، فقارب المقدور عليه ، فإذا تمكنت فتركت كنت تاركاً حقيقة . ففعلت وتركت ، ثم عاودت مرة أخرى في تأويل أرتني فيه الجواز ، وإن كان الأمر يحتمل ، فلما وافقتها أثّر ذلك ظلمة في قلبي لخوف أن يكون محرماً . فرأيت أنها تارة تقوى عليّ بالترخيص والتأويل ، وتارة أقوى عليها بالمجاهدة والامتناع ، فإذا ترخصت لم آمن أن

يكون ذلك الأمر محظوراً ، ثم أرى عاجلاً تأثير ذلك الفعل في القلب .

فلما لم آمن عليها بالتأويل تفكرت في قطع طمعها من ذلك الأمر المؤثر فلم أر ذلك إلا بأن قلت لها : قدّري أن هذا الأمر مباح قطعاً ، فو الله الذي لا إله إلا هو لا عدت إليه . فانقطع طمعها باليمين والمعاهدة ، وهذا أبلغ دواء وجدته في امتناعها ؛ لأن تأويلها لا يبلغ إلى أن تأمر بالحنث والتكفير ، فأجود الأشياء قطع أسباب الفتن وترك الترخص فيما يجوز إذا كان حاملاً ومؤدياً إلى ما لا يجوز ، والله الموفق »[١] .

ولقد بلغ من خطر النفس والحذر من شرها أن كان النبي ﷺ قلما يخطب خطبة إلا واستعاذ بالله من شرها، وذلك فيما يعرف بخطبة الحاجة ، والتي في مطلعها : « **إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا**»[٢] .

ولذلك ينبغي الإكثار من الأدعية التي يستعاذ فيها من شر النفس من مثل قوله ﷺ : « **اللَّهم قني شر نفسي واعزم لي على أرشد أمري**»[٣] ، وقوله ﷺ : « **أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه** »[٤] وغير

---

(١) صيد الخاطر : ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٢) أخرجه الترمذي ـ كتاب النكاح (١٦) ، باب : خطبة النكاح (١١٠٥) (٤/ ٦١) ، وأبوداود كتاب النكاح (٣٣) باب : في خطبة النكاح (٢١١٨) (٢/ ٥٩١) ، وأخرجه أيضاً غيرهما ، وصححه الألباني [صحيح الترمذي (١/ ٣٢٠، ٣٢١)] وهو جزء من خطبة الحاجة .

(٣) أحمد في المسند (٤/ ٤٤٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥١٠) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٤) أحمد في المسند (٢/ ٢٩٧) ، والترمذي ـ كتاب الدعوات (١٤) باب : ما يقال في الصباح والمساء (٣٣٨٩) (٩/ ١٠٤) ، وأبو داود ـ كتاب الأدب (١١٠) باب : ما يقول إذا أصبح (٥٠٦٧)(٥/ ٣١٠، ٣١١) ، وصححه أحمد شاكر [التعليق على المسند (٧٩٤٨) (١٥/ ١١٠)] ، وصححه أيضاً الألباني [صحيح الترمذي (٢٧٠١)(٣/ ٢٤٢)] .

ذلك من الأدعيـة التي تحذر من النفس وشرها وشهـواتها ومساربها التي يدخل منها الشيطان إليها .

ولما كـان الشيطان يجـري من ابن آدم مـجـرى الدم ، وهو الـذي يزين للنفس شهواتها وشرورها جاء الحث على الاستعاذة من شره وشر وساوسه؛ كما جاء في سورة الناس : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [الناس: ١ - ٦]، وقوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ⑨⑦ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

وأمثال هذه الأدعيـة التي يستعاذ بها من شر النفس والشيطان كثيـرة في الكتـاب والسنة ، وهي من أقـوى الأسباب الواقـية من الانحـراف واللبس والتلبيس .

ومن الأسباب القوية التي يتحصن بها من الشيطان ووساوسه ذكر الله عز وجل في أحوال اليوم والليلة؛ فكلما كان اللسان رطباً بذكر الله تعالى والقلب يواطئه في ذلك، كان الشيطان بعيداً ولا يستطيع اقتحام الحصن ؛ لأن ذكر الله سبحانه يحرقه ويمنعه من الدخول ، ولكن ما إن يغفل العبد عن ذكر الله تعالى حتى يكر مرة أخرى للوسوسة؛ فهذا دأب الشيطان: في كر وفر على القلب ، فكلما ذكر العبد ربه خنس ، وإذا غفل وسوس .

ومن الأسباب الواقية من التباس الحق بالباطل مجاهدة النفس في عمل الصالحات ، والإكثار منها من غير إفراط ولا تفريط كما جاء في الحديث القدسي والذي منه : « وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته

عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . . . الحديث »[1] ، فمن كان يسمع ويبصر ويمشي ويبطش بنور الله وهداه ؛ فإنه لن يخطئ الحق أبداً .

قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت : ٦٩]، وبالضد من ذلك فإن كثرة الذنوب من أسباب الضلال والزيغ ؛ قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ [الصف : ٥] .

وأخيراً، فإن دعاء الله عز وجل واللجوء إليه سبحانه وسؤاله الهداية للحق والعمل به من أقوى الأسباب الواقية من اللبس والضلال ، كما جاء في استفتاح صلاة الليل : « **اللَّهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم** »[2] .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« وشهدتُ شيخ الإسلام قدس الله روحه إذا أعيته المسائل واستعصت عليه فر منها إلى التوبة والاستغفار والاستغاثة بالله واللجأ إليه ، واستنزال الصواب من عنده ، والاستفتاح من خزائن رحمته ؛ فقلما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مداً، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ .

---

(١) أخرجه البخاري - كتاب الرقاق (٣٨) ، باب : التواضع (٦٥٠٢) [فتح(١١/ ٣٤٨)] .

(٢) أخرجه مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصدها (٢٦) باب : الدعاء في صلاة الليل . . . (٧٧٠) (١/ ٥٣٤).

ولا ريب أن من وفق لهذا الافتقار علماً وحالاً وسار قلبه في ميادينه بحقيقة وقصد فقد أعطي حظه من التوفيق ، ومن حرمه فقد منع الطريق والرفيق ؛ فمتى أعين مع هذا الافتقار ببذل الجهد في درك الحق ، فقد سلك به الصراط المستقيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[1] .

٤ـ مصاحبة أهل العلم والورع :

ومما لا شك فيه ولا جدال أن الجليس يتأثر بجليسه وصاحبه ، سواءً في الخير أو الشر ؛ وذلك عن طريق المؤانسة والمشابهة والقدوة ، وعليه ؛ فإن من الأسباب المانعة من الانحراف ولبس الحق بالباطل ؛ الجلوس مع أهل العلم والتقوى ، ومصاحبتهم ، ومشاورتهم ؛ لأنه بالعلم الذي عندهم تحترق الشبهات ، وبالتقوى والورع لدينهم تحترق الشهوات ، وبذلك يُسد على الشيطان البابان الرئيسان اللذان يدخل منهما ليلبس على النفس ويزين لها التلبيس .

والعكس بالعكس؛ فما إن يصاحب المرء أهل الجهل والجدال ممن لم يؤتوا حظاً من التقوى والورع إلا ويتأثر بهم وينطبع بأخلاقهم وتشتبه عليه الأمور لضعف العلم والبصيرة ، أو يتعمد ترك الحق وتعميته على الناس لضعف التقوى وعدم الصبر على الشهوات .

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : « لولا ثلاث لما أحببت البقاء : لولا أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله ، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام ، كما ينتقى أطايب الثمر » ، وقال أيضاً : « اقتربوا من أفواه المطيعين واستمعوا منهم ما يقولون ، فإنهم تجلى لهم أمور صادقة » .

---

(١) أعلام الموقعين (١٧٨/٤) .

ولعل مما يدخل في هذا السبب الإكثار من قراءة أخبار أهل العلم والتقوى والجهاد من أنبياء الله الكرام وصحبهم الأجلاء ، والتابعين لهم بإحسان ؛ ففيهم الأسوة والقدوة والخير كله .

٥ـ الحذر من الدنيا وعدم الركون إليها :

إن من أعظم أسباب الانحراف عن الحق والوقوع في الشبهات والمخالفات هذه الدنيا الخسيسة الغرارة ؛ فكلما انفتحت على العبد كثرت شبهاتها وانساق مع شهواتها المختلفة ، وعندما يرد ذكر الدنيا ؛ فإنه يُقصد بها كل ما أشغل عن الآخرة ، من متعها المختلفة، والتي أجملها الله عز وجل في قوله سبحانه : ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] .

والانغماس في الدنيا وترفها وملذاتها تنتج عنه الغفلة عن الآخرة ، وتشتت الذهن والقلب ، وإعمال الفكر في الاستزادة منها والخوف على فواتها ؛ وهذا يؤدي إلى قسوة القلب ورقة الدين.

ومن هنا تبدأ النفس في الاستجابة لتزيين الشيطان وتثور الشبهات والشهوات في القلب ، فينشأ منهما الكذب والتدليس والتلبيس والطمع والجشع، وخاصة في مثل عصرنا الذي نعيش فيه ، والذي كثرت فيه المعاملات المحرمة والشبهات ، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم .

ولذا كان من الأولى بمن أراد لنفسه السلامة من الدنيا وشبهاتها

وشهواتها أن يتخفف منها قدر الاستطاعة ، وأن يرضى منها بالقليل ؛ لأن هناك تناسباً طردياً ـ وخاصة في زماننا هذا ـ بين التكثر من أمور الدنيا وكثرة الوقوع في الشبهات والشهوات المؤدية إلى التدليس والتلبيس .

٦ ـ النصح للأمة والحذر من عاقبة التلبيس والتدليس عليها :

إن الشعور بواجب النصح للأمة يقتضي من المسلم وبخاصة الداعية إلى الله عز وجل أن يبين الحق لأمته ويعري الباطل ويكشفه لها ، ولا يجعله ملتبساً عليها فتضلّ ؛ لأن الذي يرى أمته تُضلَل ويلبَس عليها دينُها فتعيش في عماية من أمرها ، ثم يتركها وهو يعلم الحق من الباطل ؛ إن من هذا شأنه يعتبر خائناً لله ولرسوله وللمؤمنين ، والله عز وجل سائله يوم القيامة عن علمه فيم عمل به .

قال ﷺ : « **الدين النصيحة** . قيل : لمن يا رسول الله ؟ قال : **لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** »[1] .

وهذا فيمن رأى التضليل والتلبيس فلم يحذر منه ، ولم يكشفه للناس ، فكيف بمن باشر التلبيس والتضليل بنفسه عياذاً بالله ؟ إن هذا بلا شك أكثر خيانة من سابقه ، وإن وزر وضلال من ضلله بتلبيسه هذا سيحمله فوق ظهره يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزار من ضللهم شيء .

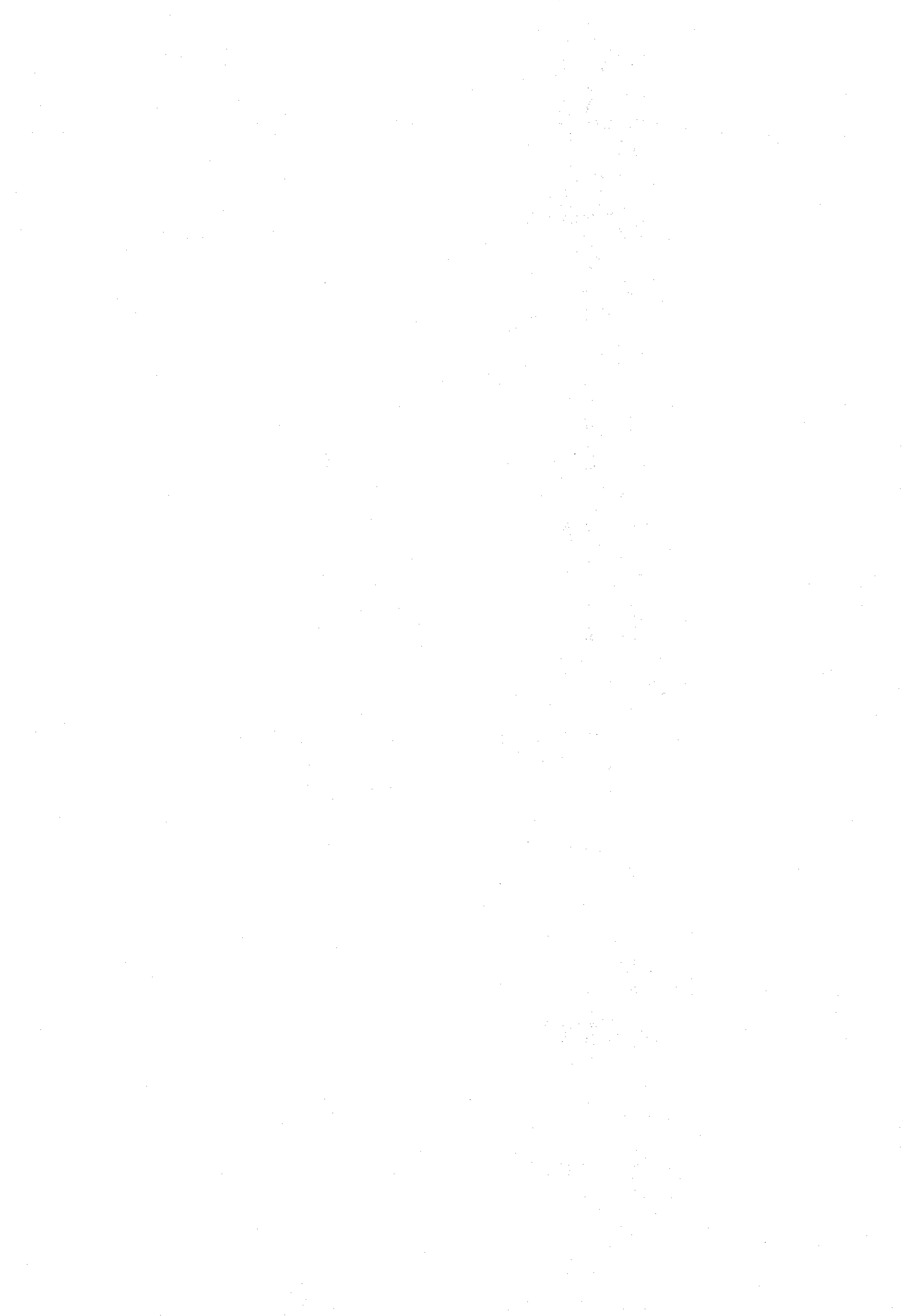
والحاصل أن شعور المسلم بإثم وعاقبة التلبيس أو السكوت عليه من أقوى الأسباب المانعة من الوقوع فيه ؛ إن كان في القلب بقية من حياة وخوف من الله سبحانه والدار الآخرة ؛ لأن من كانت في قلبه المحبة الحقيقية

---

(١) أخرجه مسلم ـ كتاب الإيمان (٢٣) ، باب : بيان أن الدين النصيحة (٥٥) (١/ ٧٤) .

لهذا الدين وأهله لا يمكن أن يرى التضليل والتلبيس من المفسدين المنافقين ، ثم يرضى لنفسه السكوت والوقوف موقف المتفرج ، بل لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال حتى يساهم قدر استطاعته في إبانة سبيل المؤمنين وإسقاط اللافتات الزائفة عن سبيل المجرمين وتعرية باطلهم وخداعهم ، كما مر بنا في الصورة الثامنة من صور التلبيس ، وعندها تعرف الأمة من توالي ومن تعادي ، وعندها تتميز الصفوف ، ويتميز المؤمن من المنافق ، وكل هذا يحتاج إلى تضحيات باهظة ، لكنها رخيصة في سبيل الله عز وجل ؛ لأن نصر الله عز وجل الموعود لا يتم بدونها .

* * *



وبعد

فهذا ما يسره الله عز وجل في هذه العجالة حول هذا الموضوع الهام الذي يمس المسلم في عقيدته وأخلاقه ومجتمعه ، ولا أزعم أني أحطت بجوانبه كلها ، ولكن حسبي إثارة هذا الموضوع والتذكير به ؛ لعل بعض علمائنا الكرام وإخواننا الدعاة يكملون ما نقص منه ، ويعدلون ما اعوجّ منه .

وما ذكرته من صور التلبيس ذكرته على سبيل المثال لا الحصر ؛ فالصور كثيرة كثيرة ، خاصة في زماننا هذا الذي قل فيه العلم والورع ، ونجم فيه الجهل والنفاق .

وفي خاتمة هذا البحث أوصي نفسي الأمارة بالسوء وأوصي إخواني المسلمين بأن يتفقد كل منا نفسه ، ويبحث عن هذا الداء الخطير فيها فإذا وجدنا شيئاً من ذلك فعلينا التوبة الصادقة منه ، ولنبادر بقطع جذوره قبل أن يستفحل ، ولا نسوف في ذلك أبداً ؛ لأن التسويف وطول الأمل من عمل الشيطان وتلبيسه ، وأرى بهذه المناسبة نقل كلام ابن الجوزي رحمه الله تعالى في ذكر تلبيس إبليس على جميع الناس بطول الأمل ليكون ختام المسك لهذا البحث، قال رحمه الله :

« كم قد خطر على قلب يهودي ونصراني حب الإسلام ، فلا يزال إبليس يثبطه ويقول له : لا تعجل وتمهل في النظر ، فيسوفه حتى يموت على كفره ، وكذلك يسوف العاصي بالتوبة فيجعل له غرضه من الشهوات ويمنيه

الإنابـة، كما قال الشاعر :

لا تعجـل الذنـب لما تشتـهي وتأمـل التـوبـة من قـابـل

وكم من عـازم على الجد سوفه ، وكم من ساع إلى فضيلة ثبطه ، فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه ، فقال : استرح ساعة . أو انتبه العابد في الليل يصلي ، فقال له : عليك وقت .

ولا يزال يحبب الكسل ،ويسوف العمل ، ويسند الأمر إلى طول الأمل فينبغي للحازم أن يعمل على الحزم ؛ والحزم تدارك الوقت وترك التسوف والإعراض عن الأمل، فإن المخوف لا يؤمن ، والفوات لا يبعث ، وسبب كل تقصير في خير أو ميل إلى شر طول الأمل . فإن الإنسان لا يزال يحدث نفسه بالنزوع عن الشر والإقبال على الخير إلا أنه يعد نفسه بذلك .

ولا ريب أنه من أمل أن يمشي بالنهـار سـار سيـراً فـاتراً ، ومن أمل أن يصبح عـمل في الليل عملاً ضعيفاً ، ومن صور الموت عـاجلاً جَدَّ، وقد قال ﷺ : «صل صلاة مودع »[1] ، وقال بعض السلف : أنذركم (سوف) فإنها أكبر جنود إبليس .

ومـثل العـامل على الحزم والسـاكن لطول الأمل كـمثل قوم في سفـر فدخلوا قرية فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره وجلس متأهباً للرحيل ، وقال المفرط : سأتأهب فربما أقمنا شهراً ، فضرب بوق الرحيل في الحال، فـاغتبط المحترز ، واعتبط الأسف المفرط ؛ فـهذا مثل الناس في

(١) رواه أحمد (٥/ ٤١٢)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٧٧٦ .

الدنيا ؛ منهم المستعد المستيقظ ، فإذا جاء ملك الموت لم يندم ، ومنهم المغرور المسوف يتجرع مرير الندم وقت الرحلة .

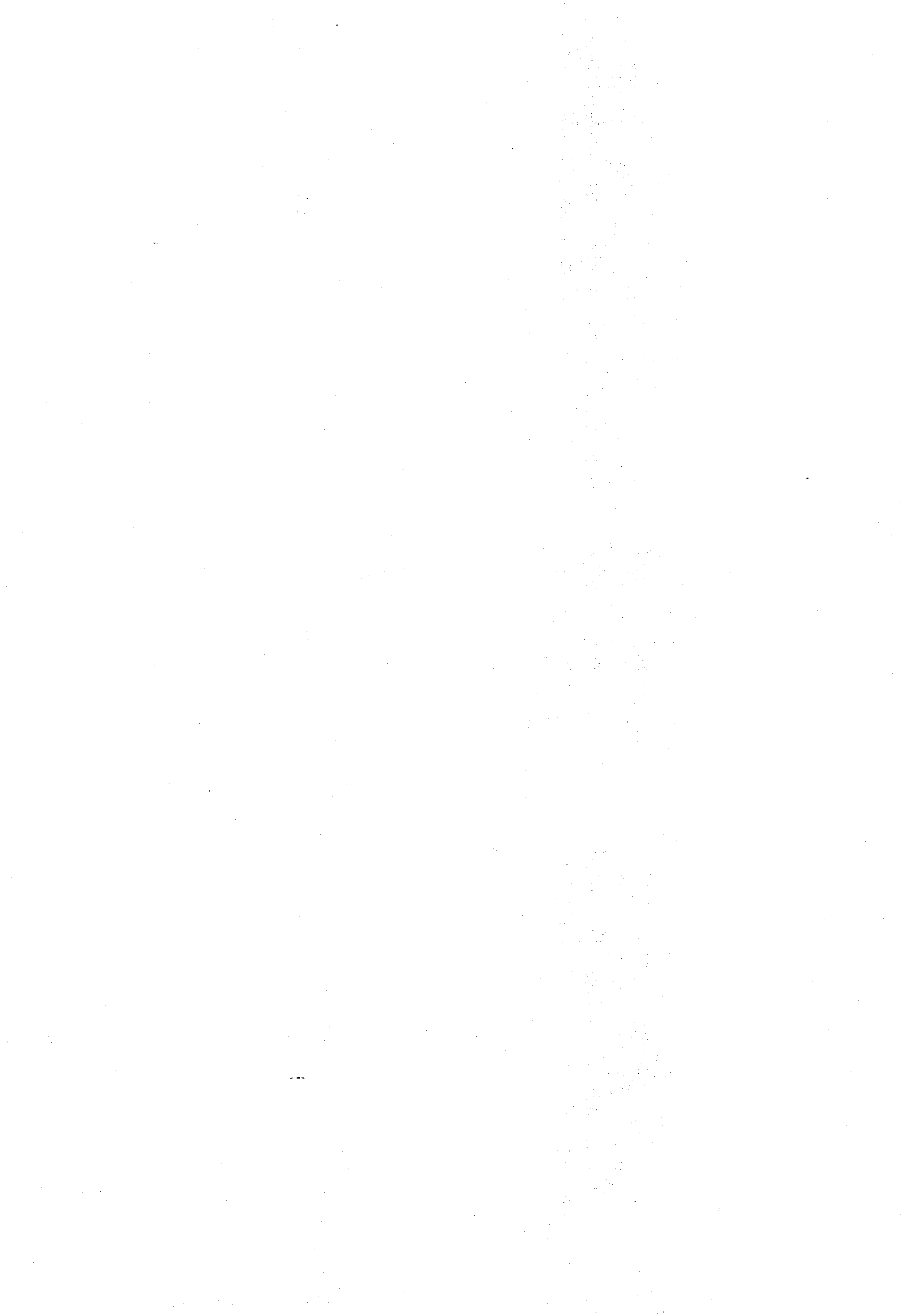
فإذا كان في الطبع حب التواني وطول الأمل ، ثم جاء إبليس يحث على العمل بمقتضى ما في الطبع صعبت المجاهدة ، إلا أنه من انتبه لنفسه علم أنه في صف حرب ، وأن عدوه لا يفتر عنه ؛ فإن فتر في الظاهر بطن له مكيدة ، وأقام له كميناً ، ونحن نسأل الله عز وجل السلامة من كيد العدو وفتن الشيطان وشر النفوس والدنيا ، إنه قريب مجيب ، جعلنا الله من أولئك المؤمنين »[1] اهـ .

وأخيراً أسأل الله عز وجل أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه ، ولا يجعله ملتبساً علينا فنضل ، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

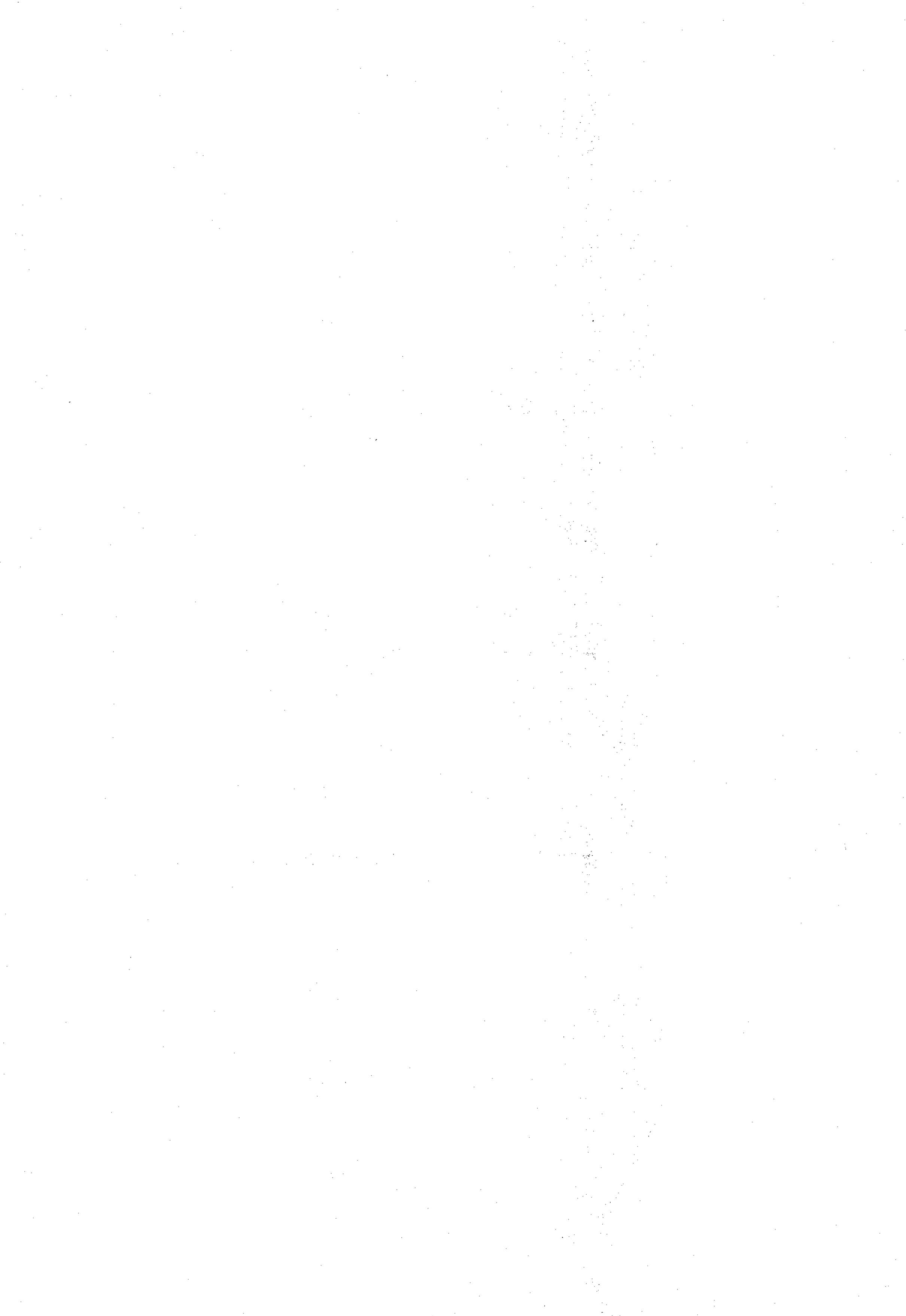
* * *

---

(١) تلبيس إبليس ص٤٥٢ ، ٤٥٣ .




فهرس الجزء الأول



الرسالة الأولى

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾

الرسالة الثانية

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾

الرسالة الثالثة

﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾

الرسالة الرابعة

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

الرسالة الخامسة

﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾

الرسالة السادسة
﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

الرسالة السابعة
﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾



لأعمال الكمبيوتر

دمنهور ـ خلف مستشفى الرمد

☎ ٣٢٠٣٣١ / ٠٤٥